كرسي القرآن الكريم وعلومه
Chair of Qur'anic Sciences
الإصدار الحادي والعشرون

إعجاز القرآن الكريم

عند ابن القيم

تأليف
حسن بن عواد بن بلال العوفي
الجامعة الإسلامية كلية القرآن الكريم

كرسي القرآن الكريم وعلومه
جامعة الملك سعود

مختفس السعر

ح كرسي القرآن الكريم وعلومه بجامعة الملك سعود، ١٤٣٦هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العوفي، حسن عواد بلال
إعجاز القرآن الكريم عند ابن القيم. / حسن عواد بلال العوفي.- الرياض، ١٤٣٦هـ
٥٣٦ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٣ ـ ٠ ـ ٩٠٦٢١ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، ت٧٥١هـ
٢ ـ القرآن ـ إعجاز أ. العنوان
ديوي ٢٢٩,٩ ١٤٣٦/١٠٣٢

جميع حقوق الطبع محفوظة
لكرسي القرآن الكريم وعلومه
جامعة الملك سعود

الطبعة الأولى
١٤٣٦هـ

يهتم الكرسي بنشر البحوث المتميزة والجادة
في التفسير وعلومه تحقيقًا ودراسة

جامعة الملك سعود - كلية التربية
هاتف: ٠٠٩٦٦١١٤٦٧٤٧٤٤ - ص.ب. ٢٤٢١٩٩ الرياض ١١٣٢٢
بريد إلكتروني: quranchair@ksu.edu.sa - الموقع: http://c.ksu.edu.sa/quranchair
تويتر: @quranchair

منافذ البيع
الرياض: ٤٤٥٦٢٢٩ / ٠١١ - مكة المكرمة: ٠١٢/٥٧٦١٣٧٧ - المدينة النبوية: ٠١٤/٨٤٦٧٩٩٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةُ كرسِيِّ القُرْآنِ الكَرِيمِ وَعُلُومِهِ

للعلّامة شمس الدين محمد بن أبي بكر الزُّرعيّ الدمشقي المشهورِ بابن القيم (ت٧٥١هـ) مكانةٌ كبيرةٌ بين علماء الإسلام، وهو ذو قلمٍ سَيَّالٍ، وذهنٍ وقّادٍ، ومشاركة في فهم القرآن بارعة، وقد كتب الباحثون المعاصرون الكثير من البحوث والدراسات التي تناولت جهودَه في التفسير وعلوم القرآن وقواعد التفسير وغيرها، ويأتي هذا البحثُ الذي بين يديك أخي القارئ الكريم بعنوان: (**إعجاز القرآن عند ابن القيم**) للباحث حسن بن عواد العوفي ليسلط الضوء على جهود ابن القيم وكلامه عن إعجاز القرآن، وهذا الباب من أروع ما تكلم فيه ابن القيم حول القرآن الكريم؛ حيث إن له فيه آراءً جليلة دقيقة عميقة، أظهَرَ من خلالها عظمة القرآن، وعظمة المتكلم به سبحانه وتعالى، وكلامه في الإعجاز نفيسٌ جدًا؛ لسلامة معتقده، ودقة فهمه، وحسن عبارته.

وقد وُفِّقَ الباحث في جمع كلامه في إعجاز القرآن من مؤلفاته، وترتيبه ترتيبًا منطقيًا في أبواب وفصول ومباحث أتت على مسائل هذا العلم التي تعرض لها بالدراسة والبحث، كما استطاع أن يتتبع آراء ابن القيم في أوجُه إعجاز القرآن والوجه الذي وقع به التحدي، مع بيان

مصادر ابن القيم العلمية التي اعتمد عليها في دراسته لإعجاز القرآن.

وهذه المادة التي بين يديك أخي القارئ مِن أفضل ما تقرأ في معالجة مسائل إعجاز القرآن بأقلامِ علماء السُّنَّة الكرام، وأرجو أن يكون في نشر هذه الرسالة عن طريق كرسي القرآن الكريم وعلومه بجامعة الملك سعود إضافةٌ علمية للمكتبة القرآنية المعاصرة في باب إعجاز القرآن وبحث أسراره البلاغية.

أ د. عبدُالرحمن بن مُعاضة الشهري

المشرف على الكرسي

المُقَدِّمَة

الحمد لله ربِّ العالمين، أنزل خير كتبه على خير رسله، بلسان عربي مبين، والصلاة والسلام على خير البريَّة وأزكى البشريَّة، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى أثره إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

إنَّ من تمام نعمة الله على عباده أن أرسل إليهم الرسل، ليهتدوا بهم إلى الصراط المستقيم، وإلى الطريق القويم، وأيَّدهم بالحجج والأدلَّة، حجج ساطعة، وأدلة قاطعة، وجعل تلك الأدلة مناسبة لما يعرفه أولئك القوم، وما هو مشهور عندهم، وما برعوا فيه، لكي تقوم عليهم الحجة، وتنقطع منهم المحجة، فلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

ولقد كانت أكثر معجزات الأنبياء السابقين معجزات حسيَّة، تدرك بالمشاهدة، وتعرف بالنقل والتواتر، وانتهت تلك المعجزات بذهاب أولئك الأنبياء؛ ولما بعث الله محمدًا ﷺ بخاتم الرسالات، وكانت رسالته عامةً إلى الثقلين جميعًا، الإنسِ والجنِّ، والعربِ والعجمِ، جاءت هذه الرسالة مناسبةً لعموم دعوته، ومميَّزة بخصائص تضمن لها البقاء والخلود؛ فكانت معجزة القرآن التي نزلت متحدية أفصح قوم، وأبلغ بشر، فوقفوا مع ما عندهم من فصاحة وبيان، عاجزين منقطعين، لا يستطيعون سبيلًا إلى المعارضة والمجاراة.

والمتأمل في هذه المعجزة؛ يجد أنها اشتملت على علوم ومعارف ليست من قبيل كلام البشر، وأن أي إنسان لا يمكنه أن يأتي بمثل جزء من هذا القرآن، مهما أوتي من قدرات ذهنية، وخيالات عقلية، ومن تمام رحمة الله وحكمته ﷻ، أنَّه أنزل هذا الكتاب بتلك الخصائص؛ ليبقى معجزةً خالدة لا تندرس، فلما انقطعت النبوات، وختمت الرسالات، جعل الله ﷻ هذا الكتاب هاديًا إلى طريق الرسل وصراطهم، مشتملًا على دعوتهم وما جاؤوا به.

ولقد أدرك العرب الذين نزل عليهم القرآن إعجازه لأوَّل وهلة، ولم يكن الأمر عسيرًا عليهم، كيف وهم أهل الفصاحة، وأهل اللسن والبلاغة، فلمَّا دخل الناس في دين الله أفواجًا، وفتحت البلدان، واختلط العرب بالعجم؛ ضعفت سليقة أهل العربية، واحتاج الناس في معرفة أسرار القرآن وفهم معانيه إلى الرجوع إلى كلام العرب، ومعرفة أوضاعه وأساليبه، فألفت كتب اللغة، وكتب التفسير وعلوم القرآن، التي تبحث معاني هذا الكتاب العظيم، وتوضِّح أحكامه، وتبيِّن أسراره.

ومن بين تلك العلوم علم إعجاز القرآن، الذي بدأت قضاياه تظهر في أوائل القرن الثالث الهجري؛ حين ادَّعى بعض المعتزلة أنَّ العرب كان بمقدورهم الإتيان بمثل هذا القرآن في فصاحته وبلاغته، لكنَّ الله صرفهم عن ذلك؛ فانبرى علماء الأمة لصدِّ هذه الشبهة، وبيان أوجه الإعجاز الصحيحة، وبدأ البحث في أسرار نظم القرآن، ودقائق معانيه، وما اشتمل عليه من علوم ومعارف، وأحكام وحكم، بيد أن العلماء الذين تكلموا في هذا العلم كان بعضهم أصحاب نحل مختلفة، ومعتقدات فاسدة، فبحثوا هذا العلم متأثرين بتلك المعتقدات، وربما حمله هذا التأثر إلى التقصير في بيان أوجه إعجاز القرآن.

فجاء جمع من علماء السُّنَّة، فتتبعوا تلك الأخطاء، وصححوا ما طرأ على هذا العلم من فهم خاطئ، وبيَّنوا إعجاز القرآن بمنهجٍ سليم، وفهمٍ صحيحٍ، ومن أبرز أولئك العلماء، الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ، فله في هذا العلم آراءٌ جليلةٌ، وتحقيقاتٌ دقيقةٌ لطيفةٌ؛ أظهر من خلالها عظمة هذه المعجزة، وعظمة المتكلم بها ﷻ، وكلامه في هذا الباب نفيس جدًّا؛ لما اتسم به بحثه من حسن الاستنباط، ودقة الفهم، وسلامة المعتقد.

وقد اشتملت كتب الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ على جمع من مسائل علم إعجاز القرآن وبلاغته، فمن ضمن ما بحثه ـ من مسائل هذا العلم في كتبه ـ رَحِمَهُ اللَّهُ: أدلة حجية القرآن، وشمولية إعجازه، وبحث الإعجاز التشريعي، والإعجاز الخبري، والإعجاز العلمي، والإعجاز في الأدلة العقلية، والإعجاز اللغوي؛ وبحث مسائله، والإعجاز الأسلوبي؛ وأطنب فيه... وغير ذلك من مسائل هذا العلم؛ وقد كانت دراسة ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ لها وفق ما عهد عنه، من عمق الدراسة، ودقة التحقيق والنظر، وانتخاب الأقوال الصحيحة.

ولا يخفى حاجة الناس إلى آراء العلماء المحققين، الذين شهدت لهم الأمة بالعلم والفضل؛ ولا سيما في المسائل التي تأخر بحثها عن العصور الأولى للعلوم الإسلامية؛ كالإعجاز التشريعي، والإعجاز العلمي، وغير ذلك. فإبراز رأيهم في هذه المسائل مهم جدًّا؛ فكان هذا هو الباعث لجمع كلام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا العلم، وتتبع آرائه من خلال مؤلفاته، وإبراز بحثه لهذه القضية، وإظهار ما تميز به رَحِمَهُ اللَّهُ في دراسته لإعجاز القرآن.

فتقدمتُ إلى قسم التفسير وعلوم القرآن، لبحث هذا العلم، عند هذا العالم الفذ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ رحمة واسعة ـ؛ **وكان عنوان الدراسة:**

«إعجاز القرآن الكريم عند ابن القيِّم «ت٧٥١هـ» عرضًا ودراسة»

أهمية الموضوع وأسباب اختياره

لاختيار هذا الموضوع أسباب متعددة أهمها:

١ ـ صلته بالقرآن الكريم، وشرف العلم يكون بشرف المعلوم، ومن أشرف العلوم ما يبين ويظهر فضل كتاب الله تعالى على غيره.

٢ ـ إظهار جهود علماء أهل السُّنَّة المحققين الذين أجمعت الأمة على سلامة معتقدهم، في هذا الباب، لكثرة من غلط فيه أو جانب الصواب من الطوائف أو الأفراد.

٣ ـ أنّ ابن القيِّم من العلماء الذين اهتموا بعلوم القرآن، وله فيها كلام نافع وإشارات لطيفة، يناقش آراء من سبقه ويرد على من أخطأ من أهل الطوائف الفاسدة.

٤ ـ أنّ ابن القيِّم من العلماء الذين اشتهروا ببيان أوجه تأثير القرآن، ومخاطبته للقلوب، باعتباره وجه من أوجه الإعجاز. وله في ذلك أسلوب جميل، ولا يخفى شدة حاجة الناس إلى ذلك.

٥ ـ الوقوف على أقوال العلماء في هذا الباب المهم، ومعرفة جهودهم فيه.

٦ ـ تقوية ملكة الفهم لدى الباحث، وحسن الاختيار، والبناء الجيد.

الدراسات السابقة
حول جهود ابن القيِّم في علوم القرآن

من خلال البحث عن الدراسات السابقة في إعجاز القرآن عند ابن القيِّم لم أجد ـ فيما طالعت ـ من كتب في هذا الموضوع عند ابن القيِّم، **ولكن أشير إلى الدراسات التي تناولت جانبًا من جوانب التي لها صلة بالإعجاز عند ابن القيِّم:**

١ ـ «ابن القيِّم وحسه البلاغي في تفسير القرآن» لعبد الفتاح لاشين. بحث منشور عام ١٤٠٢هـ.

هذا البحث مختص بجانب البلاغة القرآنية عند ابن القيِّم، وقد سلط الضوء على جهود ابن القيِّم في جملة من جوانب البلاغة القرآنية، وهذا البحث يتفق في مسماه مع فصل من فصول بحث «إعجاز القرآن عند ابن القيِّم»، إلا أني استدركت بعض ما فات الدكتور لاشين، وحاولت التوسع في دراسة الجوانب البلاغية عند ابن القيِّم، فقد قسمت الدراسة البلاغية على الثلاثة العلوم: علم المعاني، والبيان، والبديع. ثم أضفت فصلًا: في دراسة الإعجاز في الألفاظ القرآنية، وفصلًا في دراسة الأساليب القرآنية، وكلا الفصلين متضمن بعض الجوانب البلاغية ودراسة ابن القيِّم لها.

أما الدكتور عبد الفتاح لاشين فقد اهتم بجانب علم المعاني عند ابن القيِّم، واختص بجانب البلاغة القرآنية ولم يتجاوز إلى سائر أنواع

الإعجاز، حيث إن البحث مقصورٌ على البلاغة. ومع هذا فإنه بحث جليل، ويعد ما كتبت في جانب الإعجاز البلاغي امتدادًا لما كتبه الدكتور لاشين، وقد أفدت من بحثه جزاه الله خيرًا.

٢ ـ «ابن قيِّم الجوزية. جهوده في الدرس اللغوي»، للدكتور: طاهر سليمان حمودة.

هذا البحث درس جهود ابن القيِّم من حيث تطبيقاته اللغوية، المتعلقة بأصول اللغة، وما يتعلق بدلالة الألفاظ. وليس ثَمَّ ارتباط بين هذا البحث وبين جوانب الإعجاز عند ابن القيِّم.

❁ ❁ ❁

خطة البحث

جعلت البحث في مقدمة، وتمهيد، وثلاثة أبواب، وخاتمة وفهارس.

المقدمة: وتشتمل على:

أهمية الموضوع وأسباب اختياره، والدراسات السابقة، وخطة البحث، ومنهج البحث.

التمهيد: نبذة عن إعجاز القرآن الكريم وحياة ابن القيِّم.

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: نبذة عن إعجاز القرآن الكريم.

ويشتمل على خمسة مطالب:

المطلب الأول: تعريف المعجزة لغة واصطلاحًا.

المطلب الثاني: دلائل صدق المعجزة.

المطلب الثالث: معجزات الأنبياء السابقين والفرق بينها وبين القرآن الكريم.

المطلب الرابع: نظرة العرب للقرآن من خلال إعجازه وبلاغته.

المطلب الخامس: نشأة علم إعجاز القرآن، وتعريفه، ومراحل تطوره وأشهر المؤلفات فيه.

المبحث الثاني: نبذة عن حياة ابن القيِّم وجهوده العلمية.

ويشتمل على خمسة مطالب:

المطلب الأول: اسمه، ولقبه، ونسبه، ومولده، ووفاته.

المطلب الثاني: أسرته، وحياته الاجتماعية.

المطلب الثالث: نشأته العلمية، ورحلاته، وشيوخه وتلاميذه، وثناء العلماء عليه.

المطلب الرابع: عقيدته، ومذهبه الفقهي.

المطلب الخامس: مؤلفات ابن القيِّم، ومكانته العلمية.

الباب الأول: مصادر الإعجاز عند ابن القيِّم ومنهجه في الاستدلال عليه:

ويشتمل على فصلين:

الفصل الأول: مصادره في إعجاز القرآن.

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: مصادر ابن القيِّم في إعجاز القرآن من النصوص الشرعية.

المبحث الثاني: مصادر ابن القيِّم في إعجاز القرآن من اللغة العربية.

الفصل الثاني: منهجه في الاستدلال على إعجاز القرآن الكريم.

ويشتمل على أربعة مباحث:

المبحث الأول: نظر ابن القيِّم في القرائن والأحوال.

المبحث الثاني: نظر ابن القيِّم في الأحكام والحكم.

المبحث الثالث: تحليل ابن القيِّم النص لغويًا.

المبحث الرابع: دراسة ابن القيِّم الأساليب القرآنية.

الباب الثاني: دلائل وأوجه إعجاز القرآن الكريم عند ابن القيِّم.

ويشتمل على خمسة فصول:

الفصل الأول: دلائل إعجاز القرآن الكريم عند ابن القيِّم.

ويشتمل على أربعة مباحث:

المبحث الأول: القرآن آية صدق النبي محمد ﷺ.

المبحث الثاني: التحدي بالقرآن.

المبحث الثالث: تأثير القرآن في النفوس.

المبحث الرابع: جمع القرآن لعلوم الكتب السابقة.

الفصل الثاني: أوجه الإعجاز العامة التي تكلم عليها ابن القيِّم.

ويشتمل على خمسة مباحث:

المبحث الأول: الإعجاز التشريعي.

المبحث الثاني: الإعجاز الخبري.

المبحث الثالث: الإعجاز العلمي والكوني.

المبحث الرابع: الإعجاز العقلي.

المبحث الخامس: الإعجاز اللغوي.

الفصل الثالث: الإعجاز البلاغي عند ابن القيِّم.

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الإعجاز في المعاني.

المبحث الثاني: الإعجاز في البيان.

المبحث الثالث: الإعجاز في البديع.

الفصل الرابع: الإعجاز اللفظي عند ابن القيِّم.

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: فصاحة الألفاظ وأثرها في الإعجاز.

المبحث الثاني: جزالة الألفاظ وعذوبتها وأثرها في الإعجاز.

المبحث الثالث: ائتلاف الألفاظ مع المعاني وأثره في الإعجاز.

الفصل الخامس: الإعجاز الأسلوبي.

ويشتمل على خمسة مباحث:

المبحث الأول: الإعجاز في أسلوب الأمثال في القرآن.

المبحث الثاني: الإعجاز في أسلوب القسم في القرآن.

المبحث الثالث: الإعجاز في أسلوب القصص القرآنية.

المبحث الرابع: الإعجاز في أسلوب الجدل في القرآن.

المبحث الخامس: الإعجاز في أسلوب الترغيب والترهيب في القرآن.

الباب الثالث: ابن القيِّم بين التأثر والتأثير وموقفه من المخالفين في مسائل إعجاز القرآن الكريم.

ويشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: تأثر ابن القيِّم في مسائل الإعجاز بالعلماء السابقين.

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: تأثر ابن القيِّم في مسائل الإعجاز بالمفسرين.

المبحث الثاني: تأثر ابن القيِّم في مسائل الإعجاز بأهل اللغة.

الفصل الثاني: تأثير ابن القيِّم في مسائل الإعجاز على العلماء بعده.

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تأثير ابن القيِّم على المؤلفين في التفسير.

المبحث الثاني: تأثير ابن القيِّم على المؤلفين في علوم اللغة.

المبحث الثالث: تأثير ابن القيِّم على المؤلفين في علوم القرآن.

الفصل الثالث: **رد ابن القيِّم على المخالفين في الإعجاز**

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: رد ابن القيِّم على المتكلمين المخالفين في مسائل الإعجاز.

المبحث الثاني: رد ابن القيِّم على القائلين بالصرفة وجهًا للإعجاز.

المبحث الثالث: رد ابن القيِّم على أهل اللغة المخالفين في الإعجاز.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات.

الفهارس[1]: **وتشتمل على:**

١ ـ فهرس المصادر، والمراجع.

٢ ـ فهرس الموضوعات.

❊ ❊ ❊

---

(١) وقد اكتفيت بوضع فهرس للمصادر والمراجع وفهرس للموضوعات وذلك للاختصار.

منهج البحث

١ ـ جرد مصنفات الإمام ابن القيِّم المطبوعة، وتحديد مواضع كلامه على مسائل الإعجاز.

٢ ـ ترتيب كلام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ على عناصر الخطة، وأربط بينه وبين كلام العلماء، وأذكره حسب ترتيبهم لتلك المسائل.

٣ ـ إبراز رأي ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ ونتيجة بحثه للمسألة، أو تقريره لها.

٤ ـ إبراز ما ابتكره الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ ولم يسبق إليه من مسائل إعجاز القرآن.

٥ ـ في جانب الدراسة أتبع المنهج الوصفي التحليلي للمسائل المذكورة؛ حتى أعطي صورة موجزة عنها، مع الإشارة إلى مصادرها في الحاشية.

٦ ـ مقارنة كلام الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ بكلام العلماء السابقين عليه في تلك المسائل، فإن وافقهم اكتفيت بالإشارة إلى ذلك في الحاشية، وإن خالفهم أو كان له إضافة في المسألة بينت ذلك في صلب البحث.

٧ ـ إذا تعددت نصوص الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في المسألة الواحدة؛ أكتفي منها بالأقرب لتقرير المسألة، وأشير إلى بقية المواضع في الحاشية.

٨ ـ محاولة بيان أصول المسائل التي تحدث عنها الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ، وعلاقتها بالإعجاز في مقدمة كل مبحث بإيجاز؛ حتى ترتبط المعلومة، ويسهل تسلسلها في ذهن القارئ قدر جهدي.

وسأتبع في كتابتي لهذا الموضوع ـ بإذن الله ـ المنهج التالي:

١ ـ كتابة الآيات القرآنية بالرسم العثماني، وعزوها بذكر اسم السورة ورقم الآية وذلك في المتن.

٢ ـ عزو الأحاديث والآثار وذلك إلى مصادرها، فإن كانت في الصحيحين أو أحدهما أكتفي بالعزو إليهما، وإن كانت في غيرهما فأعزوه إلى كتب السُّنَّة مع نقل كلام أهل العلم في بيان درجته.

٣ ـ توثق الشواهد الشعرية، ونسبتها إلى قائليها.

٤ ـ الترجمة الموجزة للأعلام غير المشهورين.

٥ ـ الالتزام بعلامات الترقيم، وضبط ما يحتاج إلى ضبط.

٦ ـ التعريف بالمصطلحات العلمية.

٧ ـ شرح الكلمات الغريبة.

٨ ـ التعريف الموجز بالأماكن والبقاع والبلدان، وكل ما يحتاج إلى تعريف.

تذييل البحث بفهارس علمية على النحو المبين في الخطة.

وفي الختام أشكر الله ﷻ على ما يسَّر وأعان من إتمام هذا البحث، فله الحمد أولًا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا.

ثم أشكر والدي الكريمين، اللذين رعياني ووجهاني لطلب العلم، ويسَّرا لي كل السبل لذلك، أسأل الله أن يجزيهما عني خير الجزاء.

كما أشكر زوجتي الكريمة على ما هيأت من أسباب معينة على البحث والدراسة، وما تحملت من أعباء أثناء فترة الدراسة، أجزل الله لها المثوبة والأجر.

ثم أشكر الجامعة الإسلامية التي كان لي شرف الانتماء إليها،

وتلقي العلم الشرعي من منهلها الصافي، كما أشكر كلية القرآن التي أتاحت لي مواصلة الدراسة فيها، وأخص بالشكر قسمَ التفسير وعلوم القرآن، ممثلًا برئيسه وأعضائه، وأخص بالشكر منهم شيخنا الفاضل الأستاذ الدكتور: محمد بن عبد العزيز العواجي. الذي كان له فضل رعاية هذا البحث والإشراف عليه فكان بحق نعم المعين والناصح، لم يألُ جهدًا في توجيهي وإرشادي، ولم يبخل بوقته ولا بعلمه، بل كان يحيطني بسعة صدره وصبره وحلمه، فله مني الشكر والعرفان. وأسأل الله أن يجزيه عني خير الجزاء.

كما لا يفوتني أن أشكر كل من أمدني بالمعونة، وآزرني حتى تم هذا البحث بفضل الله ومنّته.

وأتقدم بالشكر الجزيل للأستاذين الفاضلين، الذين تفضلا بمناقشة الرسالة، وبإبداء توجيهاتهم وملحوظاتهم عليها، فضيلة الأستاذ الدكتور: ملفي بن ناعم الصاعدي، وفضيلة الدكتور: أحمد بن علي السديس، وأسأل الله أن يعظم لهما الأجر والمثوبة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين، وصلّى اللَّهُمَّ وسلم على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

التَّمْهِيدُ

ويشتمل على مبحثين:

- المبحث الأول: نبذة عن إعجاز القرآن الكريم.
- المبحث الثاني: نبذة عن حياة ابن القيِّم وجهوده العلمية.

المَبْحَثُ الأَوَّلُ
نبذة عن إعجاز القرآن الكريم

ويشتمل على خمسة مطالب:

- المطلب الأول: تعريف المعجزة لغة واصطلاحًا.
- المطلب الثاني: دلائل صدق المعجزة.
- المطلب الثالث: معجزات الأنبياء السابقين والفرق بينها وبين القرآن الكريم.
- المطلب الرابع: نظرة العرب للقرآن من خلال إعجازه وبلاغته.
- المطلب الخامس: نشأة علم إعجاز القرآن، وتعريفه، ومراحل تطوره وأشهر المؤلفات فيه.

* * *

المَطْلَبُ الأَوَّلُ
تعريف المعجزة لغة واصطلاحًا

المعجزة: مأخوذة من العجز عن الشيء، والضعف عنه.

يقال: «عَجَزَ عن الشيء يَعجَزُ عجزًا، فهو عاجز؛ أي: ضعيف»[(١)].

(١) مقاييس اللغة (٤/ ٢٣٢).

ويقال: «عَجَزَ يَعجِزُ عن الأمر: إذا قصر عنه»(١).

وتقول: أعجَزني فلان، إذا عجِزت عن طلبه وإدراكه. وأعجزه: صيَّره عاجزًا؛ أي: عن إدراكه واللحوق به. والتعجيز: النسبة إلى العجز، ويقال: عجَّز فلان رأي فلان، إذا نسبه إلى العجز.

ومعجزة النبي: ما أعجز به الخصم عند التحدي، والهاء للمبالغة(٢). وفي الحقيقة المعجز هو فاعل العجز في غيره، وهو الله ﷻ(٣).

والمعجزة في الاصطلاح: «أمر خارق للعادة. داعية إلى الخير والسعادة، مقرونة بدعوى النبوة، قصد به إظهار صدق من ادعى أنه رسول من الله»(٤).

المطلب الثاني

دلائل صدق المعجزة

١ ـ **أن تتقدم النبوة علامات تدل عليها، منها**: حال النبي قبل مبعثه، والإرهاصات التي تحصل قبل مولده، وكذلك أن تستمر دلائل نبوته بعد مماته، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله(٥): «وآيات النبوة

(١) لسان العرب (٤/ ٢٨١٧).

(٢) **انظر**: تاج العروس (١٥/ ٢١١).

(٣) **انظر**: الكليات (ص١٤٩).

(٤) التعريفات (ص١٨٤).

(٥) أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله، الحراني، ثم الدمشقي، وتيمية جده الأعلى، الإمام الفقيه، المجتهد المحدث، الحافظ المفسر، الأصولي الزاهد. تقي الدين أبو العباس، شيخ الإسلام وعلم الأعلام، وشهرته تغني عن الإطناب في ذكره. تأهل للفتوى والتدريس وهو دون العشرين سنة. وأفتى من قبل العشرين أيضًا. له تصانيف كثيرة جدًا، انتفعت الأمة بها، منها: «الجواب الصحيح في من بدّل دين المسيح» و«درء تعارض العقل والنقل» و«منهاج السُّنَّة» و«الفرقان بين أولياء الله وأولياء الشيطان» و«مجموع رسائل» وغيرها. توفي سنة ٧٢٨هـ. **انظر**: الدرر الكامنة (١/ ١٦٨)، ذيل طبقات الحنابلة (٤/ ٤٩١).

وبراهينها تكون في حياة الرسول وقبيل مولده، وبعد مماته، لا تختص بحياته فضلًا عن أن تختص بحال دعوى النبوة أو حال التحدي. . .، بل لا بد من آيات في حياته تدل على صدقه تقوم بها الحجة، وتظهر بها المحجة»(١).

٢ - **نصرة النبي وإعلاء دينه، وظهور أمره**، أو أن يهلك الله قومه إن كذبوا بدعوته، كما جرى للأمم السابقة، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «ومن آيات الأنبياء إهلاك الله لمكذبيهم، ونصره للمؤمنين بهم، فهذا من أعلام نبوتهم، ودلائل صدقهم»(٢).

٣ - **أن تكون الآية التي جاء بها النبي مما يختص به الأنبياء**، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «لا بد أن تكون الآية التي للنبي أمرًا مختصًا بالأنبياء؛ فإنَّ الدليل مستلزمٌ للمدلول عليه. فآية النبي هي دليل صدقه، وعلامة صدقه، وبرهان صدقه، فلا توجد قط إلا مستلزم لصدقه»(٣)(٤).

المَطلَبُ الثَّالِثُ

معجزات الأنبياء السابقين
والفرق بينها وبين معجزة القرآن

من نعمة الله على عباده أن أرسل إليهم الرسل، لينذروهم ويبيِّنوا لهم طريق الرشاد والفلاح، ومن نعمته أن ميَّز أولئك الرسل بأن جعل لهم حججًا يدرك البشر من خلالها أنهم رسل الله حقًّا، فأجرى على

---

(١) الجواب الصحيح (٦/ ٤٠٨) «باختصار».

(٢) المصدر السابق (٦/ ٣٨٧).

(٣) النبوات (١/ ٤٩١).

(٤) ذكر علماء الأشاعرة والمعتزلة شروطًا للمعجزة، وتتبعها شيخ الإسلام ﵀ وبيَّن أنها لا تصح أن تكون شروطًا للمعجزة، وبيَّن سبب ذلك بالتفصيل. راجع: الجواب الصحيح (٦/ ٣٩٣)، النبوات (١/ ٤٨٠).

أيديهم من الآيات ما يدل على صدقهم وصدق ما جاؤوا به. وكانت المعجزات تأتي بما يناسب كل قوم، وبما يعرفونه وما برعوا فيه لتكون الحجة أظهر وأوضح.

فلما انتشرت الفلسفة والجدل والمحاجة العقلية؛ بعث الله إبراهيم عليه السلام، مؤيدًا بحجج من عنده تعالى، فقد كان قومه يعبدون الأوثان، ويعبدون الشمس والقمر والكواكب، فأرشدهم إلى أن الإله الحق؛ هو الله الخالق لهذا الكون، وليس تلك الكواكب التي تأفل، وتغيب، وينطفئ ضوءها[1]، قال تعالى - حكاية عن إبراهيم -: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٧٦ - ٨١].

ثم إنَّ أولئك القوم لما تمادوا في كفرهم، وأرادوا الكيد لإبراهيم؛ أراهم الله عز وجل آية تدحض ما تستحيله عقولهم، من ذهاب مادة النار وسلب طبيعتها، فلما قذفوا به في النار سلب الله عز وجل طبيعتها، فخرج منها يمشي لم يضره شيء قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٩ - ٧٠] تلك هي بعض آيات إبراهيم التي أوتيها[2].

ولما انتشر السحر، وبرع الناس فيه بعث الله موسى عليه السلام إلى أولئك القوم فحصل الامتحان العظيم، أمام الملأ، فلما جمع فرعون السحرة، ووعدهم بما وعدهم، ألقى موسى عصاه فأبطلت سحر البطلة، فثبت الحق وزهق ما كانوا يعملون، وغلب السحرة وانقلبوا صاغرين يقول الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٥٦٦).

(٢) راجع: البداية والنهاية (١/ ٣٣٠).

نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء: ٤١ ـ ٤٨][(١)].

ثم بعث الله ﷻ بعد ذلك عيسى عليه السلام إلى قوم برعوا في الطب وذهبوا فيه كل مذهب، فأرسله الله ﷻ بآية عظيمة مناسبة لما يعرفونه وما يتقنونه يقول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠][(٢)].

يلاحظ أن معجزات الأنبياء قبل محمد ﷺ أكثرها حسيَّة تدرك بالحس. وتنتهي عند المشاهدة والنقل بالرواية عمن عاينها.

لكن معجزة القرآن عقلية تدرك بالعقل، باقية يشاهدها كل أحد ما بقيت، وهذه خصيصة خصَّ الله تعالى بها أمة محمد ﷺ يقول السيوطي[(٣)] رحمه الله ـ أثناء حديثه عن المعجزة ـ: «وهي إما حسية، وإما عقلية، وأكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسية؛ لبلادتهم، وقلة

(١) راجع: البداية والنهاية (٢/ ٣١). (٢) راجع: المصدر السابق (٢/ ٤٦٦).

(٣) عبد الرحمٰن بن أبي بكر بن محمد بن أبي بكر بن عمر الجلال الأسيوطي، ولد سنة ٨٤٩هـ. جمع الفنون وفاق الأقران، وصنف التصانيف المفيدة، في الحديث والتفسير وعلوم القرآن، منها: «الدر المنثور»، و«الإتقان في علوم القرآن»، و«معترك الأقران في إعجاز القرآن» وغيرها. وتصانيفه في كل فن من الفنون مقبولة، قد سارت في الأقطار. توفي سنة ٩١١هـ. انظر: البدر الطالع (١/ ٣٢٨)، الأعلام (٣/ ٣٠١).

بصيرتهم، وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية؛ لفرط ذكائهم، وكمال أفهامهم، ولأن هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة، خصت بالمعجزة العقلية الباقية ليراها ذوو البصائر، كما قال ﷺ: **(مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ أومِنَ، أَوْ آمَنَ، عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنِّي أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا)**. أخرجه البخاري[١].

قيل: معناه أن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم، فلم يشاهدها إلا من حضرها، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة، وخرقه العادة في أسلوبه وبلاغته، وإخباره بالمغيبات، فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون، يدل على صحة دعواه.

وقيل: المعنى أن المعجزات الماضية كانت حسية تشاهد بالأبصار: كناقة صالح، وعصا موسى، ومعجزة القرآن تشاهد بالبصيرة، فيكون من يتبعه لأجلها أكثر؛ لأن الذي يُشاهد بعين الرأس ينقرض بانقراض مشاهده، والذي يُشاهد بعين العقل باقٍ يشاهده كل من جاء بعد الأول مستمرًا.

قال في «فتح الباري»: «ويمكن نظم القولين في كلام واحد، فإن محصلهما لا ينافي بعضه بعضًا[٢]»...»[٣].

لأجل تلك الأسباب خص الله تعالى هذه المعجزة بهذه الخاصية.

---

(١) في صحيحه، كتاب الاعتصام، باب قول النبي ﷺ بعثت بجوامع الكلم، حديث رقم (٧٢٧٤).

(٢) فتح الباري (٩/ ٧).

(٣) الإتقان (٥/ ١٨٧٣).

المطلب الرابع

نظرة العرب للقرآن من خلال إعجازه

أدرك العرب إعجاز القرآن ولأول وهلة؛ ذلك لأنه نزل بما برعوا فيه، وما هو صناعة لهم، وقد سطر لنا التاريخ جملة من الاعترافات التي صدرت عن عارفيهم وكبرائهم، فمن ذلك ما رويَ أنَّ جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: «سمعت النبي يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦] قال: كاد قلبي أن يطير»[(١)].

ومن ذلك ما جاء عن الوليد بن المغيرة أنه قال لقريش عن القرآن: «والله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزٍ ولا بقصيدةٍ مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى وإنه ليحطم ما تحته»[(٢)].

هذه الشهادة مهمة في تحديد مدى معرفة العرب لبلاغة القرآن، ومعرفة ما اشتمل عليه، وعلمهم أنه ليس من قبيل كلام البشر، ولهذا جعل الله بلوغ الحجة على المشركين مرهونة بسماعهم للقرآن، يقول تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].

ومن الأدلة على إدراكهم لإعجاز القرآن وعظم معانيه، إسلام بعض

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب حديث «قول أم سلمة: شكوت إلى رسول الله ﷺ أني أشتكي» رقم (٤٨٥٤).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، تفسير سورة المدثر، حديث رقم (٣٩٢٩). وقال: «صحيح الإسناد على شرط البخاري ولم يخرجه». ووافقه الذهبي.

الصحابة ﷺ بعد سماع القرآن، ومن أولئك عمر ﷺ، فقد جاء أنَّه قال لما قرأ شيئًا من القرآن قبل إسلامه: «ما أحسن هذا الكلام وأكرمه»(١).

والشواهد على معرفة العرب لإعجاز القرآن كثيرة جدًّا، هذا جزء منها، وكلها مفصحة عن تمام اليقين الذي لا يخالطه شك أن القرآن مباين لكلامهم، مختلف عنه.

المَطْلَبُ الْخَامِسُ

تعريف إعجاز القرآن ونشأته ومراحل تطوره وأشهر المؤلفات فيه

«**إعجاز القرآن مركب إضافي، معناه بحسب أصل اللغة**: إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بما تحداهم به. فهو من إضافة المصدر لفاعله، والمفعول وما تعلق بالفعل محذوف للعلم به. والتقدير: إعجاز القرآن خلق الله عن الإتيان بما تحداهم به.

والتعجيز المذكور ليس مقصودًا لذاته، بل المقصود لازمه وهو إظهار أن هذا الكتاب حق وأن الرسول الذي جاء به رسول صادق»(٢).

«**والإعجاز في الكلام**: أن يؤدى المعنى بطريق أبلغ من كل ما عداه من الطرق»(٣).

وقد أدرك العرب الذين نزل عليهم القرآن إعجازه بمجرد سماعهم

---

(١) قصة إسلام عمر ﷺ طويلة، وإنما هذا هو الشاهد من القصة. انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٦٩). والقصص التي ذكرت في إسلامه متعددة، حتى الآيات التي كان لها التأثير عليه فيها خلاف، وقد رجح الشيخ صفي الرحمٰن المباركفوري. أن يكون دخول الإسلام إلى قلب عمر ﷺ على التدريج. انظر: الرحيق المختوم (ص١٠٦).

(٢) مناهل العرفان (٢/ ٣٣١) «بتصرف».

(٣) الكليات (ص١٤٩).

له، ولم يكن الأمر عسيرًا عليهم؛ لأنه بلسانهم وبما هو مشهور عندهم، فلم يلتبس عليهم وجه إعجازه، ولم يكن غامضًا عندهم، وهكذا سار الأمر في عهد الصحابة والتابعين.

ولما انتشر الإسلام، ودخل فيه غير العرب، ضعفت سلائق أهل العربية، وقلَّ إدراكهم لمواطن الفصاحة والبلاغة، فاحتاج الناس إلى بيان شيء من ذلك.

فبدأ التأليف في اللغة، وحرص العلماء على بيان أساليب الكلام العربي، وطرق الفصاحة والبيان فيه، والهدف الأول لهم هو بيان معاني القرآن، وبيان فصاحته وبلاغته، فألف أبو عبيدة معمر بن المثنى[١] كتاب «مجاز القرآن»؛ بيَّن فيه بعض معاني القرآن، مستشهدًا بأقوال العرب وأشعارهم، وهو أولُ كتاب وصل إلينا فيه شيء من بيان بلاغة القرآن، وفصاحته[٢].

سار الأمر كذلك إلى منتصف القرن الثاني الهجري، حين بدأت ثورة علمية كبيرة[٣]، فتوسعت العلوم، وترجمت الكتب للعربية، وشغل بعض من عاش تلك الحقبة بمطالعة كتب الفلسفة، والمنطق؛ المترجمة عن اللغات الأخرى، فتشربوها، وطبقوا قواعدها، دون تحفظ واحتراز؛ تَولَّد لديهم من خلال تلك العلوم، البحث عن العلل والأسباب، فكان هذا مبدأ الشك الذي نشأ في نفوس بعضهم حيال وجود الذات الإلٰهية،

---

(١) معمر بن المثنى التيمي بالولاء، البصري، أبو عبيدة النحوي، من أئمة العلم بالأدب واللغة، عالم متوسع، له تصانيف كثيرة منها: «مجاز القرآن»، و«غريب الحديث». توفي سنة ٢١٠هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (٩/ ٤٤٥)، الأعلام (٧/ ٢٧٢).

(٢) البلاغة بين التاريخ والفن (ص٦).

(٣) كتب الشيخ محمود شاكر ﷺ كتابًا بيَّن فيه نشأة إعجاز القرآن، وجمع هذا الموضوع جمعًا دقيقًا، وما سيأتي ملخص كلامه. راجع: مدخل إلى إعجاز القرآن (ص٢٣).

والنبوات، ومعجزات الرسل، ما دفع ـ ذلك الشك ـ ببعض القوم إلى إنكار تلك المعتقدات والثوابت، وجنح قوم منهم إلى البحث عن الأدلة لإثبات تلك المعتقدات، على أساس تلك الأصول والإيرادات التي تشربتها قلوبهم، فنظروا في معجزات الأنبياء، وبحثوا العلة في كونها آية، فوجدوا أن عجز البشر عن الإتيان بمثلها هو السبب، ثم نظروا إلى الشرط الذي إذا تحقق كان دليلًا على وقوع المعجزة؛ فوجدوا أنه التحدي ونقض العادة(١)، ثم توصلوا إلى أنه إذا ثبت عجز الناس عن الإتيان بمثل ذلك المتحدى به؛ فقد ثبتت المعجزة.

ثم أخذوا في تطبيق ذلك على معجزة النبي ﷺ، والتي هي بين أيديهم ويشاهدونها، فوجدوا أن تلك الضوابط تنطبق تمامًا على هذه المعجزة، لكنَّ المنهج الذي يسيرون عليه كان سببًا حائلًا دون الوصول إلى النتائج الحقيقية الصحيحة، فدفعهم إلى القول بالصرفة(٢).

والذي أظهر مصطلح «الصرفة» وصدح به وشهره هو: إبراهيم بن سيَّار النظام المعتزلي(٣)، وتبعه في ذلك الجاحظ(٤) في أول أمره، ومعنى هذا القول: أن العرب كان بمقدورهم الإتيان بمثل هذا القرآن،

---

(١) حسب رأيهم وقد نقض شيخ الإسلام ذلك، وبيَّن أن هذه لا تصح أن تكون شروطًا للمعجزة. وقد أشير إلى ذلك مسبقًا.

(٢) انظر: البداية والنهاية (٨/ ٥٤٧).

(٣) إبراهيم بن سيَّار بن هانئ البصري، أبو إسحاق النظَّام. من أئمة المعتزلة انفرد بآراء خاصة تابعته فيها فرقة من المعتزلة سميت «النظامية» نسبة إليه. أما شهرته بالنظام فأشياعه يقولون إنها من إجادته نظم الكلام. متَّهم بالزندقة. وكان شاعرًا أديبًا بليغًا. توفي سنة ٢٣١هـ. انظر: الوافي بالوفيات (٦/ ١٢)، الأعلام (١/ ٤٣).

(٤) العلَّامة، المتبحر، ذو الفنون، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب البصري، المعتزلي، كبير أئمة الأدب، له تصانيف كثيرة منها: «الحيوان» و«البيان والتبين» و«البخلاء» ومجموعة من الرسائل. توفي سنة ٢٥٥هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (١١/ ٥٢٦)، الأعلام (٥/ ٧٤).

لكنَّ الله ﷻ صرف هممهم عن ذلك(١)، ولازمه: إنكار فصاحة القرآن وبلاغته، وإنكار أنها مباينة لكلام العرب.

ظهر هذا الرأي الفاسد في خضمِّ المعركة الجدلية الفكرية التي كانت تدور بين أوساط المتكلمين، وهذا القول من الفساد بمكان بيِّن، لا ينطلي على من له أدنى معرفة بفصاحة الكلام، والفرق بين الفصيح والأفصح، والبليغ والأبلغ، كيف إذا استصحب الواقع التاريخي، وعرف حال العرب قبل الإسلام، وأنهم بلغوا من الفصاحة ما لم تبلغه أمة من الأمم؟

ثم كيف إذا وازن بين ما تفوهوا به من بلاغات، وما دبَّجوا من فصاحات؟ وازن بينها وبين بلاغة القرآن وفصاحته.

لا شك أنه بعد هذه الموازنة لا يستطيع الثبات على ذلك الرأي، ولا يسعه إلا الرضوخ للحق، والإقرار بإن إعجاز القرآن ثابت من خلال فصاحته ونظمه. وهذا ما جرى للجاحظ. فلم يلبث أن رجع عن قوله وألف الكتب في الرد على من قال بهذا القول، وبيَّن عظيم نظم القرآن وبلاغته، فكان الجاحظ أول من كتب في إعجاز القرآن وبيان وجوه الفصاحة والنظم فيه، كتب في ذلك كتابًا سمّاه: «الاحتجاج لنظم القرآن وغريب تأليفه» لكنَّ هذا الكتاب لم يصل إلينا، ولا نعرف عنه سوى ما وصفه به مؤلفه في بعض كتبه، أو ما وصفه به بعض من اطَّلع عليه، وجملة الأقوال تدل على أنه كتاب يوضح إعجاز القرآن من خلال نظمه وفصاحته، وإن كان قد اعترض عليه الباقلاني(٢)؛ فوصفه بأنه لم يزد

---

(١) انظر: النكت في إعجاز القرآن (ص١١٠).

(٢) القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القسم، المعروف بالباقلاني البصري المتكلم الأشعري المشهور. صنف التصانيف الكثيرة المشهورة في =

على ما جاء به المتكلمون[١]، ثم ألف الجاحظ بعد ذلك الكتاب رسالة سماها: «حجج القرآن»، ذكر فيها رأيه عن معجزة القرآن، ويعد هذا الكتاب المؤلف الثاني في هذا العلم.

تلك كانت هي الخطوة الأولى في التأليف في الإعجاز. بعد ذلك جاء أبو عبد الله الواسطي المتكلم المعتزلي[٢]، فألف كتابًا سماه: «إعجاز القرآن»، وهو أول كتاب يحمل هذه التسمية، بيد أننا لا نعلم عن هذا الكتاب شيئًا؛ إذ لم يصل إلينا.

ثم جاء بعد الواسطي: أبو الحسن علي بن عيسى الرماني المعتزلي[٣]، فألف كتاب «النكت في إعجاز القرآن».

ثم جاء بعد الرماني: المحدث الإمام الجليل القدر عند أهل السُّنَّة، واللغة، والأدب: أبو سليمان حَمْد بن محمد بن إبراهيم الخطابي[٤]؛ فكتب رسالة سماها: «كتاب بيان إعجاز القرآن»،

= علم الكلام وغيره، وكان في علمه أوحد زمانه، توفي سنة ٤٠٣هـ. انظر: وفيات الأعيان (٤/ ٢٦٩)، سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٩٠).

(١) إعجاز القرآن للباقلاني (ص٦). وقد أجاب على هذا الرأي المحقق لكتابه السيد أحمد صقر في مقدمة التحقيق (ص٨)، والشيخ محمود شاكر في كتابه مدخل إلى إعجاز القرآن. انظر: (ص٧١).

(٢) هو: محمد بن زيد بن علي بن الحسين أبو عبد الله الواسطي المتكلم المعتزلي. كان في زمانه عالي الصيت، وله كتاب «إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه»، وكتاب «الإمامة»، توفي سنة ٣٠٦هـ. انظر: الوافي بالوفيات (٣/ ٦٩).

(٣) أبو الحسن علي بن عيسى بن علي بن عبد الله الرماني النحوي المتكلم؛ أحد الأئمة المشاهير، جمع بين علم الكلام والعربية، وصنف في التفسير، واللغة، والنحو، والكلام، وشرح كتاب سيبويه، من تصانيفه: «النكت في إعجاز القرآن»، و«تفسير القرآن الكريم». توفي سنة ٣٨٤هـ. انظر: وفيات الأعيان (٣/ ٩٩)، سير أعلام النبلاء (١٦/ ٥٣٤).

(٤) هو: أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البستي الخطابي، الإمام العلامة المفيد المحدث، كان فقيهًا أديبًا، وكان ثقة متثبتًا من أوعية العلم، =

وهي عظيمة القدر، اشتملت على آراء لطيفة، وتنبيهات دقيقة مهمة جدًّا.

ثم جاء بعد الخطابي رحمه الله: القاضي أبو بكر الباقلاني، فألف كتاب «إعجاز القرآن» الذي بين أيدينا، وهو من أجلِّ الكتب في هذا العلم، حتى إن بعض العلماء قال عنه: «لم يصنَّف مثل كتابه»[١].

جاء بعد الباقلاني: القاضي عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار المعتزلي[٢] فألف كتاب «المغني»، عقد في جزء من أجزائه كلامًا عن إعجاز القرآن.

ثم جاء بعد ذلك الإمام عبد القاهر الجرجاني[٣]، فوضع كتابيه البديعين، الذي اشتغل الناس بعده بهما. شرحًا وبسطًا وتفنيدًا. وهما: كتاب «دلائل الإعجاز»، وكتاب «أسرار البلاغة»[٤].

ثم بعد ذلك تتابعت الكتب والمؤلفات في هذا العلم حتى يومنا

= صاحب التصانيف الكثيرة منها: «غريب الحديث»، وكتاب «معالم السنن»، وكتاب «شرح صحيح البخاري»، وغير ذلك. توفي سنة ٣٨٨هـ. انظر: وفيات الأعيان (٢/ ٢١٥)، تذكرة الحفاظ (٣/ ١٤٩).

(١) الإتقان (٥/ ١٨٧٣).

(٢) عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمذاني، أبو الحسين: قاض، أصولي. كان شيخ المعتزلة في عصره. وهم يلقبونه قاضي القضاة. له تصانيف كثيرة منها: «تنزيه القرآن عن المطاعن» و«المغني في أبواب التوحيد والعدل». توفي سنة ٤١٥هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (١٧/ ٢٤٤)، الأعلام (٣/ ٢٧٣).

(٣) عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني النحوي الإمام المشهور أبو بكر. كان من كبار أئمة العربية والبيان، شافعيًّا، أشعريًّا. وتصدر العلماء بجرجان، وحثَّت إليه الرحال، وصنف التصانيف الجليلة، صنف «المغني» في شرح الإيضاح، و«دلائل الإعجاز» و«أسرار البلاغة»، و«الجمل» وغير ذلك. توفي سنة ٤٧١هـ. انظر: إنباه الرواة (٢/ ١٨٨)، بغية الوعاة (٢/ ١٠٦).

(٤) راجع: مدخل إلى إعجاز القرآن (ص٧٧).

هذا، فألفت فيه مؤلفات كثيرة بعضها خاص في هذا العلم، وبعضها ضمن كتب البلاغة، والتفسير.

هذه إطلالة مختصرة على نشأة الإعجاز كعلم مستقل، ومراحل التأليف فيه، نتبيَّن من خلالها أن هذا العلم بدأ على أيدي أهل الكلام، ونشأ إثر شكوكهم، وإشكالاتهم، ثم بعد ذلك هُذِّب هذا العلم، وتطورت مسائله فصار علمًا يبحث بلاغة القرآن ودلائل النبوة فيه.

المَبحثُ الثَّاني

نبذة عن حياة ابن القيِّم وجهوده العلمية

ويشتمل على خمسة مطالب:

- المطلب الأول: اسمه، ولقبه، ونسبه، ومولده، ووفاته.
- المطلب الثاني: أسرته، وحياته الاجتماعية.
- المطلب الثالث: نشأته العلمية، ورحلاته، وشيوخه وتلاميذه، وثناء العلماء عليه.
- المطلب الرابع: عقيدته، ومذهبه الفقهي.
- المطلب الخامس: مؤلفات ابن القيِّم، ومكانته العلمية.

* * *

المَطلَبُ الأَوَّلُ

اسمه، وشهرته، ونسبه، ومولده، ووفاته

- **اسمه:**

هو: أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز بن مكي، زين الدين الزرعي، ثم الدمشقي[1].

---

(١) هذا أطول ما ذكر من نسب ابن القيِّم، تتبعه العلامة بكر أبو زيد رحمه الله من خلال كتب التراجم التي ترجمت له ولوالده وإخوانه، وذكر ذلك في كتابه الذي يعد أكبر ترجمة للإمام ابن القيِّم رحمه الله، واستفاد الباحث منها في هذه الترجمة كثيرًا. انظر: ابن قيِّم الجوزية حياته، آثاره، موارده (ص١٧).

• **لقبه:**

اشتهر: بابن قيّم الجوزيّة، أو ابن القيّم. نسبة إلى أبيه الذي كان قيّمًا لمدرسة الجوزية، المنسوبة لمحيي الدين ابن الإمام أبي الفرج ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١).

• **مولده:**

ولد الإمام ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سنة ٦٩١هـ، في اليوم السابع من شهر صفر.

• **وفاته:**

توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة ٧٥١هـ ليلة الخميس في الثالث عشر من شهر رجب وقت أذان العشاء. وكان عمره ستين سنة(٢).

وصلّي عليه في الغد بعد صلاة الظهر بالجامع الأموي، ثم بجامع جراح. وقد ازدحم الناس على تشييع جنازته، قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «وقد كانت جنازته حافلة رحمه الله تعالى، شهدها القضاة والأعيان والصالحون من الخاصة والعامة. وتزاحم الناس على حمل نعشه»(٤).

---

(١) يوسف بن عبد الرحمٰن بن علي ابن الجوزي، القرشي، محيي الدين، أبو المحاسن: أستاذ دار الخلافة المستعصمية، وسفيرها. وهو ابن العلامة أبي الفرج ابن الجوزي، تفقه على أبيه وغيره. وأنشأ مدرسة الجوزية في دمشق. من كتبه: «معادن الإبريز في تفسير الكتاب العزيز» و«المذهب الأحمد في مذهب أحمد». توفي سنة ٦٥٦هـ. الأعلام (٨/ ٢٣٦).

(٢) انظر: البداية والنهاية (١٨/ ٥٢٤)، ذيل طبقات الحنابلة (٥/ ١٧٦).

(٣) الحافظ الكبير عماد الدّين إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي الفقيه الشافعي. انتهت إليه رئاسة العلم في التاريخ، والحديث، والتفسير. صنف تصانيف انتفع الناس بها في حياته وبعد مماته منها: «تفسير القرآن العظيم» و«البداية والنهاية» وغيرهما. توفي سنة ٧٧٤هـ. الدرر الكامنة (١/ ٤٤٥)، شذرات الذهب (٨/ ٣٩٧).

(٤) البداية والنهاية (١٨/ ٥٢٤).

دفن رحمه الله بدمشق بمقبرة الباب الصغير.

رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه الفردوس الأعلى.

المطلب الثاني

أسرته وحياته الاجتماعية

عاش الإمام ابن القيِّم رحمه الله في أسرة علم وفضل، وكان لأسرته أثر كبير في تكوين هذه القامة العلمية العالية، ولا شك أن دراسة المحيط الاجتماعي مهمة لمعرفة تكوين شخصية العالم، وتسليطُ الضوء على الشخصيات المحيطة بابن القيِّم يكسبنا انطباعًا وتصورًا عن مدى تأثير ذلك على شخصيته، وتأثيره رحمه الله على محيطه الاجتماعي من حوله. **وفي ما يلي نعرض صورة موجزة عن أسرته التي عاش فيها:**

١ - **والده:** كان والد الإمام ابن القيِّم - فيما يظهر من تراجمه - مهتمًّا بالعلم مشتغلًا به، ويظهر ذلك أوليًّا من لقبه الذي اكتسبه من قيامه بشؤون المدرسة الجوزية، يقول عنه ابن كثير رحمه الله: «الشيخ الصالح العابد الناسك أبو بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الحنبلي، قيِّم الجوزية، كان رجلًا صالحًا متعبدًا قليل التكلف، . . . توفي فجأة ليلة الأحد تاسع عشر ذي الحجة بالمدرسة الجوزية، وصلي عليه بعد الظهر بالجامع، ودفن بباب الصغير، وكانت جنازته حافلة، وأثنى عليه الناس خيرًا رحمه الله، وهو والد العلامة شمس الدين محمد ابن قيِّم الجوزية صاحب المصنفات الكثيرة النافعة الكافية. . .»[١].

كان له في علم الفرائض اليد الطولى، وعنه أخذها الإمام ابن القيِّم رحمه الله[٢].

---

(١) البداية والنهاية (١٨/ ٢٣٦) «باختصار». (٢) المنهل الصافي (٩/ ٢٤١).

٢ ـ **أخوه زين الدين:** هو أبو الفرج عبد الرحمن، وُلِد بعد ابن القيِّم بسنتين فكانت سنة ولادته ٦٩٣هـ. شارك ابن القيِّم في طلب العلم وتتلمذ عليه الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، توفي سنة ٧٦٩هـ. ودفن بمقبرة باب الصغير[(١)].

٣ ـ **ابن الإمام ابن القيِّم عبد الله:** هو جمال الدين ابن الإمام شمس الدين ابن قيِّم الجوزية. ولد سنة ٧٢٣هـ وتوفي سنة ٧٥٦هـ، شاب فاضل محصل، متقد الذهن، مفرط الذكاء، يقول عنه ابن كثير: «كانت لديه علوم جيدة، وذهنه حاضر خارق، أفتى ودرس وأعاد وناظر»[(٢)].

تسلم التدريس في الصدرية بعد والده. مهر في العلم، وكان أعجوبة زمانه فيه[(٣)].

٤ ـ **ابنه إبراهيم:** كان علامة في النحو والفقه وفنون أخرى على طريقة والده، ولد سنة ٧١٦هـ، وتوفي سنة ٧٦٧هـ، أخذ عن والده وغيره، اشتهر صيته، شرح ألفية ابن مالك بشرح سماه: «إرشاد السالك إلى حل ألفية ابن مالك»، وجمع اختيارات شيخ الإسلام ابن تيمية[(٤)]: يقول عنه ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكان بارعًا فاضلًا في النحو والفقه وفنون أخرى[(٥)]»[(٦)].

٥ ـ **ابن أخيه زين الدين:** هو عماد الدين إسماعيل ابن الشيخ

---

(١) شذرات الذهب (٨/ ٣٧٠).
(٢) البداية والنهاية (١٨/ ٥٦٧).
(٣) **انظر:** المصدر السابق (١٨/ ٥٦٧)، الدرر الكامنة (٢/ ٢٩٠).
(٤) وهي رسالة مطبوعة بتحقيق: أحمد موافي. الناشر: دار ابن القيِّم. ط: ١٤٢٨هـ.
(٥) البداية والنهاية (١٨/ ٧٠٤).
(٦) **انظر:** المصدر السابق، الدرر الكامنة (١/ ٥٨)، شذرات الذهب (٨/ ٣٥٧)، ابن قيِّم الجوزية حياته آثاره وموارده. د. بكر أبو زيد (ص٣٩).

زين الدين عبد الرحمٰن ابن قيِّم الجوزية كان من الأفاضل، اقتنى أكثر كتب عمه شمس الدين ابن القيِّم، وكان لا يبخل بعاريتها.

توفي يوم السبت الخامس عشر من شهر رجب سنة ٧٩٩هـ(١).

هذا جزء من المحيط الاجتماعي الذي كان يعيش فيه ابن القيِّم، وهو كما يلاحظ جو مليئ بالعلم والتدريس، والبحث، والتأليف. وهذا ينبئ عن مدى اهتمام هذه الأسرة بالعلم، وتأثر بعضهم ببعض، ويدل على الشغف العلمي المتوارث لديهم، وقد خلفوا إرثًا معرفيًّا مباركًا، رحمهم الله رحمةً واسعة وجزاهم عن المسلمين خيرًا.

المَطْلَبُ الثَّالِثُ

نشأته العلمية، ورحلاته، وشيوخه، وتلاميذه، وثناء العلماء عليه

- **نشأته العلمية:**

بدأ الإمام ابن القيِّم رحمه الله طلب العلم بداية مبكرة، وكان يتردد مع والده إلى مدرسة الجوزية التي كان قيِّمها، فَأَلِفَ الإمام ابن القيِّم العلم وأهله في سن مبكرة، وأول ما تسجله التراجم عن بداية طلبه للعلم هو أخذه عن أبي العباس العابر(٢)، الذي توفي سنة ٦٩٨هـ(٣). وهذا يعني: أن ابن القيِّم كان في السابعة من العمر. يقول ابن القيِّم رحمه الله: «سمعت

(١) شذرات الذهب (٨/ ٦١٠)، ابن قيِّم الجوزية حياته آثاره موارده. د. بكر أبو زيد (ص٣٨).

(٢) أحمد بن عبد الرحمٰن بن عبد المنعم بن نعمة النابلسي الحنبلي. تفقه في المذهب، إمام عالم لا يدرك شأوه في علم التعبير. الوافي بالوفيات (٧/ ٣٢)، شذرات الذهب (٧/ ٧٦٤).

(٣) انظر: الإمام ابن قيِّم الجوزية الداعية المصلح والعالم الموسوعي (ص٣٩).

عليه عدة أجزاء، ولم تتم لي قراءة هذا العلم عليه[١]، لصغر السن واخترام المنية له رحمه الله تعالى»[٢].

اشتغل الإمام ابن القيِّم بالعلم قبل لقائه بشيخ الإسلام، وحصَّل علمًا كثيرًا فسمع التفسير والحديث وبرع في علوم شتى، ولما عاد شيخ الإسلام من الديار المصرية لازمه إلى أن مات، وكان عمره وقت عودة شيخ الإسلام إحدى وعشرين سنة. ذلك ما يؤكد بدايته المبكرة في العلم، يقول الإمام ابن كثير: «سمع الحديث، واشتغل بالعلم، فبرع في علوم متعددة، لا سيما علم التفسير والحديث والأصلين، ولما عاد الشيخ تقي الدين ابن تيمية من الديار المصرية في سنة اثنتي عشرة وسبعمائة لازمه إلى أن مات الشيخ، فأخذ عنه علمًا جمًّا، مع ما سلف له من الاشتغال»[٣].

- **رحلاته:**

الرحلة في طلب العلم أمر ملازم للعلماء في الغالب، وقامة علمية بمكانة ابن القيِّم لا بد وأن يكون لها رحلات تحصيلية وعلمية، فقد رحل الإمام ابن القيِّم إلى مصر عدة مرات ويتلمس ذلك من كتبه، يقول رَحِمَهُ اللهُ: «وقد جرت لي مناظرة بمصر مع أكبر من يشير إليه اليهود بالعلم والرياسة»[٤]، ويقول في معرض كلامه عن طب البدن والقلب: «وذاكرت مرة بعض رؤساء الطب بمصر في هذا، فقال: والله لو سافرت إلى المغرب في معرفة هذه الفائدة لكان سفرًا قليلًا»[٥].

---

(١) يقصد بذلك علم تعبير الرؤيا؛ لأنه نقل جملة من تعبيراته التي أخبره بها، وعلق عليها ثم قال هذا الكلام.
(٢) زاد المعاد (٣/ ٥٣٨).
(٣) البداية والنهاية (١٨/ ٥٢٣).
(٤) هداية الحيارى (ص٢٠٠).
(٥) إغاثة اللهفان (١/ ٥٧).

ويقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «شيخ الإسلام ابن تيمية جمع بعض أصحابه فتاويه في ثلاثين مجلدًا، ورأيتها في الديار المصرية»[١]. وهذا يوحي لنا بأنه زار دور الكتب هناك وطالع فيها.

يقول المقريزي في آخر ترجمته: «وقدم القاهرة غير مرة»[٢].

رحل الإمام ابن القيِّم مرارًا إلى مكة، وجاور فيها وذكر ذلك كثيرًا في كتبه، من ذلك ما ذكره في كتابه «إغاثة اللهفان» ـ في معرض حديثه عن الاستشفاء بسورة الفاتحة ـ حيث يقول: «ومكثت بمكة مدة يعتريني أدواء، ولا أجد طبيبًا ولا دواء، فكنت أعالج نفسي بالفاتحة»[٣]؛ ويقول تلميذه الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «وحج مرارًا كثيرة، وجاور بمكة، وكان أهل مكة يذكرون عنه من شدة العبادة وكثرة الطوف أمرًا يتعجب منه»[٤].

وقد رحل أيضًا إلى نابلس[٥]، والقدس، وطرابلس[٦]، يقول في «بدائع الفوائد» في معرض حديثه عن القبلة: «وأما السامرة فإنهم يصلون إلى طود لهم في أرض الشام، يعظمونه ويحجون إليه، ورأيته أنا في بلد نابلس، وناظرت فضلاءهم في استقباله»[٧].

وأما عن رحلاته الأخرى فيقول الأستاذ: يوسف علي بديدي في تحقيقه لكتاب «الروح»: «تفيد المصادر بأن له كتابًا كبيرًا سماه:

(١) هداية الحيارى (ص٢٩٤).
(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك (٤/ ١٣٢).
(٣) الداء والدواء (ص٨)، وانظر: بدائع الفوائد (١/ ٢١٠).
(٤) ذيل طبقات الحنابلة (٥/ ١٧٣).
(٥) **نابلس**: هي مدينة مشهورة بأرض فلسطين. **انظر**: معجم البلدان (٥/ ٢٤٨).
(٦) **طرابلس**: بلد من سواحل بحر الشام. **انظر**: معجم البلدان (١/ ٢٧٠).
(٧) بدائع الفوائد (٤/ ٩٤٣).

«المسائل الطرابلسية»، لعله ألفه آنذاك، وثمة إشارات في مؤلفات ابن القيِّم إلى مكة والقدس، «كتاب الفتح القدسي»، و«التحفة المكية»، و«الرسالة التبوكية» التي ألفها في تبوك[1]»[2].

هذا يدلنا على أن الإمام ابن القيِّم له رحلات وتنقلات في طلب العلم، وإن لم تفصل كتب التراجم عن ذلك كثيرًا.

• شيوخه:

اتفق للإمام ابن القيِّم أن يطلب العلم على جملة من أجلاء علماء الأمة، وفي مقدمتهم الإمام الفذ المجدد رحمه الله وجزاه عن الإسلام خير الجزاء شيخ الإسلام ابن تيمية، والحافظ المزي. وغيرهما ممن ـ سيأتي ذكره إن شاء الله ـ. ومن الجدير أن نقف وقفة نتبيَّن فيها مدى ملازمة الإمام ابن القيِّم لشيخ الإسلام وتأثره به.

• ملازمة ابن القيِّم لشيخ الإسلام:

لا تكاد تجد ذكر شيخ الإسلام إلا ويعقبه ابن القيِّم، وذلك لما قام به هذان الإمامان من تجديد لمنهج السلف الذي قلَّ اتباعه في ذلك الزمن، لما طغى على الأمة من الاشتغال بعلوم الفلسفة، وانتشار العقائد الباطلة، فقيض الله عز وجل هذين العلمين فأظهرا الحق، وأبانا للناس المنهج الصحيح الذي سار عليه سلف الأمة من الصحابة والتابعين ومن سار على منهجهم.

«إن المدرسة السلفية التي جدد بناءها شيخ الإسلام ابن تيمية،

---

(١) تبوك: موضع بين وادي القرى والشام. وإليها تنسب الغزوة المشهورة. انظر: معجم البلدان (٢/ ١٤).

(٢) نقلًا عن كتاب الإمام ابن قيِّم الجوزية الداعية المصلح والعالم الموسوعي (ص٤٢).

بما ملأ الأسماع وصار حديث أهل الإسلام في شتى الأقطار، وبما آتاه الله من المواهب النادرة، والتفنن في علوم الإسلام، وابن القيِّم يسمع ويرى، ويعايش هذا الاتجاه الفكري الانقلابي على التقليد والطائفية، والمذاهب الكلامية، والتخبطات العقدية، رجوعًا بالأمة إلى ما كان عليه السلف الصالح، وردًّا لكل نزاع في ذلك إلى الله ورسوله. كل ذلك لا بد أن يكون له في نفوس المتعلمين الأثر الكبير، وابن القيِّم يعيش في مرحلة الطلب، ولديه من الهمة والعلم والذكاء والألمعية ما يسيره إلى الطريق السوي، والمشرع الروي، بعد حلول العناية الربانية في أعطاف ما أعطاه من المواهب: فما كان لابن القيِّم إذًا أن ينفلت من ذلك التأثر، فاتصل بشيخ الإسلام عام قدومه، وثنى ركبتيه في درسه لينهل من معارفه وعلومه، وصحبه في ذلك ستة عشر عامًا»[1]، كانت بدايتها عام ٧١٢هـ حتى وفاة شيخ الإسلام سنة ٧٢٨هـ.

تأثر الإمام ابن القيِّم بهذه الصحبة أثرًا كبيرًا، وروي وتشبع بآراء شيخه ومنهجه الذي كان عليه، واكتسب السمة الرئيسة من هذه المدرسة - والتي هي تحكيم الكتاب والسُّنَّة، واطراح جميع ما خالفها -، وقد كان الإمام ابن القيِّم قبل اتصاله بشيخه قد طاف متحيرًا يبتغي الصواب حتى هداه الله إلى الحق بفضله على يد شيخ الإسلام، وقد أعلن ذلك في نونيته حيث يقول:

يَا قَومِ واللَّهِ العَظِيمِ نصِيحةً ... مِنْ مُشفِقٍ وَأخٍ لَكُم مِعْوَانِ
جَرَّبْتُ هَذَا كُلَّهُ وَوَقَعْتُ فِي ... تِلكَ الشِّبَاكِ وَكُنْتُ ذَا طَيَرَانِ
حَتَّى أتَاحَ لِيَ الإلهُ بِفَضْلِه ... مَنْ لَيْسَ تَجْزِيه يَدِي وَلِسَانِي

---

(١) ابن قيِّم الجوزية حياته، آثاره، موارده (ص١٢٩).

حَبْرٌ أَتى مِنْ أَهْلِ حَرَّانٍ فَيَا   أَهْلًا بِمَنْ قَد جَاءَ مِنْ حَرَّانِ[(١)]

إذًا فالإمام ابن القيِّم عرف الحق على يد شيخه، ومن عرف الحق بعد ما خاض في ضده كان به ألصق، ولاتباعه ألزم، ولذلك لما رأى ابن القيِّم الحق في منهج شيخ الإسلام لزمه وسار عليه، وطبقه ونشره وبسطه، وهذا من تمام الوفاء والبر لمن كان له الفضل عليه بعد الله ﷻ.

«ولما أحس الشيخ من تلميذه الرغبة الصادقة والتفاني الكبير في خدمة العلم والتحصيل، صار يتعاهده بألوان من النصائح والتوجيهات مما يصقل مواهبه، ويزيده في رسوخه وثباته»[(٢)].

وقد ذكر الإمام ابن القيِّم جملة من تلك التوجيهات التي وصاه بها شيخه، واحتفل بها، وأبداها كل ما ظهرت مناسبة لها، منها: يقول ابن القيِّم رحمه الله: «وقال لي شيخ الإسلام رضي الله عنه وقد جعلت أورد عليه إيرادًا بعد إيراد: «لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة، فيتشربها، فلا ينضح إلا بها، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة تمر الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها، فيراها بصفائه، ويدفعها بصلابته؛ وإلا فإذا أشربت قلبك كل شبهة تمر عليها صار مقرًّا للشبهات». . .»[(٣)].

وغير ذلك الكثير من النصائح والتوجيهات التي يلقيها شيخ الإسلام على تلميذه المحب له، الذي يتلمس كل ما يفيد من شيخه.

ظل ابن القيِّم يشارك شيخه في أعماله وأحواله حتى آخر لحظات حياته، وامتحن وأوذي بسبب مناصرته له، يقول ابن رجب رحمه الله: «وقد

---

(١) الكافية الشافية (ص١٨٠).

(٢) ابن قيِّم الجوزية حياته، آثاره، موارده (ص١٣٤).

(٣) مفتاح دار السعادة (١/ ٤٤٣).

امتحن وأوذي وحبس مع الشيخ تقي الدين في المرة الأخيرة بالقلعة، منفردًا عنه ولم يفرج عنه إلا بعد موت الشيخ»(١).

ويقول ابن حجر(٢): «اعتقل مع ابن تيمية بالقلعة بعد أن أهين وطيف به على جمل، مضروبًا بالدرة، فلما مات أفرج عنه»(٣).

ثبت الإمام ابن القيِّم بعد وفاة شيخه على نشر التوحيد والعلم المصفى، وإرشاد الناس إلى الجادة الصحيحة. حتى لقي ربه فرحمهما الله رحمة واسعة وجزاهما عن الإسلام خير الجزاء.

وهناك شبهة تثار يجب التنبيه إليها، وهي: أن ابن القيِّم نسخة من شيخه، وأصل هذه الشبهة هو الفهم الخاطئ لمقالة الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ التي يقول فيها: «وكان [أي: ابن القيِّم] جريء الجنان، واسع العلم، عارفًا بالخلاف ومذاهب السلف، وغلب عليه حب ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله...»(٤).

يقول الشيخ بكر أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الرد على من أخطأ الفهم لهذه المقولة: «إننا نجد في كلمة الحافظ أن ابن القيِّم غلب عليه حب ابن تيمية. ولا شك أن محبة التلميذ لشيخه أمر فطري بل هي سمة الوفاء من النبلاء، وخصيصة الأكابر من الطلاب، والعلم رحم بين أهله، لذا

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة (٥/ ١٧٣).

(٢) أحمد بن محمد بن علي بن حجر السعدي، الحافظ المشهور، أقبل على الاشتغال والتصنيف، وبرع في معرفة الرجال، والفقه، والعربية، وصار حافظ الإسلام في عصره، وانتهت إليه معرفة الرجال واستحضارهم، ومعرفة العالي والنازل، وعلل الحديث، له تصانيف عظيمة وأهمها: كتبه الثلاثة «فتح الباري بشرح صحيح البخاري»، و«الإصابة في تمييز الصحابة»، و«الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة». توفي سنة ٨٥٢هـ. انظر: شذرات الذهب (١/ ٧٥).

(٣) الدرر الكامنة (٥/ ١٣٨).

(٤) المصدر السابق.

قال الشوكاني[١] رَحِمَهُ اللَّهُ - في ترجمة السخاوي[٢] - «وقد غلب عليه محبة شيخه الحافظ ابن حجر فصار لا يخرج عن غالب أقواله، كما غلب على ابن القيِّم محبة شيخه ابن تيمية»[٣].

فهذا سياق في مقام المدح والثناء، وقد أثنى عليه الحافظ بسعة العلم، ومعرفة الخلاف، ومذاهب السلف»[٤].

وبالجملة إذا نظرنا إلى ابن القيِّم تبيَّن أنه ليس نسخة من شيخه، يتضح ذلك إذا تأملنا مصنفات الإمامين، فقد صنف ابن القيِّم مصنفات لم يصنف مثلها شيخ الإسلام، على سبيل المثال: «زاد المعاد»، لم يكتب شيخ الإسلام ما يشبه هذا الكتاب، وكذلك نجد عند شيخ الإسلام من الكتب التي لم يكتب ابن القيِّم مثلها، على سبيل المثال: «منهاج السُّنَّة» لا نجد كتابًا لابن القيِّم يشبهه. وغير ذلك من المصنفات التي يتضح فيها جهد ابن القيِّم وعلومه المستقلة، من «بدائع الفوائد»، و«مفتاح دار السعادة» وغيرها.

كذلك ما يؤكد خطأ هذه المقولة أننا نجد الإمام ابن القيِّم قد خالف شيخه رَحِمَهُ اللَّهُ في بعض الاختيارات، وترجح لديه ما لم يترجح لشيخه، وهذا كافٍ لبيان شخصية ابن القيِّم التي تسير على ما يفهم من

---

(١) محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني: فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن، من أهل صنعاء. ولي قضاءها. له مؤلفات كثيرة منها: تفسير «فتح القدير»، و«نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار» و«البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع». وغير ذلك. توفي سنة ١٢٥٠هـ. الأعلام (٢/ ٢٩٨).

(٢) محمد بن عبد الرحمٰن بن محمد بن أبي بكر شمس الدين السخاوي الشافعي، فاق الأقران في العلم، وحفظ من الحديث ما صار به متفردًا عن أهل عصره. من مصنفاته: «الضوء اللامع». توفي سنة ٩٠٢هـ. انظر: الدرر الكامنة (٢/ ١٨٤).

(٣) البدر الطالع (٢/ ١٨٧).

(٤) ابن قيِّم الجوزية حياته، آثاره، موارده (ص١٤٢).

النص، وليست هي مجرد ترديد كلام العلماء وتقليدهم دون فهم النصوص[١]. كيف وابن القيِّم يحارب التقليد، ويرشد إلى اتباع الدليل ونبذ التعصب المذهبي، هذا هو منهجه الذي سار عليه وأرشد إليه.

تتلمذ الإمام ابن القيِّم على جملة من العلماء غير شيخ الإسلام أهمهم:

١ ـ والده، قيم مدرسة الجوزية.

٢ ـ ابن عبد الدائم: أبو بكر المسند زين الدين أحمد بن عبد الدايم بن نعمة المقدسي. مسند الوقت المعمر. توفي سنة ٧١٨هـ[٢].

٣ ـ المجد الحراني: إسماعيل بن مجد الدين بن محمد الفراء الحراني، شيخ الحنابلة بدمشق، توفي ٧٢٩هـ[٣].

٤ ـ ابن مكتوم: إسماعيل الملقب بصدر الدين والمكنى بأبي الفداء بن يوسف بن مكتوم القيسي. الدمشقي الشافعي. توفي سنة ٧١٦هـ[٤].

٥ ـ الكمال: أيوب. زين الدين بن نعمة النابلسي الدمشقي الكمال. توفي سنة ٧٣٠هـ[٥].

٦ ـ الحاكم: سليمان تقي الدين أبو الفضل بن حمزة بن أحمد بن قدامة المقدسي الحنبلي. مسند الشام وكبير قضاتها. سمع من نحو مائة شيخ. وأجاز أكثر من سبعمائة شيخ. توفي سنة ٧١٥هـ[٦].

---

(١) راجع: ابن قيِّم الجوزية حياته، آثاره، موارده (ص١٤٧).
(٢) انظر: الوافي بالوفيات (٧/ ٢٢).
(٣) انظر: شذرات الذهب (٨/ ١٥٥).
(٤) انظر: المصدر السابق (٨/ ٧٠).
(٥) انظر: الوافي بالوفيات (١٠/ ٣٤).
(٦) انظر: شذرات الذهب (٨/ ١٦٨).

٧ ـ شرف الدين ابن تيمية: عبد الله أبو محمد بن عبد الحليم ابن تيمية. أخو شيخ الإسلام رحمهما الله تعالى، وكان بارعًا في فنون عديدة، وكان شيخ الإسلام يكرمه ويقدره. مات ٧٢٧هـ(١).

٨ ـ المطعم: عيسى شرف الدين بن عبد الرحمٰن المطعم، مسند الوقت. توفي سنة ٧٠٩هـ(٢).

٩ ـ بنت جوهر: فاطمة أم محمد بنت الشيخ إبراهيم بن محمود بن جوهر البطائحي البعلي. المسندة المحدثة. توفيت سنة ٧١١هـ(٣).

١٠ ـ البدر ابن جماعة: محمد القاضي بدر الدين بن إبراهيم بن جماعة الكناني الحموي الشافعي. الإمام المشهور صاحب التصانيف الكثيرة. توفي سنة ٧٣٣هـ(٤).

١١ ـ أبو الفتح البعلبكي: محمد شمس الدين أبو عبد الله بن أبي الفتح البعلبكي الحنبلي الفقيه اللغوي النحوي المتوفى سنة ٧٠٩هـ(٥). أخذ عنه العربية والفقه. قرأ العربية عليه؛ قرأ عليه «الملخص»، ثم قرأ «الجرجانية». ثم قرأ «ألفية ابن مالك» وبعض التسهيل.

١٢ ـ ابن مفلح: محمد شمس الدين أبو عبد الله بن مفلح بن محمد المقدسي الحنبلي. يقول العلامة بكر أبو زيد رَحِمَهُ اللهُ: «وكان ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ يراجعه في كثير من مسائله واختياراته»(٦). توفي سنة ٧٦٣هـ(٧).

---

(١) انظر: الوافي بالوفيات (١٧/ ١٢٦)، ذيل طبقات الحنابلة (٤/ ٤٧٧).
(٢) انظر: شذرات الذهب (٨/ ٩٤).
(٣) انظر: المصدر السابق (٨/ ٥٢).
(٤) انظر: المصدر السابق (٨/ ٢١٢).
(٥) انظر: بغية الوعاة (١/ ٢٠٧).
(٦) ابن قيِّم الجوزية حياته، آثاره، موارده (ص١٧٦).
(٧) شذرات الذهب (٨/ ٣٤٠).

١٣ ـ الصفي الهندي: محمد صفي الدين بن عبد الرحيم بن محمد الأرموي الشافعي الفقيه الأصولي توفي سنة ٧١٥هـ[١].

١٤ ـ المزي: إمام المحدثين في عصره. يقول العلامة بكر أبو زيد: «وابن القيِّم رحمه الله تعالى يعتمده وينقل عنه في كثير من كتبه، خاصة في الحديث ورجاله، معبرًا بلفظ «شيخنا»»[٢].

هؤلاء جملة من أشهر العلماء الذين تتلمذ عليهم ابن القيِّم.

• **تلاميذه:**

تتلمذ على الإمام ابن القيِّم عدد من علماء الأمة الأجلاء الذين كانت لهم مكانة مرموقة بين العلماء، وحرص عدد منهم على ملازمته، ونقلوا علمه، واستفادوا من منهجه، **ونذكر أهمهم في ما يلي مرتبين على حروف المعجم:**

١ ـ البرهان إبراهيم ابن الإمام ابن القيِّم[٣].

٢ ـ ابن كثير: هو الإمام العلامة الحافظ المفسر[٤].

وقد ترجم لابن القيِّم ترجمة حافلة يقول فيها: «وكنت من أصحب الناس له وأحب الناس إليه»[٥].

٣ ـ ابن رجب: الحافظ المعروف صاحب التصانيف[٦].

وقد ترجم لابن القيِّم ترجمة حافلة يقول فيها: «ولازمت مجالسه قبل موته أزيد من سنة وسمعت عليه قصيدته «النونية» الطويلة في السُّنَّة وأشياء كثيرة»[٧].

---

(١) انظر: البداية والنهاية (١٨/ ١٤٧).

(٢) ابن قيِّم الجوزية حياته، آثاره، موارده (ص١٧٧).

(٣) سبقت ترجمته.

(٤) سبقت ترجمته.

(٥) البداية والنهاية (١٨/ ٥٢٣).

(٦) سبقت ترجمته.

(٧) ذيل طبقات الحنابلة (٥/ ١٧٣).

٤ ـ شرف الدين ابن الإمام ابن القيِّم[١].

٥ ـ السبكي: علي بن عبد الكافي بن علي بن تمَّام السبكي. تقي الدين أبو الحسن. توفي سنة ٧٥٦هـ[٢].

٦ ـ الذهبي: محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي التركماني الشافعي، الإمام الحافظ صاحب التصانيف الكثيرة في الحديث وغيره. توفي سنة ٧٤٧هـ[٣].

٧ ـ ابن عبد الهادي: محمد شمس الدين أبو عبد الله بن أحمد بن عبد الهادي بن قدامة المقدسي ثم الصالحي الحنبلي، الحافظ الناقد. توفي سنة ٧٤٤هـ.

قال ابن رجب في ترجمة ابن القيِّم: «كان الفضلاء يعظمونه ويتتلمذون له كابن عبد الهادي وغيره»[٤].

٨ ـ النابلسي: محمد شمس الدين أبو عبد الله بن عبد القادر بن محيي الدين عثمان الحنبلي المعروف بالجنة. صاحب ابن قيِّم الجوزية وقرأ عليه أكثر كتبه. توفي سنة ٧٩٧هـ[٥].

٩ ـ الغزي: محمد بن محمد بن الخضر الغزي الشافعي توفي سنة ٨٠٨هـ.

قال الشوكاني: «دخل دمشق فأخذ بها عن ابن كثير والتقي السبكي وابن القيِّم وغيرهم»[٦].

١٠ ـ المقري: محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر القرشي المقري التلمساني المتوفى سنة ٧٥٩هـ[٧].

---

(١) سبقت ترجمته.
(٢) انظر: الدرر الكامنة (١/ ٢٤٧).
(٣) البدر الطالع (٢/ ١١٠).
(٤) ذيل طبقات الحنابلة (٥/ ١٧٤).
(٥) الدرر الكامنة (٥/ ٢٦٨).
(٦) البدر الطالع (٢/ ٢٥٤).
(٧) نفح الطيب (٥/ ٢٥٤).

هؤلاء جملة من أشهر تلاميذ ابن القيِّم، وهم كما يلاحظ من الشهرة والفضل والعلم بمكان، فقد بارك الله لهم في علمهم، وانتفعت الأمة بكتبهم، وانتشر علمهم في البلدان. فرحمهم الله رحمة واسعة وأدخلهم جناته. إنه جواد كريم.

المَطْلَبُ الرَّابِعُ

عقيدته ومذهبه الفقهي

يعدُّ الإمام ابن القيِّم من رواد المنهج السلفي، ومن أبرز علماء أهل السُّنَّة والجماعة، وقد كرَّس هذا الإمام رحمه الله جهده في بيان منهج السلف، وما دعا إليه الكتاب والسُّنَّة، وجملة مؤلفاته تسعى لبيان ذلك، حتى إنها سمة بارزة تشاهد لأول نظرة في كتبه.

ولقد حرص الإمام ابن القيِّم على تصحيح العقيدة، وبيَّن بطلان العقائد المخالفة، وشنَّ الحرب عليها وبيَّن فسادها، وكتب في ذلك عددًا من المؤلفات، بل نظم نظمًا جمع فيه منهج الفرقة الناجية. لذلك يعد الإمام ابن القيِّم من أبرز أئمة أهل السُّنَّة والجماعة الذين سعوا في تصحيح العقيدة، وبيان المنهج الصحيح.

أما مذهبه الفقهي: فابن القيِّم موصوف في كتب التراجم بأنه حنبلي، لكنه رحمه الله ليس من المتمذهبين بل هو مع الدليل فأين ما كان الدليل فهو معه، وينبذ التقليد والتعصب المذهبي، ويندد به دائمًا في كتبه، ومع هذا فليس هو ممن تطرفوا وتهوروا وأزروا بأئمة الإسلام إذا خالفوا مذهبه، بل هو عارف فضلهم ومكانتهم وإن ذهب إلى خلاف ما ذهبوا إليه، ويصف العلّامة بكر أبو زيد رحمه الله منهجه بوصف مختصر يقول فيه: «مناشدة الدليل مع احترام الأئمة»(١).

---

(١) ابن قيِّم الجوزية حياته، آثاره، موارده (ص٧٣).

وإذا تأملنا كتب ابن القيِّم ظهر لنا أنه رَحِمَهُ اللَّهُ لم يكن ممن تمسكوا بالمذهب على حساب الدليل، بل يلاحظ أنه يخالف المذهب ويرجح ما سار معه الدليل، أو كان أولى وألصق لمفهوم النص، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ - نابذًا التعصب، وذامًّا لأهله -: «. . . ومثله التعصب للمذاهب، والطرائق، والمشايخ، وتفضيل بعضها على بعض بالهوى والعصبية، وكونه منتسبًا إليه، فيدعو إلى ذلك ويوالي عليه، ويعادي عليه، ويزن الناس به، كل هذا من دعوى الجاهلية»(١).

ويقول العلامة بكر أبو زيد رَحِمَهُ اللَّهُ - واصفًا منهج الإمام ابن القيِّم -: «نراه يجلي أقوالهم ويستأنس بها لما يختاره. ولم يمنعه هذا المسلك الوسط الحق من التفقه في المذهب الحنبلي، وبيان أصوله وتحرير فروعه، وفي الوقت نفسه لم يكن هذا مانعًا له من مخالفة المذهب في عشرات المسائل ما وجد إلى الدليل سبيلًا»(٢).

ويتحرر من خلال ما سبق أن الوصف الدقيق لابن القيِّم أنه من العلماء المجتهدين مطلقًا، وهذا ما حكته بعض كتب التراجم، يقول ابن العماد رَحِمَهُ اللَّهُ في ترجمته بعد ذكر اسمه: «. . . الحنبلي بل المجتهد مطلقًا»(٣).

ويقول الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «العلامة الكبير المجتهد المطلق»(٤).

وهذا الوصف هو في الحقيقة أقرب ما يوصف به ابن القيِّم؛ لأنه بلغ رَحِمَهُ اللَّهُ درجة الإمامة والاجتهاد فرحمه الله ورضي عنه(٥).

---

(١) زاد المعاد (٢/ ٤٣١).
(٢) المرجع السابق (ص٧٨).
(٣) شذرات الذهب (٨/ ٢٨٧).
(٤) البدر الطالع (٢/ ٢٤٣).
(٥) راجع: ابن القيِّم حياته آثار موارده (ص٨٤).

المطلب الخامس

مؤلفاته، ومكانته العلمية

كتب الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ عشرات المؤلفات، وكلها في غاية النفاسة والأهمية، وكلها مليئة بمعارف شتى، وعلوم متنوعة، أكسبتها استطرادات ذلك العالم ميزة خاصة، فالكتاب الواحد تجده يبحث عدة مسائل، ويبحر بالقارئ في عدة بحور من بحور العلم، وهذا ينم عن علمية ابن القيِّم الفريدة، التي اكتسبها من مدارسة العلماء، ومن مطالعة كتب من سبقه، أما عن مدارسته للعلماء فقد مر الحديث عن شيوخه، وأما المؤلفات التي تضمها مكتبة ابن القيِّم فهي كثيرة جدًّا، **والاستدلال على ذلك من طريقين:**

الأول: موارده في كتبه التي ينقل عنها.

والثاني: ما ذكره المترجمون له مما حصل عليه من كتب لم تجتمع لأحد غيره. يقول ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «اقتنى من الكتب ما لا يتهيأ لغيره تحصيل عُشرِه من كتب السلف والخلف»[(١)].

ويقول ابن رجب: «اقتنى من الكتب ما لم يحصل لغيره»[(٢)].

وتواترت أقوال العلماء في وصف ما حواه ابن القيِّم من كتب، هذا ما أكسب مؤلفات ابن القيِّم ذلك الرونق، وأضاف إليها تلك الموسوعية والاستيعاب لكلام أهل العلم، وجعلها مصادر هامة من مصادر العلم والمعرفة، وقد يطول سرد محاسنها ولكن من أجمل ما قيل فيها، ما قاله ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكل تصانيفه مرغوب فيها بين الطوائف»[(٣)].

---

(١) البداية والنهاية (١٨/ ٥٢٤).

(٢) ذيل طبقات الحنابلة (٥/ ١٧٤).

(٣) الدرر الكامنة (٥/ ١٨٩).

وقد اختلف تعداد المترجمين لكتب ابن القيِّم اختلافًا كبيرًا، وقد جمعها العلامة بكر أبو زيد رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه، وأفاض القول فيها، وبيَّن المفقود والموجود منها، وما تصح نسبته لابن القيِّم وما لا تصح نسبته، وله في ذلك جهد مبارك، جزاه الله خيرًا ورحمه[1]. والذي يجدر ذكره هنا؛ ما كان موجودًا ومطبوعًا منها، **ونذكرها مرتبة على حروف المعجم**:

١ ـ اجتماع الجيوش الإسلامية في غزو المعطلة والجهمية.

٢ ـ أحكام أهل الذمة.

٣ ـ إعلام الموقعين عن رب العالمين.

٤ ـ إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان.

٥ ـ إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان.

٦ ـ بدائع الفوائد.

٧ ـ التبيان في أيمان القرآن.

٨ ـ تحفة المودود في أحكام المولود.

٩ ـ تهذيب مختصر سنن أبي داوود.

١٠ ـ جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام.

١١ ـ الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الكافي. أو الداء والدواء.

١٢ ـ حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح.

١٣ ـ حكم تارك الصلاة.

١٤ ـ رسالة ابن القيِّم إلى أحد إخوانه.

١٥ ـ الرسالة التبوكية.

---

(١) راجع: ابن القيِّم حياته آثار موارده (ص٣١٣).

١٦ ـ روضة المحبين ونزهة المشتاقين.

١٧ ـ الروح.

١٨ ـ زاد المعاد في هدي خير العباد.

١٩ ـ شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل.

٢٠ ـ الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة.

٢١ ـ طريق الهجرتين وباب السعادتين.

٢٢ ـ الطرق الحكمية في السياسة الشرعية.

٢٣ ـ عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين.

٢٤ ـ الفروسية.

٢٥ ـ الفوائد.

٢٦ ـ الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية.

٢٧ ـ الكلام على مسألة السماع.

٢٨ ـ الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب.

٢٩ ـ مدارج السالكين بين إياك نعبد وإياك نستعين.

٣٠ ـ مفتاح دار السعادة ومنشود ولاية أهل الفضل والإرادة.

٣١ ـ المنار المنيف في الصحيح والضعيف.

٣٢ ـ هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى.

٣٣ ـ رفع اليدين في الصلاة.

٣٤ ـ جواب في صيغ الحمد.

هذا بعض ما تركه الإمام ابن القيِّم من تراث علمي، يستحق جميل الثناء عليه. رحمه الله رحمة واسعة.

• مكانته العلمية وثناء العلماء عليه:

تبوَّأ الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ مكانة خاصة بين علماء الأمة، وتربع على عرش العلم في زمانه، يقول الإمام ابن كثير: «كان قليل النظير، بل عديم النظير في مجموعه وأموره وأحواله»[(١)].

ويقول ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «... ولا رأيت أوسع منه علمًا، ولا أعرف بمعاني القرآن والسُّنَّة وحقائق الإيمان منه، وليس هو بالمعصوم، ولكن لم أر في معناه مثله»[(٢)].

من خلال هذه الشهادات من أولئك العلماء نستطيع أن نتصور مكانة ابن القيِّم بين علماء عصره، والقدر الذي خص به، خاصة إذا كانت الشهادات من أمثال هذين العالمين الكبيرين، الذين لهما تمام المعرفة والسبر بعلوم العلماء. وهذا يدفعنا أيضًا للبحث الدقيق عن أسباب شغف العلماء وحبهم وتمييزهم للإمام ابن القيِّم.

مصنفاته رَحِمَهُ اللَّهُ وما حوته من علم عظيم شاهد على السبب الذي أدى إلى ذلك الشغف، لكن مع ذلك هي لا تعطي صورة كاملة عن علمية ابن القيِّم لأنه قطعًا لم يكتب ويصنف كل ما يعلمه، وهذا معلوم بداهة، وما يعطينا الصورة الكاملة عن علمية ابن القيِّم هو أخذ شهادات العلماء، وضمها إلى ما نشاهده من موسوعية وقامة علمية ضخمة نستنتجها من كتبه الضاربة في فنون كثيرة، المفصحة عن علم عظيم.

يقول الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «سمع الحديث، واشتغل بالعلم، فبرع في علوم متعددة، لا سيما علم التفسير، والحديث والأصلين، ولما عاد الشيخ تقي الدين ابن تيمية من الديار المصرية في سنة اثنتي عشرة

---

(١) البداية والنهاية (١٨/ ٥٢٤).

(٢) ذيل طبقات الحنابلة (٥/ ١٧٣).

وسبعمائة لازمه إلى أن مات الشيخ، فأخذ عنه علمًا جمًّا مع ما سلف له من الاشتغال، فصار فريدًا في بابه في فنون كثيرة...»[(١)].

ويقول الذهبي: «عنى بالحديث ومتونه، وبعض رجاله، وكان يشتغل في الفقه، ويحيد تقريره...»[(٢)].

ويقول الحافظ ابن رجب: «تفقه في المذهب وبرع وأفتى، ولازم الشيخ تقي الدين وأخذ عَنْهُ. وتفنن فِي علوم الإِسلام. وَكَانَ عارفا بالتفسير لا يجارى فِيهِ، وبأصول الدين، وإليه فيهما المنتهى. والحَدِيث ومعانيه وفقهه، ودقائق الاستنباط منه، لا يلحق فِي ذَلِكَ، وبالفقه وأصوله وبالعربية، وَلَهُ فِيهَا اليد الطولى وتعلم الْكَلام والنحو وغير ذَلِكَ، وكان عالمًا بعلم السلوك، وكلام أهل التصوف، وإشاراتهم، ودقائقهم. له فِي كل فن من هذه الفنون اليد الطولى...»[(٣)].

ويقول الصفدي رَحِمَهُ اللهُ: «اشتغل كثيرًا وناظر واجتهد، وأكب على الطلب...»[(٤)].

ويقول ابن حجر: «كان جريء الجنان، واسع العلم، عارفًا بالخلاف، ومذاهب السلف، وغلب عليه حب ابن تيمية»[(٥)].

ويقول الشوكاني: «غالب أبحاثه الإنصاف والميل مع الدليل حيث مال وعدم التعويل على القيل والقال، وإذا استوعب الكلام في بحث وطول ذيوله أتى بما لم يأتِ به غيره وساقه ما ينشرح له صدور الراغبين في أخذ مذاهبهم عن الدليل. وأظنها سرت إليه بركة ملازمته لشيخه

(١) البداية والنهاية (١٨/ ٥٢٣).
(٢) ذيل طبقات الحنابلة (٥/ ١٧٢).
(٣) ذيل طبقات الحنابلة (٥/ ١٧١).
(٤) الوافي بالوفيات (٢/ ١٩٦).
(٥) الدرر الكامنة (٣/ ٤٠١).

ابن تيمية في السراء والضراء، والقيام معه في محنه ومؤاساته بنفسه وطول تردده عليه»[١].

هذه بعض أقوال العلماء فيه، وثناؤهم على علمه ونظرتهم لمكانته العلمية.

ومع هذه المكانة العلمية المميزة، جمع ابن القيِّم الخلق الفريد، والزهد والعبادة والإنابة إلى الله، وسطر العلماء أثناء سيرته العطرة جملة من الثناء على خلقه وعبادته. يقول الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكان حسن القراءة والخلق، كثير التودد، لا يحسد أحدًا، ولا يؤذيه، ولا يستعيبه، ولا يحقد على أحد، وكنت من أصحب الناس له، وأحب الناس إليه، ولا أعرف من أهل العلم في زماننا أكثر عبادة منه...»[٢].

ويقول ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان رَحِمَهُ اللَّهُ ذا عبادة وتهجد، وطول صلاة إلى الغاية القصوى، وتأله ولهج بالذكر، وشغف بالمحبة، والإنابة والاستغفار، والافتقار إِلَى الله، والانكسار لَهُ، والاطراح بَيْنَ يديه عَلَى عتبة عبوديته، لم أشاهد مثله فِي ذَلِكَ...»[٣].

من ينظر إلى كتب التراجم التي ترجمت لابن القيِّم يجد إعجاب العلماء بابن القيِّم وبمنهجه وعلمه ومؤلفاته، حتى أنه لتتزاحم لديه الثناءات العطرة على هذا الإمام الفذّ، وحق لهم ذلك الإعجاب، فشخصية ابن القيِّم تستحق ذلك، لما ترك للأمة من تراث وعلم عظيم، نهلت منه العلماء من لدن عصره إلى اليوم، ولا تزال أبحاثه متميزة وآرائه مقدمة، وذلك الفضل له من الله ﷻ.

---

(١) البدر الطالع (٢/ ١٤٥).

(٢) البداية والنهاية (١٨/ ٥٢٣).

(٣) ذيل طبقات الحنابلة (٥/ ١٧٣).

الكتب التي تمَّ جردها
واستخراج مادة البحث منها

استخلصت مادة هذا البحث من مؤلفات ابن القيِّم السابقة، إضافة إلى ذلك الكتب التي درست علوم ابن القيِّم، فقد استفاد الباحث منها في هذا البحث، **ونذكرها في ما يلي**:

١ ـ مختصر الصواعق المرسلة[١]. للموصلي[٢].

٢ ـ بدائع التفسير الجامع لتفسير ابن القيِّم. ليسري السيد محمد[٣].

٣ ـ منهج ابن القيِّم في التفسير. لمحمد بن أحمد السنباطي.

٤ ـ ابن القيِّم وموقفه من التفكير الإسلامي. د. عوض الله حجازي.

٥ ـ ابن قيِّم الجوزية حياته، آثاره، موارده. للعلامة الدكتور: بكر أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٦ ـ التقريب لعلوم ابن القيِّم. للعلامة الدكتور: بكر أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٧ ـ ابن قيِّم الجوزية جهوده في الدرس اللغوي. د. طاهر سليمان حمودة.

---

(١) هذا المختصر مهم للغاية، لاحتوائه على الجزء المفقود من كتاب الصواعق الأصل.

(٢) محمد بن محمد بن عبد الكريم الشافعي، شمس الدين المعروف بابن الموصلي. مهر في الفنون وقال الشعر وصنف التصانيف ونظم «مطالع الأنوار» لابن قرقول، ونظم «المنهاج» في الفقه. توفي سنة ٧٧٤هـ. الوافي بالوفيات (١/٢٠٣)، الدرر الكامنة (٥/٤٥٢).

(٣) هناك عدة جموع لتفسير ابن القيِّم، ومنها جمع الشيخ أبو الحسن الندوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ. ولكن هذا الجمع يعد أوفاها.

٨ ـ مقدمة تحقيق إعلام الموقعين. مجلد صغير. للشيخ أبو عبيدة مشهور آل سليمان.

٩ ـ مقدمة تحقيق بدائع الفوائد. للشيخ علي بن محمد العمران[١].

❁ ❁ ❁

(١) طبعة دار عالم الفوائد. وهذه الطبعة أرمز لها في الهامش بـ«ط. دار عالم الفوائد»؛ لأني اعتمدت في هذا البحث على طبعة أخرى أيضًا.

البَابُ ٱلْأَوَّلُ

مصادر الإعجاز عند ابن القيِّم ومنهجه في الاستدلال عليه

ويشتمل على فصلين:

- الفصل الأول: مصادر ابن القيِّم في إعجاز القرآن.
- الفصل الثاني: منهجه في الاستدلال على إعجاز القرآن الكريم.

ٱلْفَصْلُ ٱلْأَوَّلُ

مصادر ابن القيِّم في إعجاز القرآن

ويشتمل على مبحثين:

- المبحث الأول: مصادر ابن القيِّم في إعجاز القرآن من النصوص الشرعية.
- المبحث الثاني: مصادر ابن القيِّم في إعجاز القرآن من اللغة العربية.

المَبْحَثُ الأَوَّلُ

مصادر ابن القيِّم في إعجاز القرآن من النصوص الشرعية

اهتمَّ الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ بالنصوص الشرعية اهتمامًا بالغًا، فحرص على جمعها حفظًا ودراية، وقد منَّ الله ﷻ عليه بذلك، فصار من الأئمة الحفَّاظ، الجامعين للعلوم، ومن الفقهاء المستنبطين المجتهدين، تميَّز في ذلك تميزًا كبيرًا، فاعتنت الأمة بعلومه وتتبعت آراءه، وتأملت تحقيقاته، بل وقدمتها، وجعلتها مصدرًا من المصادر الموثوقة، وذلك لما تميَّز به هذا العالم الكبير من منهج دقيق في بحثه وتأليفه؛ فقد سلك طريق الانتخاب والاختيار بين الآراء المتناثرة في بطون الكتب، أو ما تناقلته الشفاه، فكان سيره مع ما كان بالدليل ألصق، وما كان إلى منطوقه ومفهومه أقرب، وهذا المنهج ينسحب على عامة آرائه وأقواله في شتى فنون العلم التي طرقها، **وجملة منهجه يرجع باختصار إلى ثلاثة أمور:**

١ ـ التزامه بما ورد عليه الدليل، ومحاولة استنباط واستخراج الأحكام من الأدلة، وتقديمها على كل شيء، وفهمها الفهم الصحيح من غير تأويل، أو صرف لها عن المراد.

٢ ـ جمع أقوال العلماء وآرائهم حول ما جاء به الدليل، والسعي في استقصاء ذلك، ما وسعه الجهد.

٣ ـ الترجيح بين أقوال العلماء، بالنقل والعقل، وكافة أدوات الترجيح[١].

هذا المنهج أكسب مؤلفات الإمام ابن القيِّم طابعًا خاصًا، فجعل النفس ترتاح إلى تحقيقاته؛ لما فيها من التأصيل والتفصيل، وكذلك أكسبها ثراءً معرفيًّا وعلميًّا كبيرًا، وينطبق هذا تمامًا على منهجه في التفسير وعلوم القرآن، والذي منها علم إعجاز القرآن، والأمثلة لسيره على هذا المنهج كثيرة، منها ـ على سبيل المثال ـ تفسيره لقوله تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات: ١٧]، فقد اختلف في «ما» هل هي نافية؟ أو مصدرية؟ أو موصولية؟

فالإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ فنَّد القول في «ما» الواردة في الآية، وذكر أقوال العلماء فيها، ورجح ما يراه، وأجاب عن أقوال من خالفهم، وفق منهجه الذي يسير عليه؛ وحتى يتصور منهجه رَحِمَهُ اللهُ، أذكر القول الأول من الأقوال، واستدراك الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ عليه. فهو كافٍ لتصور منهجه؛ يقول رَحِمَهُ اللهُ: «قيل[٢]: إنَّ «ما» نافية، والمعنى: ما يهجعون قليلًا من الليل، فكيف بالكثير؟

وهذا ضعيفٌ لوجوه:

أحدها: أنَّ هذا ليس بلازمٍ لوصف المتقين الذين يستحقون هذا الجزاء.

الثاني: أنَّ قيام من نام من الليل نصفه أحبُّ إلى الله من قيام من قامه كله.

---

(١) راجع: ابن القيِّم ومنهجه في التفسير (ص١١٩)، ابن القيِّم وموقفه من التفكير الإسلامي (ص١٠٥).

(٢) راجع: الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ٣٦)، الدر المصون (١٠/ ٤٥).

الثالث: أنَّه لو كان المراد بذلك إحياء الليل جميعه لكان أولى النَّاس بهذا رسول الله ﷺ، وما قام ليلةً حتى الصباح.

الرابع: أنَّ الله ـ سبحانه ـ إنَّما أمر رسوله أن يتهجَّد بالقرآن من الليل؛ لا في الليل كله، فقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ﴾ [الإسراء: ٧٩].

الخامس: أنَّه ـ سبحانه ـ لما أمره بقيام الليل في سورة «المزمِّل» إنَّما أمره بقيام النصف، أو النقصان منه، أو الزيادة عليه، فذكر له هذه المراتب الثلاثة، ولم يذكر قيامه كله.

السادس: أنَّه ﷺ لما بلغه عن عثمان بن مظعون أنَّه لا ينام من الليل، بعث إليه فجاءه، فقال: (**يَا عُثْمَانُ، أَرَغْبَةً عَنْ سُنَّتِي؟**) قَالَ: فَقَالَ: «لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، وَلَكِنْ سُنَّتَكَ أَطْلُبُ»، قَالَ: (**فَإِنِّي أَنَامُ وَأُصَلِّي، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَنْكِحُ النِّسَاءَ، فَاتَّقِ اللهَ يَا عُثْمَانُ، فَإِنَّ لِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِضَيْفِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَصُمْ وَأَفْطِرْ، وَصَلِّ وَنَمْ**)[١].

ولما بلغه عن زينب بنت جحش أنَّها تصلي الليل كله، حتَّى جعلت حبلًا بين ساريتين، إذا فَتَرَت تعلَّقت به، أنكر ذلك، وأمر بحلِّه[٢].

السابع: أنَّ الله ـ تعالى ـ أثنى عليهم بأنهم كانت ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» رقم (١٠٣٧٥)، وأحمد في «المسند» رقم (٢٢٢٩٢)، وابن حبان في «صحيحه» رقم (٩). وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (١٧٨٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التهجد، باب ما يكره من التشدد في العبادة رقم (١١٥٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافر وقصرها، باب أمر من نعس في صلاته، أو استعجم عليه القرآن، أو الذكر بأن يرقد، أو يقعد حتى يذهب عنه ذلك رقم (٧٨٤).

عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦]، وهذه المضاجع إنَّما هي مضاجع النوم، فكانت جنوبهم تتجافى وتقلق عنها حتَّى يقوموا إلى الصلاة، ولهذا جازاهم عن هذا التجافي ـ الذي سببه قلق القلب واضطرابه حتَّى يقوموا إلى الصلاة ـ بقرَّة الأعين.

الثامن: أنَّ الصحابة ـ الذين هم أوَّل وأولى من دخل في هذه الآية ـ لم يفهموا منها عدم نومهم بالليل أصلًا.

فروى يحيى بن سعيد، عن سعيد، عن قتادة، عن أنس في قوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات: ١٧] قال: «كانوا يصلُّون فيما بين المغرب والعشاء»[١].

التاسع: «أنَّ في هذا التقدير تفكيكًا للكلام، وتقديمًا لمعمول العامل المنفي عليه؛ لأنَّك تجعل «قليلًا» مفعول «يهجعون»، وهو منفيٌّ، والبصريون لا يجيزون ذلك، وإن أجازه الكوفيون. وفصَّل بعضهم، فأجازه في الظَّرف، ولم يُجِزْه في غيره...»[٢]؛ ثم ذكر بقية الأقوال، وسار فيها وفق هذا المنهج، الذي يظهر فيه الدقة والتحرير، واستنطاق الأدلة، والفقه بمدلولاتها.

ابن القيِّم موسوعة علميَّة، كتبه تشهد لذلك، فقد ضمَّت جمعًا من آراء العلماء وأقوالهم، حتى إنَّه من الصعوبة البالغة تحديد مصادره التي نقل منها في كتاب واحد[٣]، فكيف إذا كان الأمر متعلق بقضية كقضية الإعجاز، وكانت هذه القضية غير محصورة في كتاب من كتبه؛ وإنما هي

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٨/١٠٦)، والحاكم في «المستدرك»، كتاب التفسير رقم (٣٧٣٧) وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) التبيان (ص٤٤٠).

(٣) انظر على سبيل المثال: ما أثبته المحقق لكتاب «إعلام الموقعين» الشيخ أبو عبيدة مشهور في مقدمة تحقيقه للكتاب (١/ ٨٤).

استخلاص من جميعها؟ ثم كيف إذا كانت هذه القضية لها تشعبات كثيرة، وتدرس من خلال علوم مختلفة؟ لا شك أن هذا أمر من الصعوبة بمكان؛ خاصة أنَّ الإمام ابن القيِّم ليس من عادته دائمًا أن يصرح بمن ينقل عنه.

ولا سبيل لمعرفة مصادره التي نقل عنها، واستفاد منها حصيلته العلمية المتعلقة بإعجاز القرآن، **إلا أن يرجع إلى أمور:**

١ ـ أن يكون الإمام ابن القيِّم صرح بنقله عن كتاب، أو عن عالم.

٢ ـ أن يتضح من خلال المقارنة بكتب من سبقه أنه استفاد تلك الفكرة منها.

٣ ـ أن يكون له نقل من كتاب في سائر علومه ـ غير علم إعجاز القرآن ـ وذلك الكتاب، من مَظَانِّ علم إعجاز القرآن، أو يستفاد منه في هذا العلم، فحريٌّ أن يكون استفاد منه[1].

٤ ـ أن يكون قد نقد فكرة أو رأيًا لعالم في ما يختص بإعجاز القرآن، فيعلم من خلال ذلك أنه اطلع على رأيه.

من خلال هذه المعطيات نستطيع تحديد مصادر ابن القيِّم التي استفاد منها آراءه في ما يتعلق بإعجاز القرآن[2]، ونثبت في هذا المبحث ما يتعلق بمصادره من النصوص الشرعية، **ويحسن أن تصنف على ثلاثة أصناف:**

---

(١) استعان الباحث لمعرفة ذلك: بما ذكره الشيخ بكر أبو زيد ﷺ في كتابه «ابن قيِّم الجوزية حياته آثاره موارده» وكذلك ما كتبه الشيخ: مشهور بن حسن في مقدمة تحقيقه لكتاب «إعلام الموقعين».

(٢) يبقى هذا التحديد تقريبيًا، لا يعد حصرًا لمصادر ابن القيِّم في علم إعجاز القرآن؛ وذلك لما ذكر من الصعوبات.

أولًا: كتب التفسير وعلوم القرآن.

ثانيًا: كتب الحديث وشروحه.

ثالثًا: كتب عامة في علوم الشريعة.

أولًا: كتب التفسير وعلوم القرآن:

١ - استخراج الجدل لابن الحنبلي[(١)(٢)].

٢ - إعجاز القرآن للخطابي[(٣)].

٣ - إعجاز القرآن للباقلاني[(٤)].

---

(١) عبد الرحمٰن بن نجم بن عبد الوهاب الجزري، المشهور بابن الحنبلي، عالم بفقه الحنابلة، مؤرخ، واعظ. له كتبٌ، منها «أسباب الحديث»، و«الإنجاد في الجهاد»، و«تاريخ الوعاظ»، و«أقيسة النبي المصطفى». توفي سنة ٦٣٤هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (١٩/ ٥٤)، الأعلام (٣/ ٣٤٠).

(٢) من خلال المقارنة بين ما ذكره ابن القيِّم عن الجدل في القرآن في كتابه «الصواعق المرسلة»، وبين كتاب ابن الحنبلي «استخراج الجدل» يظهر أن هناك توافق بين ما ذكره ابن الحنبلي وبين ما ذكر ابن القيِّم. انظر: الصواعق المرسلة (٢/ ٤٦٠).

(٣) عموم دراسة ابن القيِّم لإعجاز القرآن تفيد بأنه يسير على المنهج الذي سار عليه الخطابي ﷺ، وأثناء تتبعي لمواضع الإعجاز في كتب ابن القيِّم عثرت على عبارات في وصف إعجاز القرآن موافقة لعبارات الخطابي، مثلًا يقول الخطابي - في وصفه للقرآن -: «... ولا يرى في صورة العقل أمر أليق منه، مودعًا أخبار القرون الماضية، وما نزل من مثلات الله بمن عصى وعاند منهم، منبئًا عن الكوائن المستقبلة في الأعصار الباقية من الزمان، جامعًا في ذلك بين الحجة والمحتج له، والدليل والمدلول عليه. ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه، وإنباء عن وجوب ما أمر به ونهى عنه. ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور، والجمع بين أشتاتها حتى تنتظم وتتسق أمر تعجز عنه قوى البشر...»، بيان إعجاز القرآن للخطابي (ص٢٨)، ويقول ابن القيِّم ﷺ: «فالقرآن العظيم قد اجتمع فيه ما لم يجتمع في غيره، فإنه هو الدعوة والحجة، وهو الدليل والمدلول عليه، وهو الشاهد والمشهود له، وهو الحكم والدليل، وهو الدعوى والبيِّنة». مدارج السالكين (٤/ ٤٧٣).

(٤) انظر: الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٩٥).

٤ - إعراب القرآن للنحاس[(١)(٢)].

٥ - أمثال القرآن للماوردي[(٣)(٤)].

٦ - البسيط للواحدي[(٥)(٦)].

٧ - تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة[(٧)(٨)].

٨ - تفسير ابن تيمية[(٩)].

٩ - تفسير ابن المنذر[(١٠)(١١)].

---

(١) أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي المصري النحوي، المشهور بأبي جعفر النحاس: مفسر، أديب، له تصانيف كثيرة، منها: «الناسخ والمنسوخ»، و«إعراب القرآن» و«شرح المعلقات» وغيرها. توفي سنة ٣٣٨هـ. انظر: الوافي بالوفيات (٧/ ٢٣٧)، شذرات الذهب (٧/ ٢٠٣)، الأعلام (١/ ٢٠٨).

(٢) انظر: التبيان (ص١٩).

(٣) أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري، المعروف بالماوردي، الشافعي، كان إمامًا في الفقه، والأصول، والتفسير، بصيرًا بالعربية، من مصنفاته: «الحاوي»، و«الإقناع»، و«النكت والعيون» توفي سنة ٤٥٠هـ. انظر: وفيات الأعيان (٣/ ٢٨٢)، شذرات الذهب (٥/ ٢١٩)، الأعلام (٤/ ٣٢٧).

(٤) هناك تشابه كبير بين دراسة ابن القيِّم لأمثال القرآن في كتابه «إعلام الموقعين» وبين كتاب الماوردي «أمثال القرآن»، فلعله استفاد منه. انظر: إعلام الموقعين (٢/ ٢٧٠).

(٥) أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي، صاحب (التفسير)، صنف التفاسير الثلاثة: «البسيط»، و«الوسيط»، و«الوجيز»، وصنف كذلك «الإغراب في الإعراب»، وغيرها. توفي ٤٦٨هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (١٨/ ٣٤٢)، الوافي بالوفيات (٢٠/ ١٠٢)، شذرات الذهب (٥/ ٢٩١).

(٦) انظر: التبيان (ص١٩).

(٧) عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدِّينوري، الإمام العلّامة الكبير، ذو الفنون، صاحب «إعراب القرآن»، «غريب القرآن»، «غريب الحديث»، وغير ذلك من المصنفات العديدة المفيدة. توفي سنة ٣٢٢هـ. انظر: وفيات الأعيان (٣/ ٤٢)، بغية الوعاة (٢/ ٦٤)، شذرات الذهب (١/ ٢٦).

(٨) انظر: إعلام الموقعين (١/ ٢٩١).

(٩) أسماء مؤلفات ابن تيمية (ص٨).

(١٠) أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري، الفقيه، له «المبسوط» في الفقه، وكتاب «الأشراف في اختلاف العلماء»، وكتاب «الإجماع»، وغير ذلك. توفي سنة ٣١٩هـ. انظر: وفيات الأعيان (٤/ ٢٠٧)، سير أعلام النبلاء (١٤/ ٤٩٢)، تذكرة الحفاظ (٣/ ٥).

(١١) انظر: مفتاح دار السعادة (٣/ ١٨٨).

١٠ ـ تفسير أبي عيسى الرماني[(١)].

١١ ـ تفسير ابن جرير الطبري[(٢)(٣)].

١٢ ـ تفسير عبد بن حميد[(٤)(٥)].

١٣ ـ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي[(٦)(٧)].

١٤ ـ حجج القرآن للجاحظ[(٨)].

١٥ ـ حقائق التفسير للسلمي[(٩)(١٠)].

---

(١) انظر: مفتاح دار السعادة (١/ ١٤٦).

(٢) محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الطبري، أبو جعفر، الإمام المؤرِّخ المفسِّر الكبير صاحب «التفسير»، و«التاريخ»، أحد الأئمة الأعلام، يحكم بقوله، جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره. توفي سنة ٣١٠هـ. انظر: وفيات الأعيان (٤/ ١٩١)، وتذكرة الحفاظ (٢/ ٢٠١)، وشذرات الذهب (١/ ٢٩).

(٣) انظر: التبيان (ص٢٠).

(٤) عبد بن حميد بن نصر الإمام الحافظ أبو محمد الكسي، مصنف «المسند» و«التفسير» وغير ذلك. توفي سنة ٢٤٩هـ. انظر: تذكرة الحفاظ (٢/ ٨٩)، شذرات الذهب (٣/ ٢٢٧).

(٥) انظر: الصواعق المرسلة (٤/ ١٥٣٨).

(٦) محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي، أبو عبد الله، القرطبي من كبار المفسرين، إمامًا علمًا، حسن التصنيف، جيد النقل، من كتبه: «قمع الحرص بالزهد والقناعة» و«التذكار في أفضل الأذكار» و«التذكرة بأحوال الموتى وأحوال الآخرة». توفي سنة ٦٧١هـ. انظر: الوافي بالوفيات (٢/ ٨٧)، شذرات الذهب (٧/ ٥٨٤)، الأعلام (٥/ ٣٢٢).

(٧) انظر: اجتماع الجيوش الإسلامية (ص٤٠٦).

(٨) نقد ابن القيِّم رأي الجاحظ في كتابه «حجج القرآن» والذي يرى فيه أن القرآن لا يشتمل على شيء من الجدل. انظر: مفتاح دار السعادة (١/ ٤٥٤).

(٩) محمد بن الحسين بن محمد بن موسى الأزدي السلمي النيسابوري، من علماء الصوفيَّة. وتفسيره على طريقة المتصوفة. توفي سنة ٤١٢هـ. انظر: تذكرة الحفَّاظ (٣/ ١٦٦)، شذرات الذهب (٥/ ٦٧)، الأعلام (٦/ ٩٩).

(١٠) انظر: الصواعق المرسلة (٢/ ٦٩٦).

١٦ ـ زاد المسير لابن الجوزي[(١)][(٢)].

١٧ ـ غريب القرآن لابن قتيبة[(٣)].

١٨ ـ الكشاف للزمخشري[(٤)][(٥)].

١٩ ـ الكشف والبيان للثعلبي[(٦)][(٧)].

٢٠ ـ النكت والعيون (تفسير الماوردي)[(٨)].

٢١ ـ مجاز القرآن لأبي عبيدة[(٩)].

٢٢ ـ المحرر والوجيز لابن عطية[(١٠)][(١١)].

---

(١) أبو الفرج عبد الرحمٰن بن علي بن محمد المعروف بابن الجوزي، الحنبلي الواعظ المتفنّن، له تصانيف كثيرة في التفسير، والحديث، والفقه، والزهد، والوعظ، وغير ذلك. ومن تصانيفه: «زاد المسير في علم التفسير» و«المنتظم» و«الموضوعات». توفي سنة ٥٩٧هـ. انظر: وفيات الأعيان (٣/ ١٤٠)، الوافي بالوفيات (١٨/ ١٠٩)، شذرات الذهب (٦/ ٥٤٠).

(٢) انظر: التبيان (ص٢٩٢). (٣) انظر: الفوائد (ص٤).

(٤) أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري، النحوي اللغوي المفسر المعتزلي، الإمام الكبير، إمام عصره من غير مدافع، تشدُّ إليه الرحال في فنونه. له تصانيف كثيرة، منها: «الكشاف»، و«أساس البلاغة»، و«المفصل» في النحو. توفي سنة ٥٣٨هـ. انظر: وفيات الأعيان (٥/ ١٦٨)، سير أعلام النبلاء (٢٠/ ١٥١)، شذرات الذهب (٦/ ١٩٤).

(٥) انظر: اجتماع الجيوش الإسلامية (ص٤٨).

(٦) أحمد بن محمد بن إبراهيم أبو إسحاق النيسابوري الثعلبي صاحب التفسير. توفي سنة ٤٢٧هـ. انظر: وفيات الأعيان (١/ ٧٩)، الوافي بالوفيات (٧/ ٢٠١)، بغية الوعاة (١/ ٣٥٦).

(٧) انظر: اجتماع الجيوش الإسلامية (ص٣٣٧).

(٨) انظر: مفتاح دار السعادة (١/ ١٤٧). (٩) انظر: التبيان (ص٥٥).

(١٠) عبد الحق ابن الحافظ أبي بكر غالب بن عطية المحاربي، الغرناطي، كان إمامًا في الفقه، وفي التفسير، وفي العربية، ذكيًا فطنًا مدركًا، من أوعية العلم. توفي سنة ٥٤١هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (١٩/ ٥٨٧)، الوافي بالوفيات (١٨/ ٤٠)، الأعلام (٣/ ٢٨٢).

(١١) انظر: مفتاح دار السعادة (١/ ١٤٦).

٢٣ ـ معالم التنزيل للبغوي[١][٢].

٢٤ ـ معاني القرآن للفراء[٣][٤].

٢٥ ـ معاني القرآن للأخفش[٥][٦].

٢٦ ـ مفاتح الغيب للرازي[٧][٨].

ثانيًا: كتب الحديث وشروحه:

١ ـ تهذيب الكمال للمزي[٩].

٢ ـ سنن ابن ماجه[١٠].

---

(١) أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي، الشافعي، المفسر، كان بحرًا في العلوم، له تصانيف عدة، منها: «شرح السُّنَّة» و«المصابيح»، وكتاب «التهذيب» في المذهب. توفي سنة ٥١٦هـ. انظر: وفيات الأعيان (٢/ ١٣٦)، سير أعلام النبلاء (١٩/ ٤٣٩)، شذرات الذهب (٦/ ٧٩).

(٢) انظر: اجتماع الجيوش الإسلامية (ص٤١٠).

(٣) أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الأسلمي، المعروف بالفراء، كان أبرع الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب: صنف «كتاب الحدود» في النحو، وله كتاب «البهي» في اللغة أيضًا. توفي سنة ٢٠٧هـ. انظر: وفيات الأعيان (٦/ ١٧٦)، سير أعلام النبلاء (١٠/ ١٢١)، شذرات الذهب (٣/ ٣٩).

(٤) انظر: التبيان (ص٢٠).

(٥) أبو الحسن سعيد بن مسعدة البلخي، ثم البصري، المشهور بالأخفش الأوسط. أخذ عن: الخليل بن أحمد، ولزم سيبويه حتى برع. وله كتب كثيرة في: النحو، والعروض، ومعاني القرآن، منها: «الأوسط» و«المقاييس» في النحو. وغير ذلك. توفي سنة ٢١٥هـ. انظر: وفيات الأعيان (٢/ ٣٨٠)، سير أعلام النبلاء (١٠/ ٢٠٦).

(٦) انظر: التبيان (ص١٩).

(٧) أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين البكري الرازي، الملقب بفخر الدين، الفقيه الشافعي، فريد عصره، فاق أهل زمانه في علم الكلام والمعقولات وعلم الأوائل، وله مصنفات كثيرة منها: «نهاية الإيجاز» و«المحصول» و«نهاية العقول». توفي سنة ٦٠٦هـ. انظر: وفيات الأعيان (٤/ ٢٤٨)، سير أعلام النبلاء، (٢١/ ٥٠٠)، شذرات الذهب (٧/ ٤٠).

(٨) انظر: مفتاح دار السعادة (١/ ١٤٦).

(٩) انظر: جلاء الأفهام (ص٧٥).

(١٠) انظر: إعلام الموقعين (٣/ ٣٠١).

٣ - سنن البيهقي[(١)(٢)].

٤ - سنن أبي داود[(٣)].

٥ - سنن الترمذي[(٤)].

٦ - سنن النسائي[(٥)].

٧ - شرح صحيح البخاري لابن بطال[(٦)(٧)].

٨ - شرح النووي[(٨)] لصحيح مسلم[(٩)].

٩ - صحيح البخاري[(١٠)].

١٠ - صحيح مسلم[(١١)].

---

(١) هو: العلامة، الثبت: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي الخسروجردي، الخراساني. الحافظ الأصولي، الديِّن الورع، واحد زمانه في الحفظ، وفرد أقرانه في الإتقان والضبط. بورك له في علمه، وانقطع مقبلًا على الجمع والتأليف، وصنف التصانيف النافعة. منها: «السنن الكبرى»، و«دلائل النبوة»، و«شعب الإيمان»، وغيرها. توفي ٤٥٨هـ. **انظر**: سير أعلام النبلاء (١٨/ ١٦٣).

(٢) **انظر**: إعلام الموقعين (٢/ ٧٠).

(٣) شرح الإمام ابن القيِّم بعض أحاديث سنن أبي داود، في كتابه «شرح سنن أبي داود».

(٤) **انظر**: إعلام الموقعين (٣/ ١٨٢)، بدائع الفوائد (١/ ١٤٣).

(٥) **انظر**: إعلام الموقعين (٣/ ٣٧٩).

(٦) العلامة، أبو الحسن علي بن خلف بن بطال البكري، القرطبي، ويعرف: بابن اللجام. كان من أهل العلم والمعرفة، عني بالحديث العناية التامة؛ شرح «الصحيح» في عدة أسفار، توفي سنة ٤٤٩هـ. **انظر**: سير أعلام النبلاء (١٨/ ٤٧).

(٧) **انظر**: زاد المعاد (١/ ٤٦٧).

(٨) يحيى بن شرف بن مري بن حسن الحزامي الحوراني، النووي، الشافعي، أبو زكريا، محيي الدين: العلامة المشهور، اشتهر بالفقه والحديث. من مؤلفاته: «رياض الصالحين»، «منهاج الطالبين» وغيرها. توفي سنة ٦٧٦هـ. **انظر**: الأعلام (٨/ ٤٩).

(٩) **انظر**: الرسالة التبوكية (ص٢١٢). (١٠) هداية الحيارى (ص١٠٢).

(١١) **انظر**: تحفة المودود بأحكام المولود (ص٣٦٨).

١١ ـ مختصر سنن أبي داود للمنذري[١].

١٢ ـ معالم السنن للخطابي[٢].

١٣ ـ مسند أحمد[٣].

١٤ ـ مسند البزار[٤][٥].

١٥ ـ مسند ابن أبي شيبة[٦][٧].

١٦ ـ مسند أبي يعلى الموصلي[٨][٩].

١٧ ـ مسند عبد بن حميد[١٠].

---

(١) استدرك الإمام ابن القيِّم على المنذري في هذه المختصر بمؤلف سمي «شرح سنن أبي داود».

(٢) زاد المعاد (٥/ ٥٥٦).

(٣) انظر: بدائع الفوائد (٢/ ٣٣٧).

(٤) أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البصري، البزار، من العلماء بالحديث، وهو صاحب (المسند) الكبير. توفي سنة ٢٩٢هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (١٣/ ٥٥٤)، ميزان الاعتدال (١/ ١٢٤)، الأعلام (١/ ١٨٩).

(٥) زاد المعاد (١/ ٤٧).

(٦) أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة إبراهيم، صاحب المسند والمصنف، وهو من أقران: أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وكان بحرًا من بحور العلم، وبه يضرب المثل في قوة الحفظ، حدث عنه: الشيخان، وأبو داود، وابن ماجه، وقال عنه أحمد بن حنبل: أبو بكر صدوق. توفي سنة ٢٣٥هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (١١/ ١٢٢)، تذكرة الحفَّاظ (٢/ ١٦).

(٧) انظر: بدائع الفوائد (٣/ ٥٢٢).

(٨) أبو يعلى الموصلي أحمد بن علي بن المثنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي، صاحب «المسند» و«المعجم» وَله تصانيف فِي الزّهد. توفي سنة ٣٠٧هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (١٤/ ١٧)، تذكرة الحفاظ (٢/ ١٩٩)، الوافي بالوفيات (٧/ ١٥٨).

(٩) انظر: روضة المحبين (ص٣٥٦).

(١٠) انظر: الصواعق المرسلة (٤/ ١٥٣٨).

ثالثًا: كتب عامّة في علوم الشريعة:

١ - الأحكام للآمدي[(١)(٢)].

٢ - إحياء علوم الدين للغزالي[(٣)(٤)].

٣ - أقسام اللذات للرازي[(٥)].

٤ - دلائل النبوة لأبي نعيم[(٦)(٧)].

٥ - دلائل النبوة للبيهقي[(٨)].

٦ - الرسالة للشافعي[(٩)].

٧ - السيرة النبوية لابن إسحاق[(١٠)].

---

(١) أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمد بن سالم التغلبي الفقيه الأصولي، الملقب سيف الدين الآمدي، توفي سنة ٥٨٣هـ. برع في الأصول والفقه، وعلوم الكلام، من مصنفاته: «الأحكام». انظر: وفيات الأعيان (٣/ ٢٩٠).

(٢) انظر: إعلام الموقعين (٣/ ٢٧٩).

(٣) محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي، الشافعي، المعروف بأبي حامد الغزالي، صاحب التصانيف، ذو ذكاء مفرط. له كتب كثيرة منها: «لباب الإحياء» اختصر فيه «إحياء علوم الدين» و«التجريد في كلمة التوحيد». توفي سنة ٥٢٠هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (١٩/ ٣٢٢)، الوافي بالوفيات (١/ ٢١٣)، الأعلام (١/ ٢١٥).

(٤) انظر: مفتاح دار السعادة (١/ ٤٥٥).

(٥) انظر: المصدر السابق (١/ ٤٥٦).

(٦) أبو نعيم المهراني: أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران. الإمام، الحافظ، الثقة، العلامة، شيخ الإسلام، من أئمة الحديث، له مصنفات كثيرة منها: «صفة الجنة»، و«دلائل النبوة»، و«فضائل الصحابة». وغيرها. توفي سنة ٤٣٠هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (١٧/ ٤٦٢).

(٧) انظر: هداية الحيارى (ص٢١٧).

(٨) انظر: المصدر السابق (ص٢٣٢).

(٩) انظر: إعلام الموقعين (٢/ ٥٣).

(١٠) انظر: هداية الحيارى (ص٤٣).

٨ ـ السيرة النبوية لابن هشام[(١)][(٢)].

٩ ـ المحلى لابن حزم[(٣)][(٤)].

١٠ ـ مقالات الإسلاميين للأشعري[(٥)][(٦)].

١١ ـ كتب شيخ الإسلام. **وبخاصة:**

١ ـ الجواب الصحيح في من بدل دين المسيح[(٧)].

٢ ـ الرد على المنطقيين[(٨)].

٣ ـ نقض المنطق[(٩)].

هذه بعض الكتب التي استقى الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ أفكاره حول ما يتعلق بقضيَّة الإعجاز، ولا شك أنَّه طالع أكثر من هذه الكتب، ويتضح ذلك من خلال آرائه في هذه القضية، وردوده على المخالفين، وعسى أن يكون في ما أثبت إبراز ولو لجزء من مراجع ابن القيِّم التي استمدَّ علمه منها. والله أعلم.

---

(١) العلامة، النحوي، الأخباري، أبو محمد البصري، السدوسي ـ وقيل: الحميري ـ نزيل مصر. هذب السيرة النبوية، وسمعها من زياد البكائي صاحب ابن إسحاق، وخفف من أشعارها، وروى فيها مواضع عن عبد الوارث بن سعيد، وأبي عبيدة. توفي سنه ٢١٨هـ. **انظر**: سير أعلام النبلاء (١٠/ ٤٢٨).

(٢) **انظر**: المصدر السابق (ص٤٠).

(٣) أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد، المعروف بابن حزم الظاهري: عالم الأندلس في عصره، له مصنفات منها: «الفصل في الملل والأهواء والنحل» و«المحلى» و«الناسخ والمنسوخ». توفي سنة ٤٥٧هـ. **انظر**: وفيات الأعيان (٣/ ٣٣٠)، سير أعلام النبلاء (١٨/ ٢١١)، تذكرة الحفاظ (٣/ ٢٢٧)، الأعلام (٤/ ٢٥٥).

(٤) **انظر**: إعلام الموقعين (٢/ ٣٦٧).

(٥) أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر الأشعري البصري المتكلم، رئيس الأشاعرة واليه ينسبون، له من التصانيف: في الأصول والملل والنحل ومن كتبه: «اللمع» و«الموجز» و«إيضاح البرهان» و«التبيين عن أصول الدين». توفي سنة ٣٢٤هـ. **انظر**: وفيات الأعيان (٣/ ٢٨٤)، الوافي بالوفيات (٢٠/ ١٣٧)، الأعلام (٤/ ٢٦٣).

(٦) **انظر**: الصواعق المرسلة (٢/ ٧٨٢).

(٧) **انظر**: هداية الحيارى (ص٣٨٦).

(٨) **انظر**: مفتاح دار السعادة (١/ ٤٨٤).

(٩) **انظر**: المصدر السابق.

المَبْحَثُ الثَّانِي

مصادر ابن القيِّم من اللغة العربية

الإمام ابن القيِّم بارع في علوم العربية متمكِّن منها، عالم بأسرارها ودقائقها، فاهم بأحوالها وقواعدها، له فيها اليد الطولى، إضافة إلى ذلك؛ ما تميَّز به من ذوق لغوي رفيع، وحسٌّ فريد في معرفة أساليب اللغة، وجمال ألفاظها.

وإذا تأملت كتبه لا يساورك أدنى شك في ذلك؛ بل يأخذك العجب لما تراه من تمكُّن عظيم، وبراعة في العربية لهذا العالم، فعندما يناقش مسألة لغوية، تراه يحشد الأقوال فيها، ويرجح، ويستدرك، ويرد بالدليل المقنع، وليس من المبالغة والتزيُّد إن وصف بأنه من أساطين العربية في عصره، يقول الدكتور طاهر سليمان: «وأهم خصائص منهج ابن القيِّم في تناول اللغة ـ وهي الخصائص التي تميز بها عن اللغويين السابقين ـ أنه حاول وصل اللغة بالحياة، **بمعنى**: أن دراسة اللغة وتناولها ليس مقصورًا على الأبواب والتقسيمات التي تعارف عليها النحاة واللغويون، وغلبت على مصنفاتهم، وإنما تتجاوز ذلك باستخدام هذه الدراسة في العلوم المختلفة تؤثر فيها وتتأثر بها، بعبارة أخرى: هي محاولة وصل الدرس اللغوي... بغيره من العلوم ومحاولة الإفادة منه في دراسة النصوص»(١).

هذا المنهج الذي سار عليه الإمام ابن القيِّم فتح له مجالًا رحبًا

---

(١) ابن قيِّم الجوزية جهوده في الدرس اللغوي (ص٦٨) «باختصار».

لتأمل آيات القرآن، والنظر في عظيم بلاغته وفصاحته، التي بلغت مرتبة الإعجاز، وأكسب بحثه لبلاغة القرآن وأساليبه منزلة خاصة، ومزيَّة ومرتبة مرموقة.

ولم يصل الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ إلى هذه المكانة اللغوية إلا بعد أن طالع كتب السابقين من أئمة العربية، وتمعَّن تراثهم، ونظر في مباحثهم ومسائلهم، يظهر ذلك جليًّا عند ما نراه يسرد أقوالهم، ويستشهد بها عند إيضاحه لمعاني القرآن، ويرجح ويستدل لما يراه موافق للمعنى الصحيح، ومن أمثلة ذلك ما ذكره عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «تضمن هذا المثل ناعقًا؛ أي: مصوتًا بالغنم وغيرها، ومنعوقًا به وهو الدواب، فقيل: الناعق العابد وهو الداعي للصنم، والصنم هو المنعوق به المدعو، وإن حال الكافر في دعائه كحال من ينعق بما لا يسمعه، هذا قول طائفة منهم عبد الرحمٰن بن زيد وغيره[(١)].

واستشكل صاحب الكشاف وجماعة معه هذا القول، وقالوا: قوله: ﴿إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ لا يساعد عليه؛ لأن الأصنام لا تسمع دعاءً ولا نداءً[(٢)].

وقد أجيب عن هذا الاستشكال بثلاثة أجوبة:

أحدها: أن «إلا» زائدة، والمعنى: بما لا يسمع دعاء ونداء، قالوا: وقد ذكر ذلك الأصمعي[(٣)] في قول الشاعر:

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٣/ ٤٩). (٢) الكشاف (١/ ٣٥٧).

(٣) أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي الأصمعي البصري. الإمام، العلامة، الحافظ، حجة الأدب، لسان العرب. أحد أئمة اللغة والغريب والأخبار =

حَرَاجِيجُ ما تَنْفَكُ إلا مُنَاخَةً[1]

أي: ما تنفك مُناخة، وهذا جواب فاسد، فإن «إلا» لا تزاد في الكلام.

الجواب الثاني: أن التشبيه وقع في مطلق الدعاء لا في خصوصيات المدعو.

الجواب الثالث: **أن المعنى**: أن مثل هؤلاء في دعائهم آلهتهم التي لا تفقه دعاءهم كمثل الناعق بغنمه، فلا ينتفع من نعيقه بشيء، غير أنه هو في دعاء ونداء. وكذلك المشرك ليس له من دعائه وعبادته إلا العناء.

وقيل: **المعنى**: ومثل الذين كفروا كالبهائم التي لا تفقه مما يقول الراعي أكثر من الصوت؛ فالراعي هو داعي الكفار، والكفار هم البهائم المنعوق بها.

قال سيبويه[2]: «**المعنى**: ومثلك يا محمد ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به[3]؛ وعلى قوله فيكون **المعنى**: ومثل الذين كفروا وداعيهم كمثل الغنم والناعق بها...»[4].

هذا يعطينا صورة عن تتبع الإمام ابن القيِّم لأقوال علماء اللغة، والنظر في آرائهم والإفادة من ذلك في توضيح معاني القرآن.

= والملح والنوادر. توفي سنة ٢١٦هـ. انظر: إنباه الرواة (٢/ ١٩٧)، بغية الوعاة (٢/ ١١٢).

(١) **حَرَاجِيجُ**: جمع حرجوج، وهو الضامر من الإبل. انظر: تهذيب اللغة (٤/ ٨٥). والبيت لذي الرمة هذا شطره الأول، وشطره الثاني:

.... عَلَى الخَسْفِ أو نَرمِي بِهَا بَلَدًا قِفْرًا

انظر: ديوانه (ص٨٦).

(٢) أبو بشر، عمرو بن عثمان بن قنبر، الملقب سيبويه: إمام النحاة، وأول من بسط علم النحو في كتابه «الكتاب»، وقد أخذ النحو عن الخليل بن أحمد. توفي سنة ١٨٠هـ.

(٣) انظر: الكتاب (١/ ٢١٢).

(٤) إعلام الموقعين (٢/ ٣١٤).

ومن الأمثلة أيضًا ما حكاه من أقوال للنحاة في إعراب «أي» في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٦٩] يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «للنحاة فيه أقوال:

أحدها: قول الخليل[1]: أنه مبتدأ و«أشد» خبره ولم يعمل «لننزعن» فيه لأنه محكي، والتقدير الذي يقال فيه: ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ وعلى هذا فـ«أي» استفهامية.

الثاني: قول يونس[2]: أنه رفع على جهة التعليق للفعل السابق كما لو قلت: علمت أنه أخوك، فعلق الفعل عن الفعل كما تعلق أفعال القلوب.

الثالث: قول سيبويه: «إن «أي» هنا موصولة مبنية على الضم، والمسوغ لبنائها حذف صدر صلتها، وعنده أصل الكلام أيهم هو أشد، فلما حذف صدر الصلة بنيت على الضم تشبيهًا لها بالغايات التي قد حذفت مضافاتها كـ«قبل وبعد»، وعلى كل واحد من الأقوال إشكالات نذكرها ثم نبين الصحيح...»[3].

ثم أخذ ابن القيِّم يناقش الأقوال، ويذكر الشواهد، ويسرد أقوال العلماء ويرجح ويعلل ـ بما يطول به الكلام لو أوردناه ـ، والمراد أن الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ اهتمَّ بهذا المصدر اهتمامًا بالغًا، لما فيه من مساعدة لفهم معاني القرآن، والتأمل في أسرار نظمه وبلاغته، ومعرفة عظيم معجزته، ومباينته لكلام العرب.

---

(١) أبو عبد الرحمٰن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي، إمام اللغة والأدب والنحو، من تصانيفه: كتاب «العين» و«العروض» و«النقط والشكل»، وعنه أخذ سيبويه النحو. توفي سنة ١٧٠هـ. انظر: معجم الأدباء (٣/ ١٢٦٩)، تاريخ العلماء النحويين (١/ ١٢٣)، وفيات الأعيان (٢/ ٢٤٤).

(٢) يونس بن حبيب أبو عبد الرحمٰن الضبي النحوي البصري. بارع في النحو، سمع من العرب، روى عن الخليل وسيبويه، وله قياس في النحو، ومذاهب يتفرد بها. توفي سنة ١٨٢هـ. انظر: إنباه الرواة (٤/ ٧٤)، بغية الوعاة (٢/ ٣٦٥).

(٣) بدائع الفوائد (١/ ١٦٠).

ومن خلال التتبع اتضح أن الإمام ابن القيِّم له مصادر كثيرة يستقي منها دروسه اللغوية، كان لها دور في إكسابه تلك الثروة اللغوية الكبيرة، **ونذكر في ما يلي بعضها كي تظهر لنا خلفيته اللغوية بوضوح:**

١ ـ ألفية ابن مالك[(١)(٢)].

٢ ـ التسهيل لابن مالك[(٣)].

٣ ـ الجمل للجرجاني.

٤ ـ الحيوان للجاحظ[(٤)].

٥ ـ الخصائص لابن جني[(٥)(٦)].

٦ ـ الصحاح للجوهري[(٧)(٨)].

---

(١) جمال الدين أبو عبد الله، محمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي الجياني. أحد الأئمة في علوم العربية والنحو. صاحب الألفية، ألف مؤلفات عدة منها: «تسهيل الفوائد» و«الضرب في معرفة لسان العرب». توفي سنة ٦٧٢هـ. **انظر**: الأعلام (٦/ ٢٣٣).

(٢) ذكر الصفدي في ترجمته لابن القيِّم ﷺ أنه قرأ: «الجرجانية» و«ألفية ابن مالك»، و«الكافية الشافية»، وبعض «التسهيل» على أبو الفتح البعلبكي؛ ومن هنا يُعلم أن هذه الكتب من مصادر ابن القيِّم في العربية. **انظر**: الوافي بالوفيات (٢/ ١٩٥).

(٣) نقل ابن القيِّم عن ابن مالك عدة مواضع في كتابه «بدائع الفوائد»، فلعلها من شرح التسهيل. **انظر**: بدائع الفوائد (١/ ١٨٥). ط: عالم الفوائد.

(٤) شفاء العليل (٢/ ٥٤٦).

(٥) أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي النحوي المشهور، من أحذق أهل الأدب وأعلمهم بالنحو والتصريف، ولم يتكلم أحد في التصريف أدق كلامًا منه، له تصانيف كثيرة منها: «سر الصناعة» و«شرح ديوان المتنبي» و«المحتسب». توفي سنة ٣٩٢هـ. **انظر**: معجم الأدباء (٤/ ١٥٨٥)، وفيات الأعيان (٣/ ٢٤٦)، الأعلام (٤/ ٢٠٤).

(٦) **انظر**: جلاء الأفهام (ص٢٠٥).

(٧) إسماعيل بن حماد الجوهري، كان أديبًا فاضلًا، الإمام أبو نصر الفارابي كان من أعاجيب الزمان، ذكاءً وفطنة وعلمًا. توفي سنة ٣٩٣هـ. **انظر**: إنباه الرواة (١/ ٢٣٢)، بغية الوعاة (١/ ٤٤٦).

(٨) **انظر**: الصواعق المرسلة (١/ ١٧٥).

٧ ـ العين للخليل[١].

٨ ـ الكافية الشافية لابن مالك.

٩ ـ الكامل للمبرد[٢][٣].

١٠ ـ الكتاب لسيبويه[٤].

١١ ـ المحكم لابن سيده[٥][٦].

١٢ ـ نتائج الفكر للسهيلي[٧][٨].

١٣ ـ النظم لأبي علي الجرجاني[٩][١٠].

هذه أهم المراجع اللغوية التي رجع إليها ابن القيِّم، وهناك أمارات

---

(١) انظر: بدائع الفوائد (٢/ ٥٦٤). ط: عالم الفوائد.

(٢) أبو العباس محمد بن يزيد الثمالي الأزدي، المعروف بالمبرد النحوي، وكان إمامًا في النحو واللغة، وله مصنفات عدة منها: «الروضة» و«اختيار الشعر» و«الكافي». توفي سنة ٢٨٦هـ. انظر: تاريخ العلماء النحويين (١/ ٥٣)، معجم الأدباء (٦/ ٢٦٧٨)، وفيات الأعيان (٤/ ٣١٣).

(٣) انظر: التبيان (ص٤٣٤).

(٤) انظر: إعلام الموقعين (٢/ ٢١٤).

(٥) أبو الحسن علي بن إسماعيل المعروف بابن سيده المرسي، كان إمامًا في اللغة والعربية حافظًا وقد جمع في اللغة جموعًا، من ذلك كتاب «المخصص» في اللغة، وكتاب «الأنيق» في شرح الحماسة، وغير ذلك من المصنفات النافعة. توفي سنة ٤٥٨هـ. انظر: معجم الأدباء (٤/ ١٦٤٨)، وفيات الأعيان (٣/ ٣٣٠)، الأعلام (٤/ ٢٦٣).

(٦) انظر: بدائع الفوائد (٣/ ٨٨٨). ط: عالم الفوائد.

(٧) عبد الرحمٰن بن عبد الله بن أحمد، العلامة الأندلسي المالكي النحوي، الحافظ العلم، كان عالمًا بالعربية واللغة والقراءات بارعًا في ذلك، تصدر للإقراء والتدريس والحديث، وبَعُدَ صيته وجلَّ قدره، جمع بين الرواية والدراية، صاحب التصانيف، منها: «الروض الأنف»، و«شرح الجمل». توفي سنة ٥٨١هـ. انظر: الوافي بالوفيات (١٨/ ١٠٠)، شذرات الذهب (١/ ٤٦).

(٨) انظر: بدائع الفوائد (١/ ٦٩).

(٩) أبو علي الحسن بن يحيى بن نصر الجرجاني كان مسكنه «بجرجان». انظر: تاريخ جرجان (١/ ١٨٧).

(١٠) انظر: التبيان (ص١٧).

ودلائل تدل على أنه اطلع على أكثر من هذه الكتب، منها أنه نقل عن الأصمعي كثيرًا، وكذلك أبي علي الفارسي[(١)]، وكذلك يظهر أنه اطّلع على ما كتبه علماء الكلام من المعتزلة والأشاعرة وغيرهم؛ يدل على ذلك نقده الكثير لآرائهم التي ضلّوا بها عن المنهج الصحيح، من ذلك قوله بعد أن قرَّر عدد من أوجه الإعجاز التي سكت عنها المتكلمون: «... فتأمل هذا الموضع من إعجاز القرآن تعرف فيه قصور كثير من المتكلمين، وتقصيرهم في بيان إعجازه...»[(٢)]. وهذا الموضع صريح في مطالعة ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ لكتاباتهم، ولكنه في موضع آخر بيَّن ذلك بتحديد وإيضاح أكثر. ففي حديثه عن معارضة الفلاسفة لأدلة المتكلمين، ومعارضة المتكلمين لأدلة الفلاسفة وإبطال هؤلاء لأدلة هؤلاء، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «... المقصود أن الطرق التي سلكها الفلاسفة... قد أفسدها عليهم المتكلمون، وبينوا خطأهم فيها بصريح العقل كما هو موجود في كتب هؤلاء وهؤلاء فانظر ما فعل أبو علي[(٣)]، وأبو هاشم[(٤)] والقاضي عبد الجبار، والأشعري، وأبو بكر ابن الباقلاني، وأبو الحسين

---

(١) الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن سليمان أبو علي الفارسي النحوي الإمام الْمَشْهُور، واحد زمانه في علم العربية، قدم بغداد فاستوطنها، وأخذ من علماء النحو بها، وعلت منزلته في النحو، من تصانيفه: «الحجة»، و«التذكرة»، و«أبيات الإعراب». توفي سنة ٣٧٧هـ. إنباه الرواة (١/ ٣٠٨)، بغية الوعاة (١/ ٤٩٦).

(٢) بدائع الفوائد (٤/ ٩١١).

(٣) محمد بن أحمد بن عبد الله المتكلم أبو علي بن الوليد المعتزلي البصري، من كبار المعتزلة، ضعيف الحديث. توفي في سنة ٤٧٨هـ. **انظر**: ميزان الاعتدال (٣/ ٤٦٤)، الوافي بالوفيات (٢/ ٦١).

(٤) عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب الجبّائي، من كبار المعتزلة، عالم بالكلام. له آراء انفرد بها. وتبعته فرقة سميت «البهشمية». توفي سنة ٣٢١هـ. **انظر**: شذرات الذهب (٤/ ١٠٦)، الأعلام (٤/ ٧).

البصري[١]، والجويني[٢]، والغزالي...»[٣]. هذا يدلنا على أن الإمام ابن القيِّم طالع كتب القوم ونظر فيها، وعرف آراءهم ومذاهبهم.

كذلك من المصادر اللغوية التي اعتمد عليها ابن القيِّم - في بحثه لأسرار لغة القرآن -، كتب التفسير المهتمة بهذا الجانب؛ من معاني القرآن، وأعاريبه، ونقل في مسائل البيان من تفسير الزمخشري، وتفسير ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ، فقد استفاد منهما كثيرًا في ما يختص ببلاغة القرآن ونظمه.

ثم إن ابن القيِّم لم يقتصر على الرجوع إلى كتب العلماء فحسب، بل رجع إلى المورد الذي يستقي منه أولئك العلماء دراساتهم، فرجع إلى أقوال العرب وأشعارهم، فكثيرًا ما يستشهد بها، ويحتج ويحتكم إليها، ويرى أنه الأصل الأول لمعرفة أساليب الكلام الفصيح.

من خلال ذلك كله تكون لابن القيِّم تلك الثروة اللغوية الكبيرة، واكتسبت دراساته اللغوية لمعاني القرآن تلك القيمة الرائدة؛ واستحقت النظر والتتبع والدراسة، لينهل طلبة العلم من معينها، ويسيروا على المنهج الذي سار عليه هذا الإمام الكريم.

---

(١) محمد بن علي بن الطيب شيخ المعتزلة، وصاحب التصانيف الكلامية، أبو الحسين. كان فصيحًا بليغًا، عذب العبارة، يتوقد ذكاء. وله اطلاع كبير. من مصنفاته: «المعتمد في أصول الفقه». توفي سنة ٤٣٦هـ. انظر: وفيات الأعيان (٤/ ٢٧١)، سير أعلام النبلاء (١٧/ ٥٨٧).

(٢) عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجُوَيْني، أبو المعالي الإمام الكبير، شيخ الشافعية، إمام الحرمين، وكان يحضر دروسه أكابر العلماء، صاحب التصانيف، منها: «فقه الشافعية»، و«الورقات». توفي سنة ٤٧٨هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (١٤/ ٤٦٨)، الوافي بالوفيات (١٩/ ١١٦).

(٣) الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٩٥) «باختصار».

ٱلْفَصْلُ ٱلثَّانِي

منهجه في الاستدلال على إعجاز القرآن الكريم

ويشتمل على أربعة مباحث:

- المبحث الأول: نظر ابن القيِّم في القرائن والأحوال.
- المبحث الثاني: نظر ابن القيِّم في الأحكام والحكم.
- المبحث الثالث: تحليل ابن القيِّم النص لغويًّا.
- المبحث الرابع: دراسة ابن القيِّم الأساليب القرآنية.

المَبْحَثُ الأَوَّلُ

نظر ابن القيِّم في القرائن والأحوال

النظر في أحوال هذه المعجزة العظيمة، والقرائن المصاحبة لها، يورث زيادة في التصديق بها، وتعظيمًا لها ولشأنها، فقد أحاطها الله ﷻ بجملة من القرائن والدلائل، لتزيل الشكوك عن القلوب، وتمنح النفس استعدادًا لتقبُّل هذه المعجزة، فعندما نستعرض الوقائع التاريخية، والأحداث الغريبة التي تزامنت مع مبعث الرسول ﷺ، ندرك أنها كانت مقدمات، وإرهاصات لبعثته، ودلائل على صدق هذه المعجزة؛ بل إنها من أعظم الدلائل كما يرى الإمام ابن القيِّم[(١)]. يقول رحمه الله: «من شأنه - سبحانه - أن يقدِّم بين يدي الأمور العظيمة مقدِّماتٍ تكون كالمدخل إليها، المنبهة عليها». ثم ذكر جملة من الشواهد لذلك، ثم قال رحمه الله: «وهكذا ما قدَّم بين يدي مبعث رسوله ﷺ، من قصة أصحاب الفيل، وبشارات الكهان به. وغير ذلك»[(٢)].

حرص الإمام ابن القيِّم رحمه الله في تقريره لإعجاز القرآن، أن يستدل بالأحداث التاريخية المصاحبة لبعثة الرسول ﷺ، كما استدل بحاله وصفاته على صدق رسالته وصحة نبوته، فهو يرى أن الدلائل المشاهدة أعظم الأدلة؛ لأنه يستحيل فيها الكذب والتدليس[(٣)].

---

(١) انظر: التبيان في أيمان القرآن (ص٣١٧).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٣٦٩).

(٣) استدل بهذا في حديثه عن الدلائل على وجود الخالق ﷻ، وبيَّن من تلك الدلائل رسله الذين أرسلهم إلى الخلق. انظر: بدائع الفوائد (٤/ ٩٣٤).

فمن الأدلة التي يستدل بها الإمام ابن القيِّم دائمًا على إعجاز القرآن، أميَّة الرسول ﷺ، وأنَّه لم يعهد عنه أنه تلقى علمًا أو أخبارًا من أخبار الأمم السالفة عن أحد، لا من أهل الكتاب ولا من غيرهم. ثم إنه ﷺ جاء بما يوافق أخبار الأنبياء من قبله، فمجيء ذلك دون تلقي وتعلم ينبئ على أن مصدر تلقي هذا النبي، هو نفس المصدر الذي تلقى عنه الأنبياء الذين من قبله، يقول رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ١٠١]، يقول: «تأمل هذه الآية، كيف تجد تحته برهانًا عظيمًا على صدقه، وهو مجيء الرسول الثاني، بما يطابق ما جاء به الرسول الأول، ويصدقه مع تباعد زمانهما وشهادة أعدائه، وإقرارهم له بأنه لم يتلقه من بشر، ولهذا كانوا يمتحنونه بأشياء يعلمون أنه لا يخبر بها إلا نبي، أو من أخذ عنه، وهم يعلمون أنَّه لم يأخذ عن أحد البتَّة، ولو كان ذلك لوجد أعداؤه السبيل إلى الطعن عليه، ولعارضوه بمثل ما جاء به، إذ من الممكن أن لو كان ما جاء به مأخوذًا عن بشر؛ أن يأخذوا هم عن ملك، أو عن نظيره، فيعارضوا ما جاء به.

والمقصود أن مطابقة ما جاء به لما أخبر به الرسول الأول من غير مواطأة، ولا تشاعر، ولا تلقي منه، ولا ممن أخذ عنه، دليل قاطع على صدق الرسولين معًا.

ونظير هذا أن يشهد رجل بشهادة، فيخبر فيها بما يقطع به أنَّه صادق في شهادته صدقًا لا يتطرق إليه شبهة، فيجيء آخر من بلاد أخرى لم يجتمع بالأول، ولم يتواطأ معه، فيخبر بنظير تلك الشهادة سواء، مع القطع بأنَّه لم يجتمع به، ولا تلقاها عن أحد اجتمع به، فهذا يكفي في صدقه إذا تجرد الأخبار، فكيف إذا اقترن بأدلة يقطع بها بأنه صادق،

أعظم من الأدلة التي اقترنت بخبر الأول؟ فيكفي في العلم بصدق الثاني مطابقة خبره لخبر الأول، فكيف إذا بشر به الأول؟ فكيف إذا اقترن بالثاني من البراهين الدالة على صدقه نظير ما اقترن بالأول وأقوى منها؟»[(١)].

ومن الاستدلالات التي يستدل بها الإمام ابن القيِّم على معجزة القرآن، عجز العرب الذين هم أهل الفصاحة والبيان عن الإتيان بمثل هذا القرآن الذي تحداهم به، فلم يثبت عن أحد منهم أنه جاء بما يقارب فصاحته؛ فإن عجزهم عن ذلك، مع توفر الدواعي، والهمة الشديدة لديهم، يدل على صدق هذه المعجزة، وصدق من جاء بها.

كذلك من الاستدلالات التي يستدل بها الإمام ابن القيِّم رحمه الله على عظمة معجزة النبي ﷺ، ويدعو إلى التفكر فيها؛ انتشار هذا الدين وظهوره، ودخول الناس فيه أفواجًا طائعين غير مكرهين[(٢)]، فمن المحال أن يُجمع أولئك البشر كلهم على تصديق هذا الدين إن كان مفترى، ومن المحال ـ أيضًا ـ أن يجهلون حاله من الصحة والكذب، يقول رحمه الله: «كيف جاز على هؤلاء الأمم ـ التي لا يحصيهم إلا الله الذين قد بلغوا مشارق الأرض ومغاربها، على اختلاف طبائعهم وأغراضهم، وتباين مقاصدهم ـ الإطباقُ على اتِّباع من يكذب على الله، وعلى رسله، وعلى العقل، ويحلُّ ما حرم الله ورسله، ويحرِّم ما أحله الله ورسله»[(٣)].

فانتشار هذا الدين وظهوره على أديان الأرض جميعها، دليل على صدق هذه المعجزة، وصدق من جاء بها؛ وقرينة ظاهرة بادية لكل متأمل في أحوال هذه المعجزة.

---

(١) بدائع الفوائد (٤/ ٩٢٠).

(٢) انظر: هداية الحيارى (ص٢٩).

(٣) هداية الحيارى (ص٣٦).

بهذه الاستدلالات وبغيرها[١]، يستدل الإمام ابن القيِّم على إعجاز هذا القرآن، وأن إعجازه حق لا مراء فيه ولا شك؛ وهذه الطريقة منهج اتبعه لبيان صحة تلك المعجزة.

❁ ❁ ❁

(١) المراد هو بيان منهج ابن القيِّم من خلال استدلاله بالقرائن والأحوال، والتتبع قد يطول، ويعتريه شيء من التكرار.

المبحث الثاني

نظر ابن القيِّم في الأحكام والحكم

أنزل الله ﷻ كتابه متضمنًا جملةً من الأحكام والأسرار، وهذه الأحكام والأسرار تتضمن حكمًا ومقاصد، والمتأمل فيها يدرك أنَّ هذا القرآن تنزيل من حكيم حميد، ويدرك أنَّ هذا القرآن معجزة لهذه الأمة، معجزة كافية عن كل آية ومعجزة.

ومن خلال ذلك نظر الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ إلى المقاصد القرآنية، والأسرار الشرعية الواردة فيه، وتأمل حسن تلك الأحكام، وموافقتها للفطر، وإدراك العقل حسنها، وسمو أهدافها، فبيَّن أنَّ ذلك من أعظم الأدلة على إعجاز هذه الشريعة، وإعجاز هذا القرآن، الذي هو أساس تلك الشريعة، وبيَّن أنه من لم ينتبه لذلك الحسن؛ فقد حُرم الاستدلال بهذه الشريعة على صدق معجزة محمد ﷺ[1]، يقول رَحِمَهُ اللهُ: «... وأنَّه سبحانه دعا عباده على ألسنة رسله إلى ما وضع في العقول حسنه، والتصديق به جملة، فجاء الوحي مفصلًا مبينًا، ومقررًا ومذكِّرًا؛ لما هو مركوزٌ في الفطر والعقول، ولهذا سأل هِرَقْل أبا سفيان ـ في جملة ما سأله عنه من أدلَّة النبوة وشواهدها، عمَّا يأمر به النبي ﷺ ـ، فقال: «بم يأمركم؟» قال: «يأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف»، فجعل ما يأمر به من أدلة نبوَّته، فإن أكذب الخلق وأفجرهم من ادَّعى النبوة وهو كاذب فيها على الله، وهذا مُحال أن يأمر إلا بما يليق بكذبه وفجوره وافترائه،

(١) انظر: مفتاح دار السعادة (٢/ ٣٢٨).

فدعوته تليق به، وأما الصَّادق البارُّ الذي هو أصدق الخلق، وأبرُّهم، فدعوته لا تكون إلا أكمل دعوة، وأشرفها، وأجلَّها، وأعظمها؛ فإن العقول والفطر تشهد بحسنها، وصدق القائم بها»[١].

ومن الدلائل على معجزة هذا القرآن؛ ما ورد فيه من أدلة عقلية، ترشد العقول إلى أنَّ هذا الكلام منزل من خالق هذا الكون، العالم بأسراره المدبر المصرف له، ومن خلال هذا استدل الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ على صدق ما جاء به رسول الله ﷺ، وصحة هذه المعجزة يقول رَحِمَهُ اللَّهُ ـ عند توضيحه للبيان الذي أرشد الله عَزَّ وَجَلَّ به عباده إليه ليستدلوا به على توحيده وكماله عَزَّ وَجَلَّ، يقول في ذلك ـ: «البيان نوعان: بيان بالآيات المسموعة المتلوة، وبيان بالآيات المشهودة المرئية. وكلاهما أدلة وآيات على توحيد الله وأسمائه وصفاته وكماله، وصدق ما أخبرت به رسله عنه، ولهذا يدعو عباده بآياته المتلوة، إلى التفكر في آياته المشهودة، ويحضهم على التفكر في هذه وهذه، وهذا البيان هو الذي بعثت به الرسل، وجُعِلَ إليهم، وإلى العلماء بعدهم، وبعد ذلك يضلُّ الله من يشاء، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤]»[٢]، وعلى هذا فإن من الحكم والأسرار التي جاءت الأدلة العقلية في القرآن لأجلها؛ تنبيه العقول على صحة هذه المعجزة، وإرشاد الناس على صدقها، وأنها من عند العليم الخبير سبحانه.

الاستدلال بالأحكام والحكم أصل من الأصول التي يسير عليها ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان إعجاز القرآن، ومنهج مطَّرد عنده، واستطاع رَحِمَهُ اللَّهُ أن يستدل بهذا الأصل على جملة من وجوه إعجاز القرآن، وبيَّن عِظَم هذه المعجزة من خلال الأسرار والأحكام التي جاءت بها.

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٣٤٠).

(٢) مدارج السالكين (١/ ١٠٦).

المَبْحَثُ الثَّالِثُ

تحليل ابن القيِّم النص لغويًّا

الإعجاز اللغوي من أبرز أوجه إعجاز القرآن الكريم، ويحتاج تأمله إلى معرفة بأسرار اللغة ولطائفها، وإتقان كافة علومها، حتى يتمكن الناظر في القرآن من إدراك بيانه وفصاحته وأساليبه المتعددة، ويعي قوة نظمه التي أعجزت أفصح الفصحاء، وأبلغ البلغاء.

والإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ ـ كما تقدم ـ لديه تمكُّن وتميُّز في علوم العربية، ولديه سبر لدقيق معانيها، وفقه بأسرارها وعجائبها.

وعند قرائتك لكلامه رَحِمَهُ اللهُ في تحليله للمسائل اللغوية والبيانية التي وردت في القرآن؛ تجد نفس التحرير للمسائل، يخالطه دقة الفهم وعمقه ولطفه، انظر ـ مثلًا ـ إلى تحليله لسر ختم لفظة: «اللَّهُمَّ» بالميم، فجاء أثناء بحثه لها بأسرار عجيبة. فعرض في البداية أقوال أهل اللغة في تلك الميم، فذكر رأي الخليل وسيبويه وهو: أنها عوضٌ عن ياء النداء التي حذفت فأصل اللفظة عندهم: يا الله[(١)].

ثم ذكر رأي الفراء والذي يرى أن هذه الميم عوضٌ عن جملة محذوفة، والتقدير: «يا الله أُمَّنا بخير»[(٢)].

ثم ساق أقوال العلماء والردود والمناقشات التي دارت حول هذه المسألة. ثم قال بعد ذلك: «وقيل زيدت الميم للتعظيم والتفخيم كزيادتها

(١) انظر: الكتاب (١/ ٢٥) و(٢/ ١٩٦). (٢) انظر: معاني القرآن (١/ ٢٠٣).

في «زُرْقُم» لشديد الزرقة «وابنم» في الابن، وهذا القول صحيح، ولكن يحتاج إلى تتمة، وقائله لحظ معنى صحيحًا لا بد من بيانه، وهو: أنَّ الميم تدل على الجمع، وتقتضيه، ومخرجها يقتضي ذلك، وهذا مطرد على أصل من أثبت المناسبة بين اللفظ والمعنى، كما هو مذهب أساطين العربية، وعقد له أبو الفتح بن جني بابًا في «الخصائص»[(١)]، وذكره عن سيبويه، واستدل عليه بأنواع من تناسب اللفظ والمعنى، ثم قال: «ولقد مكثت برهة يَرِدُ عليَّ اللفظ لا أعلم موضوعه، وآخذ معناه من قوة لفظه، ومناسبة تلك الحروف لذلك المعنى، ثم أكشفه، فأجده كما فهمته، أو قريبًا منه»[(٢)].

ثم أخذ الإمام ابن القيِّم يبيِّن أسرار حرف الميم، وما تتضمنه طريقة مخرج هذا الحرف من الضم والجمع، والتكثير... وأطنب في ذلك محللًا ومناقشًا ومستدلًا.

وخلاصة رأيه أن هذه الميم زيدت للتعظيم والتفخيم، وهذا قولٌ وجيه؛ فيه كشف عن سرٍّ بديع من أسرار هذه اللغة[(٣)].

هذا المنهج مطَّرد في بحث ابن القيِّم لأسرار لغة القرآن، وهو منهج فيه تفصيل واستطراد، ولا يخلو ذلك الاستطراد من فوائد عظيمة دقيقة.

ومن الأمثلة لمنهجه هذا: بحثه لأسرار النظم في سورة الكافرون فقد ذكر في ذلك عشر فوائد:

الأولى: السر في التعبير بحرف «ما» في قوله تعالى: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ [الكافرون: ٢].

---

(١) انظر: الخصائص (١/ ٢٦٥). (٢) جلاء الأفهام (ص٢٠٥).
(٣) انظر: المصدر السابق (ص٢٠٥ ـ ٢٠٧).

ثم أخذ يفصِّل في ذلك، ثم ذكر جملة من الفوائد التي تضمنتها السورة فقال:

«**فائدة ثانية**: تكرير الأفعال في هذه السورة.

ثم فائدة ثالثة: كونه كرَّر الفعل في حقِّ نفسه بلفظ المستقبل في الموضعين، وأتى في حقهم بالماضي.

ثم فائدة رابعة: وهي أنَّه جاء في نفي عبادة معبودهم عنه بلفظ الفعل المستقبل، وجاء في نفي عبادتهم معبوده باسم الفاعل.

ثم فائدة خامسة: وهي كون إيراده النفي هنا بـ«لا» دون «لن».

ثم فائدة سادسة: وهي أن طريقة القرآن في مثل هذا أن يقرن النفي بالإثبات، فينفي عبادة ما سوى الله ويثبت عبادته، وهذا هو حقيقة التوحيد، والنفي المحض ليس بتوحيد.

وكذلك الإثبات بدون النفي فلا يكون التوحيد إلا متضمنًا للنفي والإثبات، وهذا حقيقة (لا إله إلا الله) فلمَ جاءت هذه السورة بالنفي المحض وما سرُّ ذلك؟

وفائدة سابعة: وهي ما حكمة تقديم نفي عبادته عن معبودهم ثم نفي عبادتهم عن معبوده؟

وفائدة ثامنة: وهي أنَّ طريقة القرآن إذا خاطب الكفار أن يخاطبهم بالذين كفروا والذين هادوا كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ [التحريم: ٧] ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ﴾ [الجمعة: ٦]، ولم يجئ يا أيها الكافرون إلا في هذا الموضع فما وجه هذا الاختصاص؟

وفائدة تاسعة: وهي «هل» في قوله: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، معنى زائد على النفي المتقدم فإنَّه يدل على اختصاص كلٍّ

بدينه ومعبوده، وقد فهم هذا من النفي فما أفاد التقسيم المذكور.

وفائدة عاشرة: وهي تقديم ذكرهم ومعبودهم في هذا التقسيم والاختصاص، وتقديم ذكر شأنه وفعله في أول السورة...»[١].

بعد أن عرض الإمام ابن القيِّم هذا العرض المجمل لنظم السورة أخذ يفصِّل في أسرار تلك الفوائد، ويحلل، ويناقش مناقشةً ممتعةً، أوضح من خلالها عظمة إعجاز القرآن، ودقته وبيانه[٢].

وبالجملة فإن الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ استخدم حصيلته اللغوية في بيان أسرار القرآن، والكشف عن دقائق بلاغته، بآراء جميلة، وتحليلات مفيدة.

❁ ❁ ❁

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٣٩).
(٢) المصدر السابق (١/ ١٤٠).

المَبْحَثُ الرَّابِعُ

دراسة ابن القيِّم لأساليب القرآن

اشتمل القرآن الكريم على جملة من الأساليب البديعية، التي تجاوزت حدود البيان الذي يعرفه العرب، فجاءت بمعانٍ جليلة، وفوائد عظيمة، ورغم أن تلك الأساليب موجودة في كلام العرب؛ إلا أنها جاءت في القرآن بطريقة متميزة، تدل على أن هذا القرآن ليس من كلام البشر، وأنه بلغ بفصاحته، وبيانه، ومعانيه درجة الإعجاز، التي تجاوزت حدود بلاغة العرب وفصاحتهم.

ولقد اهتمَّ الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ بدراسة تلك الأساليب وتحليلها، وبيان ما تميزت به، وحرص رَحِمَهُ اللَّهُ على الكشف عن أسرارها وعن ما اشتملت عليه، حتَّى إن هذا الجانب من جوانب الإعجاز؛ لَيعدُّ من أكبر مواضع دراسته التي بذل فيها الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ وسعه لبيان إعجاز القرآن، فلقد أفرد في بعض تلك الأساليب مصنفًا خاصًا، وضمَّن بعضها أجزاء من كتبه، ومن شدة شغفه بدراستها وَعَدَ في بعض كتبه أن يكتب في بعض أساليب القرآن مؤلفًا خاصًا، ومن ذلك: أسلوب الأمثال في القرآن؛ فقد ذكر في بداية كتاب «الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية» أنه يعتزم على كتابة مؤلف فيها فقال: «فإنَّ ضرب الأمثال مما يستأنس به العقل لتقريبها المعقول من المشهود، وقد قال تعالى وكلامه المشتمل على أعظم الحجج وقواطع البراهين ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وقد اشتمل منها على

بضعة وأربعين مثلًا، وكان بعض السلف إذا قرأ مثلًا لم يفهمه يشتد بكاؤه ويقول: لست من العالمين. وسنفرد لها إن شاء الله كتابًا مستقلًا متضمنًا لأسرارها ومعانيها وما تضمنته من كنوز العلم وحقائق الإيمان، وبالله المستعان وعليه التكلان»(١).

وقد بحث الإمام ابن القيِّم ضمن كتابه «إعلام الموقعين» أسرار تلك الأمثال، دراسةً دقيقةً شاملةً، أوضح من خلالها فوائدها، وجمال أسلوبها، وقوة معانيها.

ومن الأساليب القرآنية التي بحثها الإمام ابن القيِّم بحثًا مستفيضًا، أسلوب القسم، فقد ألَّف فيه كتابًا خاصًّا، بيَّن من خلاله أسرار أقسام القرآن، وبين الفروق التي تميَّزت بها عن كلام العرب، واستقصى وبذل جهده في ذلك، فأصبح كتابه العمدة في هذا الباب من علوم القرآن.

ومن الأساليب التي اهتم ببيانها، أسلوب الجدل في القرآن، فقد نقض رحمه الله مزاعم المتكلمين، التي تشير إلى أن القرآن لا يشتمل على شيء من الجدل، وبيَّن أسرار جدل القرآن، وجمال مناظراته، وقوة حجته، وبيَّن عظم دلالتها على إعجاز القرآن، يقول رحمه الله واصفًا ذلك الأسلوب: «وهذا من كنوز القرآن التي ضلَّ عنها المتأخرين، فوضعوا لهم شريعة جدلية، فيها حق وباطل، ولو أعطوا القرآن حقه لرأوه وافيًا بهذا المقصود كافيًا فيه مغنيًا عن غيره»(٢).

وكذلك من الأساليب القرآنية العظيمة التي تأملها الإمام ابن القيِّم كثيرًا، وبيَّن عظمها، وجلالها، ودلالتها على إعجاز القرآن، وقوة معانيه؛ أسلوب الأدلة العقلية التي اشتمل القرآن عليها، فقد بحث الإمام

---

(١) الكافية الشافية (ص٢٦).

(٢) بدائع الفوائد (٤/ ٩٠٢).

ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتبه كثيرًا أسرار تلك الأدلة، وأرشد إلى تأملها، واعتزم أن يبحث بعض تلك الأدلة في مصنفٍ مستقل، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن تأمل أدلَّة المعاد في القرآن وجدها... مغنية بحمد الله ومنته... عباده عن غيرها، كافية شافية موصلة إلى المطلوب بسرعة، متضمنة للجواب عن الشبه العارضة لكثير من الناس.

وإن ساعد التوفيق من الله كتبت في ذلك سفرًا كبيرًا، لما رأيت في الأدلة التي أرشد إليها القرآن من الشفاء والهدى، وسرعة الإنصاف، وحسن البيان، والتنبيه على مواضع الشبه والجواب عنها بما ينثلج له الصدر؛ ويشرق معه اليقين»[1]. وقد أفاض القول في بعض الأدلة العقلية التي جاء بها القرآن في كتابه «الصواعق المرسلة»، وبيَّن جملة من أسرارها[2].

استطاع الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ من خلال بحثه لأساليب القرآن إيضاح عظمة هذه المعجزة، وبيان مباينة هذا القرآن لكلام العرب، وعلو فصاحته، وقوة بلاغته، وأن البشر لن يستطيعوا الإتيان بمثل أيسر جزء منه ولو اجتمعوا لذلك.

وكانت دراسة الإمام ابن القيِّم لأساليب القرآن دراسةً متميزةً فيها شمولية وتوسع، ثريَّة بالفوائد والدقائق، ولهذا حَظيت باهتمامٍ بالغٍ من قبل الدارسين لأساليب القرآن، وأصبحت منهجًا وطريقًا يترسمون خطاه.

❁ ❁ ❁

---

(١) الرسالة التبوكية (ص٢١٧) «باختصار».

(٢) انظر: الصواعق المرسلة (٢/ ٤٦٠).

البَابُ الثَّانِي

دلائل وأوجه إعجاز القرآن الكريم عند ابن القيِّم

ويشتمل على خمسة فصول:

- الفصل الأول: دلائل إعجاز القرآن الكريم عند ابن القيِّم.
- الفصل الثاني: أوجه الإعجاز العامة التي تكلم فيها ابن القيِّم.
- الفصل الثالث: الإعجاز البلاغي عند ابن القيِّم.
- الفصل الرابع: الإعجاز اللفظي عند ابن القيِّم.
- الفصل الخامس: الإعجاز الأسلوبي.

ٱلْفَصْلُ ٱلْأَوَّلُ

دلائل إعجاز القرآن الكريم
عند ابن القيِّم

ويشتمل على أربعة مباحث:

- المبحث الأول: القرآن آية صدق النبي ﷺ.
- المبحث الثاني: التحدي بالقرآن.
- المبحث الثالث: تأثير القرآن في النفوس.
- المبحث الرابع: جمع القرآن لعلوم الكتب السابقة.

المَبْحَثُ الأَوَّلُ

القرآن آية صدق النبي ﷺ

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

- المطلب الأول: الاستدلال بحاله ﷺ على صدق ما جاء به.
- المطلب الثاني: اشتمال القرآن الكريم على أنواع العلوم وأمهات المطالب العالية.
- المطلب الثالث: بشارات الأنبياء السابقين بنبوته ﷺ.

* * *

المَطْلَبُ الأَوَّلُ

الاستدلال بحاله ﷺ على صدق ما جاء به

ولد النبي ﷺ في مكَّة، وشبَّ وترعرع فيها، ونشأ بين ظهراني قبيلته قريش، مشاركًا لهم مناشط الحياة المختلفة، يسافر ويروح ويغدو معهم، يحضر ندواتهم[(١)]، ويشاركهم في حربهم وسلمهم[(٢)].

ولقد أتاحت تلك الخلطة لقومه أن يتعرفوا على سلوكه وسجاياه، ويعرفوا ما طبع عليه من كريم الخصال، وترفعٍ عن الدنايا، بعيدًا عن ما كان يفعله قومه من شركيات وفواحش، ذو خلقٍ رفيع، عهدوا عنه الصدق والأمانة، ذو رأي سديد، وعقل راجح، لما أراد قومه ﷺ بناء

---

(١) من ذلك مشاركته ﷺ في حلف الفضول. انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٥٤).

(٢) من ذلك مشاركته ﷺ في حرب الفجار. انظر: المصدر السابق (١/ ٢٢٠).

الكعبة اختلفوا في وضع الحجر الأسود، فكلهم يريد أن يكون له شرف وضعه، حتى كادوا أن يقتتلوا؛ فتراضوا أن يحتكموا إلى أول من يدخل عليهم من باب البيت، «فكان النبي ﷺ أول داخل، فقالوا: «هذا الأمين رضينا، هذا محمد» فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، قال ﷺ: (**هَلُمّ إليَّ ثَوْبًا**)، فأتي به، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده، ثم قال: (**لِتَأْخُذَ كُلُّ قَبِيلَةٍ بِنَاحِيَةٍ مِنَ الثوْب، ثُمَّ ارْفَعُوهُ جَمِيعًا**)، ففعلوا: حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده»[١].

كانت قريش تدرك أنَّ محمدًا ﷺ مميَّز بين فتيان قومه، بتلك الأخلاق والمناقب، بل إن من يتصف بتلك الصفات بين ذلك المجتمع الجاهلي الملوَّث، لهو أمر عجيب[٢]، وهذا ما تنبهت إليه خديجة ﵂ بفطنتها وذكائها عندما نزل الوحي على النبي ﷺ في غار حراء؛ فجاءها وهو خائف. وقال: (**لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي**) فقالت خديجة: «كَلَّا وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ»[٣].

فاستدلت بحاله وصفاته الحسنة على أن من حاله كذلك لا يخزيه الله.

فحال النبي ﷺ قبل البعثة من أعظم أدلة صدقه، وصدق ما سيحمله إلى قومه من هذا الدين، وبهذا يستدل العلماء الذين تكلموا في دلائل النبوة، وفي إعجاز القرآن الكريم.

وقد استدل الإمام ابن القيِّم ﵀ بجملة من أحوال النبي ﷺ على

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٢٣).   (٢) انظر: المصدر السابق (١/ ١٠٧).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ حديث رقم (٣).

صدق نبوته، وصحة معجزته، ويرى رَحِمَهُ اللَّهُ أن من تمام حكمة الله تعالى؛ أن جعل رسوله ﷺ على تلك السجايا، وجعل قومه يعرفون منه ذلك النبل، والخلق العالي، فذلك من أعظم الدلائل على صدق نبوته، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ ـ عند تفسيره لقوله الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] ـ: «وهذا من أعظم آيات نبوته ورسالته، لمن منحه الله فهمها»[١]. فكانت حياته ﷺ فيهم شاهدًا من شواهد نبوته، فنزل عليه الوحي وقريش مجمعة على تمام خلقه وعلوّ نسبه، لا يثلبه مثلب، ولا تشوبه شائبه[٢].

القرآن الكريم معجزة نبينا الكبرى، وآيته العظمى، يقول الباقلاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «الذي يوجب الاهتمام التام بمعرفة إعجاز القرآن، أن نبوة محمد ﷺ بنيت على هذه المعجزة»[٣].

وقد أكد الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ هذا المعنى، فأوضح أن القرآن الكريم دليلٌ واضحٌ لا يحتاج معه إلى دليل على نبوته ﷺ، ومعجزة تامة كافية عن كل معجزة. يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالقرآن العظيم قد اجتمع فيه ما لم يجتمع في غيره، فإنه الدعوة والحجة، وهو الدليل والمدلول عليه، وهو الشاهد والمشهود له، وهو الحكم والدليل، وهو الدعوى والبينة. قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هود: ١٧]؛ أي: من ربه، وهو القرآن. وقال تعالى: لمن طلب آية تدل على صدق رسوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ

---

(١) التبيان (ص٣١٧).

(٢) يدل على ذلك ما ورد في حديث أبي سفيان رضي الله عنه مع هرقل. انظر: صحيح البخاري. كتاب بدأ الوحي. باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ. حديث رقم (٧).

(٣) إعجاز القرآن للباقلاني (ص٨).

لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١ ـ ٥٢]، فأخبر سبحانه أن الكتاب الذي أنزله على رسوله يكفي عن كل آية ففيه الحجة والدلالة على أنه من الله، وأن الله سبحانه أرسل به رسوله»[١].

ويرى الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ أن من سُنَّة الله ﷻ، وعادته في إرسال الرسل؛ أن يؤيدهم بمعجزات؛ ثم إن الله تعالى يحيط تلك المعجزات بجملة من المصدقات والمؤكدات لها، لتزيل الشكوك من القلوب، وتملأها يقينًا وتصديقًا بصحتها، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «فهو الذي صَدَّقَ رسله وأنبياءه فيما بلغوا عنه وشهد لهم بأنهم صادقون، بالدلائل التي دلت على صدقهم قضاءً وخلقًا؛ فإنه سبحانه أخبر وخبره الصدق، وقوله الحق، أنه لا بد أن يرى العباد الآيات الأفقية والنفسية، ما يبين لهم أن الوحي الذي بلَّغته رسله حق، فقال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]؛ أي: القرآن؛ فإنه هو المتقدم في قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ [فصلت: ٥٢]، ثم قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]، فشهد سبحانه لرسله بقوله: أن ما جاء به حق، ووعده أن يرى العباد من آياته الفعلية الخلقية ما يشهد لذلك أيضًا»[٢].

جعل الله ﷻ حال نبيّه ﷺ من أعظم الشواهد على صدق نبوته، فقد «كان معلومًا من حال النبي ﷺ، أنه كان أميًا لا يكتب، ولا يحسن أن يقرأ»[٣]، وما جاء به أمر يستحيل أن يدرك بالقدرات الإنسانية

---

(١) مدارج السالكين (٤/٤٧٣).
(٢) مدارج السالكين (٤/٤٦٨).
(٣) إعجاز القرآن للباقلاني (ص٣٤).

المحدودة. يقول الباقلاني رَحِمَهُ اللهُ: «ونحن نعلم ضرورة أن هذا مما لا سبيل إليه، إلا عن تعلم؛ وإذ كان معروفًا أنه لم يكن ملابسًا لأهل الآثار، وحملة الأخبار، ولا مترددًا إلى التعلم منهم، ولا كان ممن يقرأ - فيجوز أن يقع إليه كتاب فيأخذ منه -، عُلِمَ أنه لا يصل إلى علم ذلك إلا بتأييد من جهة الوحي. ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ﴾ [الأنعام: ١٠٥]»[١].

فعلى هذا تكون أميّته ﷺ دليلًا قطعيًا على أن ما جاء به، ونسبه لربه تعالى صحيح قطعي الدلالة على نبوته، وأنه مبلغ موحى إليه من ربه، ليس هذا القرآن من تأليفه، أو قوله؛ وقد نبَّه القرآن الكريم على هذا الاستدلال كثيرًا، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «كان النبي أميًا لا يقرأ ولا يكتب»[٢].

قال البيضاوي رَحِمَهُ اللهُ: «إن ظهور هذا الكتاب الجامع لأنواع العلوم الشريفة من أمي لم يعرف بالقراءة والكتابة أمر خارق للعادة»[٣].

وقد بيَّن الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ أن أميَّته ﷺ، وحاله الذي عرفه عنه قومه قبل بعثته؛ من أعظم الاستدلالات التي استدل بها القرآن على صدق هذه المعجزة، وأن ما اشتمل عليه القرآن من معارف وعلوم تعجز الخلائق كلها عن المجيء بمثلها؛ دليل وشاهد على صدق ما جاء به، وأن ذلك من دلائل إعجازه، يقول رَحِمَهُ اللهُ عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني (ص٣٤).
(٢) تفسير الطبري (١٨/ ٤٢٥)، تفسير ابن أبي حاتم رقم (١٧٣٧١).
(٣) تفسير البيضاوي (٤/ ١٩٦).

شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦].

يقول: «**فتأمل هاتين الحجتين القاطعتين، تحت هذا اللفظ الوجيز:**

إحداهما: أن هذا من الله، لا من قبلي ولا هو مقدور لي، ولا من جنس مقدور البشر، وأن الله ﷻ لو شاء لأمسك عنه قلبي ولساني، وأسماعكم وأفهامكم، فلم أتمكن من تلاوته عليكم ولم تتمكنوا من درايته وفهمه.

الحجة الثانية: أني قد لبثت فيكم عمري إلى حين أتيتكم به، وأنتم تشاهدوني وتعرفون حالي، وتصحبوني حضرًا وسفرًا، وتعرفون دقيق أمري وجليله، وتتحققون سيرتي هل كانت سيرة من هو من أكذب الخلق وأفجرهم وأظلمهم؟

فإنه لا أكذب، ولا أظلم، ولا أقبح سيرة ممن جاهر ربه وخالقه بالكذب والفرية عليه، وطلب إفساد العالم، وظلم النفوس، والبغي في الأرض بغير الحق.

هذا وأنتم تعلمون أني لم أكن أقرأ كتابًا ولا أخطه بيميني، ولا صاحبت من أتعلم منه، بل صحبتكم أنتم في أسفاركم لمن تتعلمون منه[1]، وتسألونه عن أخبار الأمم والملوك وغيرها، ما لم أشارككم فيه بوجه، ثم جئتكم بهذا النبأ العظيم الذي فيه علم الأولين والآخرين، وعلم ما كان وما سيكون على التفصيل.

فأي برهان أوضح من هذا، وأي عبارة أفصح وأوجز من هذه العبارة المتضمنة له»[2].

---

(١) المقصود أنكم تترددون على من تتعلمون منه، ولم يكن ذلك مني، كما شاهدتم وعرفتم من حالي.

(٢) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٧٠).

إن المشركين مقرون في أنفسهم بصدق نبوة محمد ﷺ؛ لما علموا من حاله، ولم يصدهم عن الإيمان بما جاء به شك أو عدم تيقن بصحته؛ لكن ثمة أمور خارجة دفعت بهم لادعاء أن ما جاء به الرسول ﷺ افتراء على الله، وقد فضحهم الله ﷻ في كتابه حيث قال: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وقد ذكر الإمام ابن القيِّم رحمه الله جملة من الأسباب التي دفعت بأولئك المشركين إلى التكذيب بالقرآن ونبوة محمد ﷺ، فقال رحمه الله: «ومن أعظم هذه الأسباب: الحسد؛ فإنه داء كامن في النفس، ويرى الحاسد المحسود وقد فضل عليه، وأوتي ما لم يؤت نظيره فلا يدعه الحسد أن ينقاد له ويكون من أتباعه»[(١)]، ثم يقول رحمه الله: «وهذا السبب - وحده - كافٍ في رد الحق فكيف إذا انضاف إليه زوال الرياسات والمآكل...؟!

وقد قال المسور بن مخرمة: - وهو ابن أخت أبي جهل - لأبي جهل: يا خالي هل كنتم تتهمون محمدًا بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فقال: يا ابن أختي والله لقد كان محمد فينا وهو شاب يدعى الأمين، فما جربنا عليه كذبًا قط. قال: يا خال! فما لكم لا تتبعونه؟! قال: يا ابن أختي تنازعنا نحن وبنو هاشم الشرف، فأطعموا وأطعمنا، وسقوا وسقينا، وأجاروا وأجرنا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي. فمتى ندرك مثل هذه!!.

وقال الأخنس بن شريق يوم بدر لأبي جهل: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب، فإنه ليس ها هنا من قريش أحد غيري

---

(١) هداية الحيارى (ص٤٠).

وغيرك يسمع كلامنا؟ فقال أبو جهل: ويحك! والله إن محمدًا لصادق، وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهبت بنو قصي باللواء والحجابة والسقاية والنبوة فماذا يكون لسائر قريش؟!(١)»(٢).

دفعت تلك الأهواء الشخصية أولئك القوم إلى دفع الحق، ورده، وتكذيبه، واشتد بهم الحال ليحاولوا أن يثيروا الشبه حول ما جاء به ﷺ، من خلال الطعن في شخصه، فمرة يصفونه بالجنون، ومرة بالكهانة، ومرة يقولون إنه شاعر... إلى غير ذلك من الأوصاف الكاذبة المغرضة. وكل ما ادَّعى أولئك القوم دعوى قطعها الله ﷻ وأبطلها، وفضحهم، وبيَّن كذبهم، وأرشد الناس إلى تأمل ما جاء به ﷺ وتأمل حاله، فهو دليل على بطلان تلك الادعاءات الكاذبة.

ثم إن وصفهم لمن جاء بمثل هذا الكلام بالجنون، لهو من تمام السفه والحماقة، فإن هذا القول شاهد على زور صاحبه؛ لأن من جاء بمثل هذا القول الذي اشتمل على عظائم الأمور، واشتمل على علوم يعجز عنها العلماء، والمفكرون؛ ثم يتحدى به البشر قاطبة بعقلائهم، وعلمائهم أن يأتوا بمثله فيعجزون عن ذلك، لا يوصف من هذا حاله بالجنون؟!

وقد بيَّن الإمام ابن القيِّم رحمه الله هذا الدليل، ووضحه أتم إيضاح، يقول ـ عند تفسيره للقسم في قوله تعالى: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ [القلم: ١، ٢] ـ: «وأنت إذا طابقت بين هذا القسم والمقسم به؛ وجدته دالًّا عليه أظهر دلالة وأبينها، فإن ما سطر الكاتب بالقلم من أنواع العلوم التي يتلقاها البشر بعضهم عن بعض لا تصدر من

(١) تفسير الطبري (٩/ ٢٢٢)، وانظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٤٢).
(٢) هداية الحيارى (ص٤١) «باختصار».

مجنون، ولا تصدر إلا من عقلٍ وافرٍ، فكيف يصدر ما جاء به الرسول من هذا الكتاب الذي هو في أعلى درجات العلوم! بل العلوم التي تضمنها ليس في قُوَى البشر الإتيان بها ولا سيما من أميٍّ لا يقرأ كتابًا، ولا يخط بيمينه، مع كونه في أعلى أنواع الفصاحة، سليمًا من الاختلاف، بريئًا من التناقض، يستحيل من العقلاء كلهم ـ لو اجتمعوا في صعيدٍ واحدٍ ـ أن يأتوا بمثله، ولو كانوا على عقل رجل واحد منهم، فكيف يتأتى ذلك من مجنون لا عقل له يميز به ما عسى كثيرٌ من الحيوان أن يميزه، وهل هذا إلا من أقبح البهتان، وأظهر الإفك؟.

... ولو أن رجلًا أنشأ رسالةً واحدةً بديعةً، منتظمة الأول والآخر، متساوية الأجزاء، يصدق بعضها بعضًا، أو قال قصيدة كذلك، أو صنف كتابًا كذلك؛ لشهد له العقلاء بالعقل ولما استجاز أحدٌ رميه بالجنون، مع إمكان ـ بل وقوع ـ معارضتها، ومشاكلتها، والإتيان بمثلها، أو أحسن منها، فكيف يرمى بالجنون من أتى بما عجزت العقلاء كلهم ـ قاطبة ـ عن معارضته ومماثلته، وعرفهم من الحق ما لا تهتدي إليه عقولهم، بحيث أذعنت له عقول العقلاء، وخضعت له ألباب الألِبَّاء، وتلاشت في جنب ما جاء به، بحيث لم يسعها إلا التسليم له والانقياد والإذعان طائعة مختارة، وهي ترى عقولها أشد فقرًا وحاجة إلى ما جاء به، ولا كمال لها إلا بما جاء به؟! فهو الذي كمل عقولها كما يكمل الطفل برضاع الثدي»[1].

إن التناقض في أوصاف أولئك القوم لمن جاء بهذا القرآن شاهد على كذبهم وافترائهم، ودليل على أنهم إنما أرادوا تلبيس الحق، وصدّ الناس عنه، ثم إن أولئك القوم في وصفهم لهذا القرآن بالشعر،

---

(١) التبيان (ص٣١٢) «باختصار».

والكهانة، أو السحر؛ انطلقوا من القدر المشترك بين الحق والباطل، وألغوا الخصائص الفارقة بينهما، فنظروا إلى الشعر وما يتضمنه من فصاحة، وحسن تعبير، وجودة معانٍ، وقارنوا بينه وبين القرآن لاشتراكهما في تلك الخصائص. وألغوا القدر الفارقة بينهما: من دقة معاني القرآن، وعدم الاختلاف، والتناقض، وسهولة الألفاظ، والبعد عن الوحشي منها، وقوة المعاني، وجمالها، ونقضها للعادة، ومفارقته لأوزان الشعر وأعاريضه... وغير ذلك.

يقول الباقلاني رحمه الله: «ما حكاه عن الكفار من قولهم: أنه شاعر، وإن هذا شعر لا بد من أن يكون محمولًا على أنهم نسبوه إلى أنه يشعر بما لا يشعر به غيره من الصنعة اللطيفة في نظم الكلام»(١).

وقد فصل الإمام ابن القيِّم رحمه الله القول في هذه القضية، وبيَّن أن المشركين إنما أخذوا ذلك القدر المشترك، وطرحوا الفوارق بين الحق والباطل، وهذه هي حال أعداء الرسل في محاولتهم لتلبيس الحق بالباطل، وكتمان الحق، يقول رحمه الله ـ بعد كلام له ـ: «... مثال ذلك أن أعداء الرسل المكذبين لهم، الجاحدين لما جاؤوا به من الحق، لما أرادوا تلبيس الحق الذي جاؤوا به بالباطل، أخذوا بينه وبين الباطل قدرًا مشتركًا، ثم ألغوا القدر الفارق، وما اختص به أحد النوعين. فقالوا: هذا الرسول شاعر، وكاهن، ومجنون، وطالب ملك ورياسة، وصيِّت في العالم؛ فأخذوا قدرًا مشتركًا بين الشعر وبين كلامه الذي جاء به: من الترغيب، والترهيب، وحسن التعبير عن المعاني باللفظ الذي يروق المسامع، ويهز القلوب، ويحرك النفوس، فقالوا: هو شاعر، وهذا شعر؛ وضربوا عن الخصائص الفارقة صفحًا.

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني (ص٧٦).

وقالوا هو كاهن؛ لأن الكاهن كان عندهم معروفًا بالإخبار عن الأمور الغائبة، التي لا يخبر بها غيره، وكذلك هذا المدعي لذلك مثله.

وقالوا: مجنون؛ لأن المجنون يقول ويفعل خلاف ما اعتاده الناس.

وقالوا: ساحر؛ لأن الساحر يأخذ بالقلوب والعيون، ويحبب تارة، وينفر أخرى، ولهذا قال لهم الوليد بن المغيرة: ـ وقد سألوه ماذا يقولون للناس في أمر محمد، ففكر وقدر، ورأى أن أقرب ما يقولون ـ هو ساحر؛ لأنه يفرق بين المرء وزوجه، ومحمد يفعل ذلك: فإن المرأة إذا أسلمت دون زوجها، أو أسلم زوجها دونها، وقعت الفرقة بينهما والعداوة.

وكذلك قولهم عن القرآن أساطير الأولين، أخذوا قدرا مشتركًا بينهما، وهو جنس الإخبار عما أخبر عنه الأولون، وهكذا قولهم: هو طالب ملك، ورياسة، وصيت.

والمقصود؛ أن كل مبطلٍ فإنه يتوصل إلى باطله بهذه الطريق، ثم يلبس ما يدعو إليه خصائص الحق وما ينفر عنه خصائص الباطل، وهذا شأن الساحر؛ فكلامه يخرج الحق في صورة الباطل فينفر عنه، والباطل في صورة الحق فيرغب فيه»[(١)].

ومن الأدلة التي يستدل بها الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ على إعجاز القرآن، وصدق من جاء به؛ بل جعله أصلًا من أصول الاستدلال على صدق نبوة الرسول ﷺ، هو إنَّ من عَرَفَ الله حق معرفته، وتأمل أسماءه وصفاته، علم أن حكمته جلَّ وعلا تأبى أن ينصر، ويؤيد من افترى

(١) الصواعق المرسلة (٤/ ١٢١٦).

عليه، وأن يؤيده بجميع المؤيدات، ويظهر أمره، ويعصمه من خلقه، وهو يرى أنه يقتل الناس، ويأخذ أموالهم، ويسبي نسائهم؛ محتجًّا أن الله أمره بذلك، وهو في ذلك مفترٍ على الله، إن من عرف الله ﷻ علم أنه يأخذ كل مفتري ظالم متقوّل عليه.

يقول رحمه الله: «كيف يليق بكماله أن يقر من يكذب عليه أعظم الكذب، ويخبر عنه بخلاف ما الأمر عليه؛ ثم ينصره على ذلك ويؤيده، ويعلي كلمته، ويرفع شأنه، ويجيب دعوته، ويهلك عدوه، ويظهر على يديه من الآيات والبراهين والأدلة ما تعجز عن مثله قوى البشر، وهو مع ذلك كاذب عليه مفتر، ساع في الأرض بالفساد؟...».

ثم يقول: «وإذا تدبرت القرآن رأيته ينادي على ذلك؛ فيبديه ويُعيده لمن له فهم وقلبٌ واعٍ عن الله، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧]، أفلا تراه كيف يخبر سبحانه: أن كماله وحكمته وقدرته تأبى أن يقر من تقول عليه بعض الأقاويل؟ بل لا بد أن يجعله عبرة لعباده، كما جرت بذلك سنته في المتقولين عليه...»(١).

فهذا حال من جاء بهذه الرسالة العظيمة، شاهدًا على صدق ما جاء به؛ فإن دلالة الحال أصح من دلالة المقال، إذ إن المقال يطرأ عليه التبديل، والتحريف، والتزييف، لكن دلالة الحال ثابتة، واقعية، مشاهدة، لا يمكن تلبيسها، وتزينها(٢).

(١) مدارج السالكين (٤/ ٤٧٠ ـ ٤٧١) «باختصار».
(٢) انظر: بدائع الفوائد (٤/ ٩٣٤).

المَطْلَبُ الثَّانِي

اشتمال القرآن الكريم على أنواع العلوم وأمهات المطالب العالية[١] دليل على إعجازه

نزل هذا القرآن بين مجتمع من الأميين لا يبرعون إلا في فنون القول والفصاحة، وجملة من الحِكَم التي يتوارثونها، وبعض الأعراف التي سنُّوها، وطائفة من الأخبار يتناقلونها، ثم جاءهم هذا الكتاب العظيم، مشتملًا على أنواع العلوم، وداعيًا إلى تلك المبادئ العظيمة، فزكت به نفوسهم، وارتقت به أفهامهم، يقول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

نقل القرآن الكريم أولئك العرب البسطاء من أمَّة خاوية المعارف، إلى أمَّة تؤمُّ العالم أجمع، وتقوده إلى أن وصلت به إلى أعلى الحضارات، سَاسَت العالم بهذا الكتاب، بشريعة لا يعتريها التناقض، وارتقت بعقول البشرية؛ لتصل بها إلى تلك المعارف المتنوعة، والعلوم المتبحرة، يقول الرافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لو لم يكن القرآن الكريم؛ لكان العالم اليوم غير ما هو في كل ما يستطيل به، وفي تقدمة وانبساط ظل العقل فيه، وقيامه على أرجائه، وفي نموه، واستبحار عمرانه، فإنما كان القرآن أصل النهضة الإسلامية؛ وهذه كانت ـ على التحقيق ـ هي الوسيلة في استبقاء علوم الأولين، وتهذيبها، وتصفيتها»[٢].

---

(١) هذه التسمية اقتبستها من كلام الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن «سورة الفاتحة» حيث يقول: «اعلم أن هذه السورة اشتملت على أمهات المطالب العالية». مدارج السالكين (٤٨/١).

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي (ص١١٤). وتكلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن هذا الموضوع بكلام نفيس.

لم يعرف التاريخ كتابًا أعظم نفعًا من القرآن، ولا كتابًا حوى من العلوم مثل ما اشتمل عليه القرآن الكريم، فمن أين لمحمد ﷺ بهذا القرآن؟ هل هو من قدرات عقلية أكسبته تلك المعرفة، وأملت عليه تلك العلوم؟

لا شك أن محمدًا ﷺ أوتي قدرات عقلية عالية وعظيمة، لم يؤتها بشر من قبله، لكن مع ذلك لم يخرج بتلك القدرات من دائرة البشرية، والقرآن الذي جاء به خارج عن الطاقات البشرية، والقدرات الإنسانية[١]، يقول الماوردي رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا مدخل للعقول في ما تأتي به الرسل من الوعد والوعيد والجنة والنار وما يشرعونه من أوصاف التعبد الباعثة على التأله»[٢].

فالقرآن الكريم إخبار عن أمور غائبة لا تدرك بالظنون والتخمين والتخيل[٣]، وتشريعات دقيقة لا يتخللها تناقض، ودعوة إلى توحيد الله وبيان صفاته تعالى، وأخلاق تسمو بالمجتمع وتنتشله من الرذيلة... وهذه الأمور تعجز المدارك الإنسانية عن الإحاطة بها، وصياغتها في قالب بلغ من الفصاحة مبلغًا تعجز البشر كلهم قاطبة عن الإتيان بمثل جزء منه، وقد بيَّن الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ ذلك، فقال: «إن علم الأنبياء وما جاؤوا به عن الله، لا يمكن أن يدرك بالعقل، ولا يكتسب، وإنما هو وحي أوحاه الله إليهم بواسطة الملك، أو كلام يكلم به رسوله منه إليه بغير واسطة، كما كلم موسى، وهذا متفق عليه بين جميع أهل الملل المقرين بالنبوة والمصدقين بالرسل»[٤].

---

(١) راجع: النبأ العظيم لعبد الله دراز (ص٣٨ ـ ٦٦).
(٢) أعلام النبوة للماوردي (ص٢٠).
(٣) زعم بعض الجهال من الفلاسفة أن علوم النبوة من ما يدرك بالتخيل والتصور، وأن الأنبياء وصلوا إلى تلك العلوم بطريق التخيل، لما أعطوا من قوة الذكاء التي مكنتهم من ذلك، ورد عليهم العلماء ومنهم الإمام ابن القيِّم.
(٤) الصواعق المرسلة (٣/ ٨٨٠).

نبَّه القرآن الكريم في غير ما آية على أن هذا القرآن، وما اشتمل عليه من العلوم والتشريعات؛ هو من عند الله، بل لو افتراه هذا الرسول ـ كما تزعمون أيها المشركون ـ، لأثبت الله الحق، ومحا الباطل، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الشورى: ٢٤].

وقد أطنب الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في حديثه عن هذه الآية، وعن الاحتجاج بها على إعجاز القرآن، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا خرج جوابًا لهم، وتكذيبًا لقولهم: إن محمدًا كذب على الله، وافترى عليه هذا القرآن، فأجابهم بأحسن جواب، وهو أن الله ـ سبحانه ـ قادر لا يعجزه شيء، فلو كان كما تقولون لختم على قلبه، فلا يمكنه أن يأتي بشيء منه، بل يصير القلب كالشيء المختوم عليه فلا يوصل إلى ما فيه. . . .

ومعلوم أن مثل هذا الكلام لا يصدر من قلب مختوم عليه؛ فإن فيه من علوم الأولين والآخرين؛ وعلم المبدأ والمعاد، والدنيا والآخرة، والعلم الذي لا يعلمه إلا الله، والبيان التام، والجزالة، والفصاحة، والجلالة، والإخبار بالغيوب، ما لا يمكن من ختم على قلبه أن يأتي بمثله ولا ببعضه، فلولا أني أنزلته على قلبه، ويسرته بلسانه؛ لما أمكنه أن يأتيكم بشيء منه. . .»[١].

«إن معرفة ما جاء به القرآن العظيم وما دعا إليه الرسول الكريم ﷺ، طريق سديد لمعرفة صدقه وصحة ما جاء به، وأنه رسول من عند الله تعالى»[٢]، فما دعا إليه القرآن وما دعا إليه هذا الرسول الكريم

---

(١) التبيان (ص٢٧٦) «باختصار».

(٢) مجلة الدراسات القرآنية العدد (٧)، دلائل نبوة محمد ﷺ في القرآن الكريم. د. محمد السريع (ص١٩٩).

إنما هو إفراد الله بالعبادة، والاعتراف بأنه الإلٰه الخالق المدبر لأمور الكون، ودعا إلى معرفة أسماء وصفات هذا الخالق العظيم، وبين ما يترتب على هذا التوحيد. فلم يكن القرآن يدعو لمصلحة شخصية؛ وإنما يدعو لتحقيق أهداف نبيلة تقرها العقول، وتجزم بصحتها، وبهذا استدل هرقل ـ عظيم الروم ـ عندما سأل أبا سفيان رضي الله عنه: «بم يأمركم؟ قال: يأمرنا أن نعبد الله وحده، ولا نشرك به شيئًا، وينهانا عما كان يعبد آبائنا، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة»(١).

وقد أشار الإمام ابن القيِّم رحمه الله إلى أن القرآن إنما جاء بتقرر التوحيد وما يترتب عليه، ونصب الأدلة القاطعة لذلك، ليزيل عن العقول ما يفسدها، ويرشدها إلى الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها، يقول رحمه الله: «إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه؛ فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع كل ما يعبد من دونه؛ فهو التوحيد الإرادي الطلبي(٢)، وإما أمر ونهي، وإلزام بطاعته في نهيه وأمره؛ فهي حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته، وما فعل بهم في الدنيا، وما يكرمهم به في الآخرة؛ فهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الواضح: أن ابن القيِّم رحمه الله قسم التوحيد إلى قسمين: وجعل توحيد الأسماء والصفات في القسم الأول، وتوحيد الربوبية والألوهية في القسم الثاني، وقد شرح هذا التقسيم في أول كتاب «مدارج السالكين» حيث قال: «التوحيد نوعان: نوع في العلم والاعتقاد. ونوع في الإرادة والقصد. ويسمى الأول: التوحيد العلمي. ويسمى الثاني: التوحيد القصدي الإرادي. لتعلق الأول بالأخبار والمعرفة. والثاني بالقصد والإرادة. وهذا الثاني أيضًا نوعان: توحيد في الربوبية، وتوحيد في الإلٰهية. فهذه ثلاثة أنواع» مدارج السالكين (١/ ٧٥). وانظر: الصواعق المرسلة (٢/ ٤٠١).

وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبى من العذاب؛ فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد.

فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم»(١).

كما بيَّن الإمام ابن القيِّم رحمه الله أن من أعظم الدلائل على نبوة محمد ﷺ تلك التشريعات السامية التي تهذب النفوس، وتؤصل الخير فيها، وتزكيها، وتطهرها من خبائث الشر، فإذا تأملتها العقول، شهدت بصحتها، وصدق من جاء بها، وتلقتها مستبشرة بها، مطمئنة إليها، يقول رحمه الله ـ متحدثًا عن قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، يقول ـ: «بل من أعلام نبوة محمد ﷺ أنه يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات. ويحرم عليهم الخبائث. . . .

والعَلَمُ الدالّ على نبوته أن ما يأمر به تشهد العقول الصحيحة حسنَه وكونه معروفًا، وما ينهى عنه تشهد قبحه وكونه منكرًا، وما يحله تشهد كونه طيبًا، وما يحرمه تشهد كونه خبيثًا. وهذه دعوة جميع الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ. وهي بخلاف دعوة المتغلبين المبطلين، والكذابين والسحرة، فإنهم يدعون إلى ما يوافق أهواءهم وأغراضهم من كل قبيح ومنكر وبغي وإثم وظلم.

ولهذا قيل لبعض الأعراب وقد أسلم، لما عرف دعوته ﷺ عن أي شيء أسلمت؟ وما رأيت منه مما دلك على أنه رسول الله؟ قال: «ما أمر

---

(١) مدارج السالكين (٤/ ٤٤٢).

بشيء فقال العقل: ليته نهى عنه، ولا نهى عن شيء فقال العقل: ليته أمر به. ولا أحلَّ شيئًا فقال العقل: ليته حرمه، ولا حرَّم شيئًا فقال العقل: ليته أباحه». فانظر إلى هذا الأعرابي وصحة عقله وفطرته»[(١)].

ويرى الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ أن من تأمل استدلالات القرآن وتقريرها لنبوة محمد ﷺ، وطريقة القرآن الكريم في الربط بين أصول الدين التي يجب الإيمان بها ومعرفتها، وبين آيات الكون المشهودة المحسوسة، علم أن هذا القرآن حق، وأن هذه النبوة صادقة؛ على أن تلك الاستدلالات لا يمكن أن تتوصل إليها مدارك البشر البسيطة، إلى جوار هذا الكون العظيم وما حواه، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ عند تفسيره للقسم في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الحاقة: ٣٨ ـ ٤٣]، «ففي ضمن هذا القسم كل ما يُرى وما لا يُرى آيةٌ ودليل على صدق رسوله، وأن ما جاء به هو من عند الله، وهو كلامُهُ، لا كلام شاعر، ولا مجنون، ولا كاهن.

ومن تأمل المخلوقات، ما يراه منها وما لا يراه، واعتبر ما جاء به الرسول بها، ونقَّل فكرته في مجاري الخلق والأمر؛ ظهر له أن هذا القرآن من عند الله، وأنه كلامه، وهو أصدق الكلام، وأنه حقٌّ ثابتٌ، كما أن سائر الموجودات ـ ما يرى منها وما لا يرى ـ حق، كما قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣]؛ أي: إن كان نطقكم حقيقة، وهو أمرٌ موجودٌ لا تمارون فيه ولا تشكون؛ فهذا ما أخبرتكم به من التوحيد، والمعاد، والنبوة: حق»[(٢)].

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٨٢ ـ ٤٢٩).

(٢) التبيان (ص٢٦٤).

المطلب الثالث

استدلال القرآن الكريم ببشارة الأنبياء السابقين بنبوته ﷺ دليل من أدلة إعجازه

جعل الله ﷻ من أعظم الأدلة على نبوة محمد ﷺ، ذكره والبشارة به في كتب الأمم السابقة؛ ولذلك كثيرًا ما يُذكِّر الله ﷻ أهل الكتاب بذلك، ويندبهم إلى الرجوع إلى تلك الأوصاف المكتوبة عندهم؛ ليهتدوا بها إلى معرفة هذا النبي، بل جعلها الله ﷻ أسلوب تقرير وإلزام لمن جحد وأعرض منهم، فهم على علم ويقين أنه رسول الله حقًّا، وأنه النبي الذي بشرت به الأنبياء السابقين، يعرفونه كما يعرفون أبناءهم.

وقد بحث الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه: «هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى» جملة من الشبه التي يثيرها اليهود والنصارى حول القرآن، وحول الإسلام عمومًا، ورد على تلك الشبه، وفصَّل القول فيها تفصيلًا شافيًا، ومن أبرز المسائل التي بحثها في كتابه ـ الآنف الذكر ـ، الاستدلال على نبوة محمد ﷺ وإعجاز هذا القرآن بما ورد في كتب الأمم السابقة، وبين أن هذا الدليل من أعظم الأدلة التي حجَّ القرآن بها أهل الكتاب، وبحث رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه المسألة بحثًا مستفيضًا، وفي هذا المطلب ألخص أهم ما ذكره ـ إن شاء الله تعالى ـ.

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان الله ﷻ وعد على ألسنة أنبيائه ورسله أن يبعث في آخر الزمان نبيًّا عظيم الشأن، يظهر دينه على الدين كله، وتنتشر دعوته في أقطار الأرض، وعلى رأس أمته تقوم الساعة.

وأهل الكتابين مجمعون على أن الله وعدهم بهذا النبي، فالسعداء منهم عرفوا الحق فآمنوا به واتبعوه، والأشقياء قالوا: نحن ننتظره ولم يبعث بعد رسولًا، فالسعداء لما سمعوا القرآن من الرسول عرفوا أنه

النبي الموعود به، فخرّوا سجدًا لله إيمانًا به وبرسوله، وتصديقًا بوعده الذي أنجزه، فرأوه عيانًا فقالوا: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٨]»(١).

وكانت أوصاف النبي ﷺ في كتب الأمم السابقة أوصافًا دقيقةً، لا تلتبس على مريد الحق والباحث عنه، وذِكرُ تلك الأوصاف في القرآن؛ «إنما هو داخل في باب الإلزامات لهم، ليظهر عنادهم وإفحامهم»(٢)، يقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقد بيَّن الإمام ابن القيِّم رحمه الله أنه بتلك الأوصاف التي ذكرها الله ﷻ لهم في كتبهم، وذكرهم بها في كتابه؛ استطاع كثيرٌ منهم أن يهتدي إلى أن محمدًا ﷺ هو ذلك النبي المنتظر المبشر به، يقول رحمه الله: «فالصفات والنعوت والعلامات المذكورة عندهم منطبقة عليه حذو القُذَّة بالقُذَّة، بحيث لا يشك من عرفها ورآه أنه هو، كما عرفه قيصر(٣) وسلمان(٤) بتلك العلامات

---

(١) هداية الحيارى (ص١٠٤).

(٢) إثبات نبوة محمد ﷺ لابن المزين (ص٣٢).

(٣) **قيصر**: المقصود به هنا «هرقل» فهو الذي كان ملكًا على الروم في زمن النبي ﷺ. وقيصر: علم على من يكون ملكًا على الروم. **انظر**: لسان العرب (٥/ ٣٦٥٠).

(٤) المقصود به سلمان الفارسي رضي الله عنه. وانظر خبره في: السيرة النبوية لابن إسحاق (ص١٣٤)، مسند أحمد رقم (٢٣٧٣٧)، والطبراني في الكبير: رقم (٦٠٧٣). قال الهيثمي: «رواه أحمد كله والطبراني في الكبير بنحوه بأسانيد، وإسناد الرواية الأولى عند أحمد والطبراني رجالها رجال الصحيح غير محمد بن إسحاق وقد صرح بالسماع. ورجال الرواية الثانية انفرد بها أحمد ورجالها رجال الصحيح غير عمرو بن أبي قرة الكندي وهو ثقة ورواه البزار». مجمع الزوائد (٩/ ٥٥٩).

المذكورات التي كانت عنده من بعض علمائه، وكذلك هرقل عرف نبوته بما وُصِفَ له من العلامات التي سأل عنها أبا سفيان، فطابقت ما عنده، فقال: «إن يكن ما تقول حقًّا فإنه نبي، وسيملك ما تحت قدمي هاتين»(١)»(٢).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «الظاهر أن إخبار هرقل بذلك بالجزم كان عن العلم المقرر عنده في الكتب السالفة»(٣).

وأوضح الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ أن من حكمة الله البالغة أن ذكر أوصاف هذا النبي الكريم، وأوصاف أتباعه في كتب الأمم السابقة، وميَّزهم أيما تمييز، وإنما ذكرهم بالأوصاف دون الأسماء؛ لأن الأسماء يدخل فيها التشابه، أما الأوصاف فهي دقيقة في التحديد، لا يمكن تزييفها أو ادعاؤها، يقول الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «. . . فالرب سبحانه إنما أخبر عن كون رسوله مكتوبًا عندهم ـ أي: الإخبار عنه وصفته ومخرجه ونعته ـ ولم يخبر بأن صريح اسمه العربي(٤) مذكور عندهم في التوراة والإنجيل.

---

(١) سبق تخريجه. (٢) هداية الحيارى (ص١٠٢).

(٣) فتح الباري (١/ ٣٦). وللحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ حول هذا الحديث كلام نفيس جدًّا. من ذلك نقله عن المازني قوله: «هذه الأشياء التي سأل عنها هرقل ليست قاطعة على النبوة، إلا أنه يحتمل أنها كانت عنده علامات على هذا النبي بعينه؛ لأنه قال بعد ذلك: قد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظن أنه منكم» قال الحافظ ابن حجر: «وهو ظاهر».

(٤) ذكر الإمام ابن القيِّم ـ في موضع آخر ـ: أن النبي ﷺ ذكر بصريح اسمه في التوراة «محمد»؛ ولكن باللغة العبرية، وكذلك في الإنجيل ذكر بـ«أحمد» كما قال تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، وقد يبدو أن ثمة تناقضًا بين القولين؛ ولكن الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ أوضح هذا الإشكال في آخر حديثه حيث يقول: «إن هذين الاسمين صفتان في الحقيقة، والوصفية لا تنافي العلمية، وأن معناهما مقصود، فعرف عند كل أمة بأعرف الوصفين عندها. . .». وفصل القول في ذلك تفصيلًا دقيقًا. انظر: جلاء الأفهام (ص٢٦٦).

هذا واقع في الكتابين وهو أبلغ من ذكره بمجرد اسمه، فإن الاشتراك قد يقع في الاسم فلا يحصل التعريف والتمييز، ولا يشاء أحدٌ يُسمَّى بهذا الاسم أن يَدَّعي أنه هو: إلا فعل، إذ الحوالة إنما وقعت على مجرد الاسم، وهذا لا يحصل به بيانٌ ولا تعريفٌ ولا هدى، بخلاف ذكره بنعته وصفته وعلاماته ودعوته، وصفة أمته، ووقت مخرجه، ونحو ذلك، فإن هذا يُعَيِّنُه ويُميِّزُه، ويحصر نوعه في شخصه.

وهذا القدر مذكور في التوراة والإنجيل وغيرهما من النبوات التي بأيدي أهل الكتاب»[1].

لقد أعلن النبي ﷺ في أهل الكتاب أنه النبي المذكور في كتبهم، الذي بشر به الأنبياء السابقين، وتلا عليهم آيات القرآن المقرَّة لذلك، وأعداؤه ﷺ اشتدَّ حرصهم في البحث عن مثلب يطعنون به في دعوته ﷺ، مجتهدين أن يجدوا مدخلًا لتكذيب ما جاء به؛ فقريش تستعين بأهل الكتاب لعلمهم ومعرفتهم بأحوال الرسل، لكي يصلوا إلى طريق لإنكار ما جاء به، ويتعاضدون هم وبعض علماء أهل الكتاب[2]، ليجدوا سبيلًا لإثارة الشبه حول دعوته ﷺ. ثم يأتي ذلك النبي فيستشهد بما عندهم من علم، فينقطعون ولا يحاجونه، بل يؤيد ذلك بعضهم ويؤكد حجته؛ يرى الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ أن ذلك من أعظم الأدلة على صدقه، فلو لم يكن صادقًا في ما ادعاه لَوَجَدَ أهل الكتاب أعظم فرصة لتكذيبه، ولأذاعوا ذلك بين الناس، واجتمعوا عليه، ليبيِّنوا كذبه وافترائه عليهم، يقول الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن رسول الله ﷺ كان حريصًا على تصديق الناس واتباعهم له، وإقامة الحجة على من خالفه وجحد نبوته،

(١) هداية الحيارى (ص١٠٠). «بتصرف يسير».

(٢) راجع: تفسير ابن كثير (٣/ ١٣٩).

ولا سيما أهل العلم والكتاب، فإن الاستدلال عليهم بما يعلمون بطلانه قطعًا لا يفعله عاقل، وهو بمنزلة من يقول لرجل: علامة صدقي أنك فلان ابن فلان، وصنعتك كيت وكيت، وتُعرَفُ بكيت وكيت، ولم يكن الأمر كذلك، بل بضده.

فهذا لا يصدر ممن له مَسْكَةُ عقل، ولا يصدقه أحد على ذلك، ولا يتبعه أحد على ذلك، بل ينفر العقلاء كلهم عن تصديقه واتباعه. والعادة تحيل سكوتهم عن الطعن عليه والرد والتهجين لقوله.

ومن المعلوم بالضرورة: أن محمدًا بن عبد الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ نادى معلنًا في هاتين الأمتين اللتين هما أعلم الأمم في الأرض قبل مبعثه، بأن ذكره ونعته وصفته بعينه، عندهم في كتبهم، وهو يتلو ذلك عليهم ليلًا ونهارًا، وسرًّا وجهارًا، في كل مجمع، وفي كل نادٍ، يدعوهم بذلك إلى تصديقه والإيمان به؛ فمنهم من يصدق ويؤمن به، ويخبر بما في كتبهم من نعته وصفته وذكره.

وغاية المكذب الجاحد أن يقول: هذا النعت والوصف حق، ولكن لست أنت المراد به بل نبي آخر!»[١].

وأجاب الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ[٢] عن قول هذه المعاند بأجوبة كثيرة، منها: أن النبي الذي ذكرت أوصافه وأوصاف أتباعه ـ رضوان الله عليهم ـ قد انطبقت تمامًا عليه وعلى أتباعه ولا مجال لإنكار ذلك. وقد عرف ذلك من تجرد عن الأهواء وقصد الحق، فآمن به واتبعه، والأمثلة على ذلك كثيرة[٣].

---

(١) هداية الحيارى (ص١٠١). «بتصرف».

(٢) هذه الأجوبة خلاصة كلام الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لأنه رَحِمَهُ اللَّهُ أطال في الإجابة إطالة يصعب إيرادها.

(٣) انظر: هداية الحيارى (١٠٢ ـ ١٠٩).

وقد أنزل الله ﷻ عليه كلامه، وهو الكتاب الذي وعد الله الأنبياء وأممهم بإنزاله عليه يقول الإمام ابن القيِّم رحمه الله: «وهذا من علامات نبوته التي أخبرت بها الأنبياء المتقدمون، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٧].

فالقرآن نزل على قلب رسول الله ﷺ وظهر للأمة مِنْ فيه[(١)]»[(٢)].

ويجاب عنه أيضًا: بأن كثيرًا ممن أنكر وجحد أن يكون المراد بتلك الأوصاف هذا النبيِّ، اعترف لخاصته أنه هو النبيِّ المنتظر حقيقة، وأنَّه عرفه بأوصافه.

وذكر الإمام ابن القيِّم رحمه الله أن العلم بأنه ﷺ مذكور في الكتب السابقة يعرف من وجوه عدة، منها[(٣)]:

الأول: إخبار من ثبتت نبوته قطعًا بأنه مذكورًا عندهم في كتبهم، وجعل الإخبار بأنه موجود عندهم في كتبهم من أعظم آيات نبوته، وهذا يستحيل أن يصدر إلا من واثق كل الوثوق بذلك[(٤)].

الثاني: «أن المؤمنين به من الأحبار والرهبان الذين آثروا الحق على الباطل صدقوه في ذلك، وشهدوا له بما قال»[(٥)].

---

(١) أي: فمه ﷺ. (٢) هداية الحيارى (ص١٢١).

(٣) ذكر الإمام ابن القيِّم رحمه الله عدة وجوه تدل على وجود البشارة بنبوة محمد ﷺ في كتب الأمم السابقة، وهذا تلخيص للوجوه التي ذكر.

(٤) انظر: الوجه الأول من الوجوه التي ذكرها ابن القيِّم. هداية الحيارى (ص١٠٩).

(٥) هداية الحيارى (ص١١٠).

الثالث: أن المنكرين والمكذبين من أهل الكتاب، لم ينكروا وجود أوصاف ذلك النبيِّ، وإنما أنكروا أن يكون المراد به هذا النبي؛ وذلك إنما كان مكابرةً وعنادًا منهم، وقد اعترف بعضهم أنه هو النبيُّ الموصوف في كتبهم بعينه[١].

الرابع: «أنه أخبر بهذا لأعدائه من المشركين الذين لا كتاب عندهم، وأخبر به لأعدائه من أهل الكتاب، وأخبر به لأتباعه؛ فلو كان هذا باطلًا لا صحة له لكان ذلك تسليطًا للمشركين أن يسألوا أهل الكتاب فينكرون ذلك، وتسليطًا لأهل الكتاب على الإنكار، وتسليطًا لأتباعه على الرجوع عنه والتكذيب له بعد تصديقه»[٢].

الخامس: النصوص المتكاثرة الموجودة في كتب أهل الكتاب التي فيها الدلالة على نبوته ﷺ[٣][٤].

❁ ❁ ❁

---

(١) **انظر**: الوجه: الرابع والخامس من الوجوه التي ذكرها ابن القيِّم. هداية الحيارى (ص١١٠).

(٢) هداية الحيارى (ص١١١). وهذا هو الوجه السابع.

(٣) **انظر على سبيل المثال**: إثبات نبوة محمد ﷺ في القرآن (ص٣٢)، والجواب الصحيح (٥/ ١٩٧)، وهداية الحيارى (ص١١٩).

(٤) **راجع**: مجلة الدراسات القرآنية العدد (٧). دلائل نبوة محمد ﷺ في القرآن الكريم (ص١٤٤)، وقد استفدت من هذا البحث في هذا المبحث.

المَبۡحَثُ ٱلثَّانِي

التحدّي بالقرآن

التحدّي لفظ مقترن بقضية الإعجاز، وهو من أهم مباحث هذا العلم، وأشهر مسائله، ولفظ التحدي في أصل اللغة من قولهم: «فلان يتحدى فلان؛ **أي**: يباريه وينازعه الغلبة، والحادي: المعتمد للشيء. يقال: حداه وتحداه وتحراه بمعنى واحد؛ **أي**: تعمد الأمر وقصده. ويقولون أيضًا: «أنا حُديَّاك بهذا الأمر؛ **أي**: أبرز لي وجارني فيه». **وظاهرٌ جدًّا أن معنى (التحدي) في اللغة هو**: أن يتعمَّد الرجل المتحدي منه شيء، وهو يريد بفعله هذا أن يباري خصمه ويعارضه في فعله، طالبًا بذلك مساماته وغلبته والظهور عليه.

فالمتحدي إذن: هو الذي يقصد أن يعارض بفعله خصمًا طالبًا بذلك إظهار قدرته وتفوقه»[(١)].

وقد تحقق ذلك في معجزة محمد ﷺ؛ فقد تكرر في القرآن جملة من الآيات التي تندب وتحث وتتحدى المعارضين الجاحدين أن يأتوا بمثل هذا القرآن إن استطاعوا إلى ذلك سبيلًا؛ فإن عجزوا عن ذلك لزمتهم الحجة، وعُلم أن ذلك من الله ﷻ، وليس هو مما يقدر البشر عليه، وعلم أن محمدًا ﷺ صادقًا، وأنه نبي مرسل من الله حقًّا، وآية صدقه، عجز البشر عن الإتيان بمثل ما جاء به، مع توفر الدواعي، والهمة والحرص الشديد على ذلك. يقول الجاحظ: «وهل يُذعن

---

(١) مدخل لإعجاز القرآن محمود شاكر (ص٢١). وانظر: لسان العرب (٢/٨٠٨).

الأعراب وأصحاب الجاهلية للتقريع بالعجز، والتَّوقيف على النقص، ثم لا يبذلون مجهودهم، ولا يخرجون مكنونهم، وهم أشدُّ خلق الله ﷻ أَنَفَة، وأفرطهم حمية، وقد سمعوه في كل منهل وموقف يتحداهم ويندبهم أن يأتوا بمثله. والناس مُوكَّلون بالخَطابات، مُولعون بالبلاغات. فمن كان شاهدًا فقد سمعه، ومن كان غائبًا فقد أتاه به من لم يُزوِّده[(١)].

... ولا يجوز أن يُطْبِقوا على ترك المعارضة وهم يقدرون عليها؛ لأنه لا يجوز على العدد الإطباق على بذل الكثير، وصون اليسير.

وهذا ظاهر التدبر، ومن جليِّ الأمور التي لا تخفى على الجهال فكيف على العقلاء وأهل المعارف»[(٢)].

بلغ العرب قبل الإسلام غاية الفصاحة والبيان، ولم يعرف التاريخ فصاحة وبلاغة وبيانًا اجتمعت في قوم كما اجتمعت في العرب قبل الإسلام، حتى كأنه إرهاصًا ومقدمة لتلك المعجزة العظيمة[(٣)]، فلما اكتملت فصاحتهم، وذهبوا في ضروب البيان والبلاغة كل مذهب؛ نزل عليهم هذا القرآن مجاوزًا ما بلغت إليه ألسنتهم من الفصاحة، جامعًا أساليب بديعية رائعة، تستميل الآذان، وتأسر العقول.

ترى ماذا صنع أولئك العرب البلغاء الفصحاء بعد أن نزلت آيات القرآن تتحداهم بما يجيدونه ويحسنونه؟

نعلم من خلال التاريخ أن العرب كانت تدور بينهم مساجلات

---

(١) إشارة إلى بيت طرفة الذي يقول فيه:

سَتُبْدِي لَكَ الْأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا ... وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

انظر: ديوان طرفة بن العبد (ص٢٩).

(٢) حجج النبوة (٣/ ٢٧٦). «بتصرف».

(٣) انظر: إعجاز القرآن البلاغة النبوية للرافعي (ص١٦٦).

ومعارضات بيانية، فالكل كان يريد الظفر والفوز بالفصاحة على الآخر[(١)]؛ بل إذا سمع أحد منهم قصيدة هبَّ إلى معارضتها، إظهارًا لبيانه وقوة فصاحته، وهذا معلوم من عاداتهم وسجاياهم[(٢)]، فلما نزل القرآن يتحداهم بما هو من جنس كلامهم، وبما برعوا فيه؛ هرعوا إلى القتال والشدة والتعرض للهلكه، أتُرَاهُم لو كان بمقدورهم الإتيان بمثله، أو ما يشابهه، عدلوا عن ذلك إلى الشدة والقتال؟!

لو كان ذلك بمقدورهم لتسارعوا إليه، ولم يعدلوا عنه إلى القتال، والقوة، والتعرض للمخاطر، وترك ما هو أيسر وأسهل؛ لأن تحبير الكلام أهون من القتال، ومن إخراج المال.

يرى الإمام ابن القيِّم رحمه الله أنه بذلك يُعلم عجزهم، وعدم قدرتهم على الإتيان بمثل هذا القرآن، وأنه ليس من كلام البشر، وقد بيَّن رحمه الله أن ذلك من أعظم دلائل الإعجاز، وأهمها، يقول رحمه الله ـ في ذلك ـ: «كتاب ربنا المجيد ﴿لَا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، أنزله على رسوله محمد ﷺ، تحدى به الأمم كلها، على اختلاف علومها وأجناسها وطبائعها، وهو في غاية الضعف، وأعداؤه طبقوا الأرض أن يعارضوه بمثله فيكونوا أولى بالحق منه ويظهر كذبه وصدقهم، فعجزوا عن ذلك. فتحداهم بأن يأتوا بعشر سور مثله فعجزوا، فتحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا.

(١) مثل تلك المنافسات التي كانت تدور في سوق عكاظ، ومجنَّة، وذي المجاز، والقبة التي كانت تضرب للنابغة الذبياني في سوق عكاظ ليحكم بين الشعراء. راجع: أسواق العرب في الجاهلية والإسلام لسعيد الأفغاني (ص١٣٨).

(٢) كما دار بين امرئ القيس وعلقمة الفحل. راجع: الموشح للمرزباني (ص٢٩)، وكما دار بين حسان بن ثابت رضي الله عنه والخنساء رضي الله عنها والأعشى. راجع: الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (٩/ ٣٨٣).

هذا وأعداؤه الأدنون إليه أفصح الخلق، وهم أهل البلاغة، والفصاحة، واللسن، والنظم، والنثر، والخطب، وأنواع الكلام، فما منهم من فاه في معارضته ببنت شفة، وكانوا أحرص الناس على تكذيبه، وأشدهم أذى له بالقول، والفعل، والتنفير عنه بكل طريق، فما نقل عن أحدهم منهم سورة واحدة عارضه بها؛ إلا مسيلمة الكذاب بمثل قوله: «يا ضفدع بنت ضفدعين، نقي كم تنقين، لا الشارب تمنعين، ولا الماء تكدرين». ومثل: «والطاحنات طحنًا، والعاجنات عجنًا، فالخابزات خبزًا، أهالة وسمنًا»[(١)]. وأمثال هذه الألفاظ التي هي بألفاظ أهل الجنون والمعتوهين أشبه منها بألفاظ العقلاء»[(٢)].

هذه المحاولات اليائسة وأشباهها؛ من أعظم الأدلة على أن هذا القرآن معجز، إذ صورت لنا أنه لا نسبة بين كلام الله ﷻ وبين كلام خلقه، وتبيِّن ضعف البشر عن الإتيان بفصاحة تقارب فصاحة القرآن، متضمنةً معاني جليلة كما تضمن القرآن.

وقد بيَّن الإمام ابن القيِّم رحمه الله أنَّ الله ﷻ نوَّع للجاحدين المنكرين لمعجزة القرآن التحدي، ترغيبًا لهم، ودفعًا لهممهم، حتى يتبين لهم الحق، وتقوم عليهم الحجة، وعلى غيرهم ممن ليسوا من العرب، فمرةً يتحداهم أن يأتوا بمثله، ومرة يتحداهم أن يأتوا بعشر سور تضاهي سور القرآن وتماثلها في ما تتضمنه من فصاحة وعلم، ومرة يتحداهم أن يأتوا بسورة واحدة من مثله، ومع هذا لم يحك عن أحد منهم القدرة على ذلك، يقول رحمه الله ـ متحدثًا عن آيات التحدي ـ: «... ومن ذلك احتجاجه سبحانه على نبوة رسوله وصحة ما جاء به من الكتاب وأنه من عنده وكلامه الذي يتكلم به، وأنه ليس من صنعة البشر ولا من كلامهم

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١/ ١٠).

(٢) هداية الحيارى (ص٢٧٤).

بقوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].

فأمر من ارتاب في هذا القرآن الذي نزله على عبده وأنه كلامه، أن يأتي بسورة واحدة مثله، وهذا يتناول أقصر سورة من سوره، ثم فسح له إن عجز عن ذلك أن يستعين بمن أمكنه الاستعانة به من المخلوقين.

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨].

وقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣].

وقال: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤].

ثم أَسْجَلَ(١) سبحانه عليهم إسجالًا عامًّا في كل زمان ومكان بعجزهم عن ذلك، ولو تظاهر عليه الثقلان فقال: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

فانظر أي موقع يقع من الأسماع والقلوب هذا الحجاج القاطع الجليل الواضح، الذي لا يجد طالب الحق ومؤثره ومريده عنه محيدًا، ولا فوقه مزيدًا، ولا وراءه غاية، ولا أظهر منه آية، ولا أصح منه برهانًا، ولا أبلغ منه بيانًا(٢)»(٣).

---

(١) أَسْجَلَ: بمعنى أرسله وأطلقه ومده. انظر: القاموس المحيط (١/١٠١٣).

(٢) يظهر ـ والله أعلم ـ أن الإمام ابن القيِّم ﷺ لم يقصد بسرده لآيات التحدي أنها نزلت بهذا الترتيب؛ وإنما رتبها ترتيبًا إنشائيًّا حسب حاجته للموضوع، ويشهد لذلك أن الجمهور لما رتبوا آيات التحدي رتبوها من الأصعب إلى الأسهل، وترتيب ابن القيِّم كما هو واضح من الأسهل إلى الأصعب.

(٣) الصواعق المرسلة (٢/٤٦٧).

وقد ذكر الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ في كلامه السابق ـ مسألة مهمة، وقضية من قضايا علم إعجاز القرآن الكريم البارزة، وهي القدر المتحدى به من القرآن، حيث قال: «... فأمر من ارتاب في هذا القرآن الذي نزله على عبده، وأنه كلامه، أن يأتي بسورة واحدة مثله، وهذا يتناول أقصر سورة من سوره». **وهذه المسألة قد اختلف العلماء فيها:**

فذهب بعض المعتزلة: إلى أن الإعجاز يتعلق بجميع القرآن، لا ببعضه[1].

وهذا القول ظاهر بطلانه من خلال النقل والعقل؛ وذلك أن الله ﷻ تحدى العرب أن يأتوا بمثل سورة منه، وبمثل عشر سور مثله، فهذا القول يناقض الآيات صراحة.

وهناك دليل عقلي، وهو أن التحدي وقع في مكة قبل اكتمال نزول القرآن، فكيف يتحداهم الله ﷻ بشيء لم يعرفوه؟![2]

وهذا القول مترتب على الأصول التي اعتمدوا السير عليها[3]، فهم يقولون: إنه إذا جاز أن يأتي العرب بمثل جزء من هذا القرآن، فهذا يعني أنهم قادرون على المجيء بمثل جميعه، فلا فائدة من التقليل والتكثير! فلم يعتبروا الحكمة من تنويع التحدي، وإنما نظروا إلى التحدي نظرة عقلية بعيدة عن مقصد القرآن.

---

(١) انظر: الإتقان (٥/١٨٩٦).

(٢) انظر: مجلة الدراسات القرآنية. العدد (٥). آيات التحدي بالقرآن جمعًا ودراسة (ص١٤٧).

(٣) هذا القول مترتب على القول بالصرفة؛ لأنهم يرون أن الله صرف همم العرب عن الإتيان بمثل هذا القرآن، وإلا فإن العقل ـ لديهم ـ لا يحيل مقدرتهم على الإتيان بمثل هذا القرآن، فلو تحرروا من هذه الصرفة، فجاؤوا بمثل أقصر جزء منه؛ استطاعوا بعد ذلك المجيء بمثل جميعه!!

وذهب بعض العلماء: إلى أن المعجز منه القليل والكثير، دون تقييد بالسورة؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ [الطور: ٣٤].

وهذا قول قوي له اعتبار، وقد فصَّل القول فيه الإمام ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ، يقول في ذلك: «وذهب سائر أهل الإسلام إلى أن القرآن كله قليله وكثيره معجز، وهذا هو الحق الذي لا يجوز خلافه، ولا حجة لهم في قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]؛ لأنه تعالى لم يقل إن ما دون السورة ليس معجزًا، بل قد قال تعالى: ﴿عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ [الإسراء: ٨٨]، ولا يختلف اثنان في أن كل شيء من القرآن قرآن، فكل شيء من القرآن معجز»[١].

ويذهب آخرون: إلى أن الإعجاز يتعلق بسورة تامة ولو قصيرة، أو قدرها من الكلام كآية واحدة أو آيات[٢]. وإلى هذا القول يذهب الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ ـ كما سبق، وكما سيأتي ـ، وأبداه في غير موضع من كتبه، وهو الرأي الراجح ـ والله أعلم ـ.

وقد قرره الإمام الباقلاني رَحِمَهُ اللَّهُ، وأجاب عن أقوال المعارضين له، وقال: إن هذا القول لا يخالف قوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ [الطور: ٣٤]؛ «لأن الحديث التام لا تتحصل حكايته في أقل من سورة»، وبيَّن أن المراد بالمثلية في الآية القبيل دون التفصيل[٣].

ومن الأمور المهمة التي قررها الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في دراسته لقضية التحدي، هو أن القرآن الكريم لم يكن معجزة بيانية تناسب العرب

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٣/ ١٣)، أطال الكلام رَحِمَهُ اللَّهُ في تقرير ما ذهب إليه، وجاء بكلام نفيس.

(٢) انظر: إعجاز القرآن للباقلاني (ص٢٥٤).

(٣) انظر: المرجع السابق (ص٢٥٤).

في ذلك الوقت فحسب، بل اكتملت فيه صور الإعجاز من نواحي عدة، كان مناسبًا للعرب في وقت نزوله، ومناسبًا لغير العربي بما حواه من علوم لا يمكن أن تدرك إلا من خلال الوحي، ومناسب لجميع الأمم إلى قيام الساعة، فهو معجزة خالدة باقية؛ ولذلك كانت شاملة صالحة لجميع الخلق في جميع الأزمنة. وينبني على هذا الرأي منه رَحِمَهُ اللَّهُ؛ أنه يرى أن التحدي للكافة، للعرب وغير العرب، للعرب بفصاحته ومعانيه، ويشترك غير العرب في التحدي بما حواه القرآن من معاني، وهذا الرأي يعدُّ من أجلِّ آرائه رَحِمَهُ اللَّهُ وأشهرها في علم إعجاز القرآن الكريم.

وقد تكلم رَحِمَهُ اللَّهُ عن هذه القضية وغيرها من قضايا إعجاز القرآن بكلام في غاية الدقة والتأصيل، مختصر شامل، اتضحت من خلاله جمع من آراء هذا العالم الجليل، حول ما يدرس من قضايا إعجاز القرآن؛ وذلك عند حديثه عن قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن حصل لكم ريب في القرآن وصدق من جاء به، وقلتم: إنه مفتعل؛ فأتوا ولو بسورة واحدة تشبهه، وهذا خطاب لأهل الأرض أجمعهم، ومن المحال أن يأتي واحد منهم بكلام يفتعله ويختلقه من تلقاء نفسه، ثم يطالب أهل الأرض بأجمعهم أن يعارضوه في أيسر جزء منه، يكون مقداره ثلاث آيات من عدة ألوف، ثم تعجز الخلائق كلهم عن ذلك، حتى إنَّ الذين راموا معارضته كان ما عارضوه من أقوى الأدلة على صدقه، فإنهم أتوا بشيء يستحي العقلاء من سماعه، ويحكمون بسماجته، وقبح ركاكته وخسته، فهو كمن أظهر طيبًا لم يشمَّ أحدٌ مثل ريحه قط، وتحدَّى الخلائقَ ملوكهم وسوقتهم بأن يأتوا بذرَّةِ طيب مثله، فاستحى العقلاء وعرفوا عجزهم، وجاء الحمقاء بعذرةٍ

منتنةٍ خبيثةٍ، وقالوا: قد جئنا بمثل ما جئت به، فهل يزيد هذا ما جاء به إلا قوةً وبرهانًا، وعظمةً وجلالةً؟!

وأكد تعالى هذا التوبيخ والتقريع والتعجيز بأن قال: ﴿وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣] كما يقولُ المعجِزُ لمن يدَّعي مقاومته اجهد علي بكل من تقدر عليه من أصحابك، وأعوانك، وأوليائك، ولا تبق منهم أحدًا حتى تستعين به، فهذا لا يقدم عليه إلا أجهل العالم وأحمقُهُ وأسخفُهُ عقلًا، إن كان غير واثق بصحة ما يدَّعيه، أو أكملهم، وأفضلهم، وأصدقهم، وأوثقهم بما يقولُه.

والنبي ﷺ يقرأ هذه الآية وأمثالها على أصناف الخلائق أميّهم، وكتابيّهم، وعربهم، وعجمهم، ويقول: لن تستطيعوا ذلك ولن تفعلوه أبدًا، فيعدلون معه إلى الحرب والرضا بقتل الأحباب، فلو قدروا على الإتيان بسورة واحدة لم يعدلوا عنها إلى اختيار المحاربة وإيتام الأولاد، وقتل النفوس، والإقرار بالعجز عن معارضته.

وتقرير النبوة بهذه الآية وجوه متعددة هذا **أحدها**.

وثانيها: إقدامه ﷺ على هذا الأمر، وإسجاله على الخلائق إسجالًا عامًّا إلى يوم القيامة، أنهم لن يفعلوا ذلك أبدًا، فهذا لا يُقدِمُ عليه ويخبر به إلا عن علم لا يخالِجُهُ شك، مستند إلى وحي من الله تعالى، وإلا فعلم البشر وقدرته يضعفان عن ذلك.

وثالثها: النظرُ إلى نفس ما تحدى به، وما اشتمل عليه من الأمور التي تعجز قوى البشر على الإتيان بمثله، الذي فصاحتُهُ، ونظمُهُ، وبلاغتُهُ، فردٌ من أفراد إعجازه.

وهذا الوجه يكون معجزةً لمن سمعه وتأمله وفهمه، وبالوجهين الأولين يكون معجزةً لكل من بلغه خبره، ولو لم يفهمه ولم يتأمله.

فتأمل هذا الموضع من إعجاز القرآن تعرف فيه قصور كثير من المتكلمين، وتقصيرهم في بيان إعجازه، وأنهم لن يوفوه عشر معشار حقه، حتى قَصَرَ بعضهم الإعجاز على صرف الدواعي عن معارضته مع القدرة عليها، وبعضهم قَصَرَ الإعجاز على مجرد فصاحته وبلاغته، وبعضهم على مخالفة أسلوب نظمه لأساليب نظم الكلام، وبعضهم على ما اشتمل عليه من الإخبار بالغيوب، إلى غير ذلك من الأقوال القاصرة التي لا تشفي ولا تجدي، وإعجازه فوق ذلك ووراء ذلك كله، فإذا ثبتت النبوة بهذه الحجة القاطعة، فقد وجب على الناس تصديق الرسول في خبره، وطاعة أمره، وقد أخبر عن الله تعالى وأسمائه، وصفاته وأفعاله، وعن المعاد والجنة والنار، فثبت صحة ذلك يقينًا»[1].

ومما سبق اتضح أن رأي ابن القيِّم رحمه الله في الاستدلال بآيات التحدي على إعجاز القرآن الكريم يتلخص في ثلاثة أمور:

الأول: عجز الخلائق عامة عن الإتيان بمثل ما تحداهم به، ويدل على ذلك العجز: عدم إقدامهم على المعارضة مع توفر الدواعي، ويدل عليه أيضًا: الرضا بقتل الأنفس وإيتام الأولاد، والحرب والمشقة، ولو كان بمقدورهم الإتيان بمثله لما عدلوا إلى الأصعب وهم يستطيعون الأسهل.

الثاني: إقدامه ﷺ على الأمر، والتأكيد على أن الخلائق لا تستطيع ذلك ولن تستطيعه إلى يوم القيامة.

وهذين الوجهين معجزة يشترك في معرفتها كل البشر، من فهم القرآن وعلم أسراره أو لم يعلمه؛ وذلك أنه يستحيل أن يتحدى إنسان

---

(١) بدائع الفوائد (٤/١٥٤٧ ـ ١٥٤٩). ط: عالم الفوائد.

البشر بأن يأتوا بمثل ما جاء به وهو يعلم قدرتهم على ذلك، فلما لم يعارضوه عُلم أنهم عاجزون عن ذلك، ولما قاتلوه ثبت عجزهم وبحثهم عن سبل أخرى يحيدون بها عن الاعتراف بما جاء به.

ثم إنه لما أخبر بعدم قدرة الخلق على الإتيان بمثله إلى قيام الساعة، ثبت أن ذلك لا يمكن أن يكون من عند نفسه، وإنما هو من الأمور التي لا تعلم إلا بطريق الوحي.

الثالث: النظر إلى نفس المتحدي به، وما اشتمل عليه من علوم وفنون تعجز الخلائق عن الإتيان بمثلها، ومن ذلك فصاحته، وأساليبه، وما فيه من الأمور الغائبة... إلى غير ذلك.

وهذا الوجه معجز لمن فهم القرآن وأدرك معانيه، وتأمل أساليبه، وعرف فصاحته وبيانه.

ومما يُفهم من مجموع آراء الإمام ابن القيِّم ـ السابقة ـ، أنه رحمه الله يعتبر التحدي من أظهر دلائل الإعجاز، فهو يوافق عموم العلماء في هذه المسألة، فقد عدَّ العلماء قضية التحدي من أبرز قضايا علم الإعجاز؛ بل هي الباعث الأول على البحث والتأليف فيه، وهي التي فتقت الأذهان إلى البحث عن أسرار إعجاز القرآن[(١)]، بيد أن هذه القضية المجمع عليها في العموم، قد حصل نزاع بين العلماء في تفاصيلها، فثمَّة خلاف بينهم في المتحدى به، **انقسمت آراءهم فيه على قولين**[(٢)]:

القول الأول: يرى بعض العلماء أن المتحدى به في القرآن هو النظم والفصاحة والبلاغة، دون ما اشتمل عليه القرآن من معاني.

---

(١) راجع: مدخل إلى إعجاز القرآن لمحمود شاكر (ص٢٣).

(٢) انظر: مجلة الدراسات القرآنية. العدد (٥). آيات التحدي بالقرآن جمعًا ودراسة (ص١٢٥).

وحجتهم في ذلك: التخصيص في قوله تعالى: ﴿مُفْتَرَيَٰتٍ﴾؛ أي: فأتوا بعشر سور مثله في النظم والفصاحة، ولو كانت مفتريات مختلقة، يقول الجاحظ: «ولو لم يكن النبي ﷺ تحداهم بالنظر والتأليف، ولم يكن أيضًا أزاح علتهم، حتى قال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود: ١٣]، وعارضوني بالكذب، لقد كان في تفصيله له وتركيبه، وتقديمه له واحتجاجه، ما يدعو إلى معارضته ومغالبته وطلب مساويه»[١].

وكذلك يرون أن الفصاحة والبيان واقع في كل آية وسورة من القرآن، أما ما ذكر من الإخبار بالمغيبات... وغيرها. فلم تكن في كل آية في القرآن.

كذلك يقولون: إن الإخبار بالمغيبات لم يختص به القرآن كما اختص بالنظم، يقول الباقلاني رحمه الله: «فإن قيل: فهل تقولون أن غير كلام الله عز وجل معجز؛ كالتوراة والإنجيل والصحف؟

قيل: ليس شيء من ذلك معجزًا في النظم والتأليف، وإن كان معجزًا كالقرآن فيما تضمنه من الإخبار عن الغيوب»[٢].

وكذلك يرون أن المعجزة تأتي بما برع فيه القوم الذين نزلت إليهم الرسالة، لتكون آية لهم بما يعلمون ويتقنون، والعرب كان أعظم ما تميزت به هو الفصاحة والبيان فجاءت معجزتهم مناسبة لهم[٣].

وأغلب من نظر هذه النظرة أهل العربية الذين يولعون بصور المعاني الحيَّة، ويعجبون بالنسج المحكم، والبيان الرائع[٤].

---

(١) حجج النبوة للجاحظ (٣/ ٢٧٧). (٢) إعجاز القرآن للباقلاني (ص٣١).
(٣) انظر: حجج النبوة للجاحظ (ص٢٧٧).
(٤) انظر: مباحث في علوم القرآن لمناع القطان (ص٢٦٩).

والقول الثاني: أن القرآن معجز بلفظه ومعناه، فإن القرآن تحدى الخلائق جميعهم، عربيهم وعجميهم، وإنسهم وجنهم؛ أن يأتوا بمثله أو بمثل أيسر جزء منه في اللفظ والمعنى، والمقصود بمعناه: ما اشتمل عليه من وعد ووعيد، وأمثال، وأمور غائبة... إلى غير ذلك.

وهذا الرأي هو الذي ذهب إليه الإمام ابن القيِّم رحمه الله، وطبقه في دراسته لإعجاز القرآن، وهو ما عناه في كلامه السابق حيث يقول: «... النظر إلى نفْسِ المتحدى به، وما اشتمل عليه من علوم وفنون تعجز الخلائق عن الإتيان بمثلها، ومن ذلك فصاحته، وأساليبه، وما فيه من الأمور الغائبة... إلى غير ذلك».

وهذا رأي أكثر المحققين من العلماء[1]، يقول الخطابي رحمه الله: «... واعلم أن القرآن إنما صار معجزًا لأنه جاء بأفصح الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف، مضمنًا أصح المعاني، من توحيد له عزت قدرته، وتنزيه له في صفاته، ودعاء إلى طاعته، وبيان بمنهاج عبادته؛ من تحليل وتحريم، وحظر وإباحة، ومن وعظ وتقويم وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق، وزجر عن مساوئها، واضعًا كل شيء منها موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه، ولا يرى في صورة العقل أمر أليق منه. مودعًا أخبار القرون الماضية وما نزل من مثلات الله بمن عصى وعاند منهم، منبِّئًا عن الكوائن المستقبلة في الأعصار من الزمان، جامعًا في ذلك بين الحجة والمحتج له، والدليل والمدلول عليه، ليكون ذلك آكد للزوم ما دعا إليه، وإنباء عن وجوب ما أمر به، ونهى عنه. ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور، والجمع بين أشتاتها حتى تنتظم وتتسق أمر تعجز عنه قوى البشر، ولا تبلغه قدرهم، فانقطع

(١) انظر: البداية والنهاية (٨/ ٥٤٧).

الخلق دونه، وعجزوا عن معارضته بمثله»[١].

وأما ما ذهب إليه أصحاب القول الأول من أن المراد بقوله تعالى: ﴿مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ دليل على الفسح لهم والتخفيف عليهم، وطرح المعنى عنهم في التحدي، وندبهم إلى الإتيان بمثل نظمه، فهذا أمرٌ لا يجزم به. **وقد يكون المعنى**: (إن كنتم تزعمون أن محمدًا افترى هذا القرآن من عنده؛ فافتروا واختلقوا أنتم عشر سور مثل الذي افتراه محمد. إن كان ما تزعمون صحيح)، ويكون ذلك من باب التنزُّل للخصم[٢].

ويدل على أن التخصيص بقوله: ﴿مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ لا يدل على قصر التحدي على النظم والبلاغة: أنه تعالى قال: ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣][٣].

ويدل ـ أيضًا ـ على أن التخصيص لا يدل على النظم، قوله تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٤]، يقول الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومعنى: ﴿بِعِلْمِ اللَّهِ﴾؛ أي: أنزله والله عالم بإنزاله، وعالم أنه حق من عنده.

ويجوز أن يكون ـ والله أعلم ـ ﴿بِعِلْمِ اللَّهِ﴾؛ أي: بما أنبأ الله فيه من غيب... على ما سيكون وما سلف مما لم يقرأ النبي ﷺ فيه كتابًا، وهذا دليل على أنه من عند الله»[٤].

ومفهوم كلام ابن القيِّم، وعموم آرائه في علم إعجاز القرآن، تؤكد

---

(١) بيان إعجاز القرآن للخطابي (ص٢٧).

(٢) ورد مثل ذلك في جدل إبراهيم لنمروذ في سورة البقرة. راجع: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٥٤).

(٣) راجع: تفسير الطبري (١٢/ ٣٤٥).

(٤) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣/ ٤٢). «باختصار».

أن تخصيص التحدي بالفصاحة غير وارد(١)، ومعلومٌ أن الإمام ابن القيِّم من العلماء الفاحصين المتثبتين، لا يبني آراءه وكلامه على مجرد الرأي، بل من العلماء الذين عنوا بالنصوص وفهمها، واستنباط الأحكام منها.

وأما قولهم أن الإخبار بالغيوب ليس في كل آية؛ فهذا صحيح. ولكن كل آية في القرآن تشتمل على معانٍ يعجز البشر عن الإتيان بمثلها، من وعد ووعيد، وأمثال، وأحكام شرعية... ـ كما مر في كلام الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ ـ وكل تلك المعاني شاهدة على إعجاز هذا القرآن، وأنه ليس من كلام البشر.

وأما قولهم أن المعجزة عادة تأتي بما برع فيه أولئك القوم التي نزلت عليهم المعجزة. فهذا يقال في معجزة القرآن؛ وأيضًا يتنبه إلى أن معجزة القرآن لها مميزات خاصة، تميزت بها عن معجزات الأنبياء السابقين؛ وهي كونها معجزة عامة لثقلين على اختلاف أجناسهم، وكذلك كونها معجزة خالدة باقية إلى يوم القيامة، وقد وضَّح ذلك الإمام ابن القيِّم في كلامه السابق.

ويقول الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ ـ ناصرًا هذا القول الذي ذهب إليه ابن القيِّم ـ: «التحدي ببلاغة ألفاظه يخص فصحاء العرب، والتحدي بما اشتمل عليه من المعاني الصحيحة الكاملة ـ وهي أعظم في التحدي عند كثير من العلماء ـ يعم جميع أهل الأرض من الملتين، أهل الكتاب وغيرهم من عقلاء اليونان والهند والفرس والقبط وغيرهم من أصناف بني آدم في سائر الأقطار والأمصار»(٢).

---

(١) وقد تحدث رَحِمَهُ اللَّهُ عن هذه الآية في كتاب «مدارج السالكين»، ومفهوم كلامه يدل على أن تخصيص التحدي بالبلاغة والفصاحة غير مراد. انظر: (٤/٤٧٦). وسيأتي ذكر ذلك ـ إن شاء الله ـ. انظر: (ص١٦٩).

(٢) البداية والنهاية (٨/٥٤٧).

ويقول الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله: «إننا لا ننفي...، ولم ننف... أن معجزة القرآن مناسبة لعصر نزولها، ولكننا نقول أيضًا أنها أشد مناسبة لموضوع الرسالة وخلودها، وبقائها إلى يوم القيامة».

ثم يقول: **«التقى في المعجزة الكبرى للنبي ﷺ - وهي القرآن المبين - معنيان، أصيب بهما هدفان:**

أولهما: أنه المناسب الذي يعرف به العرب معنى الشيء الخارق للعادة، الخارج عن طاقتهم، فإنه لا يدرك أثر ذلك إلا هم، ولا يعرف مقامه إلا من على شاكلتهم في معرفة مقام القول، ومنزلة البيان.

وثانيهما: أن كونه من نوع الكلام الموحى به الباقي الخالد، الذي حفظه الله تعالى ووعد بحفظه إلى يوم القيامة... ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. وذلك يناسب رسالته التي هي خاتم الرسالات الإلهية...». إلى أن قال: «وإنه معجزة للخليقة كلها، وفيه الدليل على أنه من عند الله للناس أجمعين؛ فهو إن جاء بلسان العرب، وفيه أعلى درجات البيان، يشتمل في ثناياه على ما يعجز الناس أجمعين بمعانيه، وشرائعه، وما اشتمل عليه من علوم، بل بمعانيه، قال منزّله عز من قائل: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]»[(١)].

والمراد أن رأي الإمام ابن القيِّم في التحدي، هو رأي جمع من علماء الأمة، وهو الأولى في وصف إعجاز القرآن.

ولعل لمن قصر التحدي على الفصاحة والنظم، أو من قصر إعجاز القرآن على وجه أو وجوه معدودة يراها لعل له عذرًا في ذلك، فإن كلًّا

---

(١) المعجزة الكبرى لمحمد أبو زهرة (ص٦٧). «باختصار».

من أولئك العلماء نظر إلى شيء من العلوم في القرآن، أو قد يكون ما بدى له من تأمله في القرآن سوى تلك الوجوه التي قال بها، والقرآن أوسع وأعظم من أن يحاط به وبما تضمنه[١]، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بل كل قوم تنبهوا لما تنبهوا له»[٢].

❁ ❁ ❁

(١) انظر: إعجاز القرآن الكريم عند شيخ الإسلام ابن تيمية. د. محمد العواجي (ص١٠٧).

(٢) الجواب الصحيح (٣/٤٩٦).

المَبْحَثُ الثَّالِثُ

تأثير القرآن في النفوس

امتاز القرآن الكريم بمخاطبة الوجدان الإنساني والتأثير عليه، وتحريك المشاعر، ونقلها من حال إلى حال؛ وذلك بما تضمنه من معانٍ عظيمة، مؤداة بألفاظ مناسبة لتلك المعاني، فإذا تحدث القرآن الكريم بالوعيد؛ جاءت الألفاظ من القوة بما يناسب ذلك الغرض المعنوي، وإذا تحدث عن البشارة؛ جاءت الألفاظ من السهولة بما يغرس الأمل، وينشط النفس(١)، تلك الخصائص التي اتسمت بها آيات القرآن جعلتها تتسلل إلى القلوب، فتقرعها تارة، وتحفزها تارة، وتنقلها من حال خوف تارة، إلى حال سرور وابتهاج تارة أخرى. ليست هي جوانب بلاغية فحسب؛ بل امتزجت تلك الجوانب البلاغية بالمعاني الجليلة العظيمة، فخرج من خلالها تلك الروعة، والهيبة، والجلال الذي يتركه القرآن في النفس، ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر: ٢٣].

يقول الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قُلْتُ في إعجاز القرآن وجهًا ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس؛ فإنك لا تسمع كلامًا غير القرآن منظومًا ولا منثورًا إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن

---

(١) هذا على سبيل المثال لا الحصر، وإلا فكل أسلوب سلكه القرآن له من التأثير على القلوب ما لا يعلمه إلا الله.

الروعة والمهابة في أخرى، ما يخلص منه إليه. تستبشر به النفوس، وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، وتغشاها الخوف والفرق.

تقشعر منه الجلود وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراتها، وعقائدها الراسخة فيها، فكم من عدو للرسول ﷺ من رجال العرب وفتّاكها أقبلوا عليه يريدون اغتياله وقتله فسمعوا آيات من القرآن، فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول، وأن يتركوه إلى مسالمته، ويدخلوا في دينه، وصارت معاداتهم موالاة، وكفرهم إيمانًا»[(١)].

ولا غرابة في تأثير هذا الكلام العظيم في تلك القلوب الإنسانية الضعيفة، بل الغريب أن يمر هذا القرآن على القلوب دون أن تشعر بعظمته، ودون أن تعي وتعلم أنه من الله الواحد القهار.

وقد بيّن الإمام ابن القيّم رَحِمَهُ اللهُ أن صنيع القرآن في القلوب، والطمأنينة الناتجة عن سماعه، أنها من أعظم الشواهد على صدق إعجازه، فإن هذا محال أن يحدث من كلام مكذوب، مفترى؛ لأن الكلام المكذوب تعرفه الفطر السليمة لأول وهلة، يقول ـ في ذلك ـ رَحِمَهُ اللهُ: «ومن شهادة الله لصدق هذا القرآن: ما أودعه في قلوب عباده من التصديق الجازم، واليقين الثابت، والطمأنينة بكلامه ووحيه، فإن العادة تحيل حصول ذلك بما هو من أعظم الكذب والافتراء على رب العالمين، والإخبار عنه بخلاف ما هو عليه من أسمائه وصفاته؛ بل ذلك يوقع أعظم الريب والشك، وتدفعه الفطر والعقول السليمة».

(١) بيان إعجاز القرآن الكريم (ص٧٠).

ثم استطرد رحمه الله مبينًا أن الله ﷻ حثَّ عباده على النظر والتبصر في هذا القرآن؛ لأن ذلك وسيلة لإدراك صدقه، وصحته، يقول رحمه الله: «ولهذا ندب الله ﷻ عباده إلى تدبر القرآن؛ فإن كل من تدبره أوجب له تدبره علمًا ضروريًّا ويقينًا جازمًا أنه حق وصدق، بل أحق كل حق، وأصدق كل صدق، وأن الذي جاء به أصدق خلق الله، وأبرهم، وأكملهم علمًا، وعملًا، ومعرفةً. كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، فلو رفعت الأقفال عن القلوب لباشرتها حقائق القرآن، واستنارت فيها مصابيح الإيمان، وعلمت علمًا ضروريًّا يكون عندها كسائر الأمور الوجدانية ـ من الفرح، والألم، والحب، والخوف ـ أنه من عند الله تكلم به حقًّا، وبلغه رسوله جبريل عنه إلى رسوله محمد؛ فهذا الشاهد في القلب من أعظم الشواهد، وبه احتج هرقل على أبي سفيان حيث قال له: «فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فقال: لا. فقال له: وكذلك الإيمان إذا خالطت حلاوته بشاشة القلوب لا يسخطه أحد»[١]»[٢].

أثَّر القرآن الكريم في نفوس حتى من لم يؤمن من الكفار، وحتى من امتلأ قلبه عداوة وبغضًا لرسول الله ﷺ لم يستطع أن يقاوم ذلك التأثير أو يخفيه، فمنهم من تملكه الكبر، وتسلط عليه سلطان الهوى، فلم يستطع أن يتخلص منه فلم يؤمن، ومنهم من آثر الحق على الضلالة، فبادر منقادًا مجيبًا داعي الله، ومن أولئك عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) مدارج السالكين (٤/٤٧٦ ـ ٤٧٧). «بتصرف».

روي في قصة إسلامه أنه قرأ شيئًا من القرآن، فرقَّ له قلبه، وأعجبه، وقال: «ما أحسن هذا الكلام وأكرمه». ثم ذهب إلى رسول الله ﷺ فأعلن إسلامه[١].

فهذا عمر الذي عرف بالغلظة، والشدة، وحدة الطبع على المسلمين قبل إسلامه، استسلم للحق، ولم يستطع مقاومة نور القرآن الذي يسطع على القلوب، فيكشف لها الحق، ويوقره فيها ـ بإذن الله تعالى ـ.

والقصص في تأثير القرآن على البشر كثيرة جدًّا، ومنها: ما روي أن عتبة بن ربيعه: أتى النبي ﷺ مندوبًا من قريش، يفاوضه على ترك دعوته، فقرأ عليه النبي ﷺ آيات من القرآن فتأثر بها، وعاد إلى قريش بوجه غير الذي ذهب من عندهم به. وقال: «إني قد سمعت قولًا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم»[٢].

فيدل هذا الخبر على أن قريش تعلم أن هذا القرآن ليس هو من عند محمد ﷺ، ولا هو من جنس كلامهم، ولا تأثيره مثل تأثير أقوالهم، عالمة علم يقين أنه من الله. ولو لم يكن القرآن كذلك؛ لما بُنيت حجة نبوته ﷺ عليها، يقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦]، يقول الباقلاني رحمه الله: «لولا أن سماعه إياه حجةٌ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٢٢).

لم يقف أمره على سماعه. ولا يكون حجة إلا وهو معجزة»[١].

لكنَّ الإمام ابن القيِّم رحمه الله يلفت إلى شيء مهم، وهو أن هذا القرآن على أن له تأثيره البالغ في النفوس، إلا أن ثمَّة شروط يجب تحقُّقها في السامع حتى يحصل له ذلك التأثر والانتفاع بالقرآن، ويعرف تلك الروعة والمهابة التي يلقيها القرآن في القلوب، يقول رحمه الله: «إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك واحضر حُضور من تكلم به سبحانه منه إليه؛ فإنه خطابٌ منه لك على لسان رسوله:

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفًا على مؤثِّر مُقْتَضٍ، ومحلٍّ قابل، وشرط لحصول الأثر، وانتفاء المانع الذي يمنع منه؛ تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه وأدله على المراد.

فقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ إشارة إلى ما تقدم من أول السورة إلى هاهنا، وهذا هو المؤثِّرُ.

وقوله: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ فهذا هو المحلُّ القابلُ، والمراد به القلب الحي الذي يعقل عن الله؛ كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٦٩، ٧٠]؛ أي: حي القلب.

وقوله: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾؛ أي: وجَّه سمعه وأصغى حاسّة سمعه إلى ما يقال له، وهذا شرط التأثُّر بالكلام.

وقوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾؛ أي: شاهد القلب حاضر غير غائب. قال ابن قتيبة: «استمع كتاب الله، وهو شاهد القلب والفهم، ليس بغافل

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني (ص٩).

ولا ساهٍ»[١]. وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير، وهو سهوُ القلب وغيبته عن تعقل ما يقال له والنظر فيه وتأمله.

فإذا حصل المؤثر وهو القرآن، والمحل القابل وهو القلب الحي، ووجد الشرط وهو الإصغاء، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر؛ حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكر.

فإن قيل: إذا كان التأثر إنما يتم بمجموع هذه؛ فما وجه دخول أداة (أو) في قوله: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ والموضع موضع واو الجمع لا موضع (أو) التي تأتي هي لأحد الشيئين؟

قيل: هذا سؤال جيد، والجواب عليه أن يقال: خرج الكلام بـ(أو) باعتبار حال المدعو:

فإن من الناس من يكون حي القلب، واعيه، تام الفطرة؛ فإذا فكر بقلبه، وجال بفكره؛ دلّه قلبه وعقله على صحة القرآن، وأنه حق، وشهد قلبه بما أخبر به القرآن، فكان ورود القرآن على قلبه نورًا على نور الفطرة، وهذا وصف الذين قيل فيهم: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ: ٦]، وقال في حقهم: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥]؛ فهذا نور الفطرة على نور الوحي، وهذا حال صاحب القلب الحي الواعي. . . .

ومن الناس من لا يكون تام الاستعداد، واعي القلب، كامل

---

(١) غريب القرآن لابن قتيبة (ص٤١٩).

الحياة، فيحتاج إلى شاهد يميِّز له بين الحق والباطل، ولم تبلغ حياة قلبه ونوره وزكاء فطرته مبلغ صاحب القلب الحي الواعي؛ فطريق حصول هدايته: أن يفرغ سمعه للكلام، وقلبه لتأمله والتفكير فيه وتعقل معانيه، فيعلم حينئذ أنه الحق.

فالأول حالُ من رأى بعينه ما دعي إليه وأخبر به، والثاني حالُ من علم صدق المخبر وتيقنه وقال: يكفيني خبره. فهو في مقام الإيمان، والأول في مقام الإحسان. هذا قد وصل إلى علم اليقين وترقى قلبه منه إلى منزلة عين اليقين، وذاك معه التصديق الجازم الذي خرج به من الكفر ودخل به في الإسلام»[1].

فابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ أكَّد في ما مضى أن تأثير القرآن في القلوب ثابت، لكن بشرط التجرد عن الهوى، والاستماع المقرون بالتدبر، والإقبال عليه، وعدم الصد عنه، فمن حقق ذلك انتفع به، ووقف على أسرار إعجازه[2].

❁ ❁ ❁

---

(١) الفوائد (ص٣ ـ ٥). «باختصار».

(٢) وقد تحدث الإمام ابن القيِّم رحمه الله عن هذا المعنى كثيرًا في كتبه. انظر: مدارج السالكين (٢/ ٢٠)، مفتاح دار السعادة (١/ ٥١٣)، إغاثة اللهفان (١/ ٩٩). وغيرها.

المَبۡحَثُ ٱلرَّابِعُ

موافقة القرآن لعلوم الكتب السابقة وتصديقه لها دليل على إعجازه

اتفاق دعوة الرسل مع اختلاف أماكنهم وتباعد أزمنتهم ينبئ أن مصدر الرسالة واحد؛ إذ من المتعذر أن يتناقلوها عن بعضهم مع اختلاف زمانهم ومكانهم ولغاتهم، فكل الأنبياء جاؤوا بدعوة التوحيد، ونشر العدالة والأخلاق ودفع البغي والظلم، وتزكية المجتمعات من الفواحش والآثام، وإلى هذا دعت كتبهم التي جاؤوا بها عن الله، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، يقول الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فهذه الأنواع حرمها تحريمًا مطلقًا؛ لم يبح منها شيئًا لأحد من الخلق، ولا في حال من الأحوال»(١).

لقد جاءت شريعة محمد ﷺ متممة لشرائع الأنبياء السابقين، داعيةً إلى تلك الأصول التي دعت إليها جميع الشرائع، يقول الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورى: ١٣].

ويرى الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ أن من أعظم الأدلة التي يستدل القرآن

---

(١) مفتاح دار السعادة (٣/ ٣٠).

بها على صدقه، وصدق من جاء به، هو أن القرآن الكريم جاء مصدقًا للكتب التي قبله، مشتمل على تلك الأصول التي اشتملت عليها، موافق لها، وفي تلك الموافقة شهادة بصحتها، وصدق من جاء بها، وكذلك فيه تصديق له أيضًا، إذ لم يكن ما جاء به أمورًا مبتدعة، بل هي موافقة لما جاءت به الرسل جميعًا، ويرى الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ ذلك أيضًا من أعظم المقاصد التي لأجلها كرر الله التنبيه على هذا الاستدلال في القرآن، حيث يقول الله ﷻ: ﴿الٓمٓ ① ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ② نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ١ ـ ٣]، ويقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]. ويقول سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، ويقول الله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: ٩٢].

يقول الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «أفلا ترى كيف اطرد في القرآن وصف الكتاب بأنه مصدق لما بين يديه.

وباتفاق الناس أن المراد مصدق لما تقدمه من الكتب، وبهذه الطريق يكون مصدقًا للنبي ﷺ، ويكون أبلغ في الدليل على صدقه من أن يقال: هذا كتاب مصدق لك، فإنه إذا كانت الكتب المتقدمة تصدقها وتشهد بصحة ما فيها مما أنزله الله، من غير مواطأة ولا اقتباس منها، دل على أن الذي جاء به رسول الله ﷺ صادق، كما أن الذي جاء بها كذلك، وأن مخرجهما من مشكاة واحدة.

ولهذا قال النجاشي حين قرئ عليه القرآن: «إن هذا والذي جاء به

موسى يخرج من مشكاة واحدة»[١]؛ يعني: فإذا كان موسى صادقًا وكتابه حق، فهذا كذلك، إذ من المحال أن يخرج شيئان من مشكاة واحدة ويكون أحدهما باطلًا محضًا، والآخر حقًّا محضًا، فإن هذا لا يكون إلا مع غاية التباين والتنافر.

فالقرآن صدق الكتب المتقدمة، وهي بشرت به، وبمن جاء به، فقام الدليل على صدقه من الوجهين معًا: من جهة بشارة من تقدمه به، ومن جهة تصديقه ومطابقته له. فتأمله.

ولهذا كثيرًا ما يتكرر هذا المعنى في القرآن، إذ في ضمنه الاحتجاج على الكتابيين بصحة نبوة محمد ﷺ بهذه الطريق، وهي حجة أيضًا على غيرهم بطريق اللزوم؛ لأنه إذا جاء بمثل ما جاؤوا به من غير أن يتعلم منهم حرفًا واحدًا، دل على أنه من عند الله تعالى»[٢].

وقد بيَّن الإمام ابن القيِّم أنه بعد هذا الدليل، يبيِّن أن من أنكر صحة هذا القرآن، فقد أنكر صحة جميع الكتب، وجحد نبوة جميع الرسل، ولا يسمى أحد بعد بعثة محمد ﷺ مؤمنًا حتى يؤمن بما جاء به، وذلك لأن النبوات السابقة بشرت به، فجاء صدق ما بشرت به، ولأنه جاء موافقًا لما جاءت به الرسل السابقين، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن دعوة محمد بن عبد الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ هي دعوة جميع المرسلين قبله من أولهم إلى آخرهم، فالمكذب بدعوته مكذب بدعوة إخوانه كلهم، فإن جميع الرسل جاؤوا بما جاء به. فإذا كذبه المكذب فقد زعم أن ما جاء به باطل. وفي ذلك تكذيب كل رسول أرسله الله، وكل كتاب

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده رقم (١٧٤٠). قال الهيثمي: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير إسحاق وقد صرح بالسماع». مجمع الزوائد رقم (٩٨٤٢).

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٣٣٧).

أنزله الله، ولا يمكن أن يعتقد أن ما جاء به صدق وأنه كاذب مفتر على الله. وهذا في غاية الوضوح.

وهذا بمنزلة شهود شهدوا بحق فصدقهم الخصم وقال: هؤلاء كلهم شهود عدول صادقون، ثم شهد آخر على شهادتهم سواء فقال الخصم: هذه الشهادة باطلة وكذب لا أصل لها. وذلك تكذيب بشهادة جميع الشهود قطعًا»(١).

وقد استدل ـ جلَّ شأنه ـ على من كذَّب بنبوة محمد ﷺ، أنه جاء بما جاءت به الأنبياء السابقون، فقال ﷻ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ٣٥ ـ ٣٧].

يقول السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وصدق أيضًا المرسلين بأن جاء بما جاؤوا به، ودعا إلى ما دعوا إليه، وآمن بهم، وأخبر بصدق رسالتهم ونبوتهم وشريعتهم»(٢).

وقد نبَّه الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ على أن شريعة القرآن وإن جاءت موافقة للشرائع السابقة، إلا أنها أفضل الشرائع، وأحسنها، وأسمحها، وأشملها؛ جاءت بالسماحة، والرحمة، واليسر، وطرحت المشقة والعنت الذي كان على الأمم السابقة، فشملت العدل والرحمة يقول تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

يقول الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ في ذلك ـ: «**قيل: أن الشرائع ثلاثة:**

شريعة عدل: وهي شريعة التوراة، فيها الحكم والقصاص.

---

(١) هداية الحيارى (ص٤٣١).

(٢) تفسير السعدي (ص٧٠٢).

وشريعة فضل: وهي شريعة الإنجيل مشتملة على العفو ومكارم الأخلاق، والصفح والإحسان؛ كقوله: من أخذ رداءك فأعطه ثوبك، ومن لطمك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر، ومن سخرك ميلًا فامش معه ميلين. ونحو ذلك.

وشريعة نبيّنا: جمعت هذا وهذا، وهي شريعة القرآن، فإنه يذكر العدل ويوجبه والفضل ويندب إليه؛ كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠] فجاء اسمه عند هذه الأمة بأفعل التفضيل الدال على الفضل والكمال، كما جاءت شريعتهم بالفضل المكمل لشريعة التوراة، وجاء في الكتاب الجامع لمحاسن الكتب قبله، فتدبر هذا الفضل»[1].

وخُصَّت هذه النبوة بهذه الخاصية والفضل؛ لأنها خاتمة الرسالات، ولأنها شاملة لجميع الثقلين، فجاء هذا الكتاب بهذه الشمولية ليكون إمامًا لجميع الخلق، وداعيًا لهم إلى ما يحقق نجاتهم، ومبينًا لهم ما يصلح دنياهم وأخراهم.

(١) جلاء الأفهام (ص٢٦٧) «باختصار يسير».

ٱلْفَصْلُ ٱلثَّانِي

أوجه الإعجاز العامة التي تكلم فيها ابن القيِّم

ويشتمل على خمسة مباحث:

- المبحث الأول: الإعجاز التشريعي عند ابن القيِّم.
- المبحث الثاني: الإعجاز الخبري عند ابن القيِّم.
- المبحث الثالث: الإعجاز العلمي والكوني عند ابن القيِّم.
- المبحث الرابع: الإعجاز العقلي عند ابن القيِّم.
- المبحث الخامس: الإعجاز اللغوي عند ابن القيِّم.

المَبحَثُ الأَوَّلُ

الإعجاز التشريعي عند ابن القيِّم

ويشتمل على مطلبين:

- المطلب الأول: شريعة القرآن آية على صدق نبوة محمد.
- المطلب الثاني: أسرار الشريعة وسمو مقاصدها.

* * *

المَطلَبُ الأَوَّلُ

شريعة القرآن آية على صدق نبوة محمد ﷺ

لا بد للمجتمع الإنساني من نظام تسير شؤون الحياة عليه، ويضمن حقوق الرعية بين بعضهم، ويرعى مصالح البشر، يقوم على العدل والإنصاف، متكامل، متوافق مع المصلحة، غير مقصر في تحقيقها، أو متناقض معها، يبني أسس المودة والألفة بين المجتمع، ويؤصل الأخلاق والمبادئ في نفوس البشر، يبين الحقوق الواجبة على الفرد تجاه نفسه، وتجاه مجتمعه، وتجاه خالقه تبارك وتعالى.

وإذا خلا المجتمع من ذلك النظام؛ سادت فيه الفوضى، وضاعت فيه الحقوق، وذهب منه الأمن، وتسلَّط القويُّ على الضعيف، وتفرق المجتمع، وكثرت فيه النعرات العرقية، وشاع الجهل والفقر بين ذلك المجتمع، لانصراف الناس عن تكوين العقول، إلى البحث عن سبل العيش؛ ولا يمكن تحصيل العيش الرغيد مع انعدام الأمن، وكثرة السلب والنهب.

تلك هي حالة الجزيرة العربية قبل نزول القرآن[١]؛ فلم يك ثمَّة قانون أو سياسة تقود ذلك المجتمع، وتضمن الحقوق لأفراده ولأهله، فكان مجتمعًا مضطربًا، تعمه الفوضى وضياع الحقوق، ويسوده الجهل والفقر والخوف[٢].

أما المجتمعات التي تصاقب الجزيرة العربية، فهي أحسن حالًا بالنسبة لما كانت عليه الجزيرة العربية، فقد اعتمدت قوانين ونُظُمًا في تيسير المجتمع، وضعها حكماء ومفكرون، وطورها جيل بعد جيل، حتى تمخض عن ذلك ما يعرف «بالقانون الروماني»، «وقد كان هذا النظام هو الدستور المسيطر في التطبيقات العلمية والقضائية في مصر والشام وغيرها من البلدان التي تصاقب البلاد العربية، وتحيط بها من الغرب والشمال»[٣].

وحرص فلاسفة اليونان وغيرهم من صياغة قوانين وأحكام تضمن الحقوق الاجتماعية للفرد في مجتمعه، وبذلوا قصار جهدهم في الاستنتاجات وصياغة الضوابط والقواعد لذلك القانون، فكان خلاصة ما توصلت إليه عقول البشرية على مر مئات السنين[٤].

ومن يوازن بين ما جاءت به شريعة القرآن، وبين ما وضعه أولئك المفكرون والحكماء، يتبين أن هذا القرآن دستور إلٰهي سماوي، لا يمكن

---

(١) باستثناء مكة فإن الله ﷻ حماها وأهلها، فكانت العرب تجلها وتعظم أمر أهلها، وبهذا امتن الله ﷻ عليهم، يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٤] ويقول: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧].

(٢) انظر: الرحيق المختوم (ص٣٨).

(٣) شريعة القرآن من دلائل إعجازه. للشيخ محمد أبو زهرة (ص١٠) «بتصرف».

(٤) انظر: المرجع السابق (ص١١).

أن تنسج عقول البشر منهجًا مثله، ويتبين له التناقضات في ذلك القانون وكثرة الحيف فيه، ومجانبته للإنصاف والعدل في كثير من القضايا، ويتضح عدل القرآن، وحكمته ورعايته للمصالح ودقة أحكامه وإتقانه(١)، بل لا توجد نسبة للموازنة، وكيف ذلك وهذا شرع إلٰهي معصوم، وتلك آراء بشرية يعتريها ما يعتريها من الخطأ والخلل؟! لكن ليستدل بذلك على معجزة القرآن، وأنه تنزيل من الحكيم العليم تبارك وتعالى.

جاء النبي ﷺ بهذا الوحي الإلٰهي إلى ذلك المجتمع الجاهلي، فانتشله من تلك الغوغاء والفوضى العارمة التي كان يتخبط فيها، فتآلف ذلك المجتمع وتآخى، وأصبح مجتمعًا تسوده الألفة والمحبة في الله، بعد أن كان مجتمعًا تسيطر عليه العصبيات، وتغلب عليه النعرات، وإن من أعظم الآيات الدالة على صدق هذه الشريعة، وأعظم الأدلة على أنها شريعة ربَّانية؛ هو ما حققته من بناء ذلك المجتمع المتفرق في ذلك الوقت الوجيز، وبهذا امتن الله على نبيه ﷺ حيث يقول: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣].

(١) وقد عقد بعض العلماء موازنة بين ما دعا إليه أولئك الحكماء والفلاسفة وبين ما دعت إليه الشريعة، وأوضحوا البون الشاسع بينهما، ومن أولئك العلماء الإمام ابن القيِّم رحمه الله في كتابه «مفتاح دار السعادة» (٣/ ٢٤)، ومن العلماء المعاصرين الذين اهتموا بهذا الوجه من وجوه إعجاز القرآن الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله، فكتب في ذلك كتاب «شريعة القرآن من دلائل إعجازه» وكذلك عقد فصلًا في كتابه «المعجزة الكبرى» عن الإعجاز التشريعي، وقد عقد في كلا الكتابين جملة من المقارنات بين شريعة القرآن، وتلك القوانين، وبيَّن من خلال تلك الموازنات عظمة هذه الشريعة، وسمو مقاصدها، ورعايتها لمصالح العباد، ورد على الطاعنين في بعض التشريعات القرآنية، وبين موافقة التشريعات القرآنية للمصلحة وللحاجات الإنسانية. راجع: شريعة القرآن من دلائل إعجازه (ص١٢)، المعجزة الكبرى (ص٣٠٩).

فأقام الإسلام العدل في المجتمع، فأعطى كل ذي حق حقه، وضمن الحقوق للمجتمع المسلم، فلا يظلم أحد تحت مظلته، وضبط ذلك ضبطًا دقيقًا وأحكمه أيما إحكام، فبينما كان المجتمع الجاهلي يسير على الظلم في المعاملات وبخس الحقوق، جاء الإسلام بنظام اقتصادي دقيق، فحرم الربا، وحرم التطفيف في الكيل، ووضع الشهادة في الديون؛ لكي لا تضيع حقوق الناس... إلى غير ذلك.

وبينما كانت المرأة في المجتمع الجاهلي تقبع تحت ذلك الظلم الاجتماعي الجائر، جاء الإسلام فحررها وكرمها، ووضع لها حقوقها المتماشية مع طبيعتها وخصوصيتها الأنثوية[١]، فجعلها زوجة فاعلة مربية في المجتمع، وجعل لها حقًّا في الميراث وقد كانت تورث مع متاع البيت، وحرم وأدها وقتلها كما كان يسير عليه المجتمع الجاهلي الظالم.

ووضع الإسلام الحدود والعقوبات، لضبط المجتمع، والمحافظة على أمنه، وسلامة أهله، بحكمة وعدل عظيم.

كما وضع الإسلام نظام التكافل الاجتماعي، وحل مشكلات الفقر في المجتمع بعلاج لا يمكن أن تهتدي إليه عقول البشر[٢].

وحصر ما جاءت به الشريعة من محاسن وما دفعته من مساوئ أمر غير ممكن، وليس هذا هو المراد؛ إنما المراد هو التأمل في هذه الشريعة، والتأمل في حال من أتى بها، والمقارنة بين ما كان عليه ذلك المجتمع الجاهلي وبين ما جاء به الإسلام؛ إن المتأمل في هذه الأمور

(١) ليس كما يراه دعاة التغريب اليوم من محاولة لإفساد المجتمع، ودعوة إلى السفور التي لا تراعي شريعة، وإنما تراعي شهوات وأهواء، ونسوا أن المجتمعات الغربية أصبحت تدعو إلى ما دعا إليه الإسلام، ورأوا الحق فيه. راجع: مناهل العرفان (٢/ ٣٥٣).

(٢) راجع: المعجزة الخالدة. لحسن ضياء الدين عتر (ص٣٢٣ ـ ٣٢٥).

يهتدي إلى أنه ليس في مقدور رجل أمي بل ليس في مقدور البشر كلهم لو اجتمعوا أن يؤلفوا ويتواطؤوا على مثل هذه الشريعة، يقول الشيخ محمد رشيد رضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كيف يستطيع رجل أمي لم يقرأ ولم يكتب، ولا نشأ في بلد علم وتشريع أن يأتي بمثل ما في القرآن تحقيقًا وكمالًا، ويؤيده بالحجج والبراهين بعد أن قضى ثلثي عمره لا يعرف شيئًا منها، ولم ينطق بقاعدة ولا أصل من أصولها، ولا حكم بفرع من فروعها إلا أن يكون ذلك وحيًا من الله تعالى؟»[١].

لا يشك أحد ينظر إلى تشريعات القرآن أنه من عند الله عَزَّ وَجَلَّ، وأنه إنما كان وحيًا من الله على نبيِّه، بل إن هذا الوجه من أعظم الأدلة على إعجاز هذا الكتاب الكريم[٢]، يقول القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ ضمن حديثه عن وجوه الإعجاز ـ: «ومنها: ما تضمنه القرآن من العلم الذي هو قوام جميع الأنام، في الحلال والحرام، وفي سائر الأحكام»[٣].

ولقد أسهب الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان كمال الشريعة وحسنها، وبحث ذلك بحثًا دقيقًا، وجاء بكلام في غاية النفاسة والحسن، فهو يرى أن هذه الشريعة آية ومعجزة كافية في الدلالة على أنها من الله عَزَّ وَجَلَّ، لما اشتملت عليه من حكم باهرة، ومن مطابقة لما تستحسنه العقول، ولما فيها من مراعاة المصالح الدنيوية والأخروية، ولا يمكن هذا أن يكون إلا من عند الله عَزَّ وَجَلَّ يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإذا تأملت الحكمة الباهرة في هذا الدين القويم، والملة الحنيفيَّة، والشريعة المحمدية، التي لا تنال العبارة كمالها، ولا يُدرِكُ الوصف حسنها، ولا تقترحُ عُقولُ العقلاءِ ـ ولو

---

(١) تفسير المنار (١/ ٢٠٧) «بتصرف».
(٢) انظر: شريعة القرآن من دلائل إعجازه (ص١٠).
(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١/ ١١٩).

اجتمعت وكانت على أكمل عقل رجل منهم ـ فَوقَها، وحسب العقول الكاملة الفاضلة أن أدركت حُسنَها، وشهدت بفضلها، وأنه ما طرق العالم شريعةٌ أكمل ولا أجل ولا أعظم منها، فهي نفسها الشاهد والمشهود له، والحجة والمحتج له، والدعوى والبرهان، ولو لم يأت الرسول ببرهان عليها لكفى بها برهانًا وآيةً وشاهدًا على أنها من عند الله، وكلها شاهدةٌ له بكمال العلم، وكمال الحكمة، وسعة الرحمة والبر والإحسان، والإحاطة بالغيب والشهادة، والعلم بالمبادئ والعواقب...»[1].

كما بيَّن رَحِمَهُ اللهُ أن شريعة القرآن شريعة كاملة شاملة وافية لجميع مصالح الحياة، مبرأةٌ من التناقض والاختلاف، أباحت كل خير، وحرمت ونهت عن كل فساد وشر، جاءت بالرحمة والعدل، منزهة عن كل نقص وعيب، يقول رَحِمَهُ اللهُ: «الحمد لله الذي نزه شريعته عن التناقض والفساد، وجعلها كفيلة وافية بمصالح خلقه في المعاش والمعاد، وجعلها من أعظم آياته الدالة عليه، ونصبها طريقًا مرشدًا لمن سلكه إليه؛ فهو نوره المبين، وحصنه الحصين، وظله الظليل، وميزانه الذي لا يعول، لقد تعرف بها إلى ألِبَّاء عباده غاية التعرف، وتحبب بها إليهم غاية التحبب، فأنسوا بها منه حكمته البالغة، وتمَّت بها عليهم منه نعمه السابغة، ولا إله إلا الله الذي في شرعه أعظم آية تدل على تفرده بالألوهية وتوحده بالربوبية، وأنه الموصوف بصفات الكمال، المستحق لنعوت الجلال، الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلى وله المثل الأعلى، فلا يدخل السوء في أسمائه ولا النقص والعيب في صفاته، ولا العبث ولا الجور في أفعاله، بل هو منزه في ذاته وأوصافه وأفعاله

(١) مفتاح دار السعادة (٢/٣٠٨).

وأسمائه عما يضاد كماله بوجه من الوجوه، وتبارك اسمه، وتعالى جده، وبهرت حكمته، وتمت نعمته، وقامت على عباده حجته، والله أكبر كبيرًا أن يكون في شرعه تناقض واختلاف، فلو ﴿كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] بل هي شريعة مؤتلفة النظام، متعادلة الأقسام، مبرأة من كل نقص، مطهرة من كل دنس، ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ [البقرة: ٧١]، مؤسسة على العدل والحكمة والمصلحة والرحمة قواعدها، ومبانيها، إذا حرمت فسادًا حرمت ما هو أولى منه أو نظيره، وإذا رعت صلاحًا رعت ما هو فوقه أو شبهه؛ فهي صراطه المستقيم الذي لا أمت فيه ولا عوج، وملته الحنيفية السمحة التي لا ضيق فيها ولا حرج، بل هي حنيفية التوحيد سمحة العمل، لم تأمر بشيء فيقول العقل: لو نهت عنه لكان أوفق، ولم تنه عن شيء فيقول الحِجَى: لو أباحته لكان أرفق، بل أمرت بكل صلاح، ونهت عن كل فساد، وأباحت كل طيب، وحرمت كل خبيث، فأوامرها غذاء ودواء، ونواهيها حمية وصيانة، وظاهرها زينة لباطنها، وباطنها أجمل من ظاهرها، شعارها الصدق، وقوامها الحق، وميزانها العدل، وحكمها الفصل، لا حاجة بها البتة إلى أن تكمل بسياسة ملك أو رأي ذي رأي أو قياس فقيه أو ذوق ذي رياضة أو منام ذي دين وصلاح؛ بل بهؤلاء[1] كلهم أعظم الحاجة إليها، ومن وفق منهم للصواب فلاعتماده وتعويله عليها، فقد أكملها الذي أتمَّ نعمته علينا بشرعها...»[2].

نصوص الشريعة وافية بجميع مناحي الحياة، كما أنها صالحة لعلاج كل حادثة ونازلة، حتى وإن لم يكن لها مثال وقت نزول القرآن،

(١) هذا الذي أثبته المحقق، وذكر أن بعض مخطوطات الكتاب أثبت فيها «لهؤلاء».
(٢) إعلام الموقعين (٥/ ١٦٣).

ولم تنزل نازلة أو يحدث حدث إلا وفي الشريعة له حكم ودليل من القرآن، قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، يقول الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليلُ على سبيل الهدى فيها»[(١)]. ويشهد لذلك التاريخ، فلم يُذكر أن هناك معضلة نزلت إلا ولها في الشريعة حكم، وهذا دليل على أنها نزلت من عند علام الغيوب، وأن هذه الشريعة صالحة لتطبيقها في كل زمان ومكان، وهذا ما قرره وأبداه الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في دراسته لكمال هذه الشريعة وحسنها[(٢)]. وأيضًا ذلك ما قرره علماء الإسلام - رحمهم الله تعالى -[(٣)].

وقد يثور هنا بادي الرأي، ويلمح النظر بسؤال: هل يشتمل القرآن والسُّنَّة على جميع المسائل بالنص عليها؟

فيقال: إن النصوص الشرعية عامة وشاملة وإن كان هناك أحكام لم ينص عليها بعينها[(٤)]؛ إلا أنها إما أن يكون حكمها مستنبطًا من النصوص الشرعية فتكون كالنصوص عليها، أو أنها ترد إلى قواعد الشريعة وأصولها فيستنبط منها ما يتفق مع مقاصد وضوابط الشريعة وأصولها حكم شرعي لهذا الحدث[(٥)]، يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، ولهذا فتحت

---

(١) الرسالة (ص١٩).
(٢) انظر: إعلام الموقعين (٣/ ٩٧).
(٣) راجع: شريعة الإسلام صالحة للتطبيق في كل مكان وزمان. د. يوسف القرضاوي (ص١٤).
(٤) يقول الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الشريعة لم تنص على حكم كل جزئية على حدتها، وإنما أتت بأمور كلية وعبارات مطلقة تتناول أعدادًا لا تنحصر». الموافقات (٥/ ١٤).
(٥) راجع: شريعة الإسلام صالحة في كل زمان ومكان (ص١٤).

الشريعة باب القياس والاجتهاد، ولكن لذلك ضوابط وحدود وهناك صفات يجب تحققها في المجتهد[(١)]، ولا يصار إلى الاجتهاد إلا عند الضرورة[(٢)]، ومع ذلك فإن دائرة القياس والاجتهاد دائرة ضيقة محدودة؛ لأن الغالب في الشريعة هو النصوص، وما تحمله من معانٍ مغنية عن القياس والاجتهاد، وقد تحدث الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في فصول يبيِّن فيها كمال النصوص الشرعية وغناها عن القياس، فذكر أن نصوص الشريعة شاملة للأحكام، فيها اكتفاء عن الرأي، وذكر أن الرأي والاجتهاد باطل مع وجود النص، ثم قال بعد ذلك رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذه الفصول... بها يتبين للعالم المنصف مقدار الشريعة، وجلالتها، وهيمنتها، وسعتها، وفضلها، وشرفها على جميع الشرائع، وأن رسول الله ﷺ كما هو عام الرسالة إلى كل مكلف، فرسالته عامة في كل شيء من الدين، أصوله وفروعه، ودقيقه وجليه، فكما لا يخرج أحد عن رسالته، فكذلك لا يخرج حكم تحتاج إليه الأمة عنها وعن بيانه له...»[(٣)].

فمن يتأمل هذه الشريعة وينظر كيف بنت مجتمعًا حضاريًا في أرقى مستويات الحضارة، يعلم أن هذه الشريعة آية دالة على أنها من الله العليم الحكيم، ويعلم عظمة هذا الكتاب الذي هو دستور هذه الشريعة ومنهجها، وأساسها الذي تقوم عليه.

---

(١) راجع: الموافقات للشاطبي (٥/ ٤١).

(٢) أطنب ابن القيِّم في تضييق دائرة القياس والرأي؛ لما رأى من بعض الفقهاء من التوسع في هذا الباب حتى إنهم يذهبون عن الدليل إلى القياس والاجتهاد، فبيَّن خطأ ذلك، وبيَّن أن الأصل هو النص، ولا يعدل عنه بحال. وقد ناقش هذه القضية في قرابة مجلدين من كتابه «إعلام الموقعين» ويعد الكتاب من أهم المصادر للمهتمين بهذه القضية. راجع: إعلام الموقعين (٢/ ٢٤٧ ـ ٤١٤).

(٣) إعلام الموقعين (٣/ ١١٦) «باختصار».

المَطْلَبُ الثَّانِي

أسرار الشريعة وسموّ مقاصدها

بنيت الشرائع السماويَّة على حِكْمَةِ مشرعها جلَّ وعلا، فما من شريعة سماوية إلا وتشريعاتها تهدف إلى مقاصد وحكم تُصلح ذلك المجتمع الذي أنزلت فيه، والحق جلَّ وعلا منزه عن العبث أو أن تكون أحكامه وتشريعاته ﷻ خالية من الحكمة والمصلحة، فليست هي مجرد أوامر ونواهٍ مقصودة لذاتها، بل لها حكم ومقاصد تعود على الفرد والمجتمع بالنفع، يقول العلامة ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد ثبت بالأدلة القطعية أن الله لا يفعل الأشياء عبثًا؛ دل على ذلك صنعه في الخليقة كما أنبأ عنه قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩]، وقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]»(١).

ولم ترسل الرسل ولم تنزل الكتب إلا لرعاية مصالح البشر، فهم أحوج إليها من كل شيء؛ لأنه لا يمكن أن يسوس هذا العالم وينظمه ويصلح شؤونه إلا خالقه تبارك وتعالى، قال ﷻ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، فصلاح الدنيا والآخرة منوط باتباع الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «والرسالة ضرورية في إصلاح العبد في معاشه ومعاده، فكما أنه لا صلاح له في آخرته إلا باتباع الرسالة؛ فكذلك لا صلاح له في معاشه ودنياه إلا باتباع الرسالة...»(٢).

وقد اتفقت الشرائع السماوية كاملة على رعاية مصالح رئيسةٍ،

---

(١) مقاصد الشريعة للطاهر عاشور (ص١٧٩).

(٢) مجموع الفتاوى (١٩/ ٩٩).

كانت في مقدمة مقاصد الشرائع، فجاءت بحفظ الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل، جاءت الشرائع كلها بتحقيق هذه الضرورات الخمس(١)، وكانت تشريعاتها وأحكامها كلها تهدف إلى تحقيقها، وبناء المجتمع المحافظ عليها أتم محافظة.

كذلك شريعة القرآن جاءت مؤكدة لهذه الضرورات الخمس؛ لأنه لا يمكن أن تسير الحياة دون تحقيقها، فإذا اختل شيء منها اضطرب العالم، وفسدت الحياة، ولهذا كان مدار أحكام الشريعة وأهدافها لتحقيق هذه الأصول، وحذرت ونهت الشريعة عن المساس بها، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، يقول الطاهر عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا نحن استقرينا موارد الشريعة الإسلامية الدالة على مقاصدها من التشريع، استبان لنا من كليات دلائلها، ومن جزئياتها المستقراة، أن المقصد العام من التشريع فيها هو: حفظ نظام الأمة، واستدامة صلاحه بصلاح المهيمن عليه، وهو نوع الإنسان. ويشمل صلاحه صلاح عقله، وصلاح عمله، وصلاح ما بين يديه من موجودات العالم الذي يعيش فيه»(٢).

من يتأمل مقاصد الشريعة الإسلامية وسمو أهدافها، وشمول مقاصدها، وتحقيقها للأهداف التي جاءت بها، يدرك أن هذه الشريعة آية من آيات الله الدالة عليه، ويعي صدق شهادتها لمعجزة هذا القرآن الكريم، ولهذا اهتم العلماء بإبراز مقاصد الشريعة، وإبراز محاسنها، ردًّا على من زعم أن العقل كافٍ لصناعة نظامٍ تسير عليه الحياة، دون الحاجة

---

(١) راجع: كلام الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في الموافقات عن هذه الضرورات الخمس وتفصيل الكلام فيها (٢/١٧).

(٢) مقاصد الشريعة للطاهر عاشور (ص٢٧٣).

إلى الرسالات، وكذلك ردًّا على من زعم أن الشريعة إنما هي مجرد أوامر ونواهي مجرد عن الحكم والمقاصد[1]؛ وتلك هي بداية البحث في

---

(١) أصل هذه المسألة ما يعرف بـ«التحسين والتقبيح»، وهي مسألة مشهورة في علم الأصول والكلام، **ومجمل أقوال الناس فيها ثلاثة أقوال:**

القول الأول: قول الجهمية والأشاعرة ومن تابعهم، وحاصل هذا القول: أن الأفعال لا تتصف بصفات تكون بها حسنة ولا سيئة البتة، وكون الفعل حسنًا وسيئًا إنما معناه أنه منهي عنه أو غير منهي عنه، وهذه صفة إضافية لا تثبت إلا بالشرع. **ومعناه**: إن الأفعال لم تشتمل على صفات هي أحكام، ولا على صفات هي علل للأحكام، بل القادر أمر بأحد المتماثلين دون الآخر، لمحض الإرادة، لا لحكمة ولا لرعاية مصلحة في الخلق والأمر. ويقولون: إنه يجوز أن يأمر الله بالشرك بالله، وينهى عن عبادته وحده، ويجوز أن يأمر بالظلم، والفواحش، وينهى عن البر والتقوى، والأحكام التي توصف بها الأحكام؛ مجرد نسبة وإضافة فقط، وليس المعروف في نفسه معروفًا عندهم، ولا المنكر في نفسه منكرًا عندهم.

القول الثاني: قول المعتزلة ومن تابعهم وهو: أن القبح والحسن يدركان بالعقل، ولا يتوقف عندهم معرفة ذلك على النقل، ويجعلون الحسن والقبح صفات ذاتية للفعل لازمة له، والشرع إنما هو كاشف عن تلك الصفات لا سببًا لشيء من الصفات. وإذا ضم إلى ذلك قياس الرب على خلقه فقيل: ما حسن من المخلوق حسن من الخالق، وما قبح من المخلوق قبح من الخالق؛ ترتب على ذلك أقوال القدرية الباطلة، وما ذكروه في التجويز والتعديل، وهم مشبهة الأفعال؛ يشبهون الخالق بالمخلوق، والمخلوق بالخالق في الأفعال، وهذا قول باطل. كما أن تمثيل الخالق بالمخلوق والمخلوق بالخالق في الصفات باطل.

القول الثالث: هو القول الوسط بين هذين القولين، وهو قول المحققين من الأصوليين والفقهاء والمتكلمين، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ: «والفقهاء وجمهور المسلمين يقولون: الله حرم المحرمات فحرمت، وأوجب الواجبات فوجبت، فمعنا شيئان: إيجاب وتحريم؛ وذلك كلام الله وخطابه. والثاني: وجوب وحرمة؛ وذلك صفة للفعل. والله عليم حكيم، علم بما تتضمنه الأحكام من المصالح، فأمر ونهى لعلمه بما في الأمر والنهي والمأمور والمحظور من مصالح العباد ومفاسدهم». مجموع الفتاوى (٨/ ٤٣٤).

وقد أفاض الإمام ابن القيِّم ﷺ في الحديث عن هذه المسألة في كتبه وبينها أتم بيان، وهي مسألة هامة لأن بعض من أخطأ فيها إنما كان خطؤه منطلقًا من عقيدة فاسدة، وقد بيَّن ذلك الإمام ابن القيِّم ﷺ في «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٤٠٩)، وبين خطر القول والذهاب إلى رأيهم. =

الإعجاز التشريعي، تحت مسمّى مقاصد الشريعة وأسرار الأحكام[١].

ويعدُّ الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ من أبرز العلماء الذين اهتموا بمقاصد الشريعة، والبحث عن حكمة الشارع في شرعه، يقول العلامة بكر أبو زيد رَحِمَهُ اللَّهُ: «قد نظرت في مباحث حكمة التشريع عند جماعة من أهل العلم فلم أر عالمًا يفري فريه»[٢].

اهتم الإمام ابن القيِّم بدراسة مقاصد الشريعة اهتمامًا بالغًا، وأخذت دراسته لها جزءًا كبيرًا من كتبه[٣]، ورد على المخالفين في ذلك، وبيَّن رَحِمَهُ اللَّهُ أن الشريعة آية وعلامة على صدق هذا القرآن، وصدق نبوة محمد ﷺ، وأوضح من خلال بحثه لمقاصد الشريعة موافقة أحكامها ونواهيها للعقل الصحيح، وأوضح أن أحكامها تصبُّ في صلاح الفرد الذي هو لبنة في هذا المجتمع، فإذا صلحت أجزاء هذا المجتمع، أصبح المجتمع كله صالحًا، وإلى هذا عمدت الشريعة، فأصل الشريعة هو تحقق العبودية لله تعالى؛ ولهذا كان أول أركان الإسلام الشهادتين التي تلتزم عبادة الله وحده لا شريك له، واتباع رسوله المبلغ عنه شرعه ودينه، ثم إذا تحقق هذا الركن، افترض الله الصلاة على عباده، وأوضح الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ أن فيها من تحقيق العبودية لله تعالى ما لا يمكن وصفه، فهي عماد الدين، وفيها من المقاصد والمحاسن ما لا يمكن إدراك

= والكلام عن هذه المسألة واسع، هذا ملخصه وموجزه، وللاستزادة راجع: درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٤٩٢)، مجموع الفتاوى (٨/ ٤٣١)، مفتاح دار السعادة (٢/ ٣٦٧ ـ ٤١١)، مدارج السالكين (١/ ٤٤٠)، إعلام الموقعين (٣/ ٢٧٧)، شفاء العليل (٣/ ١٠٢٥)، الموافقات للشاطبي (١/ ١٢٥).

(١) انظر: المدخل الوجيز إلى دراسة الإعجاز في الكتاب العزيز (ص٢٥٧).

(٢) الحدود والتعزيرات عند ابن القيِّم (ص٩).

(٣) انظر: إعلام الموقعين (٣/ ١٦٥ ـ ٤٢٥)، مفتاح دار السعادة (٢/ ٣١٤)، شفاء العليل (٣/ ١٠٢٥).

جميعه[١]؛ ـ وما يذكر العلماء من محاسن الصلاة وموافقتها للعقل، وعظيم أهدافها إنما هو جزء يسير بحسب ما تدركه العقول ـ.

يقول الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالصلاة قد وضعت على أكمل الوجوه وأحسنها، التي تعبد بها الخالق تبارك وتعالى عباده، من تضمنها للتعظيم له بأنواع الجوارح، من نطق اللسان، وعمل اليدين، والرجلين، والرأس وحواسه، وسائر أجزاء البدن، كلٌّ يأخذ حظه من الحكمة في هذه العبادة العظيمة المقدار، مع أخذ الحواس الباطنة بحظها منها، وقيام القلب بواجب عبوديته فيها، فهي مشتملة على الثناء، والحمد، والتمجيد، والتسبيح، والتكبير، وشهادة الحق، والقيام بين يدي الرب مقام العبد الذليل الخاضع المُدَبر المربوب، ثم التذلل له في هذا المقام، والتضرع والتقرب إليه بكلامه، ثم انحناء الظهر ذلًّا له وخشوعًا واستكانة، ثم استواؤه قائمًا ليستعد لخضوع أكمل له من الخضوع الأول، وهو السجود من قيام، فيضع أشرف شيء فيه ـ وهو وجهه ـ على التراب، خشوعًا لربه واستكانة، وخضوعًا لعظمته، وذلًّا لعزته، قد انكسر له قلبه، وذل له جسمه، وخشعت له جوارحه، ثم يستوي قاعدًا يتضرع له ويتذلل بين يديه، ويسأله من فضله، ثم يعود إلى حاله من الذل والخشوع والاستكانة، فلا يزال هذا دأبه حتى يقضي صلاته، فيجلس عند إرادة الانصراف منها مثنيًا على ربه، مسلمًا على نبيِّه وعلى عباده، ثم يصلي على رسوله، ثم يسأل ربه من خيره وبره وفضله، فأي شيء بعد هذه العبادة من الحسن؟ وأي كمال وراء هذا الكمال؟ وأي عبودية أشرف من هذه العبودية؟»[٢].

---

(١) وكل أحكام الشريعة كذلك، يقول الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما التعاليل لتفاصيل الأحكام في الكتاب والسُّنَّة، فأكثر من أن يحصى». الموافقات (٢/ ١٢).

(٢) مفتاح دار السعادة (٢/ ٣٢٠).

إذا حقَّق العبد العبودية التامة في صلاته وأقامها كما أمر الله ﷻ، كانت صلاته سببًا في حفظه من المنكرات والفواحش، وذلك لما تتركه في القلب من تعظيم أوامر الله، وتعظيم حدوده يقول الله ﷻ: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥] يقول القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المراد بـ«أقم الصلاة»، إدامتها والقيام بحدودها، ثم أخبر حكمًا منه بأن الصلاة تنهى صاحبها وممتثلها عن الفحشاء والمنكر؛ وذلك لما فيها من تلاوة القرآن المشتمل على الموعظة، والصلاة تشغل كل بدن المصلي، فإذا دخل المصلي في محرابه وخشع وأخبت لربه، وادكر أنه واقف بين يديه، وأنه مطلع عليه ويراه، صلحت لذلك نفسه وتذللت، وخامرها ارتقاب الله تعالى، وظهرت على جوارحه هيبتها، ولم يكد يفتر من ذلك حتى تظله صلاة أخرى يرجع بها إلى أفضل حالة. فهذا معنى هذه الأخبار؛ لأن صلاة المؤمن هكذا ينبغي أن تكون»(١).

وبهذا يصبح الفرد المسلم مراعيًا لحق الله ﷻ، مراعيًا لحق خلقه، لا يتعدى على أحد، ولا يتضرر منه أحد، لبنة صالحة في المجتمع، وكفى بهذا مصلحة ومكسبًا.

يرى الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه بعد أن حققت الصلاة تلك العبودية في قلب العبد المسلم، تأتي شرائع الإسلام لتبني مجتمعًا متآخيًا، متوادًّا، متراحمًا، يشاطر بعضه بعضًا الهموم، فيضع أعظم مبدأ للتكافل الاجتماعي فيفترض الزكاة في الأموال، تؤخذ وتؤدى إلى الفقراء، فيصبح ذلك المجتمع متعاضدًا متعاونًا تسوده الألفة والمحبة، ويندفع بذلك الشح من الأنفس، ويتعود الناس على البذل والعطاء والكرم،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٦/ ٣٦٧).

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما حسن الزكاة وما تضمنته من مواساة ذوي الحاجات، والمسكنة والخلة[١] من عباد الله الذين يعجزون عن إقامة نفوسهم، ويخاف عليهم التلف إذا خلاهم الأغنياء وأنفسهم، وما فيها من الرحمة والإحسان، والبر والطهرة، وإيثار أهل الإيثار، والاتصاف بصفة الكرم والجود والفضل، والخروج من سماة أهل الشح والبخل والدناءة، فأمر لا يستريب عاقل في حسنه ومصلحته، وأن الآمر به أحكم الحاكمين»[٢].

ثم بيَّن رَحِمَهُ اللَّهُ أنه لما كانت في النفس من الشهوات المجبولة على حبها، والمفطورة على التلذذ بها، جاءت الشريعة بفريضة الصوم، لتصنع عبدًا مؤمنًا بربه، قادرًا على قهر شهواته ورغباته، فتعوده على امتلاك زمام نفسه، وتقوي قدرته على البعد عن محارم الله، ففي الصوم من التعويد على ضبط النفس، والتحكم فيها ما لا يمكن تحققه في سواه، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما الصوم فناهيك به من عبادة، تكف النفس عن شهواتها، وتخرجها عن شبه البهائم إلى شبه الملائكة المقربين؛ فإن النفس إذا خليت ودواعي شهواتها التحقت بعالم البهائم، فإذا كفت شهواتها لله، ضيَّقت مجاري الشيطان، وصارت قريبة من الله، بترك عادتها وشهواتها محبة له، وإيثارًا لمرضاته، وتقربًا إليه، فيدع الصائم أحب الأشياء إليه، وأعظمها لصوقًا بنفسه: من الطعام، والشراب، والجماع من أجل ربه. . . .

حتى أن الصائم ليتصور بصورة من لا حاجة له في الدنيا إلا في تحصيل رضى الله، وأيُّ حسن يزيد على حسن هذه العبادة التي تكسر

---

(١) **الخلة**: الحاجة. انظر: القاموس المحيط (١/ ٩٩٤).

(٢) مفتاح دار السعادة (٢/ ٣٢١).

الشهوة، وتقمع النفس، وتحيي القلب وتفرحه، وتزهد في الدنيا وشهواتها، وترغب فيما عند الله، وتذكر الأغنياء بشأن المساكين وأحوالهم، وأنهم قد أخذوا بنصيب من عيشهم، فتعطف قلوبهم عليهم، ويعلمون ما هم فيه من نعم الله، فيزدادوا له شكرًا، وبالجملة فعون الصوم على تقوى الله أمر مشهور، فما استعان أحد على تقوى الله وحفظ حدوده واجتناب محارمه بمثل الصوم، فهو شاهد لمن شرعه وأمر به بأنه أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين، وأنه إنما شرعه إحسانًا إلى عباده، ورحمة بهم، ولطفًا بهم، لا بخلًا عليهم برزقه، ولا مجرد تكليف وتعذيب خال من الحكمة والمصلحة، بل هو غاية الحكمة والرحمة والمصلحة، وإن شرع هذه العبادات لهم من تمام نعمته عليهم ورحمته بهم»[(١)].

يظهر من خلال ذكر الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ لبعض مقاصد هذه العبادات الثلاث، أن الإسلام يسعى لإصلاح الفرد، وإذا صلح الفرد صلح المجتمع، ثم يظهر أن منهج العبادات في الإسلام منهج شمولي يقصد جلب المصالح، ودرء المفاسد، سواء كانت المصالح دنيوية أو أخروية؛ وذلك بما تكسبه تلك العبادات من تعظيم أمر الله في نفس المؤمن، فتنصاع تلك النفس لأمر الله فلا تُقدِم على ما حرمه، وما هو سبب في غضبه وسخطه، فينعم المجتمع بعضه مع بعض، كل يراعي حق الله وحق عباد الله، وكذلك فإن الإسلام بنى في النفس المؤمنة من الإحساس بالمجتمع، والبعد عن الاستئثار، وربَّى أفراده، وأصلح سلوكهم، فأصبح مجتمعًا هادئًا ينعم بالاستقرار والانضباط.

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٣٢٢ ـ ٣٢٣) «باختصار».

ثم بيَّن الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ ـ أثناء حديثه عن مقاصد الشريعة ـ[١] أنه لما كان الناس يختلفون في قدر امتثالهم لأوامر الشرع، وكان من الناس من يتجاوز الحدود، شرع الله العقوبات والحدود والقصاص لضمان الحقوق، وردع الباغي والمعتدي على حدود الله، وعلى حقوق خلقه، فمن لم يرتدع امتثالًا، يردع إجبارًا ورغمًا، وبهذا يسعد المجتمع بالأمن والسلام.

كما بيَّن رَحِمَهُ اللهُ أن حدود الشرع وعقوباته جاءت في غاية المناسبة لنوع الجريمة المقترفة، وكانت في غاية الردع والزجر للفرد ذاته، وكذلك رادعة لمن أراد الإقدام على مثل تلك الجريمة، فليس هناك قانون أو رأي لأحد استطاع ضبط المجتمع كما حكمت الشريعة الإسلامية، فقد ربى الإسلام أولًا في نفوس أفراده مراقبة الله وطلب مرضاته، ثم جعل العقوبات لمن ضعف عنده ذلك الوازع الديني، فإنه يرى تلك الحدود والعقوبات فلا يجرؤ على القيام بما يوجب العقوبة عليه.

عقوبات الشريعة في تمام العدل والإنصاف، ليست زائدة عن حجم الجريمة، ولا مقصرة عنها، يشهد لذلك كل ذي لبٍّ منصف، وقد زعم بعض المغرضين أن العقوبات في الإسلام فيها ظلم ومجاوزة عن الردع إلى الإتلاف؛ فقد زعموا أن عقوبة السارق فيها إتلاف!! والقصاص أيضًا يزعمون أنه إتلاف!! وأنه لم يحقق المقصود من العقوبة!! وهذا من تمام البهتان، ويظهر أنهم إنما قصدوا النيل من الشريعة، وصد الناس عنها، وهم إلى اليوم يسعون في تشويه صورة الإسلام، وإظهاره في صورة وحشية، وفي مقدمة أولئك المستشرقون ومن نحا منحاهم.

وقد وفَّق الله الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ في الرد على هؤلاء، وبيان

---

(١) انظر: إعلام الموقعين (٣/ ٣٣٦ ـ ٣٣٨).

حكمة الشارع في تشريعه لتلك العقوبات، وبين أنها محققة لمقصودها أتم تحقيق، وكان كلامه في غاية التأصيل والتفصيل، وتتبع أقوالهم وإبطالها بالعقل والنقل، يقول العلامة بكر أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قد كثر الشغب في الأزمان المتأخرة من المستشرقين وتلاميذهم بالتنديد بالعقوبات الإسلامية المقدرة على الجرائم الأخلاقية من أنها: وحشية وتعسف!! وإلى أمثال هذا الطيش وتلك البداءات من أنفسهم للصد عن دين الله وشرعه وتحكيمه في أموال الناس وأعراضهم وسائر أحوال مدنيتهم.

وإن الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد أبان من حكمة التشريع وأسراره لهذه العقوبات ما أماط اللثام وأزهق الباطل، ليحيا من حيي عن بيِّنة ويهلك من هلك عن بينة...»[١].

ومما تكلم فيه أولئك المغرضون ـ ولا يزالون حتى يومنا هذا ـ، حكم القصاص من القاتل بالمثل، فزعموا أن القصاص إتلاف نفس وإزهاقها!! وليس فيه ردع لها!! وزعموا أنه لا يحقق المقاصد المرجوة منه!! وإنما زعموا ذلك لقلة تبصرهم، وضعف بصيرتهم عن إدراك أسرار الشرع ومقاصده، وإلا فمن يتأمل حكم القصاص وفوائده، يعلم أنه أكبر أسباب حفظ المجتمع من التقاتل وإزهاق الأنفس، وذلك تصديق قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩]، يقول العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولا شك أن هذا من أعدل الطرق وأقومها، ولذلك يشاهد في أقطار الدنيا قديمًا وحديثًا قلة وقوع القتل في البلاد التي تحكم بكتاب الله؛ لأن القصاص رادع عن جريمة القتل. كما ذكره الله في الآية المذكورة آنفًا. وما يزعمه أعداء الإسلام من أن القصاص غير مطابق للحكمة؛ لأن فيه إقلال عدد المجتمع بقتل إنسان

---

(١) الحدود والتعزيرات (ص٨).

ثانٍ بعد أن مات الأول، وأنه ينبغي أن يعاقب بغير القتل فيحبس، وقد يولد له في الحبس فيزيد المجتمع. كله كلام ساقط، عار من الحكمة؛ لأن الحبس لا يردع الناس عن القتل، فإذا لم تكن العقوبة رادعة فإن السفهاء يكثر منهم القتل، فيتضاعف نقص المجتمع بكثرة القتل»[1].

وقد أوضح الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ أن تلك المزاعم التي زعموها يتضح بطلانها إذا قورن بينها وبين ما يحقق القصاص من مصلحة، ويظهر عوارها لو ترك القصاص، لما في ذلك من المفسدة العظيمة، ودرء المفاسد، مقدم على جلب المصالح، فكيف إذا كان في إقامة القصاص من المصالح ما لا يحصى، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «قولكم: «إذا قتل إنسان إنسانًا عرض للعقل هاهنا آراء متعارضة مختلفة إلى آخره»!.

فيقال: إن أردتم أن العقل يسوي بين ما شرعه الله من القصاص وبين تركه لمصلحة الجاني! فبهتٌ للعقل وكذب عليه، فإنه لا يستوي عند عاقل قط حسن الاقتصاص من الجاني بمثل ما فعل وحسن تركه والإعراض عنه، ولا يُعلَمُ عقل صحيح يسوي بين الأمرين، وكيف يستوي أمران:

أحدهما: يستلزم فساد النوع، وخراب العالم، وترك الانتصار للمظلوم، وتمكين الجناة من البغي والعدوان.

والثاني: يستلزم صلاح النوع، وعمارة العالم، والانتصار للمظلوم، وردع الجناة والبغاة والمعتدين فكان في القصاص حياة العالم وصلاح الوجود!!.

وقد نبَّه تعالى على ذلك بقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ وفي ضمن هذا الخطاب ما هو

---

(١) أضواء البيان (٣/٥٠٩).

كالجواب لسؤال مقدر، إنَّ إعدام هذه البُنْيَةِ الشريفة، وإيلام هذه النفس وإعدامها في مُقابلَةِ إعدامِ المقتول تكثيرٌ لمفسدة القتل، فلأية حكمة صدر هذا ممن وسعت رحمته كل شيء، وبهرت حكمته العقول؟ فتضمن الخطاب جواب ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ . . .﴾؛ وذلك لأن القاتل إذا توهم أنه يقتل قصاصًا بمن قتله، كفَّ عن القتل، وارتدع، وآثر حب حياته ونفسه، فكان فيه حياة له، ولمن أراد قتله.

ومن وجه آخر؛ وهو أنهم كانوا إذا قُتل الرجل من عشيرتهم وقبيلتهم قتلوا به كل من وجدوه من عشيرة القاتل وحيِّه وقبيلته، وكان في ذلك من الفساد والهلاك ما يعم ضرره، وتشتد مؤنته، فشرع الله تعالى القصاص، وأن لا يقتل بالمقتول غير قاتله، ففي ذلك حياة عشيرته وحَيِّه وأقاربه.

ولم تكن الحياة في القصاص من حيث أنه قتل، بل من حيث كونه قصاصًا يؤخذ القاتل وحده بالمقتول، لا غيره، فتضمن القصاص الحياة في الوجهين»[(١)].

القصاص من القاتل هو المصلحة الراجحة المحققة قطعًا، وترك القصاص هي المفسدة الصريحة الواضحة، وحتى يتحقق صلاح هذا العالم لا تعامل الحقوق بالعواطف والوجدانيات، ولكن يُحكَّم شرع الله تعالى الذي إنما جاء لتحقيق مصالح العباد، والعقل الصحيح يشهد لذلك[(٢)].

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٥٢٢).

(٢) بسط القول الإمام ابن القيِّم في الرد على من أنكر مصلحة القصاص وأورد أقوالهم وكرَّ عليها، وبين ضعفها وفسادها، وهذا جزء يسير مما أورده ﷺ، راجع: مفتاح دار السعادة (٢/ ٥٢٥).

وخلاصة القول: أن كل أحكام الشريعة وأوامرها ونواهيها مبنية على تحقيق المصالح، وكلها تدرك العقول حسنها، وقبح ضدها، ومن لم يقر بذلك حرم الاستدلال بأن هذه الشريعة آية من آيات الله، وعلامة على نبوة محمد ﷺ، وفي هذا يقول الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن سلك ذلك المسلك الباطل[1] لم يمكنه أن يستدل على صحة نبوته بنفس دعوته ودينه، ومعلوم أن نفس الدين الذي جاء به والملة التي دعا إليها من أعظم براهين صدقه وشواهد نبوته، ومن لم يثبت لذلك صفات وجودية أوجبت حسنه وقبول العقول له، ولضده صفات أوجبت قبحه ونفور العقل عنه: فقد سدَّ على نفسه باب الاستدلال بنفس الدعوة، وجعلها مستدلًا عليه فقط.

ومما يدل على صحة ذلك قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، فهذا صريح في أن الحلال كان طيبًا قبل حله، وأن الخبيث كان خبيثًا قبل تحريمه، **ولم يستفد طيب هذا وخبث هذا من نفس الحل والتحريم لوجهين اثنين:**

أحدهما: أن هذا علم من أعلام نبوته التي احتج الله بها على أهل الكتاب، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ...﴾ [الأعراف: ١٥٧].

الوجه الثاني: فثبت أنه أحل ما هو طيبٌ في نفسه قبل الحل فكساه بإحلاله طيبًا آخر، فصار منشأ طيبه من الوجهين معًا.

فتأمل هذا الموضع حق التأمل؛ يطلعك على أسرار الشريعة،

---

(١) يقصد مسلك من أنكر أن تشريعات الإسلام يعلم بالعقل حسنها، ويدرك بالعقل قبح ضدها.

ويشرفك على محاسنها، وكمالها، وبهجتها، وجلالها...»[١].

شريعة القرآن وأحكامه وحكمه دالة على إعجاز هذا القرآن الكريم؛ كدلالة فصاحته وبلاغته، ومغيباته... وغيرها من وجوه الإعجاز في القرآن، شريعة محكمة لا تناقض فيها ولا اختلاف، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، فشريعة القرآن دليل على أن هذا الكتاب من عند الله عز وجل، وأن محمد ﷺ صادق فيما بلغ به عن ربه عز وجل.

❁ ❁ ❁

(١) مفتاح دار السعادة (٢/٣٢٨) «باختصار».

المَبحَثُ الثَّاني

الإعجاز الخبري

اشتمل القرآن الكريم على جملة من الأخبار والغيوب التي لا يعلمها إلا الله ﷻ، ولا سبيل لبشرٍ أن يدركها مهما أوتي من قدرات ذهنية، وخيالات عقلية، فإن علم الغيب من صفات الله تعالى، وهو دليل من أدلة ربوبيته وألوهيته جلَّ وعلا، يقول سبحانه: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقوله ﷻ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

والقرآن الكريم وما اشتمل عليه هو من علم الله ﷻ، أرسل به جبريل إلى محمد ﷺ، ورسول الله ﷺ بلغه إلى الخلق، فالنبي إنما هو مبلغ عن الله ما أوحي إليه، ليس القرآن من علمه، ولا هو من عند نفسه، يقول الإمام ابن القيِّم رحمه الله مقررًا ذلك عند قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء: ١٦٦]، يقول رحمه الله: «فما فيه من الخبر عن علم الله الذي لا يعلمه غيره من أعظم الشهادة بأنه هو الذي أنزله. كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٣، ١٤] وليس المراد مجرد الإخبار بأنه أنزله ـ وهو معلوم له، كما يعلم سائر الأشياء؛ فإن كل شيء معلوم له

من حق وباطل - وإنما المعنى أنزله مشتملًا على علمه، فنزوله مشتملًا على علمه هو آية كونه من عنده، وأنه حق وصدق، ونظير هذا قوله: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦]، ذكر ذلك سبحانه تكذيبًا وردًّا على من قال: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤]»[١].

والغيوب التي أخبر بها القرآن كثيرةٌ جدًّا، بل إن هذا الوجه من أظهر الأدلة على إعجاز هذا القرآن الكريم، وقد ذكره العلماء قديمًا وحديثًا، وأفاضوا القول فيه، **وذكروا أن الغيب في القرآن على أنواع**: **منها**: ما كان إخبارًا عن أمور ماضية، **ومنها**: ما هو إخبار عن أمور حاضرة في وقت النبي ﷺ، **ومنها**: ما هو إخبار عن أمور مستقبلية لم تحدث[٢].

ووجه الاستدلال بهذه الأمور على إعجاز القرآن من وجهين:

الوجه الأول: ما كان يتعلق بالإخبار عن الماضي من الحديث عن بدء الخلق، أو أخبار الأمم السابقة وقصص أنبيائهم، وما إلى ذلك.
فوجه الاستدلال به: أن محمدًا ﷺ معلوم من حاله أنه لم يختلف إلى معلم ولم يتلقَّ علمٌ من أي أوجه التعلُّم، ولم يقرأ كتابًا ولا يعرف القراءة أصلًا، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، والعقل يجزم بداهةً أنه لا سبيل للحصول على تلك الأخبار إلا عن طريق التعلُّم، فكيف إذا جاءت تلك الأخبار موافقة لما جاء عند أهل الكتاب ومصدقة لها، ولم يزعم أحد من أهل الكتاب أن محمدًا ﷺ قد أخذ عنه شيئًا منها، بل إن أهل الكتاب يسألونه عن أشياء يعلمون أنه لا يخبر عنها إلا نبي، فيخبرهم بها كما جاء عندهم، فهذا دليل جازم على صدق نبوة محمد ﷺ وصدق نبوة من سبقه من الأنبياء؛ وذلك لاتفاق ما أخبروا به مع تباعد زمانهم ومكانهم.

---

(١) مدارج السالكين (٤/ ٤٧٦).
(٢) انظر: البداية والنهاية (٨/ ٥٤٤).

الوجه الثاني: أن ما أخبر به ﷺ جاء مطابقًا لخبره سواء بسواء، كما أخبر، فهذا شاهد على أنه إنما تلقاه من العليم الخبير ﷻ(١).

وقد ذكر الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ جملة من الشواهد على هذا الوجه من وجوه الإعجاز، وبيَّن أنه من أدلة نبوة محمد ﷺ. **وفيما يلي ذكر بعض تلك الشواهد:**

أولًا: الإخبار عن الغيوب الماضية:

ذكر الله ﷻ في القرآن كثيرًا من أخبار الأمم السابقة وقصص أنبيائهم، وهي إضافة إلى ما فيها من العبر، آية ومعجزة دالة على صدق نبوة محمد ﷺ، فكثيرًا ما تختتم تلك القصص بما ينبه على أنها من الغيب الذي أطلع الله نبيه ﷺ عليه، يقول تعالى - بعد ذكر بعض تلك القصص -: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ [هود: ٤٩]، ويقول ﷻ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

يقول الإمام ابن القيِّم أثناء تفسيره لسورة «ق»: «... ثم انتقل سبحانه إلى تقرير النبوة بأحسن تقريرٍ وأوجر لفظٍ وأبعده عن كل شبهة وشك، فأخبر أنه أرسل إلى قوم نوحٍ وعادٍ وثمود وقوم لوط وقوم فرعون رسلًا فكذبوهم، فأهلكهم بأنواع الهلاك، وصدق فيهم وعيده الذي أوعدتهم به رسله إن لم يؤمنوا، وهذا تقرير لنبوتهم ولنبوَّةِ من أخبر بذلك عنهم من غير أن يتعلَّم ذلك من مُعلِّم ولا قرأه في كتاب، بل أخبر به إخبارًا مفصلًا مطابقًا لما عند أهل الكتاب»(٢).

---

(١) راجع: مناهل العرفان (٢/ ٣٦٧).
(٢) الفوائد (ص١٠).

ثانيًا: الإخبار بالغيوب في الحاضر:

كان القرآن ينزل على النبي ﷺ ويخبره عن أشياء يعيش الناس واقعها، فتحصل كما أخبر بها القرآن، ويشاهدها ويعيشها المصدقين والجاحدين لدعوة النبي ﷺ، ويرونها رؤيا العين، ومن ذلك: ما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه عند قوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان: ١٠، ١١]، قال رضي الله عنه: «إنما كان هذا لأن قريشًا لما استعصوا على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء، فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، فأنزل الله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان: ١٠، ١١]، قال: فأتي رسول الله ﷺ فقيل: يا رسول الله، استسق الله لمضر، فإنها قد هلكت، قال: (**لمضر؟ إنك لجريء**)، فاستسقى لهم فسُقُوا فنزلت: ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ [الدخان: ١٥]، قال: فلما أصابهم الرفاهية عادوا إلى حالهم - حين أصابتهم الرفاهية -، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٦]، قال: **يعني**: يوم بدر»[(١)].

ومن ذلك الإخبار عن المنافقين وأحوالهم وأفعالهم، والإخبار عن اليهود وما يضمرونه وفضحهم فيما يدَّعونه، ولما زعم اليهود أنهم هم الناجون من عذاب الله دون غيرهم، وأن الدار الآخرة خالصة لهم عند الله، وأنهم أولياء الله وأحباؤه من دون الناس، أمرهم الله أن يدعو على الكاذبين من الفريقين بالموت إن كانوا صادقين في

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان: ١١]: حديث رقم (٤٨٢١).

زعمهم[(١)]، ثم أخبر أنهم لن يتمنوه أبدًا ولن تنطق ألسنتهم بشيء من ذلك، فتلك من معجزات هذا القرآن أن ينبئ بما في ضمائر الخلق قبل وقوع الحدث، يقول تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٩٤، ٩٥]، يقول الإمام ابن القيِّم رحمه الله: «في ضمن هذه المناظرة معجزة باهرة للنبي ﷺ وهي أنه في مقام المناظرة مع الخصوم الذين هم أحرص الناس على عداوته وتكذيبه، وهو يخبرهم خبرًا جزمًا أنهم لن يتمنوا الموت أبدًا، ولو علموا من نفوسهم أنهم يتمنونه لوجدوا طريقًا إلى الرد عليه، بل ذلوا وغلبوا وعلموا صحة قوله؛ وإنما منعهم من تمني الموت معرفته بما لهم عند الله تعالى من الخزي والعذاب الأليم بكفرهم بالأنبياء، وقتلهم لهم وعداوتهم لرسول الله ﷺ.

فإن قيل: فهلا أظهروا التمني وإن كانوا كاذبين؟ فقالوا: فنحن نتمناه.

قيل: وهذا أيضًا معجزة أخرى وهي أن الله تعالى حبس عن تمنيه قلوبهم وألسنتهم فلم ترده قلوبهم ولم تنطق به ألسنتهم تصديقًا لقوله: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: ٩٥]»[(٢)].

إن من يخبر خبرًا واثقًا به، ومعارضوه قد ملؤوا الشرق والغرب، وهو يشهره وينشره بينهم دون شك أو تردد في ما يلقيه، ليدل ذلك على صدق وصحة ما جاء به، يقول الإمام ابن القيِّم رحمه الله: «إقدام هذا الرسول على الإخبار بهذا الغيب العظيم الذي هو أعظم الغيب؛ واثقًا

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢/ ٢٦٩)، وقد رجَّح الإمام ابن القيِّم هذا القول. انظر: مدارج السالكين (٣/ ١٩).

(٢) بدائع الفوائد (٤/ ٩٢٣).

به، مقيمًا عليه، مبديًا له ـ في كل مجمع ـ ومعيدًا، مناديًا به على صدقه، مستجلبًا به لأعدائه؛ من أعظم الأدلة على صدقه»[1].

الإخبار عن الغيوب في المستقبل:

جاء في القرآن كثير من الآيات التي تنبئ عن أمور في المستقبل، وحدث شيء من تلك الأمور ولا زال بعضها نشاهده حتى يومنا هذا، فقد أخبر القرآن عن عجز البشر كلهم ولو اجتمعوا على الإتيان بمثل هذا القرآن، ثم أبَّدَ عليهم ذلك التحدي، وأكَّده، يقول الله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

يقول الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إقدامه ﷺ على هذا الأمر وإسجاله على الخلائق إسجالًا عامًّا إلى يوم القيامة، أنهم لن يفعلوا ذلك أبدًا، فهذا لا يقدم عليه ويخبر به إلا عن علم لا يخالجه شك مستند إلى وحي من الله تعالى، وإلا فعلم البشر وقدرته يضعفان عن ذلك»[2].

ومن الأخبار التي ذكرها القرآن وكان في تحققها أثر كبير على الناس، ما أخبر من هزيمة الفرس للروم وتغلبهم عليهم، فلما نزلت الآيات راهن أبو بكر رضي الله عنه بعض المشركين على تحقق وقوع الخبر الذي جاء به القرآن؛ لأن العرب كانت تحب أن ينتصر الفرس على الروم؛ لأنهم أصحاب أوثان مثلهم، والروم أصحاب كتاب[3]، فقد روي عن

---

(١) التبيان (ص١٩٨).
(٢) بدائع الفوائد (٤/ ٩١١).
(٣) ذكر الإمام ابن القيِّم هذه القصة وعلق عليها في ضمن حديثه عن المراهنات في كتابه الفروسية، وللعلماء في مراهنة أبي بكر رضي الله عنه آراء، وشيخ الإسلام والإمام ابن القيِّم ـ رحمهما الله ـ يريان أن مراهنة أبي بكر رضي الله عنه كانت من المراهنات التي هي سبب =

ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ [الروم: ١ - ٣]، «كَانَ الْمُسْلِمُونَ يُحِبُّونَ أَنْ تَظْهَرَ الرُّومُ عَلَى فَارِسَ؛ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ، وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يُحِبُّونَ أَنْ تَظْهَرَ فَارِسُ عَلَى الرُّومِ؛ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ أَوْثَانٍ، فَذَكَرَ ذَلِكَ الْمُسْلِمُونَ لِأَبِي بَكْرٍ، فَذَكَرَ أَبُو بَكْرٍ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: (أَمَا إِنَّهُمْ سَيَهْزِمُونَ) فَذَكَرَ ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ لَهُمْ، فَقَالُوا: «اجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَجَلًا، فَإِنْ ظَهَرُوا، كَانَ لَكَ كَذَا وَكَذَا، وَإِنْ ظَهَرْنَا، كَانَ لَنَا كَذَا وَكَذَا». فَجَعَلَ بَيْنَهُمْ أَجَلًا خَمْسَ سِنِينَ، فَلَمْ يَظْهَرُوا، فَذَكَرَ ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ ﷺ: (أَلَا جَعَلْتَهَا إِلَى دُونَ)، قَالَ: أُرَاهُ قَالَ: (الْعَشْرِ)؟ - قَالَ: قَالَ سَعِيدٌ: الْبِضْعُ: مَا دُونَ الْعَشْرِ - ثُمَّ ظَهَرَتِ الرُّومُ بَعْدُ، قَالَ: فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ [الروم: ١، ٢] إلى قوله: ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الروم: ٤، ٥] قال سفيان: سمعت أنهم ظهروا عليهم يوم بدر»[١].

ومن ذلك إخبار الله ﷻ نبيّه ﷺ عن إظهار دينه، وإعلائه على باقي الأديان، ومن ذلك إخبار القرآن عن مستقبل اليهود، وغير ذلك من الغيوب التي يطول سردها[٢]، وكلها دلائل على صحة هذه المعجزة العظيمة وصدق من جاء بها ﷺ.

= في إعلاء الدين وعزه بالحجة والعلم، وجواز المراهنة في ذلك أولى من المراهنة في الفروسية والخيل. انظر: الفروسية (ص٢٤).

(١) أخرجه أحمد رقم (٢٧٦٩)، والحاكم، كتاب التفسير رقم (٣٥٩٧) وصححه، ووافقه الذهبي. والترمذي، كتاب التفسير رقم (٣١٩٣) وقال: حديث حسن غريب. وصححه الألباني في صحيح الترمذي رقم (٢٥٥٠).

(٢) راجع: مناهل العرفان (٢/٣٦٩).

المَبحَثُ الثَّالِثُ
الإعجاز العلمي والكوني عند ابن القيِّم

ويشتمل على تمهيد وثلاثة مطالب:

التمهيد: حول آراء العلماء في الإعجاز العلمي.

- **المطلب الأول: أطوار خلق الإنسان في القرآن.**
- **المطلب الثاني: عجائب الفلك في القرآن.**
- **المطلب الثاني: منهج ابن القيِّم في الإعجاز العلمي.**

* * *

تمهيد
يلخص آراء العلماء في الإعجاز العلمي

كثر الكلام في العصر الحديث عن الإعجاز العلمي، حتى أصبح من أشهر أوجه الإعجاز وأكثرها تشوفًا لدى عامة الناس، ويعود السبب في ذلك لما اتسع في هذا العصر من العلوم الطبيعية، وما حملته الاكتشافات الحديثة من أجهزة متطورة، ساعدت الإنسان على الدخول والاطلاع على بعض أسرار الكون، والتحقق من بعض النظريات التي كانت في السابق مبنيّةً على الظنون والحسابات غير الدقيقة، فاستطاع الإنسان بفضل الله ثم بفضل هذه المكتشفات رصد تلك الظواهر الطبيعية ومشاهدتها بشكل دقيق، فوجد أن هذه الاكتشافات قد نص القرآن على بعضها، وأشار إلى بعضها في ضمن حديثه عن الأرض وما تحتوي، أو عن السماء وأفلاكها، وعن الإنسان وأطوار خلقه، وعن المطر وكيفياته،

وغير ذلك من العلوم التي ثبتت من خلال التجارب أنها مطابقة للقرآن.

كذلك من الأسباب المهمة في اتساع الحديث عن الإعجاز العلمي؛ أن بعض أوجه الإعجاز فقدت المقومات التي يتوصل بها إلى الاستدلال على إعجاز القرآن كما كان عليه السابقون، وأبرزها الإعجاز البلاغي، فأصبح إدراكه يحتاج إلى معرفة بأسرار اللغة وعلوم البلاغة، ومعرفة بكلام العرب، وغير ذلك من الأمور المساعدة على إدراك هذا الوجه من أوجه الإعجاز، وفي المقابل ظهرت مساعدات دلت على أوجه أخرى من إعجاز القرآن، فأصبحت أكثر وضوحًا لدى أصحاب هذا العصر[١]. هذه أبرز الأسباب ـ والله أعلم ـ.

بيد أن الحديث عن التفسير العلمي لم يكن وليد اليوم، بل تحدث عنه الإمام الغزالي رحمه الله في كتابيه: «إحياء علوم الدين» و«جواهر القرآن»، ولكن لم يطلق عليه هذا الاصطلاح وهذه التسمية إلا في العصر الحديث، أما قديمًا فهو مندرج تحت مسمى العلوم التي يضاف إليها مثلًا يقال: علم الطب في القرآن، أو علم الهيئة. وهكذا[٢].

إذًا فمصطلح الإعجاز العلمي مصطلح حادث جديد؛ فماذا يقصده به؟

هو: لفظ مركب من قسمين، وقد مرَّ تعريف قسمه الأول وهو «الإعجاز»، وبقي قسمه الثاني، ثم تعريفه مركبًا.

ليس المقصود من قولهم «علمي» أن باقي أوجه الإعجاز ليست علمية، أو أنها لا تخدم قضايا علمية، وإنما هذا وصف اطرد على

(١) راجع: المعجزة القرآنية الإعجاز العلمي والغيبي (ص١٤٧).
(٢) انظر: ذكره الدكتور فهد الرومي ـ حفظه الله ـ، وقد اختصرته، وهذبته. انظر: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر الهجري (٢/٥٤٧).

العلوم الطبيعية، والعلوم الفلكية التي اكتشفت عبر التجارب، والمراصد، والمختبرات، هذا هو المقصود من قولهم ـ علمي ـ[١].

وإذا نظرنا إلى اللفظ مركبًا فإن العلماء ذكروا له تعاريف كثيرة، ولعل من أشملها: «الاجتهاد في كشف الصلة بين آيات القرآن الكريم، ومكتشفات العلم التجريبي؛ على وجه يظهر به إعجاز للقرآن»[٢].

ولقد اختلفت مسالك العلماء في تطبيقه إلى ثلاثة مسالك: قسم توسعوا في ذلك، وقسم حذّوا من ذلك وقصروه على ما يعرفه العرب، وقسم توسطوا بين القسمين، فأثبتوا ما أثبته القرآن، دون مبالغة ولا تقصير، **وفي ما يلي عرض لتلك الأقسام:**

القسم الأول: توسع بعض العلماء في الذهاب بآيات القرآن إلى مسائل لا تمتُّ بصلة إلى الآية، وجعلوها من علوم القرآن المستفادة منه، من أولئك العلماء أبو حامد الغزالي رحمه الله، فقد زعم أن القرآن اشتمل على جميع العلوم نظريها ومعقولها فيقول رحمه الله: «العلوم كلها داخلة في أفعال الله عز وجل وصفاته، وفي القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته. وهذه العلوم لا نهاية لها، وفي القرآن إشارة إلى مجامعها والمقامات في التعمق في تفصيله راجع إلى فهم القرآن. ومجرد ظاهره التفسير لا يشير إلى ذلك، بل كل ما أشكل فيه على النظار واختلف فيه الخلائق في النظريات والمعقولات ففي القرآن إليه رموز ودلالات عليه يختص أهل الفهم بدركها»[٣].

وزاد ذلك تفصيلًا وبيانًا في كتابه «جواهر القرآن» حيث عقد فصلًا من فصول الكتاب في انشعاب سائر العلوم من القرآن، فذكر علم الطب،

---

(١) انظر: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر الهجري (٢/ ٥٤٥).

(٢) المرجع السابق (٢/ ٥٤٩).

(٣) إحياء علوم الدين (٣/ ٥٢٣).

والنجوم، وهيئة العالم، وهيئة بدون الحيوان وتشريح أعضائه، وعلم السحر... إلخ(١).

ومن العلماء الذين توسعوا في هذا الباب أيضًا، الإمام الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ، فقد بحث في تفسيره علومًا شتى، ومن أبرزها علم الهيئة والنجوم. فهو يرى أن القرآن اشتمل على جملة من علوم الهيئة وفصَّل فيها، وربما صرف بعض الآيات إلى معاني ليس لها ارتباط بعلم الهيئة، وزعم أنها من أصول ذلك العلم(٢).

ومن العلماء الذين ذكروا جملة من العلوم، ونسبوها للقرآن، وساقوا الآيات، وحاولوا الربط والاستدلال بها على أن جميع العلوم لها أصل في القرآن الإمام السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فقد أفرد النوع الخامس والستون من علوم القرآن: في العلوم المستنبطة من القرآن، واستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

واستدل بحديث النبي ﷺ: (سَتَكُونُ فِتَنٌ). قيل: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: (**كِتَابُ اللهِ فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ**)(٣)(٤).

---

(١) انظر: جواهر القرآن (ص٣).

(٢) انظر حديثه عن قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ الآية [الأعراف: ٥٤]، فقد ذكر أقوالًا لا علاقة لها بالآية.

(٣) أخرجه أحمد رقم (٧٠٤)، والترمذي، باب ما جاء في فضل القرآن (٥/ ٢٩) وقال: «هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول»، وأخرجه المزي في تهذيب الكمال (٣٤/ ٢٦٧)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة رقم (٦١٨٩).

(٤) الإتقان (٥/ ١٩١٤).

هؤلاء بعض العلماء الذين توسعوا في ذكر بعض العلوم، ونسبتها إلى القرآن.

القسم الثاني: هناك بعض العلماء أنكروا أن يكون القرآن جاء بعلم لم تعرفه العرب، وزعيم هؤلاء العلماء في ذلك الإمام الشاطبي رحمه الله[١]، فقد ذهب رحمه الله إلى أن القرآن لا يشتمل إلا على ما كانت تعرفه العرب، وكل علم لم تعرفه العرب فلا يمكن أن يستفاد شيء منه من القرآن؛ وذلك لأن العرب أمة أمية، وجاءت شريعتهم مخاطبة لهم بما يدركون، وما يعرفونه، يقول رحمه الله: «الشريعة التي بعث بها النبي الأمي ﷺ إلى العرب خصوصًا وإلى من سواهم عمومًا، إما أن تكون على نسبة ما هم عليه من وصف الأمية أو لا، فإن كان كذلك، فهو معنى كونها أمية؛ أي: منسوبة إلى الأميين، وإن لم تكن كذلك، لزم أن تكون على غير ما عَهِدُوا، فلم تكن لتتنزل من أنفسهم منزلة ما تُعُهِد، وذلك خلاف ما وضع عليه الأمر فيها، فلا بد أن تكون على ما يعهدون، والعرب لم تعهد إلا ما وصفها الله به من الأمية»[٢].

ونصر هذا الرأي؛ الشيخ الدكتور محمد بن حسين الذهبي رحمه الله، حيث قال ـ بعد ذكره لرأي الشاطبي ـ: «أما أنا فاعتقادي أن الحق مع الشاطبي رحمه الله»[٣].

---

(١) إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي: أصولي حافظ. من أهل غرناطة. كان من أئمة المالكية. من كتبه «الموافقات». توفي سنة ٧٩٠هـ. انظر: الأعلام (١/ ٧٥).

(٢) الموافقات (٢/ ١١١).

(٣) التفسير والمفسرون (٢/ ٤٣٠).

القسم الثالث: من العلماء من يقف موقف التوسط، فلا غلو في إثبات العلوم ونسبتها إلى القرآن، ولا إنكار مطلقًا، فطائفة «عمدت إلى الآيات التي لها مساس بالعلوم وفهمتها بناء على ضوء المعارف الحديثة اليقينية، لا الظنية، وفي نطاق قوانين الشرع العامة، وقواعد اللغة الثابتة، فرأت فيها ما يدل كل ذي عقل على أن هذا القرآن ليس من عند البشر، وإنما هو من عند الله، وإلا لما كان من الممكن قول مثل تلك الآيات في تلك الأزمنة الخالية، التي لم يكن الإنسان عارفًا فيها شيئًا عن الحقائق العلمية الحديثة.

ولم يضرها أبدًا أن تقف عند ظاهر النص القرآني إذا كانت دلالته قطعية، وإن كان يتعارض مع بعض النظريات العلمية الرائجة، جازمة بأن الخطأ في النظرية العلمية، وأن على أصحابها أن يبحثوا عن وجه الصواب في موضوعها، وإلا فمن المحال أن يتعارض الدين مع العلم، أو القرآن مع القوانين اليقينية الثابتة.

... وإذا كان الأمر العلمي لم يصل إلى درجة القانون اليقيني الثابت، وإنما هو في طور التجربة والبحث والنظر، لا يمكننا أبدًا أن نجعل القرآن تبعًا لشهوات البشر وأهوائهم، ولا يمكننا أبدًا أن نعبث بآيات القرآن ونتلاعب بها»[1].

وهذا رأي جمع من علماء المسلمين ويعدُّ الإمام ابن القيِّم رحمه الله من أبرزهم، ويتضح رأيه من خلال ما سيأتي من المطالب ـ بإذن الله ـ.

---

(١) المعجزة القرآنية. للدكتور: محمد حسن هيتو (ص١٥٣). «باختصار».

المَطْلَبُ الأَوَّلُ

أطوار خلق الإنسان في القرآن الكريم

ومما لفت أنظار العلماء، الآيات الكثيرة التي تتحدث عن أطوار خلق الإنسان ومراحل تكوينه، ووصف ذلك بدقة متناهية، تنبئ عن أن المتكلم بهذا القرآن عليمٌ خبيرٌ بأدق تفاصيل خلق هذا الإنسان، عارف بأسرار أطواره، التي قد لا تدرك بالحس ولا بالنظر، بل هو من الغيب الذي لا تدرك معرفته البشر، ثم تأتي الأبحاث العلمية بعد اكتشاف الآلات الحديثة، وبعد الأبحاث والنظريات المتراكمة في علم التشريح، فتكشف عن دقة وصف القرآن لتلك الأطوار والمراحل، فينشأ عن ذلك اليقين التام بأن هذا القرآن الذي نزل على ذلك النبي الأمي ﷺ في ذلك المجتمع الأمي؛ إنما هو كلام من خلق الخلق، الذي يعلم ما ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٨، ٩]، سبحانه جلَّ في علاه.

ثم أخذ العلماء في الحديث عن ما ترشد إليه تلك الآيات التي تتحدث عن أطوار الخلق، وتعقبوها بالبحث والتأمل، والنظر في ما جاءت به، وما قصد منها، ومن أولئك العلماء الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ فقد تعرض لتلك الآيات بالبحث والتفصيل[١]، فأفاد وأجاد، وجاء بكلام

---

(١) تكلم الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ عن خلق الإنسان في عدة مواضع من كتبه وأهمها: ما ذكره في كتاب «التبيان» من أسرار خلق الإنسان، والحكم في خلق أعضائه على تلك الهيئة، وذلك عند حديثه عن قوله تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] وقد اشتمل ذلك على قرابة ثلث الكتاب. انظر: (ص٤٥٧)، وتحدث أيضًا عن هذه القضية في كتاب «مفتاح دار السعادة». انظر: (٢/ ٥)، وكذلك في كتاب «تحفة المودود بأحكام المولود». انظر: (ص٣٥٥).

معتدل؛ غير مغالٍ ولا مبالغٍ، ولا مُحَمِّلٍ تلك الآيات ما لا تحتمل، ولا مقصر في ما ترشد إليه الآيات، وما يستفاد منها، ليرسم بذلك منهجًا متسمًا بالعدل والإنصاف، في حدود النص القرآني، مراعيًا المقاصد القرآنية، والأهداف الشرعية.

فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ متحدثًا عن أطوار الخلق التي جاءت في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٦]، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «استوعب الله سبحانه ذكر أحوال ابن آدم قبل كونه نطفةً، بل ترابًا وماءً إلى حين بعثه يوم القيامة؛ فأول مراتب خلقه: أنه سلالةٌ من طين، ثم بعد ذلك سلالةٌ من ماء مهين ـ وهي النطفة التي استلت من جميع البدن ـ، فتمكث كذلك أربعين يومًا، ثم يقلب الله سبحانه تلك النطفة التي انسلَّت علقة ـ وهي قطعة سوداء من دم ـ، فتمكث كذلك أربعين يومًا أخرى، ثم يصيرها سبحانه مضغة ـ وهي قطعة لحم ـ، أربعين يومًا، وفي هذا الطور تقدر أعضاؤه، وصورته، وشكله، وهيئته»(١).

ثم يقول بعد ذلك رَحِمَهُ اللَّهُ: «ثم تقدر مفاصلُ أعضائه، وعظامه وعروقه وعصبه، ويشق له السمع والبصر والفم، ويفتق حلقه بعد أن كان رتقًا، فيُركب فيه اللسان، ويُخطط شكله وصورته، وتُكسى عظامه لحمًا، ويربط بعضها إلى بعض أحكم ربط وأقواه، وهو الأسر الذي قال فيه:

---

(١) تحفة المودود بأحكام المولود (ص٣٥٥).

﴿نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ﴾ [الإنسان: ٢٨]. ومنه الإسار الذي يربط به، ومنه الأسير»[١].

لقد أكد العلم الحديث بعد تطور الآلات الحديثة، التي استطاع الإنسان من خلالها رصد تلك الأطوار والمراحل، فرأى بعينه أن الحقائق العلمية مطابقة لما جاء به القرآن، فأصبح يقينه عين اليقين، فأكد المتخصصون في علم الطب والتشريح؛ أن مسار الأجنة في الأرحام موافق لما وصفه القرآن حرفًا بحرف[٢].

ومن الأمور العظيمة الدالة على ما أوتي رسولنا الكريم ﷺ من المعجزات، تحديد أزمنة تحولات الجنين حتى ولادته، وذلك مما يثير الدهشة والتعجب؛ لأن هذا الأمر لا يمكن لأحد أن يتحدث به إلا عن طريق المشاهدة، أو أن يخبر عن عالم بذلك مطلع عليه، فلقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: (**إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ...**) الحديث[٣].

إن هذا التفصيل، وهذا التحديد الزمني الدقيق الذي جاء في الحديث أمرٌ قطعي يقيني، يخبر به من لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحي، أوحاه إليه العليم الخبير ﷻ، فليس هو من قبيل

---

(١) تحفة المودود بأحكام المولود (ص٣٥٧).

(٢) **انظر**: روح الدين الإسلامي. لعفيف طباره (ص٦٠)، مراحل خلق الإنسان في آيات القرآن الكريم. منى رفعت (ص٤٢).

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب الخلق، باب ذكر الملائكة صلوات الله عليهم رقم (٣٢٠٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته رقم (٦٨٩٣).

التخرصات أو التجارب التي لا تعتمد إلا على الظنون التي يحيطها ما يحيطها من الخطأ، وعدم الدقة، وعدم القياسات الصحيحة. نعم الوحي ليس كذلك؛ وإنما هو إخبار من مقدر المقادير، الذي يعلم ما في الأرحام، وكل شيء عنده بمقدار.

ولقد ردَّ الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ على بقراط الحكيم(١)، الذي حاول أن يحدد أزمنة الأطوار التي يتشكل بها الجنين، من خلال قياسات وادعاءات أقرب إلى الخيال منها إلى الصحة والدقة، وبعد تلك التجارب التي أجراها أتى بخلط وتخبط واضح، مخالف لما جاء به الوحي الإلٰهي السماوي الصادق، يقول الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال بقراط في كتاب «الغذاء»: تصوير الجنين يكون في خمسة وثلاثين يومًا، وحركته في سبعين صباحًا، وكماله في مائة وعشرة أيام، ويتصور أجنة أُخر في خمسين صباحًا، ويتحركون التحرك الأول في مائة صباح، ويكملون في ثلاثمائة، ويتصور أجنة أُخر في أربعين صباحًا، ويتحركون في ثمانين صباحًا، ويولدون في مائتين وأربعين صباحًا، ويتصور أجنة أُخر في خمسة وأربعين صباحًا، ويتحركون في تسعين صباحًا، ويولدون في مائتين وسبعين صباحًا.

قال: فأما الولادة فتكون في الشهر السابع والثامن والتاسع والعاشر.

قلت(٢): الحركة حركتان: حركة طبيعية غير إرادية، فهذه تكون قبل

---

(١) هو: بقراط بن أبراقليس. الطبيب الفيلسوف، وحيد دهره، له تجارب وقياسات عجيبة، كتب في الطب كتبًا كثيرة، انتفع الناس بها نفعًا عظيمًا، كان متألهًا ناسكًا، يعالج الناس حسبة. توفي على الأرجح سنة ٣٥٧ق.م. انظر: طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل (ص١٦)، والفهرست لابن النديم (ص٣٤٦).

(٢) القائل هنا ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ.

تعلق الروح به، وأما الحركة الإرادية فلا تكون إلا بعد نفخ الروح.

ولهذا فرَّق بقراط بين التحرك الأول والثاني.

قلت: الذي دلَّ عليه الوحي الصادق عن خالق البشر، أن الخلق ينتقل في كل أربعين يومًا إلى طور آخر، فيكون أولًا نطفة أربعين يومًا، ثم علقة كذلك، ثم مضغة كذلك، ثم ينفخ فيه الروح بعد مائة وعشرين يومًا. فهذا كأنك تشاهده عيانًا، وما خالفه فليس مع المخبِر به عِيان، وغاية ما معه قياس فاسد، أو تشريح لا يحيط علمًا بمبدأ ما شاهده منه، أو تقليد لواحد غير معصوم، وكل ما جاء به مشى خلفه فيه، فيعتقد المعتقد أن هذا أمر متفق عليه بين الطبائعيين. وأصله كله واحد، أخطأ فيه، ثم قلده من بعده، والقوم لم يشاهدوا ما أخبروا به من ذلك...».

ثم يقول: «ومما يدل على أن القوم لم يخبروا في ذلك عن مشاهدة: قولهم إن الجنين الذي يولد في الشهر السابع يصير ديديًا في تسعة أيام، ودمويًا في ثمانية أيام أخر، ولحميًا في تسعة أيام أخر، ويقبل الصورة في اثني عشر يومًا أخر، فإذا اجتمعت هذه الأيام صارت خمسة وثلاثين يومًا، فجعلوه مضغة في الأربعين الأولى. وهذا كذب ظاهر قطعًا، وإنما يصير لحميًا بعد الثمانين، **ومثل هذا لا يدرك إلا بوحي أو مشاهدة**، وكلاهما مفقود عندهم، وإنما بأيديهم قياس اعتبروا به أحوال الأجنة من شهور ولادتها، فحكموا على كل جنين ولد في شهر من شهور الولادة، على أنه ينبغي أن يكون ديديًا؛ **أي**: نطفة، كذا وكذا يومًا، ودمويًا؛ **أي**: علقة، كذا وكذا يومًا، ولحميًا؛ **أي**: مضغة، كذا وكذا يومًا، ثم أضعفوا ذلك العدد وجعلوه وقت تحرك الجنين وكذبوا في ذلك على الخلَّاق العليم في خلقه، كما كذبوا عليه في صفاته وأسمائه، فإن القوم لم يكن لهم نصيب من العلم الذي جاءت به الرسل، بل كانوا

كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣]»[١].

ومن الأمور التي استفادها العلماء من القرآن ـ من خلال الآيات التي تتحدث عن الحمل ـ، أنَّ أقل مدة للحمل الصحيح السليم هو ستة أشهر، ولهم في ذلك استنباط دقيق لطيف، وذلك من قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، فمجموع الحمل والرضاع ثلاثون شهرًا، وفي آية البقرة خصص ﷻ الرضاع التام بحولين، فاستنبط العلماء من ذلك أن ما بقي من مجموع المدة هو مدة الحمل، يقول الإمام ابن القيِّم رحمه الله: «فأخبر تعالى أن مدة الحمل والفطام ثلاثون شهرًا، وأخبر في آية البقرة أن مدة تمام الرضاع ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، فعُلِم أنَّ الباقي يصلُح مدة للحمل، وهو ستة أشهر.

فاتفق الفقهاء كلهم على أن المرأة لا تلد لدون ستة أشهر إلا أن يكون سقطًا، وهذا أمر تلقاه الفقهاء عن الصحابة رضي الله عنهم.

فذكر البيهقي وغيره، عن أبي حرب بن أبي الأسود الديلي[٢]، أن عمر أُتِي بامرأةٍ قد ولدت لستة أشهر، فهمَّ عمر برجمها، فبلغ ذلك عليًا رضي الله عنه فقال: ليس عليها رجمٌ. فبلغ ذلك عمر، فأرسل إليه فسأله. فقال: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]. وقال: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]. فستة

---

(١) تحفة المودود (ص٣٧٣ ـ ٣٧٧).

(٢) أبو حرب بن أبي الأسود الديلي البصري، أبوه تابعي أول من تكلم في النحو. اسمه كنيته، من قراء أهل البصرة، كان معروفًا وله أحاديث. وذكره ابن حبان في الثقات، مات سنة تسع ومائة. انظر: الثقات (٥/٥٧٦)، تهذيب الكمال (٣٣/٢٣١)، تهذيب التهذيب (٤/٥٠٩).

أشهر حمله، وحولان تمام الرضاعة، لا حد عليهما. قال: فخلّى عنها[(١)]»[(٢)].

الذي يدير النظر في مجمل ما ذكر الله ﷻ من تفاصيل أطوار خلق الإنسان، يدرك أن هناك مدبرًا عظيمًا يتصرف في هذا الخلق، له فيه الحكمة والأمر، والتقدير والتدبير المطلق ﷻ، وتنهزم وتضمحل لديه الشكوك التي يثيرها الفلاسفة والطبيعيون ومن تبعهم، ويدرك عظمة الخالق جلَّ وعلا، ويتعرف على صفاته العظيمة من خلال التأمل في خلقه وصنعه، ولقد أكد الإمام ابن القيِّم رحمه الله هذا المعنى حيث يقول: «من أين في الطبيعة والقوة هذا التركيب والتقدير والتشكيل، وهذه الأعضاء والرباطات، والقوى والمنافذ، والعجائب التي ركبت في هذه النطفة المهينة؟

لَوْلَا بَدَائِعُ صُنْعِ اللَّهِ مَا وُجِدَتْ   تِلْكَ العَجَائِبُ فِي مُسْتَقْذَرِ المَاءِ[(٣)]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦ ـ ٨].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٥، ٦].

---

(١) سنن البيهقي، كتاب العدد. باب ما جاء في أقل الحمل (٧/ ٤٤٢)، وأخرجه عبد الرزاق في المصنف، كتاب الطلاق، باب التي تضع لستة أشهر (٧/ ٣٥٠)، وأخرج مالك في «الموطأ» أن القصة حصلت لعثمان مع علي رضي الله عنه. الموطأ، كتاب الحدود، باب ما جاء في الرجم (٢/ ٨٢٥). قال ابن عبد البر رحمه الله: «يختلف أهل المدينة في رواية هذه القصة، فمنهم من يرويها لعثمان مع علي، ومنهم من يرويها لعثمان مع ابن عباس، وأما أهل البصرة فيروونها لعمر مع علي». ثم قال: «وهذا الإسناد لا مدافع فيه من رواية أهل المدينة، وقد خالفهم في ذلك ثقات أهل مكة، فجعلوا ذلك لابن عباس مع عمر». الاستذكار (٢٤/ ٧٤). «بتصرف واختصار».

(٢) تحفة المودود (ص٣٧٨).

(٣) لم يعثر الباحث على قائل للبيت.

لقد دلَّ سبحانه على نفسه أوضح دِلالةٍ بما أشهَدَهُ كلَّ عبدٍ على نفسه من حَالِه وحُدُوثه، وإتقان صنعه، وعجائب خلقه، وآيات قدرته، وشواهِدِ حكمتِهِ فيه.

ولقد دعا سبحانه الإنسان إلى النظر في مبدأ خلقه وتمامه، فقال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق: ٥ ـ ٧].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [الحج: ٥].

وقال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١].

وهذا في القرآن كثير لمن تدبره وعقله، وهو شاهد منك عليك، فمن أين للطبيعة والقوة المحصورة هذا الخلق والإتقان والإبداع؟»[(١)].

هكذا رسخ القرآن الكريم من خلال التفكر في الخلق معرفة هذا الخالق العظيم، وجعل ذلك من أعظم الدلائل عليه ﷻ، ثم جعل الإنسان بتأمله وتفكره يدرك أن هذا القرآن كلام من خلق هذا الخلق، الواحد الأحد، العليم بدقيق أسراره، وتفاصيل أحواله، والمحيط به علمًا ﷻ.

(١) تحفة المودود (ص٣٨٥).

المَطْلَبُ الثَّانِي

أسرار الفلك، وما خلق الله في الأرض، والشواهد على ذلك من القرآن

خلق الله ﷻ هذا الفلك العظيم، الذي يحار الفكر في أسراره وعجائبه، ونبَّه ﷻ في القرآن على جملة من العجائب التي أودعها فيه، ودعا إلى تأملها والتفكر في عظمتها، ففي ذلك إشارة إلى عظمة خالقها، ودلالة على صفاته ونعوت جلاله عز وتقدَّس.

وفي ضمن الآيات التي وردت في القرآن متحدثة عن الفلك من الأسرار العظيمة ما لا يمكن حصره، منها: ما اشتملت عليه تلك الآيات من حقائق علمية دقيقة، يجهلها أهل ذلك العصر الذي نزل القرآن فيه، ولم تعلم إلا بعد تطور العلوم، وتقدم الاكتشافات، فأصبحت تلك الحقائق العلمية التي جاء بها القرآن شاهدًا من شواهد إعجازه لا يمكن لجاحد إنكارها.

ويعدُّ الإمام ابن القيِّم رحمه الله من العلماء الذين بحثوا وتأملوا أسرار هذا الكون، من خلال النصوص القرآنية الكثيرة التي حثت على التأمل في خلق السمٰوات والأرض[1]، وله في ذلك منهج معتدل ـ نحو المنهج الذي سار عليه في حديثه عن أطوار خلق الإنسان ـ في حدود النص القرآني، وله تأصيل وتفصيل، يرسم من خلاله منهج الاعتدال، وعدم الخروج بالقرآن عن دائرة مقاصده، والمبالغة في نسبة بعض العلوم إليه، وتحميل نصوصه ما لا تحتمل.

سار الإمام ابن القيِّم رحمه الله في حدود المنهج الذي جاء القرآن به،

---

(١) بحث ذلك بحثًا موسعًا في كتابه «مفتاح دار السعادة»، وجعل هذا الموضوع من أهم أسباب تأليفه لهذا الكتاب. انظر: (٢/ ٥).

فدعا إلى التأمل في ما دعا إليه القرآن، والتفكر في ما حث على التفكر فيه القرآن، فإن الله دعا عباده أولي البصائر والعقول الراجحة إلى التفكر في خلق السمٰوات والأرض، والتأمل في عظيم صنعها، فإن ذلك يكسب معرفة الله، ويرشد إلى معرفة عظمته ﷻ؛ لأن من خلق هذا الخلق العظيم لا شك أنه أعظم وأجلّ، يقول الإمام ابن القيِّم رحمه الله بعد حديثه عن أطوار الخلق: «... فمَنْ هذا صنعه في قطرة ماء فكيف صنعه في ملكوت السمٰوات، وعلوها، وسعتها، واستدارتها، وعظم خلقها، وحسن بنائها، وعجائب شمسها وقمرها وكواكبها، ومقاديرها، وأشكالها، وتفاوت مشارقها ومغاربها؟! فلا ذرة فيها تنفك عن حكمة، بل هي أحكم خلقًا، وأتقن صنعًا[1]! وأجمع للعجائب من بدن الإنسان، بل لا نسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السمٰوات، قال الله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ إلى قوله: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، فبدأ بذكر خلق السمٰوات، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

وهذا كثير في القرآن، فالأرض، والبحار، والهواء، وكل ما تحت السمٰوات ـ بالإضافة إلى السمٰوات ـ كقطرة في بحر، ولهذا قلَّ أن تجيء

---

(١) لعلَّ هذه المبالغة سبق قلم من الإمام ابن القيِّم رحمه الله لم يتأملها، وإلا فالحق أن الله ﷻ أتقن كل شيء صنعًا، قال تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، فخلق الإنسان متقن نحو خلق السمٰوات والأرض، ولا يقال أن خلق الإنسان أقل إتقان من السمٰوات والأرض، بل إنه من الإتقان بمكان يدل على عظمة خالقه، والسمٰوات والأرض أعظم وأكبر منه خلقًا، وبهذا جاءت الآيات.

سورة في القرآن إلا وفيها ذكرها؛ إما إخبارًا عن عظمتها وسعتها، وإما إقسامًا بها، وإما دعاءً إلى النظر فيها، وإما إرشادًا للعباد أن يستدلوا بها على عظمة بانيها ورافعها، وإما استدلالًا منه سبحانه بخلقها على ما أخبر به من المعاد والقيامة، وإما استدلالًا منه بربوبيته لها على وحدانيته وأنه الله الذي لا إلٰه إلا هو، وإما استدلالًا منه بحسنها، واستوائها، والتئام أجزائها، وعدم الفطور فيها على تمام حكمته وقدرته.

وكذلك ما فيها من الكواكب، والشمس، والقمر، والعجائب التي تتقاصر عقول البشر عن قليلها»(١).

ثم بيَّن الإمام ابن القيِّم رحمه الله أن في خلق الله لهذه الكواكب من الأسرار والحكم ما لا يمكن حصره، فكل كوكب من هذه الكواكب على كثرتها وضع على قدر من حكمة الله تعالى، وعلى قدر من الدقة العظيمة التي تدل على عظمة خالقها، يقول رحمه الله: «فما من كوكب من الكواكب إلا وللرب تبارك وتعالى في خلقه حكم كثيرة، ثم في مقداره، ثم في شكله ولونه، ثم في موضعه من السماء وقربه من وسطها وبعده، وقربه من الكوكب الذي يليه وبعده منه.

وإذا أردت معرفة ذلك على سبيل الإجمال فقسه بأعضاء بدنك، واختلافها وتفاوت ما بين المتجاورات منها وبعد ما بين المتباعدات وأشكالها ومقاديرها وتفاوت منافعها وما خلقت له، وأي نسبة ذلك إلى عظم السمٰوات وكواكبها وآياتها!»(٢).

لقد دعا القرآن الكريم إلى التفكر في بعض الكواكب على وجه من التخصص، ونبَّه إلى ما تحتويه من الأسرار والمنافع، التي يشعر الناس

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٣ ـ ٢٤).
(٢) المصدر السابق (٢/ ٢٧).

بها، ومن تلك الشمس والقمر، فهما آيتان عظيمتان من آيات الله التي أودعها من العجائب العظيمة، التي لو اختلفت لاختل بها نظام العالم، ولفسد، وأصبح العيش فيه محال، يقول الإمام ابن القيِّم رحمه الله: «تأمل حال الشمس والقمر في طلوعهما وغروبهما لإقامة دولتي الليل والنهار، ولولا طلوعهما لبطل أمر العالم، وكيف كان الناس يسعون في معايشهم، ويتصرفون في أمورهم، والدنيا مظلمة عليهم؟! وكيف كانوا يتهنون بالعيش مع فقد النور؟! ثم تأمل الحكمة في غروبهما؛ فإنه لولا غروبهما لم يكن للناس هدوء ولا قرار مع فرط الحاجة إلى السبات وجموم الحواس وانبعاث القوى الباطنة وظهور سلطانها في النوم المعين على هضم الطعام، وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء.

ثم لولا الغروب لكانت الأرض تحمى بدوام شروق الشمس واتصال طلوعها حتى يحترق كل ما عليها من حيوان ونبات، فصارت تطلع وقتًا بمنزلة السراج يرفع لأهل البيت ليقضوا حوائجهم، ثم تغيب عنهم مثل ذلك ليقروا ويهدؤوا، وصار ضياء النهار مع ظلام الليل وحر هذا مع برد هذا ـ مع تضادهما ـ متعاونين متظاهرين، بهما تمام مصالح العالم.

وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى ونبَّه عباده عليه بقوله ﷻ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧١، ٧٢]، وخص سبحانه النهار بذكر البصر لأنه محله، وفيه سلطان البصر وتصرفه، وخص الليل بذكر السمع لأن سلطان السمع يكون بالليل، وتسمع فيه الحيوانات ما لا تسمع في النهار لأنه

وقت هدوء الأصوات وخمود الحركات»[(١)].

جعل الله الليل والنهار من الآيات العظيمة التي لو تأملها العبد وما فيها من المصالح وقيام العالم بها لأدرك عظمة خالقه، فهما آيتان حادثتان كل يوم، ترشد وتدل العباد بجمعٍ من الدلائل على عظمة المتصرف في هذا الكون، «فإن إظلام الجو لغروب الشمس، ومجيء الليل الذي يلبس العالم كالثوب، ويسكنون تحته آية باهرة، ثم ورد جيش الضياء يقدمه بشير الصباح، فينهزم عسكر الظلام وينتشر الحيوان، وينكشط ذلك اللباس بجملته آية أخرى»[(٢)].

ثم بيَّن الإمام ابن القيِّم رحمه الله أنه إذا تأمل العبد دقة مقادير الليل والنهار المحكمة، وما في ذلك من المنافع، وجدها آية أخرى عظيمة، تدعو القلب إلى الوقوف عندها، والتبصر فيها، يقول رحمه الله: «تأمل الحكمة في مقادير الليل والنهار، تجدها على غاية المصلحة والحكمة، وأن مقدار اليوم والليلة لو زاد على ما قدر عليه أو نقص، لفاتت المصلحة، واختلفت الحكمة بذلك، بل جعل مكيالها أربعة وعشرين ساعة، وجعلا يتقارضان الزيادة والنقصان بينهما، فما يزيد في أحدهما من الآخر، يعود الآخر فيسترده منه.

قال الله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [فاطر: ١٣]، **وفيه قولان:**

أحدهما: أن المعنى: يدخل ظلمة هذا في مكان ضياء ذلك، وضياء هذا في مكان ظلمة الآخر، فيدخل كل واحد منهما في موضع صاحبه.

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٥٠).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٦٦).

وعلى هذا فهي عامة في كل ليل ونهار.

والقول الثاني: أنه يزيد في أحدهما ما ينقصه من الآخر، فما نقص منه يلج في الآخر لا يذهب جملة[١].

وعلى هذا فالآية خاصة ببعض ساعات كل من الليل والنهار في غير زمن الاعتدال، فهي خاصة في الزمان وفي مقدار ما يلج في أحدهما من الآخر، وهو في الأقاليم المعتدلة غاية ما تنتهي الزيادة خمس عشرة ساعة، فيصير الآخر تسع ساعات، فإذا زاد على ذلك انحرف ذلك الإقليم في الحرارة أو البرودة إلى أن ينتهي إلى حد لا يسكنه الإنسان ولا يتكون فيه النبات، وكل موضع لا تقع عليه الشمس لا يعيش فيه حيوان ولا نبات لفرط برده ويبسه، وكل موضع لا تفارقه كذلك لفرط حره ويبسه»[٢].

هذا بالنسبة لما نشاهده في الفضاء الخارجي البعيد، فكيف إذا أمعنا النظر في الأرض التي نعيش عليها، فإن فيها من عجائب الخلق ما لا يحصى، وفيها من الآيات والشواهد على وحدانية الخالق تبارك وتعالى، والدلائل على تصرفه في خلقه كيف يشاء، الشيء الذي يبهر العقول، فجعلها مهادًا لتكون صالحة للعيش، ثم جعلها قرارًا ليست مضطربة لتتحقق مقومات السكنى فيها، ثم أودعها بركاته التي يعيش هذا العالم وينعم بها... وغير ذلك من الأسرار والمنافع التي أودعها الله ﷻ فيها، يوضح ذلك الإمام ابن القيِّم رحمه الله بقوله: «وإذا نظرت إلى الأرض وكيف خلقت، رأيتها من أعظم آيات فاطرها وبديعها، خلقها سبحانه فراشًا ومهادًا، وذللها لعباده، وجعل فيه أرزاقهم وأقواتهم ومعايشهم،

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٨٥).

(٢) مفتاح دار السعادة (٢/ ٥٦).

وجعل فيها السبل لينتقلوا فيها في حوائجهم وتصرفاتهم، وأرساها بالجبال، فجعلها أوتادًا تحفظها لئلا تميد بهم، ووسع أكنافها ودحاها، فمدها وبسطها، وطحاها فوسعها من جوانبها، وجعلها كفاتًا للأحياء تضمهم على ظهرها ما داموا أحياء، وكفاتًا للأموات تضمهم في بطنها إذا ماتوا، فظهرها وطن للأحياء، وبطنها وطن للأموات.

وقد أكثر تعالى من ذكر الأرض في كتابه، ودعا عباده إلى النظر إليها، والتفكر في خلقها؛ فقال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨]، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [غافر: ٦٤]، ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢]، ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ٢٠]، ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣]. . . .

وهذا كثير في القرآن.

فانظر إليها وهي ميتة هامدة خاشعة، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت فتحركت، وربت فارتفعت، واخضرت وأنبتت من كل زوج بهيج، فأخرجت عجائب النبات في المنظر والمخبر، بهيج للناظرين، كريم للمتناولين، فأخرجت الأقوات على اختلافها، وتباين مقاديرها وأشكالها وألوانها ومنافعها، والفواكه والثمار، وأنواع الأدوية، ومراعي الدواب والطير.

ثم انظر قطعها المتجاورات، وكيف ينزل عليها ماء واحد فتنبت الأزواج المختلفة المتباينة في اللون والشكل والرائحة والطعم والمنفعة، واللقاح واحد، والأم واحدة، كما قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ

بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤]، فكيف كانت هذه الأجنة المختلفة مودعة في بطن هذه الأم؟ وكيف كان حملها من لقاح واحد؟ صنع الله الذي أتقن كل شيء لا إله إلا هو.

ولولا أن هذا من أعظم آياته، لما نبَّه عليه عباده، ودعاهم إلى التفكير فيه...»[1].

ومن شواهد الإعجاز العلمي التي وردت في القرآن، ونبَّه إليه الإمام ابن القيِّم رحمه الله، ما ذكره الله ﷻ عن الجبال وأنها رواسي تثبت الأرض، وتحفظها من الاضطراب[2]، يقول الله ﷻ: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ [النحل: ١٥] ويقول: ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا﴾ [المرسلات: ٢٧].

يقول الإمام ابن القيِّم رحمه الله في ذكره لمنافع الجبال: «ومن منافعها ما ذكره الله تعالى في كتابه أنه جعلها للأرض أوتادًا تثبتها ورواسي بمنزلة مراسي السفن، وأعظم بها من منفعة وحكمة!»[3].

المطلب الثالث

منهج ابن القيِّم في الإعجاز العلمي

يظهر جليًا مما مضى أن الإمام ابن القيِّم رحمه الله يرى أن القرآن الكريم نص على عدد من الحقائق العلمية، ولكن تلك الحقائق العلمية لم تكن مقصودة لذاتها، وإنما هي ضمن أهداف ومقاصد تهدي إليها تلك الآيات، وهنا قد يقال: إن القرآن إنما جاء ليهدي البشر، وليس

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٣١ ـ ٣٢).
(٢) راجع: المعجزة القرآنية الإعجاز العلمي والغيبي (ص٢٢٨).
(٣) مفتاح دار السعادة (٢/ ٨٦).

الهدف منه الحديث عن حقائق كونية، أو تعليم الناس علم الهيئة، والطب، والهندسة، وما إلى ذلك. فيقال: القرآن كتاب هداية وإعجاز، ولا تناقض بين أن يكون قد وضع للهداية، وفي ضمن ذلك جاء بأمور نصبها أدلة لهداية الخلق، وهي في تفاصيلها مشتملة على علوم تنبئ أن الذي تكلم بهذا القرآن هو من أبدع هذا الكون، وهو العليم بأسراره وعجائبه، فكلامه واستدلاله بتلك الأدلة الدقيقة الصحيحة دليل على أنه خالق هذا الخلق، ودليل على صحة نسبة هذا القرآن إليه، يقول الشيخ الزرقاني رحمه الله(١): «القرآن حين يعرض لآية كونية في معرضة من معارض الهداية، يتحدث عنها حديث المحيط بعلوم الكون، الخبير بأسرار السمٰوات والأرض؛ الذي لا تخفى عليه خافية في البر والبحر، ولا في النجوم والكواكب، ولا في السحاب والماء، ولا في الإنسان والحيوان والنبات والجماد. وذلك هو الذي بهر بعض المشتغلين بالعلوم الكونية»(٢).

نهج الإمام ابن القيِّم رحمه الله عند استعراضه للآيات التي تتحدث عن حقائق علمية أو كونية منهجًا وسطًا؛ لا منهج المغالين الذين حَمَلُوا القرآن على التجارب العلمية التي ليس لها صلة بالقرآن، وإنما كان ذلك نابع من شغفهم بتلك العلوم، ويظنون أن القرآن جاء ليحقق في المسائل الكونية والعلمية على وجه التفضيل والتأصيل. ولم يقصر معنى الآيات على ما كان يعرفه العرب. فوقف رحمه الله بين هؤلاء وهؤلاء، فأثبت ما جاء

(١) محمد عبد العظيم الزرقاني. من علماء الأزهر بمصر. تخرج بكلية أصول الدين، وعمل بها مدرسًا لعلوم القرآن والحديث.. من كتبه «مناهل العرفان في علوم القرآن» و«بحث في الدعوة والإرشاد». وتوفي بالقاهرة سنة ١٣٦٧هـ. انظر: الأعلام للزركلي (٦/ ٢١٠).

(٢) مناهل العرفان (٢/ ٣٥٥).

في القرآن دون غلوّ وحمل للآيات على تلك العلوم بتمحل، ودون جفاء وتقصير بها عن ما دلت عليه، **وفي ما يلي نعرض المنهج الذي سلكه في بيان الإعجاز العلمي:**

١ - يرى الإمام ابن القيِّم أن القرآن عندما يعرض تلك الحقائق الكونية والمسائل العلمية، إنما يعرضها في طريق إرشاد الناس إلى التفكر فيها، والتعرف من خلالها على خالق هذا الكون، والصانع لأسراره وعجائبه، وتوحيده ومعرفة صفاته تبارك وتعالى، ففي كتاب «مفتاح السعادة» يبحث ﷺ الآيات التي دعا القرآن إلى التفكر فيها والتأمل فيها فيقول ﷺ: «وإذا تأملت ما دعا الله سبحانه في كتابه عباده إلى الفكرِ فيه، أوقَعَكَ على العلم به ﷻ، وبوحدانيته، وصفات كماله، ونعوت جلاله من عموم قدرته، وعلمه، وكمال حكمته، ورحمته، وإحسانه، وبره، ولطفه، وعدله، ورضاه، وغضبه، وثوابه وعقابه.

فبهذا تعرف إلى عباده، وندبهم إلى التفكر في آياته.

ونذكر لذلك أمثلة مما ذكرها الله سبحانه في كتابه لِيُستدلَّ بها على غيرها:

فمن ذلك خلق الإنسان:

وقد ندب سبحانه إلى التفكر فيه والنظر في غير موضع من كتابه...»[1]. ثم أخذ يذكر تلك المسائل التي وردت في القرآن من المسائل الكونية والفلكية وما إلى ذلك. إذًا ابن القيِّم ﷺ يرى أن الهدف الرئيس التي جاءت به تلك الآيات إنما هو الدعوة إلى التفكر والتأمل في خلق الله وعجائبه.

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٥).

٢ ـ ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ يرى أن ما جاء به الوحي قطعي صحيح، حتى وإن خالفته التجارب، وإذا لم تصح تجربة أو علم من العلوم لا يصح أن يحمل القرآن والسُّنَّة عليها لمجرد أنه قيل بها، بل يجب التحقق والتثبت، والقرآن والسُّنَّة ليس فيها ما ينافي أي حقيقة علمية. يتضح هذا الرأي من خلال رده على «بقراط» الذي يقول: بأن تكوُّن الجنين واكتماله يكون في خمس وثلاثين يومًا، يقول الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الذي دلَّ عليه الوحي الصادق عن خالق البشر، أن الخلق ينتقل في كل أربعين يومًا إلى طور آخر، فيكون أولًا نطفة أربعين يومًا، ثم علقة كذلك، ثم مضغة كذلك، ثم ينفخ فيه الروح بعد مائة وعشرين يومًا. فهذا كأنك تشاهده عيانًا وما خالفه فليس مع المخبر به عيان، وغاية ما معه قياس فاسد، وتشريح لا يحيط علمًا...»[1]. قال الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ هذا في وقته، قبل اكتشاف الآلات الحديثة التي تؤكد صحة ما جاء به الوحي، فيرسم رَحِمَهُ اللَّهُ منهجًا في التعامل مع ما جاء به الشرع، يجب أن يسير عليه كل باحث، فالعمدة هو ما جاء به الوحي، وإذا ثبت عن طريق الوحي شيء يجب أن نعتقد أنه هو الصحيح، لا أن نحمل الوحي على تلك التجارب الافتراضية، ونجعله تابعًا لا متبوعًا، فهذا من أعظم الخطأ والزلل.

٣ ـ لا يفهم القرآن الكريم على أنه جاء لتأصيل علم من العلوم الطبيعية، أو يفهم على أنه جاء لوضع قواعد العلوم على اختلافها، ويتمحل لذلك، وتحمل آيات القرآن الكريم على تلك التأويلات البعيدة[2]، ولقد بيَّن الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ الخطأ الذي وقع فيه بعض العلماء من حمل آيات القرآن على أنها جاءت لتحقيق علم من العلوم الكونية. على سبيل المثال عقَّب الإمام ابن القيِّم على العلماء الذين

---

(١) تحفة المودود (ص٣٧٤).

(٢) راجع: مناهل العرفان (٢/ ٣٥٤).

جعلوا القرآن وكأنه كتاب في علم الهيئة والفلك، ومن أولئك الإمام الرازي رَحِمَهُ اللهُ فقد أورد الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ له كلامًا يستدل بالقرآن فيه على صحة علم التنجيم فقال ابن القيِّم: «يقول أبو عبد الله الرازي: «**اعلم أن المثبتين لهذا العلم احتجوا من كتاب الله بآيات:**

إحداها: الآيات الدالة على تعظيم هذه الكواكب، فمنها: قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥، ١٦]، وأكثر المفسرين على أن المراد هو الكواكب التي تسير راجعة تارة ومستقيمة أخرى[١].

ومنها: قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥، ٧٦]، وقد صرح تعالى بتعظيم هذا القسم، وذلك يدل على غاية جلالة مواقع النجوم ونهاية شرفها.

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ١ ـ ٣] قال ابن عباس: الثاقب هو زحل؛ لأنه يثقب بنوره سمك السموات السبع[٢]. . . .

النوع الثاني: الآيات الدالة على أن لها تأثيرًا في هذا العالم؛ كقوله تعالى: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾ [النازعات: ٥].

وقوله: ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا﴾ [الذاريات: ٤]، قال بعضهم: المراد هذه الكواكب. . .»[٣]»[٤]. وأخذ الرازي يقرر ذلك العلم، وذكر عدة

---

(١) مفاتح الغيب (٣١/ ٧٢). (٢) الدر المنثور (١٥/ ٢٦٩).

(٣) هذا النقل الذي نقله ابن القيِّم عن الرازي لعله من الكتاب الذي ألفه في علم النجوم. يقول الذهبي رَحِمَهُ اللهُ عن هذا الكتاب «كتاب «السر المكتوم في مخاطبة النجوم»، سحر صريح، فلعله تاب من تأليفه إن شاء الله تعالى». ميزان الاعتدال (٥/ ٤١١).

(٤) مفتاح دار السعادة (٣/ ١٦٦). «باختصار».

استدلالات. أوردها الإمام ابن القيِّم رحمه الله ثم تعقبها، وبين بطلان رأي الرازي، فيقول الإمام ابن القيِّم معقبًا: «أما الاستدلال بقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥، ١٦]؛ فإن أكثر المفسرين على أن المراد هو الكواكب التي تسير راجعة تارة ومستقيمة أخرى، وهذا القول قد قاله جماعة من المفسرين، وأنها الكواكب الخمسة زحل وعطارد والمشتري والمريخ والزهرة، وروي عن علي[١]، واختاره ابن مقاتل[٢] وابن قتيبة[٣]، قالوا: وسماها خنسًا لأنها في سيرها تتقدم إلى جهة المشرق، ثم تخنس؛ أي: تتأخر، وكنوسها إستتارها في مغربها كما تكنس الظباء وتفر من الوحوش، إلى أن تأوي إلى كناسها، وهي أكنتها، وتسمى هذه الكواكب المتحيرة لأنها تسير مستقيمة وتسير راجعة، وقيل: كنوسها بالنسبة إلى الناظر، وهو استتارها تحت شعاع الشمس.

وقيل: هي النجوم كلها، وهو اختيار أبي عبيد، وقاله الحسن وقتادة[٤]. وعلى هذا القول فيكون باعتبار أحوالها الثلاثة من طلوعها وغروبها وما بينهما، فهي خنس عند أول الطلوع؛ لأن النجم منها يرى كأنه يبدو ويخنس، وتكنس عند غروبها تشبهًا بالظباء التي تأوي إلى كناسها، وهي جوار ما بين طلوعها، وغروبها، خنس عند الطلوع، جوار بعده، كنس عند الغروب.

وهذا كله بالنسبة إلى أفق كل بلد تكون لها فيه الأحوال الثلاثة.

وقال عبد الله بن مسعود: هي بقر الوحش[٥]. . . .

---

(١) تفسير الطبري (٢٤/ ١٥٢)

(٢) الصحيح أنه مقاتل بن سليمان. ولعل زيادة «ابن» خطأ في النسخ. انظر: زاد المسير (٩/ ٤٢).

(٣) غريب القرآن (ص٥١٧).

(٤) تفسير الطبري (٢٤/ ١٥٤).

(٥) المصدر السابق (٢٤/ ١٥٤).

فإن كان المراد بعض هذه الأقوال غير ما حكاه الرازي فلا حجة له، وإن كان المراد ما حكاه، فغايته أن يكون الله ﷻ قد أقسم بها كما أقسم بالليل والنهار والضحى، والوالد وولده، والفجر، وليال عشر، والشفع والوتر، والسماء والأرض، واليوم الموعود، وشاهد ومشهود، والنفس، والمرسلات، والعاصفات، والناشرات، والفارقات، والنازعات، والناشطات، والسابحات، والسابقات، وما نبصره وما لا نبصره من كل غائب عنا وحاضر، مما فيه التنبيه على كمال ربوبيته، وعزته، وحكمته، وقدرته، وتدبيره، وتنوع مخلوقاته الدالة عليه المرشدة إليه بما تضمنته من عجائب الصنعة، وبديع الخلقة، وتشهد لفاطرها وبارئها بأنه الواحد الأحد، الذي لا شريك له، وأنه الكامل في علمه وقدرته ومشيئته وحكمته وربوبيته وملكه، وأنها مسخرة مذللة منقادة لأمره مطيعة لمراده منها.

ففي الإقسام بها تعظيم لخالقها تبارك وتعالى، وتنزيه له عما نسبه إليه أعداؤه الجاحدون المعطلون لربوبيته وقدرته ومشيئته ووحدانيته، وأن من هذه عبيده ومماليكه وخلقه وصنعه وإبداعه؛ فكيف تجحد ربوبيته وإلٰهيته؟! وكيف تنكر صفات كماله ونعوت جلاله؟! وكيف يسوغ لذي حس سليم وفطرة مستقيمة تعطيلها عن صانعها أو تعطيل صانعها عن نعوت جلاله وأوصاف كماله وعن أفعاله؟!... **فلم يكن إقسامه بها سبحانه مقررًا بذلك علم الأحكام النجومية كما يقوله الكاذبون المفترون**، بل مقررًا لكمال ربوبيته ووحدانيته، وتفرده بالخلق والإبداع، وكمال حكمته وعلمه وعظمته»(١).

ثم قال: «وأما قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥]، **ففيها قولان:**

---

(١) مفتاح دار السعادة (٣/ ١٧٦ ـ ١٧٨) «باختصار».

أحدهما: أنها النجوم المعروفة. . . .

والقول الثاني: أن مواقع النجوم هي منازل القرآن ونجومه، التي نزلت على النبي ﷺ في مدة ثلاث وعشرين سنة[١]. . . .

ويؤيد القول الأول أنه أعاد الضمير بلفظ الإفراد والتذكير، ومواقع النجوم جمع، فلو كان الضمير عائدًا عليها لقال: إنها لقرآن كريم، إلا أن يقال: مواقع النجوم دل على القرآن، فأعاد الضمير عليه؛ لأن مفسر الضمير يكتفى فيه بذلك، وهو من أنواع البلاغة والإيجاز.

فإن كان المراد من القسم نجوم القرآن بطل استدلاله بالآية، وإن كان المراد الكواكب ـ وهو قول الأكثرين ـ فلِما فيها من الآيات الدالة على ربوبية الله تعالى وانفراده بالخلق والإبداع. . .».

ثم يقول: «وكذلك قوله: ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ٣] **على أن فيه قولين آخرين غير القول الذي ذكره:**

أحدهما: أنه الثريا، وهذا قول ابن زيد، حكاه عنه أبو الفرج ابن الجوزي[٢]، وعنه رواية ثانية أنه زحل حكاها عنه ابن عطية[٣].

الثاني: أنه الجدي، حكاه ابن عطية عن ابن عباس[٤]، وقول آخر حكاه أبو الفرج ابن الجوزي عن علي بن أحمد النيسابوري أنه جنس النجوم[٥].

وأما قوله تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]، فلم يقل أحد من الصحابة ولا التابعين ولا العلماء بالتفسير أنها النجوم. . .»[٦].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٩/ ٣٥٩).
(٢) زاد المسير (٩/ ٨١).
(٣) المحرر الوجيز (٨/ ٥٤٩).
(٤) زاد المسير (٩/ ٨١).
(٥) المحرر الوجيز (٨/ ٥٨٣).
(٦) مفتاح دار السعادة (٣/ ١٨٠ ـ ١٨٣). «باختصار».

هكذا أنكر الإمام ابن القيِّم على الرازي حمله آيات القرآن على غير معانيها، ويظهر من ذلك رأي ابن القيِّم الذي يقتضي تفسير آيات القرآن على ضوء مقاصدها، معتبرًا تفسيرات سلف الأمة غير مطرحٍ لها.

٤ ـ يلاحظ أن الإمام ابن القيِّم عند استدلاله على حقيقة علمية أو كونية وردت في القرآن، أنه لا يحصر ويقصر تفسير النص عليها، بل يرى أنها قد تكون في ضمن مدلولات النص القرآني، ولا يقطع بأن المراد بالنص القرآني هو ذلك التفسير؛ بل ذكرها من باب التوسع في المدلول. لا حصره فيها. ويتضح ذلك في حديثه عن اختلاف مقادير الليل والنهار، فذكر قولي العلماء، وفَصَّل القول في الرأي الثاني، ولم يقطع بأن مراد الآية هو ما ذكره، وإنما هو من سبيل التوسع وذكر ما تحتمله الآية.

هذا مجمل المنهج الذي سار عليه ابن القيِّم، وهو المنهج الذي يرجحه العلماء اليوم(١)، بعد التوسع في هذا الباب من أبواب إعجاز القرآن، فالواجب الاعتدال في هذا الباب والتثبت والسير على خطى العلماء المحققين أمثال الإمام ابن القيِّم رحمه الله، وغيره من أعلام الأمة.

❁ ❁ ❁

---

(١) راجع: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر. للدكتور: فهد الرومي (٢/ ٦٠٠). فقد بحث هذه القضية بحثًا نفيسًا، واستفدت منه في هذا المبحث.

المبحث الرابع
الإعجاز العقلي عند ابن القيِّم

أنعم الله على الإنسان بنعمة العقل، وخص هذا العقل بخصائص ومميزات عجيبة، فبه يدرك ويستشعر ما حوله، وبه يميز بين الصحيح والفاسد، وبه يتأمل ويتفكر ويستنتج ويستدل.

وفطره على أمور تساعده وترشده إلى معرفة الحقِّ[(١)]، ثم أرسل الرسل ليرشدوا الناس إلى دين الله، وينبهوا تلك العقول إلى الطريق الصحيح، مؤيدين بالمعجزات التي تشاهدها العيون فلا تنكرها، وتستدل العقول على صحتها؛ بتمييزها لما هو خارق للعادة، وما يستحق أن يوصف بأنه معجزة، وتتابعت الرسل على الأمم، وكل رسول مؤيَّد بمعجزة يؤمن الناس على مثلها.

ثم لمَّا ختم الله أولئك الرسل بسيِّد الخلق ﷺ، وجعل حجته ومعجزته باقية إلى قيام الساعة، ميَّز تلك الحجة بخصائص تضمن لها البقاء، وتجعلها شاهدة على صدق تلك الرسالة وصدق من جاء بها، ومن تلك المميزات ما حواه القرآن الكريم من أدلةٍ عقليةٍ قطعيةٍ لا تقبل الجدل، أدلته إلزامية؛ لثبوت الإعجاز لها من جهة، ولسلامتها من التناقض والاختلاف من جهة أخرى[(٢)].

فالقرآن الكريم أرشد العقل إلى الطريق المستقيم، بأدلة وبراهين

---

(١) انظر: بدائع الفوائد (٤/ ٩٣٤).

(٢) مناهج الجدل في القرآن (ص٦٥). «بتصرف».

قاطعة، يستنتج العقل من تلك البراهين أصول دينه واعتقاده، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «دلالة الكتاب والسُّنَّة على أصول الدين ليست بمجرد الخبر؛ كما تظنه طائفة من الغالطين من أهل الكلام والحديث والفقهاء والصوفية وغيرهم، بل الكتاب والسُّنَّة دلَّا الخلق وهدوهم إلى الآيات والبراهين والأدلة المبينة لأصول الدين»[1].

فإذا تأمل السامع تلك الأدلة وجدها في غاية العظمة والجلال، وفي غاية الإتقان، تبهر العقول بقوة دلالتها، وتسترعي الأسماع لجمالها وعذوبتها، ثم إذا تأمل ما تناقشه تلك الأدلة من أصول الدين ومهمات المطالب، عظمة في القلب، وازدادت النفوس شوقًا للازدياد منها، لما ترسخه من عقائد سامية، وأصول واجبة المعرفة.

وقد بحث الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ تلك الأدلة العقلية وبين دقتها في الإقناع، وقوة دفعها للشبه وقطع أسبابها، مبينًا ما ترسخه من أصول وثوابت يجب الإيمان بها، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ واصفًا تلك الأدلة: «وإذا تتبع المتتبع ما في كتاب الله مما حاجَّ به عباده في إقامة التوحيد، وإثبات الصفات، وإثبات الرسالة والنبوة، وإثبات المعاد، وحشر الأجساد، وطرق إثبات علمه بكل خفي وظاهر، وعموم قدرته ومشيئته، وتفرده بالملك والتدبير، وأنه لا يستحق العبادة سواه؛ وجد الأمر في ذلك على ما ذكرناه من [تصريف][2] المخاطبة منه سبحانه في ذلك على أجلِّ وجوه الحجاج، وأسبقها إلى القلوب، وأعظمها ملاءمة للعقول، وأبعدها من

---

(١) مجموع الفتاوى (١٩/ ١٦٠)، وتكلم رَحِمَهُ اللَّهُ بعد ذلك في تقرير هذه المسألة بكلام نفيس يطول إيراده.

(٢) في المطبوع: «من تصرف». ولعل المثبت أولى.

الشكوك والشبه، في أوجز لفظ وأبينه، وأعذبه وأحسنه، وأرشقه وأدله على المراد»[١].

ثم ذكر رحمه الله بعض الأمثلة على تلك الأدلة وعلّق عليها بكلام جميل، **نذكر في ما يلي بعضها:**

أولًا: إعجاز القرآن في الاستدلال على وجود الخالق عز وجل:

لا يشك في وجود خالق هذا الكون إلا من تجرد من العقل والبصيرة، وتعطل سمعه عن إدراك ما حوله، والإحساس به، وعميَ قلبه عن رؤية نور الحق والرشاد، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، فكل شيء في هذا الكون دليلٌ على وجوده تعالى، «لأن كل موجود عن عدم، فهو دليل على وجود مُوجِد»[٢]، فلا يحتاج إثبات وجوده تعالى إلى دليل، يقول ابن القيِّم رحمه الله: «ومن نظر في الموجودات ببصيرة قلبه رآها كالأشخاص الشاهدة الناطقة بذلك، بل شهادتها أتم من شهادة الخبر المجرد؛ لأنها شهادة حال لا يقبل كذبًا، فلا يتأمل العاقل المستبصر مخلوقًا حق تأمله إلا وجده دالًّا على فاطره وبارئه، وعلى وحدانيته، وعلى كمال صفاته وأسمائه، وعلى صدق رسله، وعلى أن لقاءه حق لا ريب فيه، وهذه طريقة القرآن في إرشاده الخلق إلى الاستدلال بأصناف المخلوقات وأحوالها على إثبات الصانع وعلى التوحيد والمعاد والنبوات»[٣].

وبيَّن الإمام ابن القيِّم رحمه الله أن الإيمان بوجود الخالق ترشد إليه

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٦٠).
(٢) استخراج الجدل من القرآن الكريم (ص٤٤).
(٣) بدائع الفوائد (٤/ ٩٣٤).

الفطر، فإنها مجبولة على الإحساس بوجود الله ﷻ، وإنكار ذلك دليلٌ على فساد فطرة المنكر وتبدلها، ولهذا استنكر رسل الله ﷻ من أقوامهم شكهم في الله والأدلة على وجوده ظاهرة واضحة، يقول ﷺ: «... وأما الاستدلال بالصانع فله شأن. وهو الذي أشارت إليه الرسل بقولهم لأممهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠]؛ أي: أيشك في الله حتى يطلب إقامة الدليل على وجوده؟ وأيُّ دليل أصح وأظهر من هذا المدلول؟ فكيف يستدل على الأظهر بالأخفى؟ ثم نبهوا على الدليل بقولهم: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١].

وسمعت شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية ـ قدَّس الله روحه ـ يقول: كيف يطلب الدليل على من هو دليل على كل شيء؟ وكان كثيرًا ما يتمثل بهذا البيت:

وَلَيْسَ يَصِحُّ فِي الأذْهَانِ شَيءٌ ... إِذَا احتَاجَ النَّهَارُ إِلَى دَلِيلِ[1]

ومعلوم أن وجود الرب تعالى أظهر للعقول والفطر من وجود النهار، ومن لم ير ذلك في عقله وفطرته فليتهمها»[2].

والآيات الدالة على وجود الخالق جلَّ وعلا كثيرة متنوعة، فالكون وما حواه من عظيم المخلوقات، شاهدٌ على هذا الخالق العظيم، دالٌّ على عظمته ﷻ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، فهذه الآية وما شابهها[3]، تدل العبد على خالقه وتثبت له وجوده، وترشد العقل إلى

---

(١) البيت لأبي الطيب المتنبي. انظر ديوانه: (ص٣٤٣).
(٢) مدارج السالكين (١/ ١٣٦).
(٣) استشهد الإمام ابن القيِّم ﷺ بهذه الآية وما شابهها في عدة مواضع من كتبه. انظر: الصواعق المرسلة (٣/ ١٢٠١)، بدائع الفوائد (٤/ ٩٣٥).

الطريقة التي يستدل بها على ذلك، وهي التفكر في المخلوقات والتأمل فيها؛ لأن هذا الكون وما يحدث فيه من اختلافات، لا بد وأن يكون له محدث يتحكم به ويصرف فيه، إذ يستحيل على هذه الجمادات أن تسير بذاتها، فيصل بذلك التأمل إلى استنتاج أن لهذا الكون موجدًا ومدبرًا، ويستدل بعظيم تلك المخلوقات على عظمته ﷻ.

ثانيًا: إعجاز القرآن في دفع شبه المشركين بالأدلة العقلية:

١ - نفي النفع عن آلهة المشركين:

كل عابد لا بد وأنه يرجو من معبوده تحقيق مصلحة إما النفع أو دفع الضر، فإذا كان هذا الإله لا يستطيع تحقيق ذلك لعبده فلا يستحق العبادة، فكيف إذا كانت تلك الآلهة لا تملك هي لأنفسها شيئًا؟! فلا شك أن عبادتها من السفه وذهاب العقل، وقد تعددت الآيات في القرآن موضحة هذه الشبهة، داعية العقل إلى التأمل في حال تلك الآلهة، والانصراف عنها إلى عبادة الخالق الحق ﷻ، يقول الله ﷻ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣]، قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ معلقًا على هذه الآيات: «فتأمل كيف أخذت هذه الآية على المشركين بمجامع الطرق التي دخلوا منها إلى الشرك، وسد بها عليهم أبلغ سد وأحكمه، فإن العابد إنما يتعلق بالمعبود لما يرجو من نفعه، وإلا فلو كان لا يرجو منه منفعة لم يتعلق قلبه به، وحينئذ فلا بد أن يكون المعبود مالكًا للأسباب التي ينفع بها عابده أو شريكًا لمالكها، أو ظهيرًا أو وزيرًا ومعاونًا له، أو وجيهًا ذا حرمة وقدر يشفع عنده، فإذا انتفت هذه الأمور الأربعة من كل وجه وبطلت، انتفت أسباب الشرك وانقطعت مواده، فنفى سبحانه

عن آلهتهم أن تملك مثقال ذرة في السمٰوات والأرض، فقد يقول المشرك: هي شريكة المالك الحق، فنفى شركتها له.

فيقول المشرك: قد تكون ظهيرًا ووزيرًا ومعاونًا، فقال: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ فلم يبق إلا الشفاعة، فنفاها عن آلهتهم، وأخبر أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، فإن لم يأذن لشافع لم يتقدم بالشفاعة بين يديه، كما يكون في حق المخلوقين، فإن المشفوع عنده يحتاج إلى الشافع ومعاونته له، فيقبل شفاعته وإن لم يأذن له فيها.

وأما من كل ما سواه فقير إليه بذاته، وهو الغني بذاته عن كل ما سواه، فكيف يشفع عنده أحد بدون إذنه؟»[١].

فبهذا تندفع هذه الشبهة وتنقطع، لما جمعته هذه الآية من إبطال أسباب الشرك، وتُلزم القلب بتوحيد الله ﷻ؛ لأنه هو المستحق للعبادة دون سواه.

٢ ـ امتناع تعدد الآلهة[٢]:

تعدد الآلهة أمر مستحيل لا يمكن تصوره؛ لأنه إذا تعددت الآلهة فسد نظام الكون، واستحالة استقامته، فلا يمكن أن يدبر هذا الكون إلا إلٰه واحد، وإلا لاضطربت الحياة، ولتغيرت نُظُم هذا الكون وتعددت، فينتج عن ذلك خراب هذا العالم وفساده، قال الله ﷻ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ

---

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٦١).

(٢) وهو ما يسميه المتكلمون دليل التمانع، وقد بيَّن شيخ الإسلام رحمه الله أن هذا الدليل صحيح لكن استدلالهم عليه بقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، استدلال غير صحيح؛ لأن التمانع عندهم في الخلق والإيجاد، والتمانع المنصوص عليه في الآية تمانع في العبادة والألوهية. راجع: درء تعارض العقل (٩/ ٣٤٨ ـ ٣٧٨)، ابن تيمية وموقفه من الأشاعرة (٣/ ١٠٢١). وسيشير الإمام ابن القيِّم رحمه الله إلى هذا المعنى في كلامه الآتي.

ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، ويقول تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١]، يقول الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فتأمل هذا البرهان الباهر بهذا اللفظ الوجيز البيِّن، فإن الإلٰه الحق لا بد أن يكون خالقًا فاعلًا يوصل إلى عابده النفع ويدفع عنه الضر، فلو كان معه سبحانه إلٰه لكان له خلق وفعل، وحينئذ فلا يرضى بشركة الإلٰه الآخر معه، بل إن قدر على قهره وتفرده بالإلٰهية دونه فعل، وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب به، كما ينفرد ملوك الدنيا عن بعضهم بعضًا بممالكهم إذا لم يقدر المنفرد على قهر الآخر والعلو عليه. **فلا بد من أحد أمور ثلاثة:**

- إما أن يذهب كل إلٰه بخلقه وسلطانه.
- وإما أن يعلو بعضهم على بعض.
- وإما أن يكون كلهم تحت قهر إلٰه واحد يتصرف فيهم، ولا يتصرفون فيه، ويمتنع من حكمهم عليه، ولا يمتنعون من حكمه، فيكون وحده هو الإلٰه، وهم العبيد المربوبون المقهورون.

وانتظام أمر العالم العلوي والسفلي، وارتباط بعضه ببعض، وجريانه على نظام محكم لا يختلف ولا يفسد، من أدل دليل على أن مدبره واحد، لا إلٰه غيره؛ كما دل دليل التمانع على أن خالقه واحد لا رب له غيره، فذاك تمانع في الفعل والإيجاد، وهذا تمانع في العبادة والإلٰهية، فكما يستحيل أن يكون للعالم ربان خالقان متكافئان، يستحيل أن يكون له إلٰهان معبودان»[١].

---

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٦٣).

فإذا وعت القلوب ذلك الاستدلال؛ علمت وحدانية الله ﷻ، وأن هذا الكون ليس له إلا رب واحد تعالى وتقدّس، هو المستحق وحده العبادة لا يشاركه فيها أحد.

٣ - العجز عن الخلق يوجب انتفاء الألوهية:

إن الإلٰه الحق لا بد أن يكون قادرًا على الخلق والإيجاد، فإذا انتفت هذه الصفة انتفت الألوهية، ووجب بعد ذلك البحث عن الموجد الحقيقي القادر على ذلك، وصرف العبادة له وحده فهو المستحق لها؛ لأن العقل مسلم بأن من أوجد هذا الكون وما فيه، ومن تفضل بإيجاد هذا الإنسان وخلقه، وتكفل برزقه وما يصلح لشؤونه، وهيأ له أسباب الحياة، إنه الإلٰه الحق، وما سواه فهو باطل.

وتعددت الآيات في القرآن الكريم التي ترشد إلى هذا المعنى، وتنبه العقول لتفطن إلى تلك الأمور البدهية، بطريق الاستدلال عليها بالمسلمات التي لا تقبل الجدل، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝٧٣ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤]، يقول الإمام ابن القيّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فتأمل هذا المثل الذي أمر الناس كلهم باستماعه، فمن لم يسمعه فقد عصى أمره، كيف تضمن إبطال الشرك وأسبابه بأصح برهان، في أوجز عبارة وأحسنها وأحلاها، وأسجل على جميع آلهة المشركين أنهم لو اجتمعوا كلهم في صعيد واحد وعاون بعضهم بعضًا بأبلغ المعاونة لعجزوا عن خلق ذباب واحد، ثم بيّن عجزهم وضعفهم عن استنقاذ ما يسلبهم الذباب إياه حين يسقط عليهم، فأي شيء أضعف من هذا الإلٰه المطلوب، ومن عابده الطالب

نفعه وخيره؟ فهل قدَّر القوي العزيز حق قدره من أشرك معه آلهة هذا شأنها؟

فأقام سبحانه حجة التوحيد وبيَّن ذلك بأعذب ألفاظ وأحسنها، لم يستكرهها غموض، ولم يشنها تطويل، ولم يعبها تقصير، ولم تزر بها زيادة ولا نقص، بل بلغت في الحسن والفصاحة والبيان والإيجاز ما لا يتوهم متوهم ولا يظن ظان أن يكون أبلغ في معناها منها، وتحتها من المعنى الجليل القدر، العظيم الشرف، البالغ في النفع ما هو أجلّ من الألفاظ»[1].

بهذه الأدلة القاطعة المقنعة المحاكية للفطر نفى القرآن الشرك، وبيَّن بطلانه وقبحه، وقد تبين من خلال كلام ابن القيِّم رحمه الله عظم تلك الأدلة، وجلالتها، وأنها تدل على عظمة المتكلم بها تعالى.

ثالثًا: إعجاز القرآن في إثبات نبوة محمد ﷺ بالدليل العقلي:

إن المتأمل في هذا القرآن الكريم ليتيقن أنه لا يمكن لبشر الإتيان بمثله؛ لأنه ليس من جنس كلام البشر، ثمَّ إذا تأمل في حال المرسل به ﷺ وتمعَّن في سيرته قبل البعثة، تيقن أنه لا يمكن أن يختلقه على الله ﷻ، ولا يمكن أن يكون قد تعلمه من أحد وهو بين قريش في مكة، بل انتفت كل الوسائل التي تشكك في ذلك، فهو أمِّي لا يقرأ ولا يكتب، فإذا تأمل العاقل ذلك استنتج صحة هذه النبوة؛ لأن حاله قبل البعثة الصدق والأمانة فلم تعهد عليه كذبة ﷺ، وانتفت وسائل التلقي والتعلم؛ فلا يمكن أن يكون ما جاء به مكتسب من خلال العلم والمعرفة، وما جاء به ليس من كلام البشر: فهو عقائد، وتشريعات،

---

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٦٦).

وأخبار عن أمم سالفة، وأخبار عن أحداث قادمة، ثم يتحدى بفصاحته وبلاغته البشر، فيعجزون عن مجاراته؛ إذا تأمل العقل تلك المقدمات؛ جزم بصدق هذا النبي الكريم ﷺ، وجزم بصحة ما جاء به.

وطريق إثبات نبوته ﷺ بالعقل قوية مقنعه، ولهذا نجد القرآن الكريم اشتمل على كثير من تلك الأدلة بهذا الطريق، ومن ذلك استدلاله بدلالة الحال، فإن الأخبار قد يدخلها الشَّك في صحتها، أما دلالة الحال حقيقة لا يمكن تبديلها، فهي بمثابة المرئي والمشاهد الذي يستحيل الكذب فيه، فلهذا كثيرًا ما يرد الاستدلال بالحال على نبوته ﷺ في القرآن، ومن ذلك مثلًا قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ۚ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٨ - ٧٠] يقول ابن القيِّم رحمه الله معلقًا على هذا الدليل: «فدعاهم سبحانه إلى تدبر القول وتأمل حال القائل، فإن كون القول للشيء كذبًا وزورًا يعلم من نفس القول تارة، وتناقضه واضطرابه وظهور شواهد الكذب عليه، فالكذب باد على صفحاته وباد على ظاهره وباطنه، ويعرف من حال القائل تارة فإن المعروف بالكذب والفجور والمكر والخداع لا تكون أقواله إلا مناسبة لأفعاله، ولا يتأتى منه من القول والفعل ما يتأتى من البار الصادق المبرأ من كل فاحشة وغدر وكذب وفجور، بل قلب هذا وقصده وقوله وعمله يشبه بعضه بعضًا، وقلب ذلك وقوله وعمله وقصده يشبه بعضه بعضًا، فدعاهم سبحانه إلى تدبر القول، وتأمل سيرة القائل وأحواله، وحينئذ تتبيَّن لهم حقيقة الأمر وأن ما جاء به في أعلى مراتب الصدق»(١).

---

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٦٩).

وبهذا فإن نبوة محمد ﷺ تشهد العقول على صدقها وصحتها، ولا ينكر ذلك إلا جاحد معاند للحق.

رابعًا: إعجاز القرآن في إثبات أمر البعث بالأدلة العقلية:

قضية البعث قضية شغلت الفكر الإنساني على مرِّ العصور، فكثيرًا ما كانت تؤرِّق الإنسان فكرة الفناء، وانتهاء حياته إلى رفات[1]، فلا يكاد يستوعب هذا؛ لأنه يرى في ذلك شيئًا من العبث وعدم الغاية من إيجاده، ومن هنا ينشأ شيء من الشك في هذه الفكرة، فإذا تأمَّل الإنسان في هذا الكون وتفكَّر في عظمته، وفي ما يحدث فيه من تغيرات مستمرة أرشده ذلك التأمل إلى أن صانع هذا الكون منزه عن العبث جلَّ شأنه، فإن تجدد الليل والنهار وانصرام الوقت بهما؛ لينبئ عن غاية مرتقبة منتظرة، ولهذا دعا القرآن إلى التفكر في هذا الكون للوصول إلى تلك النتيجة فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١]، فهم بتفكرهم في هذا الكون استنتجوا فكرة البعث والجزاء والحساب.

لكن ثمَّة إشكال يستشكله الماديون والطبائعيون[2]، وهو ما تسلَّل إلى أفكارهم من خلال النظر في حال هذا البدن وما يستحيل إليه من تراب ورفات، ومن فقد مادته ومقومات الحياة فيه، فإنه قد يرى أن فكرة البعث بعيدةٌ ومستحيلة، وهذه الشبهة هي التي انطلق منها المنكرون

---

(١) انظر: مناهج الجدل في القرآن (ص٢٩٨).

(٢) انظر في الكلام على هذه الشبة والرد عليها: المرجع السابق (ص٢٩٩).

للبعث على مرِّ العصور، وقد حكى القرآن الكريم عنهم ذلك، قال تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝٤٧ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الواقعة: ٤٧، ٤٨].

لكن إذا تأمل الإنسان في هذا الكون وتأمل في مظاهر الحياة والموت فيه، وجد دلائل تدل على أن الإعادة بعد الموت أمر ليس مستحيلًا، بل المتأمِّل في هذا الكون بدقة يجد أمثلة على ذلك، وهذا ما عمد إليه القرآن لتقريب الصورة إلى أذهان أولئك المنكرين، فذكر جملة من الأدلة في غاية الإبداع والروعة، فتارة يستدل لهم على البعث بالنشأة الأولى، فمن خلق هذا الخلق وبدأه، كانت إعادته أهون عليه وأسهل من البدء، وتارة يستدل على البعث بإخراج النبات من الأرض المقفرة المجدبة[١]، وتارة يستدل على البعث بخلق السمٰوات والأرض[٢]، وأحيانًا بالبعث بعد النوم[٣] إلى غير ذلك من أنواع الأدلة التي وردت في القرآن، وكلها كانت في غاية الدلالة والإقناع، تجعل ذلك المنكر يستسلم ويقتنع بفكرة البعث دون تردد أو شك.

ومن الأدلة العظيمة في هذا الكتاب الكريم التي وردت لإثبات البعث، ذلك الدليل الذي جاء ردًّا على المشرك الذي أتى إلى النبي ﷺ حاملًا عظمًا باليًا في يده، ويقول لرسول الله ﷺ: «من يحيي العظام

---

(١) كذلك الآيات في الواردة بهذا الدليل كثيرة، ومنها: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

(٢) وأيضًا الآيات التي وردت بهذا الدليل كثيرة، منها: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝٩٨ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [الإسراء: ٩٨، ٩٩].

(٣) من ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠].

وهي رميم»؛ فإجابة الله ﷻ بجملة من الأدلة غاية في البيان والحجة، يقول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ۝٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩] إلى آخر السورة(١).

يقول الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ معلِّقًا على تلك الحجج: «فلو رام أعلم البشر وأفصحهم وأقدرهم على البيان أن يأتي بأحسن من هذه الحجة أو مثلها في ألفاظ تشابه هذه الألفاظ في الإيجاز، والاختصار، ووضوح الدلالة، وصحة البرهان لألفى نفسه ظاهر العجز عن ذلك، فإنه سبحانه افتتح هذه الحجة بسؤال أورده الملحد اقتضى جوابًا، فكان في قوله سبحانه: ﴿وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ﴾ ما وفى بالجواب وأقام الحجة وأزال الشبهة، لولا ما أراد الله تعالى من تأكيد حجته وزيادة تقريرها، وذلك أنه تعالى أخبر أن هذا السائل الملحد لو تبين خلق نفسه وبدأ كونه لكانت فكرته فيه كفاية.

ثم أوضح سبحانه ما تضمنه قوله: ﴿وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ﴾ وصرح به جوابًا له عن مسألته بقوله: ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ﴾ فاحتج بالإبداء على الإعادة، وبالنشأة الأولى على النشأة الأخرى، إذ كل عاقل يعلم علمًا ضروريًا أن من قدر على هذه قدر على هذه، وأنه لو كان عاجزًا عن الثانية لعجز عن الأولى، بل كان أعجز وأعجز.

ولما كان الخلق يستلزم قدرة الخالق على مخلوقه وعلمه بتفاصيل خلقه، اتبع ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾ فهو عليم بالخلق الأول وتفاصيله، ومواده وصورته، وكذلك هو عليم بالخلق الثاني، فإذا كان

(١) أخرجه الطبري (١٩/ ٤٨٦). وقال الدكتور حكمت بشير - في تحقيقه لتفسير ابن كثير -: «صحيح». انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٣٥٨).

تام العلم، كامل القدرة، كيف يتعذر عليه أن يحيي العظام وهي رميم؟ ثم أكد الأمر بحجة قاهرة تتضمن جوابًا عن سؤال ملحد آخر، يقول: العظام إذا صارت رميمًا عادت طبيعتها باردة يابسة، والحياة لا بد أن تكون مادتها طبيعة حارة؟ فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠]، فأخبر سبحانه بإخراج هذا العنصر الذي هو في غاية الحرارة واليبوسة من الشجر الأخضر الممتلئ بالرطوبة والبرودة، فالذي يخرج الشيء من ضده هو الذي يفعل ما أنكره الملحد من إحياء العظام وهي رميم. ثم أكد الدلالة بالتنبيه على أن من قدر على الشيء الأعظم الأكبر فهو على ما دونه أقدر وأقدر، فقال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ﴾ [يس: ٨١]، فأخبر سبحانه أن الذي أبدع السمٰوات والأرض على جلالتهما، وعظم شأنهما، وكبر أجسامهما، وسعتهما، وعجيب خلقتهما أقدر على أن يحيي عظامًا صارت رميمًا فيردها إلى حالتها الأولى، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

ثم بيّن ذلك بيانًا آخر يتضمن مع إقامة الحجة دفع شبهة كل ملحد وجاحد، وهو أنه سبحانه ليس في فعله بمنزلة غيره يفعل بالآلات والكلفة والتعب والمشقة، ولا يمكنه الاستقلال بالفعل، بل لا بد معه من آلة ومشارك ومعين، بل يكفي في خلق ما يريد خلقه ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] فأخبر عن نفوذ إرادته ومشيئته، وسرعة تكوينه، وانقياد الكون

له، ثم ختم هذه الحجة بإخباره أن ملكوت كل شيء بيده، فيتصرف فيه بفعله وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣].

فسبحان المتكلم بهذا الكلام الذي جمع مع وجازته وبيانه وفصاحته وصحة برهانه كل ما تدعو الحاجة إليه، من تقرير الدليل، وجواب الشبهة، بألفاظ لا أعذب منها للسمع، ولا أحلى من معانيها للقلب، ولا أنفع من ثمرتها للعبد»[١].

وبهذه الأدلة التي بلغت في الحجة غايتها، وفي الدقة منتهاها، جامعةً عذوبة الألفاظ وسهولة المعاني، يعلم أن هذا الكتاب كتاب عظيم، معجزة باقية تشهد العقول لصحته، مستدلة بما جاء فيه من مسائل ترشد العقل على إعجازه، وأنه من رب العالمين جلَّ شأنه سبحانه.

❁ ❁ ❁

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٧٣ ـ ٤٧٥).

المَبحَثُ الخَامِسُ

الإعجاز اللغوي عند ابن القيِّم

تَمهِيدٌ

يلخص آراء العلماء في الإعجاز اللغوي قبل ابن القيِّم

بلغ العرب وقت نزول القرآن الذروة في الفصاحة والبيان، وتفننوا في صنوف القول وذهبوا فيه كل مذهب، فلم تُعرف أمة على مرِّ التاريخ بلغت بلغتها ما بلغه العرب قبل الإسلام، حتى كأنه إرهاص وتوطيد لميلاد تلك الرسالة، وظهور هذه المعجزة العظيمة، يقول الإمام ابن قتيبة رَحِمَهُ اللهُ: «ليس في جميع الأمم أمة أوتيت من العارضة، والبيان، واتساع المجال، ما أوتيته العرب خصّيصى من الله، لما أرهصه في الرسول، وأراده من إقامة الدليل على نبوّته بالكتاب، فجعله عَلَمَه، كما جعل علم كل نبي من المرسلين من أشبه الأمور بما في زمانه المبعوث فيه»[1].

لقد جاء القرآن الكريم في أبدع صور البيان، وأعلى درجات البلاغة، فكان العرب أرباب الفصاحة والمعرفة بالبلاغة يدركون من خلال سماعهم للقرآن أنه معجزة وآية؛ كمعجزات موسى، من فلق البحر، واليد، والعصا، إلى سائر أعلامه زمن السحر. وكمعجزات عيسى من إحياء الموتى، وخلق الطير من الطين، وإبراء الأكمه

(١) تأويل مشكل القرآن (ص٧٤).

والأبرص، إلى سائر أعلامه زمن الطب[١]. ولم يكن عسيرًا على العرب معرفة إعجاز القرآن من خلال هذا الوجه، ولا يحتاجون إلى تكلُّف وبحث لإدراك ذلك، فميدانهم الفصاحة والبلاغة، ومنتهى علمهم البيان وأنواع الخطابات.

بيد أن هذا الوجه من وجوه إعجاز القرآن قد يخفى على من لم يعرف تصاريف كلام العرب وفنونهم فيه، فلا يَتَميَّز عنده دقة البيان وقوة المعاني التي اشتمل عليها القرآن، فيصبح كالأعجمي الذي لا يمكنه الاستدلال بهذا الوجه إلا عن طريق الاستدلال بحال العرب الأوائل الذين دعاهم الله ﷻ وتحداهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن فعجزوا عن ذلك، يقول الباقلاني رحمه الله: «لا يعرف المتوسط من أهل اللسان من هذا الشأن، ما يعرفه العالي في هذه الصنعة، فربما حل في ذلك محل الأعجمي، في أن لا تتوجه عليه الحجة حتى يعرف عجز المتناهي في الصنعة عنه.

وكذلك لا يعرف المتناهي في معرفة الشعر وحده، أو الغاية في معرفة الخطب أو الرسائل وحدهما من غور هذا الشأن ما يعرف من استكمل معرفةَ جميع تصاريف الخطاب ووجوه الكلام وطرق البراعة. فلا تكون الحجة قائمة على المختص ببعض هذه العلوم بانفرادها دون تحققه لعجز البارع في هذه العلوم كلها عنه[٢].

---

(١) انظر: تأويل مشكل القرآن (ص٧٤).

(٢) هذا الشرط مُسْتَشكل؛ لأنه قد يُدرِك الإعجاز اللغوي من لم يحط بمعرفة جميع أنواع الكلام التي ذكرها، بل إنَّ من أدرك نكت البلاغة ومعرفة الصور البيانية في الخطابة - من تقديم وتأخير، وتعريف وتنكير، وتشبيه، واستعارة، وطباق وجناس... إلى غير ذلك من علوم البلاغة -؛ لا يتصور أن يعجز عن تطبيقها على الشعر. فمن عرف علوم البيان وتشبَّع بها اكتسب مهارة يميِّز بها بين الكلام البليغ والأبلغ، ولا يتصور تجزئة هذه الصفة - والله أعلم -.

فأما من كان متناهيًا في معرفة وجوه الخطاب وطرق البلاغة والفنون التي يمكن فيها إظهار الفصاحة. فهو متى سمع القرآن عرف إعجازه»(١).

ولقد حرص العلماء على تحديد مواضع الإعجاز اللغوي في القرآن، وتكاثرت آراؤهم حول ذلك، وكل ذلك اجتهادًا منهم في تقريب وتوضيح معجزة القرآن لمن لا يمكنه إدراك ذلك. فمن العلماء من يرى أن الإعجاز اللغوي في القرآن يكمن في: خلو ألفاظ القرآن من الوحشي والمستكره، واشتماله على أساليب البلاغة، والنظم الفريد، وهذا رأي الجاحظ(٢).

ويرى الرماني: أن إعجاز القرآن اللغوي يكمن في البلاغة، التي جاء القرآن بأعلى مراتبها، ويصف البلاغة بأنها: «إيصال المعنى إلى القلب، في أحسن صورة من اللفظ»(٣) وذكر بعد ذلك جملة من بلاغة القرآن، فذكر الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم... إلخ(٤).

ثم جاء الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ بعد ذلك برأي أكثر وضوحًا وتصويرًا لفكرة نظم القرآن حيث يقول: «وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم.

وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئًا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظمًا أحسن تأليفًا وأشد تلاؤمًا وتشاكلًا من نظمه،

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني (ص٣٥).
(٢) راجع: معجزات القرآن. د. شوقي ضيف رَحِمَهُ اللَّهُ (ص٢١٢)، قضية اللفظ والمعنى وأثرها في تدوين البلاغة (ص٣٤٠).
(٣) النكت في إعجاز القرآن (ص٧٥) ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.
(٤) راجع: المصدر السابق (ص٧٦).

وأما معانيه فكل ذي لب يشهد له بالتقدم في أبوابها، والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها»(١).

ويقول الخطابي في موضع آخر: «وأما رسوم النظم فالحاجة إليها إلى الثقافة والحذق فيها أكثر؛ لأنها لجام الألفاظ وزمام المعاني وبه تنتظم أجزاء الكلام، ويتسم بعضه ببعض فتقوم له صورة في النفس، يتشكل بها البيان»(٢).

ثم تلا أولئك العلماء القاضي عبد الجبار، فردَّ على الجاحظ ومن سار على طريقته في تحديد الإعجاز، فقال: «إنما يكون الكلام فصيحًا لجزالة لفظه، وحسن معناه، ولا بد من اعتبار الأمرين؛ لأنه لو كان جزل اللفظ ركيك المعنى لم يعد فصيحًا؛ فإذن يجب أن يكون جامعًا لهذين الأمرين»(٣).

يرى القاضي عبد الجبار أن المزية في الكلام ترجع إلى: اختيار الكلم، وإلى التقديم والتأخير الذي يختص بالموقع، وإلى الحركات التي تخص الإعراب(٤). وهو بذلك يضع بين أيدينا مفاتيح القضية التي استمد من توقيعه عليها عبد القاهر الجرجاني رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فعمد الإمام عبد القاهر إلى آراء من سبقه فاستخلص ما يعرف بالنظم، وبسط القول فيه وشرحه في كتابيه: «دلائل الإعجاز»، و«أسرار البلاغة»(٥). وخلاصة رأيه: أن الفصاحة لا تظهر في الكلمات المفردة، ويفسر ذلك قائلًا: «وهل تجد أحدًا يقول: «هذه اللفظة فصيحة»، إلا وهو يعتبر مكانها من النظم،

---

(١) بيان إعجاز القرآن للخطابي (ص٢٧).
(٢) المصدر السابق (ص٣٦).
(٣) المغني في أبواب التوحيد والعدل (١٣/ ١٩٧).
(٤) انظر: المصدر السابق (١٣/ ٢٠٠).
(٥) راجع: معجزات القرآن. د. شوقي ضيف رَحِمَهُ اللَّهُ (ص٢١٥).

وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها»[١].

وكذلك اشترط الإمام عبد القاهر رَحِمَهُ اللَّهُ في وصف المفردة بالفصاحة أن تكون متلائمة الحروف، وسليمة من الثقل على اللسان، وأن تكون في اللغة أثبت، وفي استعمال الفصحاء أكثر[٢].

وخلاصة آراء عبد القاهر في المعنى: أن المزية الكاملة التي يفضل بها كلام كلامًا ويكون بها الإعجاز ليست راجعة للمعنى فقط.

وإذا كان المعنى حكمة، أو أدبًا، أو غريبًا نادرًا، أو تشبيهًا مصيبًا أشرف مما ليس كذلك، وهو مما يزيد الكلام شرفًا.

ويرى أن القول بأن لا فضل للكلام إلا من جانب المعنى يفضي بصاحبه إلى أن ينكر الإعجاز[٣].

فعلى هذا يرى عبد القاهر أن المزية لا للفظ بمفرده، ولا للمعنى بمفرده؛ وإنما هو مكوَّن من اللفظ والمعنى.

وإذا اكتمل في الكلام فصاحة الألفاظ، وشرف المعنى؛ بقي هناك مدار النظم، الذي به يحصل التفاضل، وبه يتميز الكلام البليغ من الكلام المعجز، وهو تأدية الكلام بما يناسبه من أوضاع البلاغة، واختيار الأسلوب الذي يكون الكلام به مطابقًا لمقتضى الحال، وهذا ما يسمى بالنظم، يقول الإمام عبد القاهر رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلم أن ليس «النظم» إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه «علم النحو»[٤]، وتعمل على قوانينه

---

(١) دلائل الإعجاز (ص٤٤).

(٢) انظر: معجزات القرآن. د. شوقي ضيف رَحِمَهُ اللَّهُ (ص٢٢١)، قضية اللفظ والمعنى وأثرها في تدوين البلاغة (ص٣٧١).

(٣) انظر: قضية اللفظ والمعنى وأثرها في تدوين البلاغة (ص٣٧٧).

(٤) يقصد بعلم النحو هنا: علم المعاني المشتمل على التقديم والتأخير، والوصل والفصل، والإظهار والإضمار، والحذف والذكر... إلخ. انظر: معجزات القرآن. للدكتور: شوقي ضيف رَحِمَهُ اللَّهُ (ص٢١٩).

وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخلّ بشيء منها. وذلك أنا لا نعلم شيئًا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه»(١).

تلك هي جملة آراء العلماء السابقين الذين نظروا لقضية الإعجاز اللغوي، والمهم هو تحديد موقف ابن القيِّم من هذه الآراء، وإلى أي الأقوال يميل؟

وسيتضح رأيه رَحِمَهُ ٱللَّهُ من خلال هذا المبحث ـ إن شاء الله ـ.

الإعجاز اللغوي عند ابن القيِّم

قبل التطرق إلى رأي الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ المفصل في الإعجاز اللغوي، نذكر رأيه المجمل الذي ينطلق منه في إثبات هذا الوجه من وجوه الإعجاز. فقد بيَّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن العرب الأوائل هم أهل الفصاحة والبراعة في فنون القول، فإذا ثبت عجزهم فعجز من هو أقل منهم بلا شك أعظم، وقد ثبت عجزهم بأنه لم ينقل إلينا عبر التاريخ أن أحدًا منهم استطاع أن يعارض القرآن، مع كثرة آيات التحدي، وتوفر الدواعي، ووجود المقومات، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فتحداهم بأن يأتوا بسورة مثله فعجزوا، هذا وأعداؤه الأدنون إليه أفصح الخلق، وهم أهل البلاغة والفصاحة واللسن والنظم والنثر والخطب وأنواع الكلام، فما منهم من فاه في معارضته ببنت شفة، وكانوا أحرص الناس على تكذيبه، وأشدَّهم أذى له بالقول والفعل، والتنفير عنه بكل طريق، فما نقل عن أحد منهم سورة واحدة عارضه بها»(٢).

---

(١) دلائل الإعجاز (ص٨١).

(٢) هداية الحيارى (ص٢٧٤).

فمفهوم كلام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ يدل على أن عجز العرب الذين هم أهل اللسن والبيان، دليل على أن عجز غيرهم من باب أولى.

أما إذا أردنا معرفة رأي الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ المفصل عن إعجاز القرآن اللغوي، فإنه مما تجدر الإشارة إليه أن الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ ليس من طريقته التنظير للمسائل البلاغية، وذلك قليل بالنسبة لتطبيقه لها، فالسائد في بحثه لمسائل البيان التطبيق والتحليل لنصوص القرآن وفق ضوابط علماء البلاغة، وإذا كان الأمر كذلك؛ فخير سبيل لمعرفة رأي ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الوجه من وجوه الإعجاز هو النظر في طريقة التطبيق التي سار عليها، ثم استخلاص رأيه من خلال ذلك.

وقبل البدء في ذلك نشير إلى أنه مما يساعد على معرفة رأي ابن القيِّم في هذه القضية، النظر إلى مصادره التي يستقي منها تطبيقاته البيانية، فقد يهدينا ذلك إلى تحديد منهجه من خلال معرفة مدى تأثره بمن سبقه، فمن مصادره التي يرجع إليها كثيرًا ـ خاصة ما يتعلق بالتفسيرات البلاغية ـ تفسير الزمخشري، والزمخشري في تفسيره طبَّق نظرية النظم التي جاء بها الإمام عبد القاهر الجرجاني رَحِمَهُ اللَّهُ تطبيقًا ملحوظًا[(١)]، فهل تأثر الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ بمنهج الزمخشري في تطبيقه لنظرية النظم؟ يتضح ذلك إذا تأملنا أمثلة من تفسيراته البيانية.

ولقد تميَّزت تفسيرات الإمام ابن القيِّم البيانية بخصائص تدل على علمه الواسع بعلوم اللغة؛ فإذا تعرض لتفسير آية وتحدث عن بلاغتها، نلحظ أنه يبحث أسرار التراكيب من حيث ملاءمة الألفاظ لبعضها، والتقديم والتأخير، والسر في وضع الألفاظ، والمعاني وترابطها،

---

(١) راجع: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري (ص٢٣٦).

ويتحدث عن الوضع النحوي للجمل، وهذا الطريق الذي سلكه يتضح أنه منهج شمولي، يعم اللفظ والمعنى. وطبق رحمه الله هذا المنهج في عدة مواضع، منها: تفسيره «لسورة الكافرون»، وذكر في بيانه للنَّظم في هذه السورة إحدى عشرة مسألة، كشف من خلالها عظمة الفصاحة القرآنية، وعلو مكانتها في البلاغة، **ونعرض في ما يلي بعض تلك المسائل التي ذكرها:**

مما ذكره من بلاغة هذه السورة تكرار الأفعال والسر في ذلك قال رحمه الله: «**فائدة تكرار الأفعال**: قيل فيه وجوه أحدها: أن قوله: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ [الكافرون: ٢]، نفي للحال والمستقبل وقوله: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ [الكافرون: ٣]، مقابله؛ **أي**: لا تفعلون ذلك.

وقوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ [الكافرون: ٤]؛ **أي**: لم يكن مني ذلك قط قبل نزول الوحي، ولهذا أتى في عبادتهم بلفظ الماضي، فقال: ما عبدتم فكأنه قال: لم أعبد قط ما عبدتم.

وقوله: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ [الكافرون: ٥] مقابله؛ **أي**: لم تعبدوا قط في الماضي ما أعبده أنا دائمًا.

وعلى هذا فلا تكرار أصلًا، وقد استوفت الآيات أقسام النفي ماضيًا، وحالًا، ومستقبلًا عن عبادته وعبادتهم، بأوجز لفظ وأخصره وأبينه».

ثم يذكر رحمه الله مسألة أخرى وهي تكرير الأفعال بلفظ المستقبل فيقول: «تكريره الأفعال بلفظ المستقبل حين أخبر عن نفسه، وبلفظ الماضي حين أخبر عنهم، ففي ذلك سر، وهو الإشارة والإيماء إلى عصمة الله تعالى له عن الزيغ والانحراف عن عبادة معبوده، والاستبدال به غيره، وأن معبوده واحد في الحال والمآل على الدوام، لا يرضى به

بدلًا، ولا يبغي عنه حولًا، بخلاف الكافرين؛ فإنهم يعبدون أهواءهم، ويتبعون شهواتهم في الدين وأغراضهم، فهم بصدد أن يعبدوا اليوم معبودًا وغدًا غيره، فقال: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ [الكافرون: ٢]؛ **يعني**: الآن: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ [الكافرون: ٣] أنا الآن أيضًا، ثم قال: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ [الكافرون: ٤]؛ **يعني**: ولا أنا فيما يستقبل يصدر مني عبادة لما عبدتم أيها الكافرون.

وأشبهت «ما» هنا رائحة الشرط، فلذلك وقع بعدها الفعل بلفظ الماضي، وهو مستقبل في المعنى كما يجيء ذلك بعد حرف الشرط؛ كأنه يقول: مهما عبدتم من شيء فلا أعبده أنا».

ثم يذكر مسألة أخرى وهي: «أنه لم يأت النفي في حقهم إلا باسم الفاعل، وفي جهته جاء بالفعل المستقبل تارة، وباسم الفاعل أخرى».

ثم يبين السر في ذلك فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فذلك ـ والله أعلم ـ لحكمة بديعة، وهي أن المقصود الأعظم براءته من معبوديهم بكل وجه وفي كل وقت، فأتى أولًا بصيغة الفعل الدالة على الحدوث والتجدد، ثم أتى في هذا النفي بعينه بصيغة اسم الفاعل الدالة على الوصف والثبوت، فأفاد في النفي الأول أن هذا لا يقع مني، وأفاد في الثاني أن هذا ليس وصفي ولا شأني، فكأنه قال: عبادة غير الله لا تكون فعلًا لي ولا وصفًا، فأتى بنفيين لمنفيين مقصودين بالنفي.

وأما في حقهم فإنما أتى بالاسم الدال على الوصف والثبوت دون الفعل؛ **أي**: أن الوصف الثابت اللازم العائد لله منتف عنكم، فليس هذا الوصف ثابتًا لكم، وإنما ثبت لمن خص الله وحده بالعبادة لم يشرك معه فيها أحدًا، وأنتم لما عبدتم غيره، فلستم من عابديه، وإن عبدوه في بعض الأحيان، فإن المشرك يعبد الله ويعبد معه غيره، كما قال أهل

الكهف: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الكهف: ١٦]؛ **أي**: اعتزلتم معبودهم إلا الله فإنكم لم تعتزلوه.

وكذا قال المشركون عن معبودهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فهم كانوا يعبدون الله ويعبدون معه غيره، فلم ينتف عنهم الفعل لوقوعه منهم، ونفى الوصف؛ لأن من عبد غير الله لم يكن ثابتًا على عبادة الله موصوفًا بها، فتأمل هذه النكتة البديعة كيف تجد في طيها أنه لا يوصف بأنه عابد الله، وعبده المستقيم على عبادته، إلا من انقطع إليه بكليته، وتبتل إليه تبتيلًا، لم يلتفت إلى غيره، ولم يشرك به أحدًا في عبادته، وأنه وإن عبده وأشرك به غيره فليس عابدًا لله ولا عبدًا له، وهذا من أسرار هذه السورة العظيمة الجليلة، التي هي إحدى سورتي الإخلاص[(١)]، التي تعدل ربع القرآن، كما جاء في بعض السنن[(٢)] . . .».

ومن ضمن ما تحدث عنه في أسرار هذه السورة، إيثار النفي في هذه السورة بحرف النفي «لا» على التعبير بـ«لن». فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ في ذلك: «أن النفي في هذه السورة أتى بأداة «لا» دون «لن»، وذلك لأن النفي بـ«لا» أبلغ منه بـ«لن»، وأن «لا» أدلُّ على دوام النفي وطوله من «لن»، وأنها للطول والمدِّ الذي في نفيها طال النفي بها واشتد، وأن هذا ضد

(١) أخرج الترمذي في «السنن»، باب ما يقرأ في ركعتي الطواف: عن جابر بن عبد الله: «أن رسول الله ﷺ قرأ في ركعتي الطواف بسورتي الكافرون والإخلاص ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾». رقم (٨٦٩). وقال الترمذي: «حديث جابر حسن صحيح»، وذلك عند ذكره للطرف الأول من الحديث. **انظر**: رقم (٨١٧).

(٢) أخرج الترمذي في «السنن»، باب ما جاء في إذا زلزلت: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: (... **قل يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن**). قال الترمذي: «حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث يمان بن المغيرة». وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة رقم (١٣٤٢).

ما فهمته الجهمية والمعتزلة من أن «لن» إنما تنفي المستقبل ولا تنفي الحال المستمر النفي في الاستقبال، وقد تقدم تقرير ذلك بما لا تكاد تجده في غير هذا التعليق[١]، فالإتيان بـ«لا» متعين هنا والله أعلم».

ثم ذكر سرًّا آخر من أسرار هذه السورة وهو: مجيء الخطاب في هذه السورة بلفظ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون: ١] دون إضافتها إلى الاسم الموصول كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [التحريم: ٧].

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَسِرُّهُ ـ والله أعلم ـ إرادة الدلالة على أن من كان الكفر وصفًا ثابتًا لا لازمًا لا يفارقه، فهو حقيق أن يتبرأ الله منه، ويكون هو أيضًا بريئًا من الله، فحقيق بالموحد البراءة منه.

فكان في معرض البراءة التي هي غاية البعد والمجانبة بحقيقة حاله التي هي غاية الكفر، وهو الكفر، الثابت اللازم في غاية المناسبة، فكأنه يقول: كما أن الكفر لازم لكم ثابت لا تنتقلون عنه، فمجانبتكم والبراءة منكم ثابتة دائمًا أبدًا، ولهذا أتى فيها بالنفي الدال على الاستمرار مقابلة الكفر الثابت المستمر وهذا واضح».

ثم تعرض لقضية التقديم والتأخير، والسر في ابتداء السورة بذكر براءته ﷺ من عبادة الكافرين، وتأخير ما يختص به وهو تبرئتهم من دينه، فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «. . . تقديم قسمهم ونصيبهم على قسمه ونصيبه، وفي أول السورة قدَّم ما يختص بهم، فهذا من أسرار الكلام وبديع الخطاب الذي لا يدركه إلا فحول البلاغة وفرسانها، فإن السورة لما اقتضت البراءة واقتسام ديني التوحيد والشرك بينه وبينهم، ورضي كلٌّ بقسمه، وكان المحق هو صاحب القسمة، وقد برَّز النصيبين وميَّز القسمين، وعلم أنهم

---

(١) انظر: بدائع الفوائد (١/١٠٣)، وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله.

راضون بقسمهم الدون الذي لا أردا[(١)] منه، وأنه هو قد استولى على القسم الأشراف، والحظ الأعظم، بمنزلة من اقتسم هو وغيره سمًّا وشفاءً، فرضي مقاسمه بالسم؛ فإنه يقول له: لا تشاركني في قسمي ولا أشاركك في قسمك، لك قسمك ولي قسمي.

فتقديم ذكر قسمه هاهنا أحسن وأبلغ؛ كأنه يقول: هذا هو قسمك الذي آثرته بالتقديم، وزعمت أنه أشرف القسمين وأحقهما بالتقديم، فكان في تقديم ذكر قسمه من التهكم به والنداء على سوء اختياره، وقبح ما رضيه لنفسه من الحسن والبيان ما لا يوجد في ذكر تقديم قسم نفسه، والحاكم في هذا هو الذوق، والفَطِن يكتفي بأدنى إشارة، وأما غليظ الفهم فلا ينجع فيه كثرة البيان.

ووجه ثان: وهو أن مقصود السورة براءته ﷺ من دينهم ومعبودهم، هذا هو لبها ومغزاها، وجاء ذكر براءتهم من دينه ومعبوده بالقصد الثاني مكملًا لبراءته ومحققًا لها، فلما كان المقصود براءته من دينهم، بدأ به في أول السورة ثم جاء قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ [الكافرون: ٦]، مطابقًا لهذا المعنى؛ أي: لا أشارككم في دينكم ولا أوافقكم عليه، بل هو دين تختصون أنتم به، لا أشرككم فيه أبدًا، فطابق آخر السورة أولها: فتأمله»[(٢)].

هذه بعض الأسرار التي أوردها ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ في نظم هذه السورة، وفي بيان البلاغة والفصاحة التي تضمنتها، ولا شك أن هذا المنهج الذي سار عليه الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ منهج شمولي؛ يدرس بلاغة القرآن من حيث اللفظ والمعنى، على غرار المنهج الذي قرره الإمام

---

(١) أصلها «أردأ منه»، واتبع رَحِمَهُ اللهُ فيها تسهيل الهمزة.

(٢) بدائع الفوائد (١/ ١٤١ ـ ١٤٦).

عبد القاهر رَحِمَهُ اللَّهُ، فإن الإمام ابن القيِّم تعرض في بيانه لنظم هذه السورة إلى أسرار اختيار الألفاظ، وكذلك بين أسرار أوضاع الألفاظ، والسر في اختيار اشتقاقاتها، ثم تحدث عن الترتيب بين الجمل، وتحدث عن أسلوب الخطاب الذي جاءت عليه الآيات... وهذا الذي يعنيه علماء البيان والبلاغة من قضية اللفظ والمعنى.

ومن الأمثلة أيضًا على هذا المنهج الذي سلكه الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في بيانه لبلاغة القرآن وبيانه للإعجاز اللغوي فيه، تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٣ - ٨٧]. يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «فقال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة: ٨٣]؛ أي: وصلت «الروح» إلى هذا الموضع، بحيث فارقت ولم تفارق، فهي برزخ بين الموت والحياة، كما أنها إذا فارقت صارت في برزخ بين الدنيا والآخرة، وملائكة الرب تعالى أقرب إلى المحتضر من حاضريه من الإنس، ولكنهم لا يبصرونهم، فلولا تردونها إلى مكانها من البدن أيها الحاضرون، إن كان الأمر كما تزعمون أنكم غير مجزيين ولا مدينين، ولا مبعوثين ليوم الحساب.

فإن قيل: أي ارتباط بين هذين الأمرين حتى يلازم بينهما؟

قيل: هذا من أحسن الاستدلال وأبلغه، فإنهم إما أن يقروا بأنهم مملوكون مربوبون عبيد لمالك، قادر، متصرف فيهم، قاهر، آمر لهم، ناه؛ أو لا يقرون بذلك.

فإن أقروا بذلك لزمهم القيام بحقه عليهم، وشكره، وتعظيمه، وإجلاله، وأن لا يجعلوا له ندًا، ولا شريكًا، وهذا هو الذي جاءهم به رسوله، ونزل عليهم به كتابه.

وإن أنكروا ذلك وقالوا: إنهم ليسوا بعبيد، ولا مملوكين، ولا مربوبين، وإن الأمر إليهم؛ فهلا يردون الأرواح إلى مقارها إذا بلغت الحلقوم؟ فإن المتصرف في نفسه، الحاكم على روحه؛ لا يمتنع منه ذلك، بخلاف المحكوم عليه، المتصرف فيه غيره، المدبر له سواه، الذي هو عبد مملوك من جميع الجهات. . . .

ولله ما أحسن جزالة هذه الألفاظ وفصاحتها، وبلوغها أقصى مراتب البلاغة والفصاحة، مع الاختصار التام، وندائها إلى معناها من أقرب مكان، واشتمالها على التوبيخ والتقرير والإلزام، ودلائل الربوبية، والتوحيد، والبعث، وفصل النزاع في معرفة «الروح» وأنها تصعد، وتنزل، وتنتقل من مكان إلى مكان.

وما أحسن إعادة «لولا» ثانيًا قبل ذكر الفعل الذي يقتضيه الأول، وجعل الحرفين يقتضيانه اقتضاء واحدًا، وذكر الشرط بين «لولا» الثانية وما تقتضيه من الفعل، ثم الموالاة بين الشرط الأول والثاني، مع الفصل بينهما بكلمة واحدة هي الرابطة بين «لولا» الأولى والثانية، والشرط والأول والثاني، وهذا تركيب يستجد العقل والسمع لمعناه ولفظه.

فتضمنت الآيتان تقريرًا، وتوبيخًا، واستدلالًا على أصول الإيمان. . . .

وأتى بهذا في صورة تحضيضين، وتوبيخين، وتقريرين، وجوابين، وشرطين، وجزاءين، منتظمة أحسن الانتظام، ومتداخلة أحسن التداخل، متعلقًا بعضها ببعض. وهذا كلام لا يقدر البشر على مثل نظمه ومعناه»[(١)].

(١) التبيان (ص٣٥٢). «باختصار».

هكذا ظهر بجلاء منهج الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ من خلال تفصيله الدقيق في بلاغة الآيات، ففي البداية بيَّن ارتباط معاني الآيات بعضها مع بعض، ودلالاتها الإجمالية، والتلاؤم الذي بين الشرطين، واللوازم التي تلزم أولئك المعاندين من الشرطين مجتمعين، وأوضح عظيم ارتباط تلك المعاني وجمالها ودقتها، ثم بين البلاغة والبيان في إعادة «لولا» وما يتضمنه ترتيب الآيات من دقة وإتقان في وضع الألفاظ مواضعها.

وبعد ذلك وصف الإمام ابن القيِّم جملة ما أفادته تلك الآيات بهذا النسج البديع، من معاني متضمنة تحضيضين، وتوبيخين، وتقريرين، وجوابين، وشرطين، وجزاءين؛ وذلك لأن كل جملة إذا فككنا تركيبها نجد أنها مستقلة، تفيد توبيخًا، وتحضيضًا، وتقريرًا، وجوابًا، وشرطًا، وجزاءً، على شكل جملة واحدة وهذا من تمام الإيجاز والاقتضاب، يقول الإمام ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ [الواقعة: ٨٧] سدت مسد الأجوبة والبيانات التي يقتضيها التحضيضات، ﴿إِذَا﴾ من قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا﴾ [الواقعة: ٨٣] و﴿إِنْ﴾ المتكررة وحمل بعض القول بعضًا إيجازًا واقتضابًا»(١).

يظهر من جملة تحليل ابن القيِّم للآيات؛ أنه يسير في تطبيق نظرية النظم التي تهتم باللفظ والمعنى، واتضح تأثره برأي أنصار اللفظ والمعنى، ومن خلال الفصلين القادمين يتضح مزيد من ذلك التأثر - إن شاء الله -.

ومع أن العلماء بذلوا قصارى جهدهم لبيان إعجاز القرآن من خلال هذا الوجه، وحاولوا استيفاء ذلك، إلا أن الإعجاز البلاغي يبقى أمرًا

(١) المحرر الوجيز (٨/ ٢٤١).

لا يمكن أن ينتهي عند حد، مهما تُكلف في وصفه، ومهما حاولوا أن يستخلصوا قواعده وأصوله، يقول الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وزعم آخرون أن إعجازه من جهة البلاغة، وهم الأكثرون من علماء أهل النظر، وفي كيفيتها يعرض لهم الإشكال، ويصعب عليهم منه الانفصال، ووجدت عامة أهل هذه المقالة قد جروا في تسليم هذه الصفة للقرآن على نوع من التقليد وغلبة الظن، دون التحقيق له وإحاطة العلم به، ولذلك صاروا إذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة التي اختص بها القرآن، الفائقة في وصفها سائر البلاغات، وعن المعنى الذي يتميز به عن وصفها سائر البلاغات، وعن المعنى الذي يتميز به عن سائر أنواع الكلام الموصوف بالبلاغة، قالوا: إنه لا يمكننا تصويره ولا تحديده بأمر ظاهر نعلم به مباينة القرآن غيره من الكلام، وإنما يعرفه العالمون به عند سماعه ضربًا من المعرفة لا يمكن تحديده، وأحالوا على سائر أجناس الكلام الذي يقع منه التفاضل فتقع في نفوس العلماء به عند سماعه معرفة ذلك، ويتميز في أفهامهم قبيل الفاضل من المفضول منه.

قالوا: وقد يخفى سببه عند البحث ويظهر أثره في النفس حتى لا يلتبس على ذوي العلم والمعرفة به»[1].

ويقول السكاكي رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلم أن شأن الإعجاز عجيب، يدرك ولا يمكن وصفه»[2].

وكذلك الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ أكد هذا المعنى بقوله: «وأسرار مفردات القرآن ومركباته فوق عقول العالمين»[3].

---

(١) بيان إعجاز القرآن للخطابي (ص٢٤).
(٢) مفتاح العلوم (ص٥٢٦).
(٣) جلاء الأفهام (ص٢٩٤).

هذه مجمل آراء العلماء، حول بلاغة القرآن، والتي تنتهي بأنها تدرك ولا يمكن تحديدها، وتتصور ولا يمكن الإحاطة بها، وهذا الذي جعل هذا القرآن آية ومعجزة، ووقف بالعرب مع فصاحتهم وبلاغتهم عن المحاولة على الإتيان بمثله، فأدركوا أنه مباين لكلامهم وفصاحتهم، وأنه لا سبيل لهم إلى البلوغ لمستواه، فصاحةً ونظمًا ومعنى.

❁ ❁ ❁

ٱلْفَصْلُ ٱلثَّالِثُ

الإعجاز البلاغي عند ابن القيِّم

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: الإعجاز في المعاني عند ابن القيِّم.
- المبحث الثاني: الإعجاز في البيان عند ابن القيِّم.
- المبحث الثالث: الإعجاز في البديع عند ابن القيِّم.

المَبْحَثُ الأَوَّلُ
الإعجاز في المعاني عند ابن القيِّم

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

- **المطلب الأول: النظر في المفردات.**
- **المطلب الثاني: البحث في نظم الجملة.**
- **المطلب الثالث: البحث في الجمل.**

* * *

المَطْلَبُ الأَوَّلُ
الإعجاز في المفردات القرآنية

أولًا: بلاغة الإفراد والتثنية والجمع في القرآن الكريم:

من الملفت للنظر أنَّ بعض المفردات القرآنية جاءت في سياقات مفردة، وفي سياقات أخرى جاءت مجموعة، وفي بعض السياقات جاءت مثناه، و«كلما أمعنا الفكر في أسرار الألفاظ عند استعمالها في أساليب القرآن الكريم، ودققنا النظر فيها حين ما ترد في آيات الذكر الحكيم، واستوفينا الكشف عنها في التعبير القرآني، وجدنا أسرارًا عظيمة، ولطائف عجيبة، ورأينا أنَّه يذكر في كل موضع ما يلائمه منها، ويوضع كل لفظ في محله الذي يليق به»(١). وقد بحث الإمام ابن القيِّم هذه

---

(١) من أسرار التعبير القرآني، صفاء الكلمة (ص١٢١).

القضية بحثًا مستفيضًا[(١)]، وأبان جملة من الأسرار التي اشتمل عليها التعبير القرآني، ومن الألفاظ التي بحث فيها سر الإفراد والتثنية والجمع للفظة: «المشرق»، يقول الإمام ابن القيِّم رحمه الله: «. . . مجيء المشرق والمغرب في القرآن تارة مجموعين، وتارة مثنيين، وتارة مفردين؛ لاختصاص كل محل بما يقتضيه من ذلك، فالأول كقوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]، والثاني كقوله: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمٰن: ١٧، ١٨]، والثالث كقوله: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ [المزمل: ٩]، فتأمل هذه الحكمة البالغة في تغاير هذه المواضع، في الإفراد والجمع والتثنية بحسب مواردها، يطلعك على عظمة القرآن الكريم وجلالته، وأنَّه تنزيل من حكيم حميد».

ثم بيَّن رحمه الله السر في الإفراد والتثنية والجمع على وجه الإجمال فقال: «فحيث جمعت كان المراد بها مشارق الشمس ومغاربها في أيام السنة، وهي متعددة، وحيث أفردت كان المراد أفقي المشرق والمغرب.

وحيث ثُنِّيا كان المراد مشرقي صعودها وهبوطها ومغربيهما، فإنها تبتدئ صاعدة حتى تنتهي إلى غاية أوجها وارتفاعها، فهذا مشرق صعودها، وينشأ منه فصلا الخريف والشتاء؛ فجعل مشرق صعودها بجملته مشرقًا واحدًا، ومشرق هبوطها بجملته مشرقًا واحدًا، ويقابلها مغرباها، فهذا وجه اختلاف هذه في الإفراد والتثنية والجمع».

ثم أخذ رحمه الله يفصِّل القول، ويبيِّن السر في اختصاص كل موضع من مواضع اللفظة عن غيره فيقول: «وأما وجه اختصاص كل موضع بما وقع فيه فلم أرَ أحدًا تعرض له ولا فتح بابه، وهو بحمد الله بين من

(١) انظر: بدائع الفوائد (١/ ١٢٧)، ابن القيِّم وحسه البلاغي في تفسير القرآن (ص١٣٦).

السياق، فتأمل وروده مثنى في «سورة الرحمٰن» لما كان مساق السورة مساق المثاني المزدوجات، فذكر أولًا نوعي الإيجاد وهما: الخلق والتعظيم: ثم ذكر سراجي العالم ومظهري نوره وهما الشمس والقمر، ثم ذكر نوعي النبات ما قام منه على ساق وما انبسط منه على وجه الأرض، وهما: النجم والشجر، ثم ذكر نوعي السماء المرفوعة والأرض الموضوعة، وأخبر أنه رفع هذه ووضع هذه، ووسَّط بينهما ذكر الميزان، ثم ذكر العدل والظلم في الميزان، فأمر بالعدل ونهى عن الظلم، ذكر نوعي الخارج من الأرض وهما: الحبوب والثمار، ثم ذكر خلق نوعي المكلفين وهما: نوع الإنسان ونوع الجان، ثم ذكر نوعي المشرقين ونوعي المغربين، ثم ذكر بعد ذلك البحرين الملح والعذب، فتأمل حسن تثنية المشرق والمغرب في هذه السورة وجلالة ورودهما لذلك، وقدر موضعهما اللفظ مفردًا ومجموعًا تجد السمع ينبو عنه، ويشهد العقل بمنافرته للنظم.

ثم تأمل ورودهما مفردين في «سورة المزمل» لما تقدمهما ذكر الليل والنهار، فأمر رسوله عليه الصلاة والسلام بقيام الليل، ثم أخبره أن له في النهار سبحًا طويلًا، فلما تقدم ذكر الليل وما أمر به فيه، وذكر النهار وما يكون منه فيه، عقَّب ذلك بذكر المشرق والمغرب اللذين هما مظهر الليل والنهار؛ فكان ورودهما مفردين في هذا السياق أحسن من التثنية والجمع؛ لأن ظهور الليل والنهار هما واحد، فالنهار أبدًا يظهر من المشرق، والليل أبدًا يظهر من المغرب.

ثم تأمل مجيئهما مجموعين في «سورة المعارج» في قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾ [المعارج: ٤٠، ٤١]، لما كان هذا القسم في سياق سعة ربوبيته وإحاطة

قدرته، والمقسم عليه أرباب هؤلاء والإتيان بخير منهم، ذكر المشارق والمغارب لتضمنهما انتقال الشمس التي هي أحد آياته العظيمة الكبيرة، ونقله سبحانه لها وتصريفها كل يوم في مشرق ومغرب؛ فمن فعل هذا كيف يعجزه أن يبدل هؤلاء، وينقل إلى أمكنتهم خيرًا منهم.

وأيضا فإن تأثير مشارق الشمس ومغاربها في اختلاف أحوال النبات والحيوان أمر مشهور، وقد جعل الله تعالى ذلك بحكمته سببًا لتبدل أجسام النبات وأحوال الحيوانات، وانتقالها من حال إلى غيره، ويبدل الحر بالبرد والبرد بالحر، والصيف بالشتاء والشتاء بالصيف، إلى سائر تبدل أحوال الحيوان والنبات والرياح والأمطار والثلوج، وغير ذلك من التبدلات والتغيرات الواقعة في العالم بسبب اختلاف مشارق الشمس ومغاربها، كان ذلك تقدير العزيز العليم، فكيف لا يقدر مع ما يشهدونه من ذلك على أن يبدل خيرًا منهم، وأكد هذا المعنى بقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [الواقعة: ٦٠] فلا يليق بهذا الموضع سوى لفظة الجمع...»[(١)].

ومن الألفاظ القرآنية التي بحث الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ أسرار الإفراد والجمع فيها لفظة «الصراط»، ولفظة «السبل» في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فقد وقف عندها، وبيَّن النكت البيانية في مجيء لفظة «الصراط» مفردة في القرآن، وبيَّن السر في مجيء «السبل» مجموعة فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما طرق أهل الغضب؛ فإنه سبحانه يجمعها ويفردها؛ كقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. فوحد لفظ «الصراط»، و«سبيله». وجمع السبل المخالفة له».

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٢٧).

ثم بيَّن العلة من ذلك بقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا لأن الطريق الموصل إلى الله واحد، وهو ما بعث به رسله، وأنزل به كتبه، لا يصل إليه أحد إلا من هذه الطريق، ولو أتي الناس من كل طريق، واستفتحوا من كل باب، فالطرق عليهم مسدودة، والأبواب عليهم مغلقة، إلا من هذا الطريق الواحد»(١).

استبان من كلام الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ دقَّة الوضع القرآني للمفردة، فيستحيل أن تفيد أي كلمة في سياقها ما تفيده المفردة القرآنية في سياقها، والجمع والتثنية والإفراد من أعظم الشواهد على ذلك.

ثانيًا: بلاغة حروف الجر في القرآن الكريم:

للتعبير بحروف الجر أسرار ومعانٍ تخصُّ كل حرف، فإن حروف الجر بينها فروقٌ دقيقةٌ، تدعو إلى التذوق والبحث عن أسرار التعبير بها، وقد جاءت في القرآن الكريم بأدق التعبيرات، وأوضحها بيانًا ودلالةً للمقصد؛ وهذا ما جعل الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ يقف عندها مبينًا حسن موقعها، وروعة جمالها في السياق الذي جاءت فيه، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ عند قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٣] «المشهور في تفسير هذا الحرف أنَّه بمعنى: يُحْرَقُون، ولكن لفظة «على» تعطي معنىً زائدًا على ما ذكروه، ولو كان المراد نفس الحريق لقيل: يوم هم في النَّار يفتنون.

ولهذا لما عَلِم هؤلاء ذلك قال كثيرٌ منهم: «على» بمعنى «في»، كما تكون «في» بمعنى «على».

والظاهر أنَّ فتنتهم على النَّار قبل فتنتهم فيها، فلهم عند عرضهم

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٦٠).

عليها ووقوفهم عليها فتنة، وعند دخولها والتعذيب بها فتنة أشدُّ منها. . .»[1].

وهذا يوضح أنَّ الإمام ابن القيِّم رحمه الله يرى أنَّ الأصح في حروف الجر أن لا ينوب بعضها عن بعض، وإنَّما لكل حرف معنى خاص، فكل حرف وضع موضعًا من الدقة في النظم ما يصل به إلى مرتبة الإعجاز، وهذا التنبيه من الإمام ابن القيِّم دقيق في غاية الحسن.

ومع أن الإمام ابن القيِّم لم يسلك مسلك القائلين بتناوب حروف الجر، فإنه أثبت ما هو مناسب لمعاني هذه اللغة العظيمة، وهو أن يضمَّن الحرف معنى الفعل، لا أن يقام الحرف مقام الحرف، يقول في ذلك رحمه الله: «. . . أن فعل الهداية: يتعدى بنفسه تارةً، وبحرف «إلى» تارةً، وباللام تارة، والثلاثة في القرآن:

فمن المعدَّى بنفسه هذه الآية، وقوله: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢]، ومن المعدَّى بـ«إلى» قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٦١]، ومن المعدَّى باللام قوله في قول أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

والفروق لهذه المواضع تدق جدًّا عن أفهام العلماء، ولكن نذكر قاعدةً تشير إلى الفرق، وهي أنَّ الفعل المعدَّى بالحروف المتعددة لا بد أن لا يكون له مع كل حرفٍ معنى زائد على معنى الحرف الآخر، وهذا بحسب اختلاف معاني الحروف: فإن ظهر اختلاف الحرفين ظهر الفرق

(١) التبيان في أيمان القرآن (ص٤٣٩).

نحو: «رغبت عنه ورغبت فيه، وعدلت إليه وعدلت عنه، ومِلْت إليه وعنه، وسعيت إليه وسعيت به»، وأن تفاوت معنى الأدوات عَسُر الفرق نحو: قصدت إليه وقصدت له، وهديته إلى كذا وهديته لكذا، وظاهرية النحاة يجعلون أحد الحرفين بمعنى الآخر.

وأما فقهاء أهل العربية فلا يرتضون هذه الطريقة، بل يجعلون للفعل معنًى مع الحرف، ومعنًى مع غيره، فينظرون إلى الحرف وما يستدعي من الأفعال، فيشرّبون الفعل المتعدى به معناه.

هذه طريقة إمام الصناعة سيبويه ـ رحمه الله تعالى ـ وطريقة حُذَّاق أصحابه يضمنون الفعل معنى الفعل، لا يقيمون الحرف مقام الحرف، وهذه قاعدة شريفة جليلة المقدار، تستدعي فطنة ولطافة في الذهن.

وهذا نحو قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦]، فإنهم يضمنون «يشرب» معنى «يروى»، فيعدونه بالباء التي تطلبها، **فيكون في ذلك دليل على الفعلين:**

أحدهما: بالتصريح به، **والثاني**: بالتضمن والإشارة إليه بالحرف الذي يقتضيه، مع غاية الاختصار، وهذا من بديع اللغة ومحاسنها وكمالها.

ومنه قوله في السحاب: «شربن بماء البحر حتى روين، ثم ترفعن، وصعدن» وهذا أحسن من أن يقال: يشرب منها، فإنه لا دلالة فيه على الري، وأن يقال: يروى بها؛ لأنه لا يدل على الشرب بصريحه، بل باللزوم، فإذا قال: يشرب بها، دلَّ على الشرب بصريحه، وعلى الري بخلاف الباء. . . فتأمله.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ﴾ [الحج: ٢٥]، وفعل الإرادة لا يتعدى بالباء، ولكن ضمن معنى يهم فيه بكذا،

وهو أبلغ من الإرادة، فكان في ذكر الباء إشارة إلى استحقاق العذاب عند الإرادة وإن لم تكن جازمة، وهذا باب واسع لو تتبعناه لطال الكلام فيه، ويكفي المثالان المذكوران.

فإذا عرفت هذا، ففعل الهداية متى عدي بـ «إلى» تضمن الإيصال إلى الغاية المطلوبة، فأتى بحرف الغاية ومتى عدي باللام تضمن التخصيص بالشيء المطلوب، فأتى باللام الدالة على الاختصاص والتعيين، فإذا قلت: هديته لكذا، فهم معنى ذكرته له، وجعلته له، وهيأته... ونحو هذا، وإذا تعدى بنفسه تضمن المعنى الجامع لذلك كله، وهو التعرف والبيان والإلهام.

فالقائل إذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] هو طالب من الله أن يعرفه إياه، ويبينه له، ويلهمه إياه، ويقدره عليه، فيجعل في قلبه علمه وإرادته والقدرة عليه، فجرد الفعل من الحرف، وأتى به مجردًا معدى بنفسه؛ ليتضمن هذه المراتب كلها، ولو عدي بحرف تعين معناه وتخصص بحسب معنى الحرف... فتأمله: فإنه من دقائق اللغة وأسرارها»[١].

وطبق رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الرأي في بحثه لسر التعبير بحرف الجر «على» في قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر: ٤١]، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال الحسن: معناه: «صراط إلي مستقيم»[٢]، وهذا يحتمل أمرين: أن يكون أراد به أنه من باب إقامة الأدوات بعضها مقام بعض، فقامت أداة «على» مقام «إلى»، والثاني: أنه أراد التفسير على المعنى، وهو الأشبه بطريق السلف».

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٢٥٢).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ٧٠).

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإن قيل: لو أريد هذا المعنى لكان الأليق به أداة «إلى» التي هي للانتهاء، لا أداة «على» التي هي للوجوب، ألا ترى أنه لما أراد الوصول قال: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦]، وقال: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ [لقمان: ٢٣]، وقال: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨] وقال لما أراد الوجوب: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٦]، وقال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧]، وقال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، ونظائر ذلك.

قيل: في أداة «على» سر لطيف، وهو الإشعار بكون السالك على هذا الصراط على هدى، وهو حق، كما قال في حق المؤمنين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥]، وقال لرسوله ﷺ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]، والله عَجَّلَ هو الحق، وصراطه حق، ودينه حق، فمن استقام على صراطه فهو على الحق والهدى، فكان في أداة «على» على هذا المعنى ما ليس في أداة «إلى» فتأمله، فإنه سر بديع»(١).

ومن كلامه عن معاني حروف الجر، حديثه عن حرف «الباء» في قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧]، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصبر بالله أكمل، بل لا يمكن الصبر له إلا بالصبر به، كما قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ فأمره بالصبر، والمأمور به هو الذي يُفعل لأجله، ثم قال: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ فهذه جملة خبرية غير الجملة الطلبية التي تقدمتها، أخبر فيها أنه لا يمكنه الصبر إلا به.

وذلك يتضمن أمرين: الاستعانة به، والمعية الخاصة التى تدل عليها باء المصاحبة؛ كقوله: «فبي يسمع، وبي يُبصر، وبي يبطش، وبي

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٦١).

يمشي»[١]، وليس المراد بهذه الباء الاستعانة، فإن هذا أمر مشترك بين المطيع والعاصي، فإن ما لا يكون بالله لا يكون، بل هي باء المصاحبة. والمعية التي صرح بمضمونها في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦] المعية الحاصلة لعبده الذي تقرب إليه بالنوافل حتى صار محبوبًا له، فبه يسمع، وبه يبصر، وكذلك به يصبر، فلا يتحرك ولا يسكن ولا يدرك إلا والله معه، ومن كان كذلك أمكنه الصبر له، وتحمل الأثقال لأجله»[٢].

وبهذا يظهر أنّ في إضافة حروف الجر معانيَ وأسرارًا بديعة، وأن لكل حرف لطفًا في المعنى يحتاج إلى تأمل وتدبر.

ثالثًا: بلاغة الروابط بين الجمل في القرآن الكريم:

«الروابط بين جملتين هي: الأدوات التي تجعل بينها تلازمًا لم يفهم قبل دخولها»[٣].

واختيار الرابط المناسب بين الجملتين يحتاج إلى فقه بمعاني الروابط، ومعرفة بأسرارها، فقد يحسن الكلام بسبب الرابط وقد يقبح، ولهذا كان مهمًّا معرفة ما تؤديه تلك الروابط من معاني.

وكتاب الله ﷻ سبيل إلى معرفة أكمل أوجه البلاغة، ورابط الجمل

---

(١) هذا جزء من حديث أخرجه البخاري ﵀ في «صحيحه»، كتاب الرقاق، باب التواضع، ولفظه: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ...) الحديث. رقم (٦٥٠٢). واللفظ الذي أورده ابن القيِّم قال عنه الألباني ﵀: «ولم أر هذه الزيادة عند البخاري ولا عند غيره». السلسلة الصحيحة رقم (١٦٤٠).

(٢) عدة الصابرين (ص٨٠). (٣) بدائع الفوائد (١/ ٥١).

فيه جاءت على أعلى درجات البيان، لما اتسمت به تلك الروابط من لطف وحسن موقع، وإفصاح عن المعنى بدقة يظهر من خلالها إعجاز نظم هذا الكتاب الكريم؛ دفع ذلك بالعلماء إلى البحث في معاني حروف الأدوات لتحديد المعنى القرآني، فأثمر ذلك البحث تأملات لطيفة في البلاغة القرآنية.

ومن العلماء الذين اهتموا بهذا الشأن الإمام ابن القيِّم، فقد بحثها بحثًا مميزًا في كتابه «بدائع الفوائد»، ومن الروابط التي ذكرها: «إذا»، و«إن» الشرطيتين، فقد بيَّن ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ أن «إذا» تفيد تحقق الكلام بعدها. بعكس «إن»؛ فإنها تفيد الشك وعدم اليقين.

ثم يورد الأمثلة لذلك، فيذكر قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾ [الشورى: ٤٨]، ثم يقول: «انظر كيف أتى في تعليق الرحمة المحققة إصابتها من الله تعالى بـ«إذا»، وأتى في إصابة السيئة بـ«إن»؟ فإن ما يعفو الله تعالى عنه أكثر، وأتى في الرحمة بالفعل الماضي الدال على تحقيق الوقوع؟ وفي حصول السيئة بالمستقبل الدال على أنه غير محقق ولا بد. وكيف أتى في وصول الرحمة بفعل الإذاقة الدال على مباشرة الرحمة لهم؟ وأنها مذوقة لهم، والذوق هو أخص أنواع الملابسة وأشدها، وكيف أتى في الرحمة بحرف ابتداء الغاية مضافة إليه؟

فقال: ﴿مِنَّا رَحۡمَةٗ﴾ وأتى في السيئة بباء السببية مضافة إلى كسب أيديهم؟ وكيف أكد الجملة الأولى التي تضمنت إذاقة الرحمة بحرف «إن» دون الجملة الثانية وأسرار القرآن الكريم أكثر وأعظم من أن يحيط بها عقول البشر.

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، كيف أتى بإذا هٰهنا لما كان مس الضر لهم في البحر محققًا، بخلاف قوله: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ [فصلت: ٤٩]؛ فإنه لم يقيد مس الشر هنا، بل أطلقه، ولما قيده بالبحر الذي هو متحقق فيه ذلك، أتى بأداة «إذا».

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾ [الإسراء: ٨٣]، كيف أتى هنا بـ«إذا» المشعرة بتحقيق الوقوع المستلزم لليأس، فإن اليأس إنما حصل عند تحقق مس الشر له، فكان الإتيان بـ«إذا» هٰهنا أدل على المعنى المقصود من «إن» بخلاف قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١]، فإنه بقلة صبره، وضعف احتماله، متى توقع الشر أعرض وأطال في الدعاء، فإذا تحقق وقوعه كان يؤوسًا.

ومثل هذه الأسرار في القرآن لا يرقى إليها إلا بموهبة من الله، وفهم يؤتيه عبدًا في كتابه...»[(١)].

ومن الروابط بين الجمل التي تكلم عنها الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ، حرف العطف «أو»؛ فبين أنه يؤتى به لإفادة التردد بين شيئين، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: ««أو» وضعت للدلالة على أحد الشيئين المذكورين معها، ولذلك وقعت في الخبر المشكوك فيه، من حيث كان الشك ترددًا بين أمرين من غير ترجيح لأحدهما على الآخر، لا أنها وضعت للشك، فقد تكون في الخبر الذي لا شك فيه إذا أبهمت على المخاطب، ولم تقصد أن تبين له؛ كقوله سبحانه: ﴿إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧]؛ أي:

(١) بدائع الفوائد (١/ ٥٤). «بتصرف».

إنهم من الكثرة بحيث يقال فيهم: هم مائة ألف أو يزيدون...»[١][٢].

وأداة «أو» في الآية التي أوردها الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ أفادت التكثير، فأضافت معنًا زائدًا بإيجاز واختصار، ودقة في المعنى، وقد ألمح الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ إلى أنها قد تخرج عن معناها الأصلي ـ الذي هو إفادة التردد ـ، إلى التحقيق، كما في الآية.

ومن الروابط التي تكلم ابن القيِّم عن معانيها وفيها لطف وسر في التعبير؛ النفي بـ«لا» أو «لن»؛ فبيَّن أن «لا» تفيد النفي المطلق، دون تحديد الزمان، أما «لن»، فإنها تفيد النفي القريب الذي يتسم بالخصوصية أكثر، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «تأمل حرف «لا» كيف تجد في نهايته ألفًا يمتد بها الصوت ما لم يقطعه ضيق النفس، فآذن امتداد لفظها بامتداد معناها، و«لن» بعكس ذلك، فتأمله، فإنه معنى بديع، وانظر كيف جاء في أفصح الكلام ـ كلام الله ـ: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًا﴾ [الجمعة: ٧] بحرف «لا»، في الموضع الذي اقترن به حرف الشرط بالفعل، فصار من صيغ العموم، فانسحب على جميع الأزمنة، وهو قوله ﷻ: ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ [الجمعة: ٦]؛ كأنه يقول: متى زعموا ذلك لوقت من الأوقات، أو زمن من الأزمان، وقيل لهم: تمنوا الموت فلا يتمنونه أبدًا[٣]. وحرف الشرط دل على هذا المعنى، وحرف «لا» في الجواب بإزاء صيغة العموم؛ لاتساع معنى النفي فيها.

---

(١) لحرف العطف «أو» معانٍ لم يذكرها ابن القيِّم، وقد ذكرها السيوطي وغيره. انظر: الإتقان (٣/ ١٠٦٧).

(٢) بدائع الفوائد (١/ ٢٠١).

(٣) لأنه جاء في الآية بعدها: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [الجمعة: ٧]، وذلك لأنهم يعلمون سوء مصيرهم، أما في البقرة فجاءت الآية في باب التحدي والمناظرة لهم، فلهذا جاء النفي مقصورًا على المناظرة، وفي سورة الجمعة كان الغرض الإخبار =

وقال في سورة «البقرة»: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ﴾، فقصر من سعة النفي وقرب...»[(١)].

بعد ما ذكر ابن القيِّم معنى النفي بهذين الحرفين، يلفت إلى موضع جوهري، كان سببًا في بعد المعتزلة عن الصواب، وهو عدم فهم معنى هذين الحرفين الفهم الصحيح، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن أجل ما تقدم من قصور معنى النفي في «لن» وطوله في «لا»، يعلم الموفق قصور المعتزلة في فهم كلام الله تعالى؛ حيث جعلوا «لن» تدل على النفي على الدوام، واحتجوا بقوله: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وعلمت بهذا أن بدعتهم الخبيثة حالت بينهم وبين فهم كلام الله كما ينبغي، وهكذا كل صاحب بدعة تجده محجوبًا عن فهم القرآن....»[(٢)].

وعلى هذا فإن فهم روابط الجمل مهم في تحديد معنى الآية، فإضافة إلى كونه يطلع على أسرار التعبير القرآني، ودقة البلاغة فيه؛ كذلك هو سببًا في الفهم الصحيح للمعنى القرآني.

رابعًا: بلاغة التعريف والتنكير في القرآن الكريم:

التعريف والتنكير له أغراض تكسب الكلام زيادة في المعنى بحسب سياق الجملة، قد يخصص الكلام أحيانًا، ويبهمه أحيانًا، ويقصره أحيانًا، ويجعله مشتركًا أحيانًا... إلى غير ذلك من أغراض التعريف والتنكير[(٣)].

وقد بحث الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ التعريف والتنكير في عدَّة مواضع،

= عن حالهم. هذا هو مفهوم كلام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ وقد أشار إلى ذلك في موضع غير هذا، وقد ذكر سابقًا.

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٠٣).

(٢) المصدر السابق (١/ ١٠٤).

(٣) راجع: مفتاح العلوم (ص٢٧٨).

وتعرض للأسرار والمعاني المستفادة منهما، ومن ذلك: حديثه عن تعريف قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، حيث قارن بين إتيان هذه الألفاظ في سورة الفاتحة معرفة، وبين مجيئها في سياقات قرآنية أخرى منكرة؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الحج: ٥٤] وغير ذلك من المواضع. يقول رحمه الله مفصلًا القول في ذلك: «اعلم أنَّ الألف واللام إذا دخلت على اسم موصوف اقتضت أنه أحق بتلك الصفة من غيره، ألا ترى أن قولك: جالس فقيهًا أو عالمًا، ليس كقولك: جالس الفقيه أو العالم، ولا قولك: أكلت طيِّبًا كقولك: أكلت الطيب. ألا ترى إلى قوله ﷺ: (**أَنْتَ الحَقُّ، وَوَعْدُكَ الحَقُّ، وَقَوْلُكَ الحَقُّ**)، ثم قال: (**وَلِقَاؤُكَ الحَقُّ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ**)[1] فلم يدخل الألف واللام على الأسماء المحدثة، وأدخلها على اسم الرب تعالى ووعده وكلامه.

فإذا عرفت هذا، فلو قال: اهدنا صراطًا مستقيمًا، لكان الداعي إنما يطلب الهداية إلى صراط ما مستقيم على الإطلاق، وليس المراد ذلك، بل المراد: الهداية إلى الصراط المعيَّن الذي نصبه الله تعالى لأهل نعمته، وجعله طريقًا إلى رضوانه وجنته، وهو دينه الذي لا دين له سواه، فالمطلوب أمر معيَّن في الخارج والذهن، لا شيء مطلق منكر، واللام هنا للعهد العلمي الذهني، وهو أنَّه طلب الهداية إلى سر معهود قد قام في القلوب معرفته، والتصديق به، وتميزه عن سائر طرق الضلال، فلم يكن بد من التعريف.

فإن قيل: لم جاء منكرًا في قوله لنبيه ﷺ: ﴿وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب التهجد، باب التهجد بالليل رقم (١١٢٠).

﴿مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقوله تعالى: ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٨٧]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٦١]؟

فالجواب عن هذه المواضع بجواب واحد. وهو أنها ليست في مقام الدعاء والطلب، وإنما هي في مقام الإخبار من الله تعالى عن هدايته إلى صراط مستقيم، وهداية رسوله إليه، ولم يكن للمخاطبين عهد به، ولم يكن معروفًا لهم، فلم يجئ معرفًا بلام العهد المشيرة إلى معروف في ذهن المخاطب، قائم في خلده، ولا تقدمه في اللفظ معهود تكون اللام معروفة إليه، وإنما تأتي لام العهد في أحد هذين الموضعين، **أعني**: أن يكون لها معهود ذهني أو ذكر لفظي، وإذ لا واحد منهما في هذه المواضع، فالتنكير هو الأصل.

وهذا بخلاف قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] فإنه لما تقرر عند المخاطبين أن لله صراطًا مستقيمًا، هدى إليه أنبياءه ورسله، وكان المخاطب سبحانه المسؤول من هدايته عالمًا به، دخلت اللام عليه، فقال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾»(١).

عموم كلام ابن القيِّم السابق ينصرف إلى أنه لما كان المراد الطلب والدعاء، جاء الكلام معرفًا؛ لأنه لا يصح طلب شيء نكرة، وإنما يكون الكلام محتاجًا إلى التخصيص، والتعيين.

ولما كان المقام مقام إخبار، ولم يكن للمخاطبين به عهد ذهني أو ذكري، جاء الكلام على أصله الذي هو التنكير(٢).

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٢٤٥).

(٢) وهو يشير بذلك إلى أن نوعي الخطاب مختلف، **فالأول**: خطاب إنشائي طلبي، =

فموضع التعريف في سورة الفاتحة لإفادة التخصص والتعيين، فانحصر دعاؤهم في ابتغاء نوع معين من السبل والطرق، وأفاد التخصيص أنهم إنما طلبوا نوعًا خاصًّا من الهداية، وهي هدايتهم إلى طريق الذين أنعم الله عليهم.

ثم إنَّ الإمام ابن القيِّم أجمل كلامه عن التنكير في الآيات التي ساقها، والذي يظهر ـ والله أعلم ـ أن تنكير الصراط في الآيات التي ساقها إنما كان للتعظيم والتفخيم. يقول الطاهر عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: «وتنكيره «صراط» للتعظيم مثل تنكير عظيم»[1].

ومن ضمن المواضع التي تعرَّض الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ فيها لبلاغة التعريف والتنكر، ما ذكره في تحليل التعريف والتنكير في الصفتين الكريمتين التي في قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، حيث جاءت صفات الحق تبارك وتعالى دون أن تدخل عليها أداة التعريف «ال» في هذه السورة، وفي سورة فصلت جاءت الآية نفسها بتعريف الصفتين، يقول تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦]، فعلَّق ابن القيِّم على ذلك، وأوضح السرَّ في هذا التعريف والتنكير فقال: «وسرُّ ذلك ـ والله أعلم ـ: أنه حيث اقتصر على مجرد الاسم؛ ولم يؤكده؛ أريد إثبات مجرد الوصف الكافي في الاستعاذة، والإخبار بأنَّه ـ سبحانه ـ يسمع ويعلم، فيسمع استعاذتك؛ فيجيبك، ويعلم ما تستعيذ منه؛ فيدفعه عنك، فالسمع لكلام المستعيذ، والعلم بالفعل

= والثاني: جملة خبرية غير إنشائية. وهذا التقسيم هو تقسيم علماء البيان. راجع: البلاغة العربية. للميداني (١/ ١٦٦).

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ١٥٥).

المستعاذ منه، وبذلك يحصل مقصود الاستعاذة، وهذا المعنى شامل للموضعين.

وامتاز المذكور في سورة فُصِّلت بمزيد التأكيد والتعريف والتخصيص؛ لأن سياق ذلك بعد إنكاره ـ سبحانه ـ على الذين شكُّوا في سمعه لقولهم، وعلمهم به، كما ثبت في «الصحيحين» من حديث ابن مسعود، قال: «اجتمع عند البيت ثلاثة نفر: قرشيان وثقفي، أو ـ ثقفيان وقرشي ـ، كثيرٌ شحمُ بطونهم، قليلٌ فقه قلوبهم، فقالوا: أترون الله يسمع ما نقول؟! فقال أحدهم: يسمع إن جهرنا، ولا يسمع إن أخفينا، فقال الآخر: إن سمع بعضه سمع كلَّه، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٢، ٢٣]»[(١)].

فجاء التوكيد في قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ في سياق هذا الإنكار؛ أي: هو وحده الذي له كمال قوة السمع وإحاطة العلم، لا كما يظن به أعداؤه الجاهلون: أنَّه لا يسمع إن أخفوا، وأنَّه لا يعلم كثيرًا مما يعملون.

وحسن ذلك ـ أيضًا ـ أنَّ المأمور به في سورة فصِّلت؛ دفع إساءتهم إليه بإحسانه إليهم، وذلك أشق على النفوس من مجرد الإعراض عنهم؛ ولهذا عقَّبه بقوله: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥]، فحسن التأكيد لحاجة المستعيذ...»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣] رقم (٤٨١٧). ومسلم في «صحيحه»، كتاب صفات المنافقين رقم (٢٧٧٥).

(٢) إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان (١/ ١٨٩).

إذًا المقام مقام تأكيد وتخصيص، وإثبات لهاتين الصفتين لمن أنكرهما، فاستحق أن تأتي الألفاظ معرفة كي تفيد تلك المعاني، ولما كان المقام في سورة الأعراف مقام إثبات مجرد الوصف، جاءت الألفاظ بما يناسب المقام.

ومما ذكره ابن القيِّم عن التعريف والتنكير: تعريف لفظ «السلام» وتنكيره، وما يفيده كل واحد من الوضعين، وقد أطال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في الكلام عن أسرار التعريف والتنكير في هذا اللفظ، وفي أول حديثه عن تلك الأسرار أوضح ما يفيده التعريف، وما يفيده التنكير؛ ثم طبَّق تلك الفوائد التي ذكرها على ما ورد في القرآن. يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما الحكمة في ابتداء السلام بلفظ النكرة وجوابه بلفظ المعرفة؟ فتقول: سلام عليكم. فيقول الراد: وعليك السلام».

ثم يذكر مقدمة وتمهيدًا يبيِّن من خلالها السر في ذلك فيقول: «الجواب عنها بذكر أصل نمهده ترجع إليه مواقع التعريف والتنكير في السلام، وهو أن السلام دعاء وطلب وهم في ألفاظ الدعاء والطلب إنما يأتون بالنكرة إما مرفوعة على الابتداء، أو منصوبة على المصدر، فمن الأول: ويل له، ومن الثاني: خيبة له... وهذا في الدعاء عليه. وفي الدعاء له: سقيًا، ورعيًا، وكرامةً، ومسرةً».

ثم يبيِّن بعد ذلك أنَّ هذا هو السر في إتيان السلام على ذلك الوضع، فيقول: «فجاء سلام عليكم بلفظ النكرة، كما جاء في سائر ألفاظ الدعاء»[1].

بعد ذلك يبيِّن السر من التعريف في الرد على المسلم فيقول: «وأما

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٣٧٥) «باختصار».

تعريف السلام في جانب الراد فنذكر أيضًا أصلًا يعرف به سره وحكمته، وهو أنَّ الألف واللام إذا دخلت على اسم السلام **تضمنت أربع فوائد**:

إحداها: الإشعار بذكر الله تعالى؛ لأن السلام المعرف من أسمائه كما تقدم تقريره.

الفائدة الثانية: إشعارها بطلب معنى السلامة منه للمسلم عليه؛ لأنك متى ذكرت اسمًا من أسمائه فقد تعرضت به، وتوسلت به إلى تحصيل المعنى الذي اشتق منه ذلك الاسم.

الفائدة الثالثة: إن الألف واللام يلحقها معنى العموم في مصحوبها، والشمول فيه في بعض المواضع.

الفائدة الرابعة: أنها تقوم مقام الإشارة إلى المعين، كما تقول: ناولني الكتاب، واسقني الماء، وأعطني الثوب، لما هو حاضر بين يديك؛ فإنك تستغني بها عن قولك هذا، فهي مؤدية معنى الإشارة.

وإذا عرفت هذه الفوائد الأربع:

فقول الراد: وعليك السلام بالتعريف متضمن للدلالة على أن مقصوده من الرد مثل ما ابتدئ به، وهو هو بعينه، فكأنه قال: ذلك السلام الذي طلبته لي مردود عليك، وواقع عليك، فلو أتى بالرد منكرًا لم يكن فيه إشعار بذلك؛ لأن المعرَّف وإن تعدد ذكره، واتحد لفظه، فهو شيء واحد، بخلاف المنكر.

ومن فهم هذا فهم معنى قوله ﷺ: **(لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ)**[1] فإنه أشار إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦]،

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الجهاد، باب الترغيب في الجهاد رقم (٩٦٤)، والحاكم في المستدرك، كتاب التفسير: رقم (٤٠٠٨). وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة رقم (٤٣٤٢).

فالعسر وإن تكرر مرتين فتكرر بلفظ المعرفة فهو واحد، واليسر تكرر بلفظ النكرة فهو يسران، فالعسر محفوف بيسرين؛ يسر قبله، ويسر بعده، فلن يغلب عسر يسرين.

وفائدة ثانية: وهي أن مقامات رد السلام ثلاثة: (مقام فضل. ومقام عدل. ومقام ظلم) فالفضل أن يرد عليه أحسن من تحيته، والعدل أن ترد عليه نظيرها، والظلم أن تبخسه حقه وتنقصه منها، فاختير للراد أكمل اللفظين، وهو المعرَّف بالأداة التي تكون للاستغراق والعموم كثيرًا ليتمكن من الإتيان بمقام الفضل.

وفائدة ثالثة: وهي أنَّه قد تقدم أن المناسب في حقه تقديم المسلم عليه على السلام، فلو نكَّره وقال: عليك سلام، لصار بمنزلة قولك: عليك دين، وفي الدار رجل، فخرجه مخرج الخبر المحض، وإذا صار خبرًا بطل معنى التحية؛ لأن معناها الدعاء والطلب، فليس بمسلم من قال: عليك سلام، إنما المسلم من قال: سلام عليك، فعرف سلام الراد باللام إشعارًا بالدعاء للمخاطب، وأنه راد عليه التحية، طالب له السلامة من اسم السلام. والله أعلم»[1].

بعد أن ذكر ابن القيِّم رحمه الله هذه الأسرار في تعريف السلام وتنكيره؛ يلفت الانتباه بسؤال وسرٍّ مهمّ فيقول: «ما السر في كونه سلَّم عليهم بلفظ النكرة»، يقصد في قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤].

ثم يجيب عن ذلك بقوله: «قد تقدم أنَّ في دخول اللام في السلام أربع فوائد، وهذا المقام مستغن عنها؛ لأن المتكلم بالسلام هو الله

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٣٧٥).

تعالى، فلم يقصد تبركًا بذكر الاسم، كما يقصد العبد، فإن التبرك استدعاء البركة واستجلابها، والعبد هو الذي يقصد ذلك، ولا قصد أيضًا تعرضًا وطلبًا على ما يقصده العبد، ولا قصد العموم، وهو أيضًا غير لائق هنا؛ لأن سلامًا منه سبحانه كافٍ من كل سلام، ومغنٍ عن كل تحية، ومقرب من كل أمنية، فأدنى سلام منه ـ ولا أدنى هناك ـ يستغرق الوصف، ويتم النعمة، ويدفع البؤس، ويطيب الحياة، ويقطع مواد العطب والهلاك، فلم يكن لذكر الألف واللام هناك معنى.

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ﴾ [التوبة: ٧٢]، كيف جاء بالرضوان مبتدأ منكرًا مخبرًا عنه بأنه أكبر من كل ما وعدوا به، فأيسر شيء من رضوانه أكبر الجنات، وما فيها من المساكن الطيبة وما حوته، ولهذا لما يتجلى لأوليائه في جنات عدن، ويمنيهم أي شيء يريدون؟ فيقولون: «رَبَّنَا وأَيَّ شَيءٍ نُرِيدُ أَفْضَلَ مِمَّا أَعْطَيْتَنَا، فَيَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «إِنَّ لَكُمْ عِنْدِي أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»[١]»[٢].

اتضح أن التعريف والتنكير أسلوب بديع، وأنَّه مهم في بيان المعنى وحدوده، وفي بيان منزلة البلاغة التي جاء بها القرآن، وعظيم أسراره التي تضمنها[٣].

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار رقم (٦٥٤٦).

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٣٨٦).

(٣) ذكر الدكتور عبد الفتاح لاشين في كتابه: «ابن القيِّم وحسه البلاغي» جملة من ما ذكره ابن القيِّم عن أسرار التعريف والتنكير، وتعرض لها بالبيان والإيضاح. انظر: ابن القيِّم وحسه البلاغي في تفسير القرآن (ص٧٩).

ومن أسرار التنكير في القرآن التي بيَّنها الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ، أنَّ التنكير في سياق النفي يفيد العموم، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «النكرة في سياق النفي تعم، مستفاد من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، وفي الاستفهام من قوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، الشرط من قوله: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ [مريم: ٢٦]، ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾ [التوبة: ٦]، وفي النهي من قوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ [هود: ٨١]»[١].

وإذا جاءت النكرة في سياق الإثبات أفاد عموم العامة والمقضي، يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «... وفي سياق الإثبات بعموم العامة والمقتضى؛ كقوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١٤]، وإذا أضيف إليها «كل» نحو: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ [ق: ٢١]، ومن عمومها بعموم المقتضى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧]...»[٢].

كذلك من الأغراض التي تجيء لأجلها النكرة، إفادة التعظيم والتفخيم، يقول الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «والتنكير كثيرًا ما يجيء للتعظيم والتفخيم؛ كقوله: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقوله: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]، وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤]»[٣].

هذه جملة من أسرار التعريف والتنكير في القرآن، تأملها الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ، وبيَّن جملة من دقائقها وبلاغتها.

---

(١) بدائع الفوائد (٤/ ٧٨٣).
(٢) المصدر السابق.
(٣) مفتاح دار السعادة (٢/ ٥٢٤).

المَطلَبُ الثَّاني

الإعجاز في نظم الجملة القرآنية

أولًا: بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم:

الأصل في الكلام هو وضعه على الترتيب المعهود له، فالمبتدأ مقدمٌ على الخبر، والفعل مقدمٌ على الفاعل والمفعول، وهكذا في باقي المتعلقات، فالظرف والجار والمجرور، والنعت. . . متأخرةٌ عن متعلقاتها. والتغيير في هذا الترتيب إذا لم يكن له هدفٌ وإفادةٌ وزيادةٌ في المعنى قد يربك الكلام؛ ويجعل فيه شيئًا من التعقيد، لكن إذا وقع التقديم والتأخير لغرض معنوي مناسب لمقتضى الحال، فإنَّه يكون مستحسنًا في النفس، ولطيفًا ومحببًا للسامع، [١] يقول الإمام عبد القاهر رَحِمَهُ اللَّهُ ـ متحدثًا عن بلاغة التقديم والتأخير ـ: «هو بابٌ كثير الفوائد، جمُّ المحاسن، واسع التصرُّف، بعيد الغاية، لا يزال يَفترُّ لك عن بديعةٍ، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعرًا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، أن قدِّم فيه شيء، وحُوِّل اللفظ عن مكانٍ إلى مكان»[٢].

التقديم والتأخير له معانٍ جميلة، وأغراض بديعة، يدل على ما تميزت به هذه اللغة من فصاحة وبيان، أسلوب يدعو النفس إلى التأمل في أسراره والاهتمام بأغراضه؛ لتصل إلى نكت الكلام، وترتشف معاني البيان، ولقد بحث الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ أسرار التقديم والتأخير في اللغة، وكشف عن أسرار هذا الغرض الجميل، وبين ما اشتمل عليه

---

(١) راجع: البلاغة العربية. د. الميداني (١/ ٣٥٠)، ابن القيِّم وحسه البلاغي في تفسير القرآن (ص٩٨).

(٢) دلائل الإعجاز (ص١٠٦).

الكتاب العزيز من تقديمات وتأخيرات تدل على معجزة هذا القرآن، وما حوى من أعلى درجات الفصاحة والبيان، وجاء في بيانه لها باستنتاجات بديعة، وفوائد لطيفة، واستدرك فيه على بعض علماء اللغة استدراكات نفيسة.

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**التقديم والتأخير نوعان:**

نوع يخل تقديم المؤخر وتأخير المقدم فيه بفهم أصل المعنى، فهذا لا يقع في كلام من يقصد البيان والتفهيم، وإنما يقع في الألغاز والأحاجي، وما يقصد المتكلم تعمية المعنى فيه، وقد يقع بسبب شدة الاختصار، وضيق القافية عن الترتيب المفهم؛ **كقول الفرزدق**:

وَمَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إِلَّا مُمَلَّكًا أَبُو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهُ[١]

فهذا شبيه باللغز ومعناه: وما مثله في الناس حي يقاربه إلا مملك أبو أمه أبوه. وهذا النوع لا يقع في كلام الله ولا رسوله.

النوع الثاني: التقديم والتأخير الذي لا يخل بأصل المعنى، وإن أخل بالغرض المقصود، فيكون مراعاته من باب إخراج الكلام على مقتضى الحال، وهذا هو الذي يتكلم عليه علماء المعاني والبيان، قال سيبويه ـ وهو يذكر الفاعل والمفعول ـ: «كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم بشأنه أعنى، وإن كانا جميعًا يهمانهم ويعنيانهم» انتهى كلامه.

وهذا يقع في باب الاستفهام، والنفي، والمبتدأ والخبر، والفاعل والمفعول...»[٢].

ثم أخذ الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يورد الأدلة، مؤكدًا ما ذهب إليه

---

(١) البيت منسوب للفرزدق. وهو غير موجود في ديوانه، ونسبه إليه بعض أئمة اللغة؛ كالإمام عبد القاهر وغيره. انظر: أسرار البلاغة (ص٢٠).

(٢) الصواعق المرسلة (٢/٧١٧).

سيبويه، فساق الأدلة على التقديم في باب الاستفهام وشرح ذلك شرحًا مفصلًا[1]، يقول رحمه الله: «... فمن ذلك أنك إذا قلت: أفعلت كذا؟ وبدأت بالفعل كان الشك في الفعل نفسه، وكان الغرض بالاستفهام علمك بوجوده.

وإذا قلت: أنت فعلت كذا؟ فبدأت بالاسم كان الشك في الفاعل من هو، وكان التردد فيه، ففرق بين قولك: أكتبت الكتاب؟ وبين قولك: أأنت كتبته؟ وهذا كما أنه قائم في الاستفهام، فكذلك هو في التقرير، فإذا قلت: أنت فعلت هذا؟ كان المقصود تقريره، بأنه هو الفاعل، كما قال قوم إبراهيم له: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٢]، فلم يكن مرادهم السؤال عن الفعل هل وجد أم لا، ولو أرادوا ذلك لقالوا أكسرت أصنامنا؟ وإنما مرادهم السؤال عن الفاعل، ولهذا كان الجواب قوله: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣].

فالقائل: أفعلت؟ سائل عن الفعل من غير تردد بين الفاعل وغيره، وإذا قال: أأنت فعلت؟ كان قد ردَّد الفعل بينه وبين غيره، ولم يكن منه تردُّد في نفس الفعل، ومن هذا استفهام الإنكار؛ كقوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ [الإسراء: ٤٠]، وقوله: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾ [الصافات: ١٥٣]، وقوله: ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]؛ فهذا إذا قدم الاسم فيه، استحال الكلام من إنكار الفعل إلى الإنكار في الفاعل، مثل قوله: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ١١٦] ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ [يونس: ٥٩]، وقول أهل النار: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ

---

(١) بين ما أورده الإمام ابن القيِّم رحمه الله في هذا التفصيل وبين ما ذكره الإمام عبد القاهر الجرجاني تشابه كبير. فلعل الإمام ابن القيِّم نقله عنه أو عن من نقل عنه. والله أعلم. انظر: دلائل الإعجاز (ص١١١).

﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ [سبأ: ٣٢]؛ فهذا سؤال عن فعل وقع، فتوجه الإنكار إلى نسبته إلى الفاعل الذي نسب إليه، وهذا كما إذا بلغك قول عن من لم تكن تظنه به، قلت: أفلان قال ذلك؟»[١].

ثم بعد أن فرغ الإمام ابن القيِّم من شرح التقديم في باب الاستفهام، عرض عرضًا موجزًا للتقديم في باب النفي، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «كذلك التقديم بدل التأخير في النفي، فإذا قلت: ما فعلت، كنت قد نفيت عنك الفعل، ولم تتعرض لكونه فعل أو لم يفعل. وإذا قلت ما أنا فعلت، كنت قد نفيته عن نفسك، مدعيًا بأنَّ غيرك فعله»[٢].

ومن الأمثلة عليه في القرآن قوله تعالى ـ حكاية عن قوم شعيب حين قالوا لشعيب ـ: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١] يقول الزمخشري ـ عند تفسيره لهذا الآية ـ: «أي: لا تعز علينا ولا تكرم، حتى نكرمك من القتل ونرفعك عن الرجم. وإنما يعزّ علينا رهطك؛ لأنهم من أهل ديننا لم يختاروك علينا ولم يتبعوك دوننا، وقد دلّ إيلاء ضميره حرف النفي على أنّ الكلام واقع في الفاعل لا في الفعل؛ كأنه قيل: وما أنت علينا بعزيز، بل رهطك هم الأعزة علينا، ولذلك قال في جوابهم: ﴿أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [هود: ٩٢] ولو قيل: وما عززت علينا، لم يصح هذا الجواب»[٣].

توقف الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الموضع عن الكلام على بقية الأغراض، وختم حديثه بقوله: «. . . فهذا التقديم والتأخير يرجع إلى إيراد الكلام على مقتضى الحال التي يقصدها المتكلم، ومن عرف

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٧١٨).
(٢) المصدر السابق (٢/ ٧٢٢).
(٣) الكشاف (٣/ ٢٣٠).

أسلوب كلام العرب وطريقتهم في كلامهم، فهم أحكام التقديم والتأخير»[١].

لكن هذا العرض من الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ كافٍ في بيان رأيه في نظرته الأولية لقضية التقديم والتأخير، وهي كما هو ملاحظ فكرة فيها نزعة نحوية، لم تفصح عن الأغراض البلاغية بشكلٍ موسع. لكنها أبانت الغرض الأهم، وهو أنَّ التقديم والتأخير متعلق بأهمية المقدم على المأخر.

هذه الفكرة والنظرة للتقديم والتأخير تحمل في مفهومها غرضًا آخر، وإن لم يكن التركيز عليه أوليًّا في هذا الموضع من دراسة ابن القيِّم للتقديم والتأخير، لكنه يشير إليه تلميحًا في أثناء كلامه، وهذا الغرض أيضًا يعد غرضًا رئيسًا في قضية التقديم والتأخير، وهو: أنَّ التقديم والتأخير غالبًا ما يفيد التخصيص[٢]. وقد صرَّح الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ بهذا الغرض في مواضع أخرى يأتي ذكرها ـ إن شاء الله ـ.

ثم إنَّ علماء البلاغة أخذوا في البحث عن أسرار التقديم والتأخير التي بها يظهر حجم البلاغة والفصاحة، ويتضح التمايز بين البلغاء، ويُظهر شرف نظم القرآن وعلو بلاغته على بلاغة كلام العرب، فليس كافيًا في تمييز البيان أن يقال: التقديم للأهمية، ويظهر جليًّا لمن يتأمل هذا الأسلوب أنَّه ينطوي على أغراض شتى، بدأ العلماء في ذكرها من عصر سيبويه حتى عصرنا هذا[٣]، وقد قسم علماء البيان دراستهم للتقديم

---

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٧٢٣).

(٢) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري. د. محمد أبو موسى (ص٢٨٣).

(٣) لأنَّه أمر تذوقي. وكلما يذكر فيه من أغراض هي بحسب تذوق صاحبها للنص الذي ذكره.

والتأخير إلى أقسام، درسوا خلالها أغراض التقديم والتأخير حسب ما يناسب كل قسم: فقسم يدرس تقديم أجزاء الجملة الاسمية على بعضها. وقسم يدرس تقديم متعلقات الفعل على الفعل، وقسم يدرس تقديم المعمولات بعضها على بعض(١). وفي ما يلي نعرض دراسة لكل قسم من هذه الأقسام، **ونحاول أن نبيِّن رأي الإمام ابن القيِّم فيها:**

أ - تقديم أجزاء الجملة الاسمية على بعضها:

الأصل في الجملة الاسمية أن يتقدم المسند إليه ويتأخر المسند(٢)، وفي هذا التقديم أيضًا أغراض لطيفة وإن كان هو الأصل، وكذلك تأخير المسند إليه وتقديم المسند فيه أغراض أبرزها إفادة التخصيص(٣)، وقد ذكر الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ جملةً من تلك الأغراض عند بيانه لنكت التقديم والتأخير لبعض الآيات القرآنية يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «... الدعاء بالسلام دعاء بالخير، والأحسن في دعاء الخير أن يقدم الدعاء على المدعو له؛ كقوله تعالى: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [هود: ٧٣]، وقوله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ [مريم: ١٥]، وقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٤].

وأمَّا الدعاء بالشر فيقدم المدعو عليه على الدعاء غالبًا؛ كقوله لإبليس: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ﴾ [ص: ٧٨]، وقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ﴾ [الحجر: ٣٥]، وقوله: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفتح: ٦]، وقوله: ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ١٦] وسر هذا؛ أنَّ في الدعاء بالخير يقدم اسم الدعاء المحبوب المطلوب الذي تشتهيه النفوس،

(١) انظر: بغية الإيضاح (١/ ١٩٥)، البلاغة العربية د. الميداني (١/ ٣٧٦).
(٢) راجع: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري. د. محمد أبو موسى (ص٣٢٦).
(٣) انظر: بغية الإيضاح (١/ ١٩٢).

فيبدأ القلب والسمع ذكر اسم المحبوب المطلوب، ثم يتبعه بذكر المدعو له.

وأما في الدعاء عليه ففي تقديم المدعو عليه؛ إيذان باختصاصه بذلك الدعاء؛ كأنه قيل له: هذا لك وحدك، لا يشركك فيه الداعي ولا غيره، بخلاف الدعاء بالخير، فإن المطلوب عمومه، وكلما عمم به الداعي كان أفضل. فلما كان التقديم مؤذنًا بالاختصاص تُرِك.

ولهذا يقدم إذا أريد الاختصاص؛ كقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ﴾ [البقرة: ١٥٧]»[1].

ومن خلال هذه الموازنة التي عقدها ابن القيِّم رحمه الله بين اختلاف أحوال الدعاء، والتي كانت السر في التقديم والتأخير في الآيات، تتضح بلاغة القرآن وتصريفه للخطاب بحسب حال المخاطبين، وما هو مناسب لمقام الحديث؛ فإن الغرض في كل الأمثلة التي ذكرها واحد وهو الدعاء، ومع هذا اختلفت أوجه الخطاب تقديمًا وتأخيرًا، فإفادة تلك المعاني البديعة التي ذكرها.

ب ـ تقديم متعلقات الفعل:

الأصل في الفعل التقديم؛ إذ هو المسند «المحكوم به»، والأصل تأخير المسند إليه «المحكوم عليه»، وقل مثل ذلك في ما ينوب عن الفعل، ولكن قد يتغير هذا الترتيب لغرض بلاغي، يجعل في الكلام إفادة وزيادة عن وضعه على الأصل، وقد ذكر البلاغيون جملةً مما يفيده تقديم متعلقات الفعل على الفعل، فذكروا منها: التخصيص ـ وهو في الغالب لازم للتقديم ـ، والتقديم لبيان الاهتمام، والتقديم للتبرك بذكر

(١) حاشية ابن القيِّم على سُنَّة أبي داود (١١/ ١٣٧).

اسم الرب في الدعاء... وغيرها[١] من الأغراض التي تجعل للتقديم قيمةً بلاغيةً معنويةً بديعةً في الكلام.

وقد ورد في القرآن الكريم تقديمات لمتعلقات الفعل، لفتت أنظار العلماء، واسترعت أسماعهم، وشدتهم للبحث في أسرار تلك التقديمات، ومن أولئك العلماء الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد توقف عند قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] وبحث أسرار التقديم والتأخير في هذه الآية، وجاء بجملةٍ من التأملات اللطيفة البديعة، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تقديم «العبادة» على «الاستعانة» في الفاتحة من باب تقديم الغايات على الوسائل؛ إذ «العبادة» غاية العباد التي خلقوا لها، و«الاستعانة» وسيلة إليها.

ولأن «إياك نعبد» متعلق بألوهيته واسمه «الله»، و«إياك نستعين» متعلق بربوبيته واسمه «الرب»، فقدم «إياك نعبد» على «إياك نستعين» كما قدم اسم «الله» على «الرب» في أول السورة، ولأن «إياك نعبد» قسم «الرب»، فكان من الشطر الأول، الذي هو ثناء على الله تعالى؛ لكونه أولى به، و«إياك نستعين» قسم العبد، فكان من الشطر الذي له، وهو «اهدنا الصراط المستقيم» إلى آخر السورة.

ولأن «العبادة» المطلقة: تتضمن «الاستعانة» من غير عكس». ثم يقول: «وأما تقديم المعبود والمستعان على الفعلين، ففيه: أدبهم مع الله بتقديم اسمه على فعلهم، وفيه الاهتمام وشدة العناية به، وفيه الإيذان بالاختصاص، المسمى بالحصر، فهو في قوة: لا نعبد إلا إياك، ولا نستعين إلا بك، والحاكم في ذلك ذوق العربية والفقه فيها، واستقراء

(١) راجع: بغية الإيضاح (١/ ٢٠٨)، البلاغة العربية للميداني (١/ ٣٨١).

موارد استعمال ذلك مقدمًا، وسيبويه نص على الاهتمام، ولم ينف غيره. . .»[١].

ليس شأننا في هذا الموضع ما ذكره الإمام ابن القيِّم في بداية كلامه، وإنما سيق ذلك؛ ليفهم أنَّ في الآيات تقديمين: تقديمًا معنويًّا ـ حيث قدم العبودية على الاستعانة، وتبيَّن الغرض من ذلك التقديم، وسيأتي الحديث إن شاء الله عن تقديم المعاني ـ، وتقديم المعمول على العامل، فإنَّ هذا التقديم أفاد جملة من المعاني البديعة، وهذا مما ينبه على إعجاز القرآن في نظم، ويبين مرتبته من البلاغة، وملخَّص كلام ابن القيِّم: أنَّ التقديم في هذه الآية أفاد: التخصيص، والأهمية، والتعظيم لمقام الرب، وفيه الأدب مع الله، وفيه قوة في الأسلوب والخطاب، لا تحصل إلا إذا قُدِّم العامل. وهذه غاية الفصاحة والبلاغة والبيان.

ومن تقديم المعمول على العامل قوله تعالى: ـ حكاية عن إبليس ـ: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]، فتقدم في هذه الآية معمول اسم الفاعل على اسم الفاعل، يقول الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ وقد ذكر جملة من المؤكدات في هذه الآية، فذكر مؤكدين، ثم قال: «الثالث: تقديم المعمول على العامل؛ إيذانًا بالاختصاص؛ أي: نصيحتي مخصصة بكما، وفائدتها عائدة إليكما لا إليَّ»[٢].

وهذا التقديم أفاد اهتمام إبليس وحرصه البالغ على غواية آدم وزوجه، ومدى مكره وخبثه، أعاذنا الله والمسلمين من شره.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ١٦٢ ـ ١٦٥).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٢١٨). وقد ذكر ابن القيِّم جملة من الأغراض البلاغية التي اشتملت عليها الآية، وتحليله في غاية الجمال والنفاسة.

ج ـ تقديم المعمولات بعضها على بعض ولو تكافأت مراتبها:

اهتمَّ الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ببيان الفوائد من تقديم المعمولات في القرآن؛ وذلك لأهميته في إيضاح المعنى، وكذلك لأنَّه يبيِّن الدقة وقوة المعاني القرآنية؛ فالتقديم والتأخير بين المعمولات لا يكون إلا لغرض يستفاد من السياق، أو من الوضع المعنوي للكلمة؛ فقد يكون التقديم بحسب الأفضلية، أو الزمان، أو الطبع... أو يكون التقديم لجانب في اللفظ؛ من السهولة، والخفة... وبالجملة فإن التقديم والتأخير المراعي لهذه الجوانب يدلُّ على بلاغة الكلام، وقوته ورصانته، ويجعله كالعقد المنتظم أحسنَ نظام.

وقد قدمَّ الإمام ابن القيِّم أثناء دراسته للتقديم والتأخير في المعاني كلام الإمام السهيلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ واستحسنه وأثنى عليه، ثم عقَّب على كلامه، فزاد معانٍ لم يذكرها السهيلي، واستدرك عليه بعض الاستدراكات، وفي ما يلي أذكر جانبًا من كلام السهيلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي نقله عنه الإمام ابن القيِّم، ثم أورد تعقيب ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ. يقول السهيلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تقديم المعاني بأحد خمسة أشياء: «إما بالزمان، وإما بالطبع، وإما بالرتبة، وإما بالسبب، وإما بالفضل والكمال».

فإذا سبق معنى من المعاني إلى الخفة والثقل بأحد هذه الأسباب الخمسة أو بأكثرها، سبق اللفظ الدال على ذلك المعنى السابق، وكان ترتب الألفاظ بحسب ذلك، نعم، وربما كان ترتب الألفاظ بحسب الخفة والثقل لا بحسب المعنى؛ كقولهم: ربيعة، ومضر؛ وكان تقديم مضر أولى من جهة الفضل، ولكنهم آثروا الخفة؛ لأنك لو قدمت مضر في اللفظ كثرت الحركات وتوالت، فلما أخرت وقف عليها بالسكون... أما ما تقدم بتقدم الزمان: فكعاد وثمود، والظلمات والنور، فإن الظلمة

سابقة للنور في المحسوس والمعقول، وتقدمها في المحسوس معلوم بالخبر المنقول، وتقدم الظلمة المعقولة معلوم بضرورة العقل.

قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [النحل: ٧٨]، فالجهل ظلمة معقولة، وهي متقدمة بالزمان على نور العلم، ولذلك قال تعالى: ﴿فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ [الزمر: ٦]، فهي ثلاث محسوسات: ظلمة الرحم، وظلمة البطن، وظلمة المشيمة، وثلاث معقولات، وهي: عدم الإدراكات الثلاثة المذكورة في الآية المتقدمة...»[١].

أخذ الإمام ابن القيِّم يورد استدلالات السهيلي رحمه الله على تلك القواعد، ثم ختم النقل بقول السهيلي: «فمن لحظ هذه المعاني بقلبه، وتدبَّر هذا النظم البديع بلبه، ارتفع في معرفة الإعجاز عن التقليد، وأبصر بعين اليقين أنه تنزيل من حكيم حميد»[٢].

أثنى الإمام ابن القيِّم على الاستنباطات التي ذكرها السهيلي بعد أن أتمَّ النقل عنه، ويدل ذلك الثناء على موافقة الإمام ابن القيِّم السهيلي على جمال بلاغة التقديم والتأخير التي اشتمل عليها القرآن، يقول الإمام ابن القيِّم: «قلت: وقد تولج رحمه الله مضائق تضايق عن أن تولجها الإبَرُ، وأتى بأشياء حسنة وبأشياء غيرها أحسن منها، فأما تعليله تقديم ربيعة على مضر ففي غاية الحسن، وهذان الاسمان لتلازمهما في الغالب صارا كاسم واحد، فحسن فيهما ما ذكره...»[٣].

ثم عقب الإمام ابن القيِّم رحمه الله على جملة من التقديمات التي

---

(١) نتائج الفكر للسهيلي (١/ ٢٠٩)، بدائع الفوائد (١/ ٦٩).
(٢) نتائج الفكر للسهيلي (١/ ٢٠٩)، بدائع الفوائد (١/ ٧٤).
(٣) بدائع الفوائد (١/ ٧٤).

ذكرها السهيلي رَحِمَهُ اللَّهُ، وزادها بيانًا وإيضاحًا، واستدرك عليه في بعضها، **ومن ذلك تقديم الإنس على الجن:**

فقد ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ تعقيبًا على السهيلي في الحكمة من تقديم الإنس على الجن، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما تقديم الإنس على الجن في قوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦]، فلحكمة أخرى سوى ما ذكره[1]، وهو أنَّ النفي تابع لما تعقله القلوب من الإثبات، فيرد النفي عليه، وعلم النفوس بطمث الإنس ونفرتها ممن طمثها الرجال هو المعروف، فجاء النفي على مقتضى ذلك، وكان تقديم الإنس في هذا النفي أهم.

وأما قوله: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الجن: ٥]، فهذا يُعرف سره من السياق، فإن هذا حكاية كلام مؤمني الجن حين سماع القرآن، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ الآيات [الجن: ١].

وكان القرآن أول ما خوطب به الإنس، ونزل على نبيهم، وهم أول من بدأ بالتصديق والتكذيب قبل الجن، فجاء قول مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، بتقديم الإنس لتقدمهم في الخطاب بالقرآن، وتقديمهم في التصديق والتكذيب.

وفائدة أخرى وهي: أن هذا حكاية كلام مؤمني الجن لقومهم بعد أن رجعوا إليهم، فأخبروهم بما سمعوا من القرآن، وعظمته وهدايته إلى الرشد، ثم اعتذروا عمَّا كانوا يعتقدونه أولًا بخلاف ما سمعوه من الرشد، بأنهم لم يكونوا يظنون أن الإنس والجن يقولون على الله كذبًا،

---

(١) يرى السهيلي رَحِمَهُ اللَّهُ أن تقديم الجن على الإنس للشرف والفضل؛ لأنه عدَّ منهم الملائكة، وغيرهم ممن اجتنَّ عن الأبصار. انظر: نتائج الفكر (ص٢١١)، بدائع الفوائد (١/ ٧١).

فذكرهم الإنس هنا في التقديم أحسن في الدعوة، وأبلغ في عدم التهمة، فإنهم خالفوا ما كانوا يسمعونه من الإنس والجن، لمَّا تبيَّن لهم كذبهم، فبداءتهم بذكر الإنس أبلغ في نفي الغرض والتهمة، وأن لا يظن بهم قومهم أنهم ظاهروا الإنس عليهم، فإنهم أول ما أقروا بتقولهم الكذب على الله تعالى، وهذا من ألطف المعاني وأدقها، ومن تأمل مواقعه في الخطاب عرف صحته...»[(١)].

تقديم هماز على مشاء بنميم:

ذكر السهيلي رحمه الله أنَّ تقديم الهماز على المشاء بالنميمة أنَّه من باب الرتبة، لكن ابن القيِّم يرى أنَّ فيه وجوهًا أخرى غير ما ذكر، يقول رحمه الله: «وأمَّا تقديم هماز على مشاء بنميم ففيه آخر غير ما ذكره، وهو أن همزه عيب للمهموز، وإزراء به، وإظهار لفساد حاله في نفسه، وهذه قالة تختص المهموز لا تتعداه إلى غيره، والمشي بالنميمة يتعداه إلى من ينم عنده، فهو ضرر متعد، والهمز ضرره لازم للمهموز إذا شعر به؛ فانتقل من الأذى اللازم إلى الأذى المتعدي المنتشر»[(٢)].

تقديم الرجال على الركبان:

يقول ابن القيِّم ـ مضيفًا على ما ذكره السهيلي رحمه الله[(٣)] ـ: «وأما تقديم الرجال على الركبان؛ ففيه فائدة جليلة، وهي: أنَّ الله تعالى شرط في الحج الاستطاعة، ولا بد من السفر إليه لغالب الناس، فذكر نوعي الحجاج لقطع توهم من يظن أنه لا يجب إلا على راكب، وقدم الرجال اهتمامًا بهذا المعنى وتأكيدًا، ومن الناس من يقول: قدمهم جبرًا

(١) بدائع الفوائد (١/ ٧٥). (٢) المصدر السابق (١/ ٧٧).
(٣) ذكر رحمه الله أن الغرض من تقديم الرجال على الركبان الرتبة؛ لأن الراجل مقدم ترتيبًا على الراكب. انظر: نتائج الفكر (ص٢١١)، بدائع الفوائد (١/ ٧٠).

لهم[١]؛ لأن نفوس الركبان تزدريهم وتوبخهم، وتقول: إنَّ الله تعالى لم يكتبه عليكم ولم يرده منكم، وربما توهموا أنه غير نافع لهم فبدأ بهم جبرًا لهم ورحمة»[٢].

تقديم النبيين على الصديقين:

يقول الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأما تقديم النبيين على الصديقين[٣]؛ فلما ذكره[٤]، ولكون الصديق تابعًا للنبي، فإنما استحق اسم الصديق بكمال تصديقه للنبي، فهو تابع محض. وتأمل تقديم الصديقين على الشهداء؛ لفضل الصديقين عليهم، وتقديم الشهداء على الصالحين؛ لفضلهم عليهم»[٥].

تقديم السماء على الأرض:

يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ مضيفًا على كلام السهيلي: «وأما تقديم السماء على الأرض؛ ففيه معنى: وهو أنَّ السمٰوات والأرض تُذكر غالبًا في سياق آيات الرب الدالة على وحدانيته وربوبيته، ومعلوم أنَّ الآيات في السمٰوات أعظم منها في الأرض لسعتها، وعظمها، وما فيها من كواكبها، وشمسها، وقمرها، وبروجها، وعلوها، واستغنائها عن عمدٍ تُقِلُّها، أو علاقة ترفعها... إلى غير ذلك من عجائبها، وما فيها كقطرة في سعتها، ولهذا أمر سبحانه بأن يرجع الناظر فيها البصر كرة بعد كرة، ويتأمل استواءها واتساقها، وبراءتها من الخلل والفطور، فالآية فيها أعظم من الأرض، وفي كل شيء له آية سبحانه وبحمده»[٦].

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٩). (٢) بدائع الفوائد (١/ ٧٧).

(٣) في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد: ١٩].

(٤) ذكر أن تقديمهم للفضل والشرف. انظر: نتائج الفكر (ص٢١١)، بدائع الفوائد (١/ ٧١).

(٥) المصدر السابق (١/ ٧٩). (٦) المصدر السابق (١/ ٨٣).

تقديم المال على الولد:

يقول الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما تقديم المال على الولد فلم يطَّرد هذا التقديم في القرآن الكريم، بل قد جاء مقدمًا كذلك في قوله: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ﴾ [سبأ: ٣٧]، وقوله: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]، وقوله: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩].

وجاء ذكر البنين مقدمًا كما في قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ [التوبة: ٢٤]، وقوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ [آل عمران: ١٤].

فأما تقديم الأموال في تلك المواضع الثلاثة؛ فلأنه ينتظمها معنى واحد، وهو التحذير من الاشتغال بها، والحرص على تحصيلها حتى يفوته حظه من الله والدار الآخرة، فهي في موضع عن الإلتهاء بها، وأخبر في موضع أنها فتنة، وأخبر في موضع آخر أن الذي يقرب عباده إليه إيمانهم وعملهم الصالح، لا أموالهم ولا أولادهم، ففي ضمن هذا النهي عن الاشتغال بها عما يقرب إليه.

ومعلوم أنَّ اشتغال الناس بأموالهم والتلاهي بها أعظم من اشتغالهم بأولادهم، وهذا هو الواقع، حتى إنَّ الرجل ليستغرقه اشتغاله بماله عن مصلحة ولده وعن معاشرته وقربه.

وأمَّا تقديمهم على الأموال في تينك الآيتين فلحكمة باهرة، وهي أن براءة متضمنة لوعيد من كانت تلك الأشياء المذكورة فيها أحب إليه من الجهاد في سبيل الله، ومعلوم أن تصور المجاهد فراق أهله وأولاده وآبائه وإخوانه وعشيرته تمنعه من الخروج عنهم أكثر مما يمنعه مفارقته

ماله، فإن تصور مع هذا أن يقتل فيفارقهم فراق الدهر، نفرت نفسه عن هذه أكثر وأكثر، ولا يكاد عند هذا التصور يخطر له مفارقة ماله بل يغيب بمفارقة الأحباب عن مفارقة المال، فكان تقديم هذا الجنس أولى من تقديم المال.

وتأمل هذا الترتيب البديع في تقديم ما قدم، وتأخير ما أخر، يطلعك على عظمة هذا الكلام وجلالته...»[1].

اتضح مما سبق أنَّ التقديم والتأخير مهم في تحديد المعنى الدقيق الذي ينتظم الكلام عليه، ولهذا حظيَ هذا الوجه البلاغي بعنايةٍ فائقةٍ من علماء البيان، كما أنَّ هذا الوجه مهم في تحديد تفاضل الكلام، والكشف عن أسرار الإعجاز في هذا الكتاب العظيم.

ثانيًا: بلاغة الاستفهام في القرآن الكريم:

الاستفهام في الأصل من أضرب الإنشاء الطلبي، ويُعرَّف: بأنه «طلب العلم بشيء لم يكن معلومًا من قبل»[2]، ولكن هذا النوع من الاستفهامات غير واقع في حق الله تعالى، إذ هو المتصف بالعلم المطلق، يعلم ما كان، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون ﷻ، وأما الاستفهامات الواردة في القرآن فهي: إما حكاية يحكيها الله ﷻ عن أحد؛ كقوله تعالى حكاية عن الكفار: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٥١] وغيرها كثير[3].

وإما أن يكون الاستفهام خارجًا عن الأصل، ويكون له معنى غير

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ٨٤).
(٢) معجم المصطلحات البلاغية (١/ ١٨٢).
(٣) راجع: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري. د. محمد أبو موسى (ص٣٥٦).

معنى الطلب، وله أغراض متعددة كثيرة جدًّا، وقد وقع في كتاب الله جملة من هذه الاستفهامات، وجاءت بمعانٍ غاية في البلاغة والبيان، **وقد بيَّن ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ جملة من معاني تلك الاستفهامات أثناء تفسيره لآيات القرآن:**

منها: استفهام يفيد التعظيم والتهويل: بيَّن الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا النوع من أنواع الاستفهام، ووضح سر دخول التفخيم والتهويل عليه، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «... وإنما دخله التفخيم؛ لأنهم يريدون إظهار العجز والإحاطة لوصفه، فكأنه مما يستفهم عنه بجهل كنهه، فأدخلوه في باب الاستفهام الذي هو موضوع لما يجهل، وكذلك جاء: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ١، ٢] ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١، ٢]؛ أي: أنها لا يحاط بوصفها»(١).

ومنها: استفهام يراد منه تشويق السامع وتنبيهه: يقول الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٤] يقول: «في مثل هذا الاستفهام سر لطيف، ومعنى بديع، فإن المتكلم إذا أراد أن يخبر مخاطبه بأمر عجيب ينبغي الاعتناء به، وإحضار الذهن له، صدَّر له الكلام بأداة «الاستفهام»؛ لتنبيه سمعه وذهنه للخبر»(٢).

ومنها: استفهام يفيد التوبيخ والتقريع: يقول الإمام ابن القيِّم في الاستفهام الوارد في مثل قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]. «استفهام في اللفظ؛ وليس هذا استفهام استعلام، بل تقريع وتوبيخ وإنكار»(٣).

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٦٣).
(٢) الرسالة التبوكية (ص٢٠٦).
(٣) بدائع الفوائد (١/ ٢٠٨).

ومنها: **استفهام متضمن معنى الطلب**: يقول الإمام ابن القيِّم رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥] وقوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١] يقول رحمه الله: «صدَّر سبحانه الآية بألطف أنواع الخطاب، وهو الاستفهام المتضمن لمعنى الطلب، وهو أبلغ في اللطف من صيغة الأمر. والمعنى: هل أحد يبذل هذا القرض الحسن، فيجازى عليه أضعافًا مضاعفة؟»[١].

ومنها: **استفهام يفيد الإنكار**. كقوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾ [الأنعام: ١١٤] يقول ابن القيِّم رحمه الله: «استفهام إنكار، يقول: كيف أطلب حكمًا غير الله، وقد أنزل كتابًا مفصلًا»[٢].

هذه بعض أغراض الاستفهام التي جاءت في القرآن، وهو أسلوب بديع يدعو إلى التأمل والتفكر، وفيه من اللطافة ما لا يمكن حصره.

ثالثًا: بلاغة التعجب في القرآن الكريم:

طريقة التعجب تكسب الكلام قوةً في الأداء، ونفاذًا إلى قوة الإدراك في النفس. يقول الزمخشري: «معنى التعجب: تعظيم الأمر في قلوب السامعين؛ لأن التعجب لا يكون إلا من شيء خارج عن نظائره وأشكاله...»[٣].

وللتعجب معانٍ يفيدها، وقد ذكر ابن القيِّم بعض تلك المعاني حيث يقول: «التعجب كما يدل على محبة الله للفعل نحو: **(عَجِبَ رَبُّكَ**

(١) طريق الهجرتين (٢/ ٧٩٠).
(٢) الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٤٣).
(٣) تفسير الزمخشري (٦/ ١٠٣).

مِنْ شَابٍّ لَيْسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ)[١]، (وَيَعْجَبُ رَبُّكَ مِنْ رَجُلٍ ثَارَ مِنْ فِرَاشِهِ وَوِطَائِهِ إِلَى الصَّلَاةِ)[٢]، ونحو ذلك. قد يدل على بعض الفعل نحو قوله: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ [الرعد: ٥]، وقوله: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢]، ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨]، وقوله: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٠١].

وقد يدل على امتناع الحكم وعدم حسنه نحو: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ [التوبة: ٧].

وقد يدل على حسن المنع منه، وأنه لا يليق به فعله، نحو: ﴿كَيْفَ يَهْدِى اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [آل عمران: ٨٦]»[٣].

رابعًا: بلاغة الحذف في القرآن الكريم:

الحذف أسلوب بديع، فيه لطائف بلاغية تستشرف النفس لمعرفتها، وسبر أسرارها، وهذا ما جعل الإمام عبد القاهر الجرجاني يشيد بهذا الغرض، ويعلي شأنه، حيث يقول رحمه الله: «هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة»[٤].

ولا يصح الحذف في الكلام إلا إذا كانت هناك قرينة تدل على المحذوف؛ كي لا يلتبس الكلام ويضطرب[٥].

---

(١) أخرجه أحمد رقم (١٧٣٧١)، والطبراني في الكبير رقم (٨٥٣). وقال الهيثمي: «إسناده حسن» مجمع الزوائد رقم (١٧٩٥٤). وضعفه الألباني رحمه الله في: «ضعيف الجامع الصغير وزيادته» رقم (١٦٥٨).

(٢) أخرجه أحمد رقم (٣٩٤٩)، وابن حبان في «صحيحه» رقم (٢٥٥٧). وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (٣٤٧٨).

(٣) بدائع الفوائد (٤/ ٧٨٨). (٤) دلائل الإعجاز (ص١٤٦).

(٥) انظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري. د. محمد أبو موسى (ص٤٠٣).

وقد بحث الإمام ابن القيِّم بعضًا من أغراض الحذف أثناء تفسيره لآيات القرآن[١]، وبين جمال تلك الأغراض، وأفصح عن أسرارها. ومن ذلك حديثه عن ذكر الفاعل في قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] وحذفه في قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] يقول رحمه الله في ذلك: «فيه فوائد عديدة:

إحداها: أن هذا جاء على الطريقة المعهودة في القرآن الكريم، وهي أن أفعال الإحسان والرحمة والجود تضاف إلى الله ﷻ، فيذكر فاعلها منسوبة إليه، ولا يبنى الفعل معها للمفعول، فإذا جيء بأفعال العدل والجزاء والعقوبة حذف وبني الفعل معها للمفعول؛ أدبًا في الخطاب، وإضافته إلى الله تعالى أشرف قسمي أفعاله.

فمنه: هذه الآية؛ فإنه ذكر النعمة فأضافها إليه، ولم يحذف فاعلها، ولما ذكر الغضب حذف الفاعل، وبنى الفعل للمفعول فقال: ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وقال في الإحسان: ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾...»[٢].

يتلخص رأي ابن القيِّم في بيانه لبلاغة الذكر والحذف في الآيات في ما يلي:

أن نسبة النعمة إلى الله داعية لشكره، فذكرها تذكيرًا بها.

حذف الفاعل وبني المفعول على المجهول؛ تأدبًا مع الله ﷻ؛ لأن الشرَّ لا ينسب إليه تبارك وتعالى.

في ذكر الفاعل في المقام الأول بيان أنه هو المنعم وحده لا شريك له، فذكر الفاعل لإفادة التخصيص.

(١) منها ما سيأتي إن شاء الله ومنها ما ذكره الدكتور عبد الفتاح لاشين في كتابه «ابن القيِّم وحسه البلاغي» انظر: (ص٨٥).

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٢٥٠).

أن المقام الثاني مقام إعراض عنهم وترك لهم، وأما أهل النعمة مقام إشارة إليهم، وإرشاد إلى طريقهم؛ فلهذا استحق الذكر.

وقد يحذف المفعول، وفي ذلك أيضًا سرٌّ بلاغي مهم كما حذف في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ غَرْقًا ۝١ وَٱلنَّـٰشِطَـٰتِ نَشْطًا ۝٢ وَٱلسَّـٰبِحَـٰتِ سَبْحًا ۝٣ فَٱلسَّـٰبِقَـٰتِ سَبْقًا ۝٤ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ١ ـ ٥]

يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أقسم ـ سبحانه ـ بالملائكة الفاعلة لهذه الأفعال؛ إذ ذلك من أعظم آياته، وحذف مفعول النَّزع والنَّشط؛ لأنه لو ذكر ما تَنْزع وتَنْشط لأوهم التقييد به؛ ولأنَّ القسم على نفس الأفعال الصادرة من هؤلاء الفاعلين، فلم يتعلَّق الغرض بذكر المفعول»[١].

المَطْلَبُ ٱلثَّالِثُ

الإعجاز في الجمل القرآنية

أولًا: بلاغة الإيجاز في القرآن الكريم:

من أهم ما يذكره العلماء من أضرب البلاغة: الإيجاز. حتَّى إنَّ بعضهم لشدة مكانته من البلاغة قصرها عليه، فقال: «البلاغة الإيجاز»[٢]. والإيجاز هو: «أداء المقصود من الكلام بأقل عبارات متعارف عليها بين الأوساط»[٣].

وقد جاء كتاب الله ﷻ بأروع ضروب الإيجاز وأحسنها، ما يجعل النفوس تدرك أنَّ هذا الكلام لا يمكن أن يكون من عند البشر، وعلى سبيل المثال، تؤخذ الأحكام الفقهية والمعاني التشريعية من آية أو بعض آية لا تتجاوز بضع كلمات، يُسطر منها الكتب، وتستنبط منها القواعد

---

(١) التبيان في أيمان القرآن (ص٢٠٧).
(٢) انظر: البيان والتبيين (١/ ٩٦).
(٣) بغية الإيضاح (٢/ ٣٣٢) «بتصرف يسير».

الجليلة، كل ذلك من بضع كلمات، فلمَّا رأى العلماء تلك البلاغة شغفوا بارتشافها وتذوق حلاوتها، والتأمل في جمالها، وأخذوا يتأملون ما جاء به القرآن وما أُثر من أقوال العرب؛ ليدركوا البون الشاسع بين معجزة القرآن وبلاغة العرب، ومن الآيات التي شغف العلماء بتأملها وتدبر الإيجاز فيها قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٧٩](١)، وقد وقف الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ عند هذه الآية، وبين أسرار الإيجاز فيها فقال: «تأمَّل ما تحت هذه الألفاظ الشريفة من الجلالة والإيجاز، والبلاغة والفصاحة، والمعنى العظيم، فصدَّر الآية بقوله: ﴿وَلَكُمْ﴾ المؤذن بأنَّ منفعة القصاص مختصَّة بكم، عائدة إليكم، فَشَرْعُهُ إنَّما كان رحمةً بكم وإحسانًا إليكم، فمنفعته ومصلحته لكم، لا لمن لا يبلغ العباد ضُرَّه ونفعه، ثم عقَّبه بقوله: ﴿فِي ٱلْقِصَاصِ﴾ إيذانًا بأنَّ الحياة الحاصلة إنَّما هي في العدل، وهو أن يفعل به كما فعل».

ثم يقول: «ونكَّر سبحانه الحياة؛ تعظيمًا لها، وتفخيمًا لشأنها، وليس المراد حياةً ما، بل المعنى أنَّ في القصاص حُصول هذه الحقيقة المحبوبة للنفوس، المؤثرة عندها، المستحسنة في كلِّ عقل».

ثم يقول: «ثم خصَّ أولي الألباب ـ وهم أولو العقول التي عَقَلَتْ عن الله أمره ونهيه وحكمته ـ إذ هم المنتفعون بالخطاب.

ووازنْ بين هذه الكلمات وبين قولهم: «القتل أنفى للقتل»؛ ليتبيَّن مقدار التفاوت وعظمة القرآن وجلالته(٢)»(٣).

---

(١) نوع الإيجاز في الآية إيجاز القصر.

(٢) ذكر العلماء موازنة بين الآية وقول العرب، فاتضح التباين العظيم بين إيجاز القرآن الذي بلغ مرتبة الإعجاز، وبين بلاغة ذلك المثل. انظر: بغية الإيضاح (٣٣٢).

(٣) مفتاح دار السعادة (٢/ ٥٢٣ ـ ٥٢٤).

كل هذه المعاني وأكثر تحت هذه الألفاظ اليسيرة، هذا ما يرشد العاقل إلى عظمة هذا القرآن وجلال قدره.

ثانيًا: بلاغة الإطناب في القرآن الكريم:

قد يكون الكلام محتاجًا إلى تطويل، لإفادة معنىً أو استدراكه، أو توضيحه، وما إلى ذلك من الأغراض التي يحتاج الكلام إليها[1]، والإطناب إذا وقع في موضعه، أكسب الكلام جلالة ومهابة وعظمة، وقد جاء في القرآن أنواع منه، تنبه لها ابن القيِّم فبسط القول فيها، وبيَّن حسن موقعها، من ذلك:

الإطناب بالاعتراض: «وهو أن يؤتى أثناء الكلام أو بين كلامين متصلين معنًى بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب لنكتة كالتنزيه والتعظيم»[2] وغيرها.

ومن الجمل الاعتراضية التي وقعت في القرآن قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٦]، فجاءت هذه الجملة اعتراضًا بين القسم وجوابه، وكانت في غاية اللطف والدقة، يقول ابن القيِّم مفصلًا القول في ذلك: «وقع الاعتراض بين القسم وجوابه بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ ووقع الاعتراض بين الصفة والموصوف في جملة هذا الاعتراض بقوله: تعالى: ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ﴾ فجاء هذا الاعتراض في ضمن هذا الاعتراض، ألطفَ شيءٍ وأحسنه موقعًا».

ثم أخذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يبيِّن جملةً من أغراض الجملة الاعتراضية، ويستشهد عليها فيقول: «وأحسن ما يقع هذا الاعتراض إذا تضمَّن تأكيدًا أو تنبيهًا

---

(١) انظر: بغية الإيضاح (٢/٣٤٦).

(٢) معجم المصطلحات البلاغية (١/٢٢٧).

أو احترازًا؛ كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٤٢]، فاعترض بين المبتدأ والخبر بقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ لما تضمَّنه ذلك من الاحتراز الدافع لتوهُّم متوهِّم: أنَّ الوعد إنَّما يستحقه من أتى بجميع الصالحات، فرفع ذلك بقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾».

ثم يقول: «ومن ألْطف الاعتراض وأحسنه قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧]، فاعترض بقوله: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ بين الجَعْلَين.

وفوائد الاعتراض تختلف بحسب قصد المتكلِّم، وسياق الكلام، من قَصْد الاعتناء، والتقرير، والتوكيد، وتعظيم المقسم به، والمخبر عنه، ورفع توهُّم خلاف المراد، والجواب عن سؤال مقدَّر وغير ذلك. . .».

ثم يقول: «فتأمل حسن الاعتراض وجزالته في قول الربِّ تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ [النحل: ١٠١]، **فقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ اعتراضٌ بين الشرط وجوابه أفاد أمورًا:**

١ - منها: الجواب عن سؤال سائلٍ: ما حكمة هذا التبديل، وما فائدته؟

٢ - ومنها: أنَّ الذي بدِّل وأُتيَ بغيره مُنزَّل محكمٌ نزوله قبل الإخبار بقولهم.

٣ - ومنها: أنَّ مصدر الأمرين عن علمه تبارك وتعالى، وأنَّ كلًّا منهما مُنزَّل فيجب التسليم والإيمان بالأوَّل والثاني.

ومن الاعتراض الذي هو في أعلى درجات الحسن قوله تعالى:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]، فاعترض بذكر شأن حمله ووضعه بين الوصية والموصى به؛ توكيدًا لأمر الوصية بالوالدة التي هذا شأنها، وتذكيرًا لولدها بحقِّها، وما قاسَته من حمله ووضعه مما لم يتكلَّفه الأب.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ﴾ [البقرة: ٧٢، ٧٣]، فاعترض بقوله: ﴿وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ بين الجمل المعطوف بعضها على بعض؛ إعلامًا بأنَّ تَدارُؤَهم وتدافعهم في شأن القتيل ليس نافعًا لهم في كتمانه، فإنَّ الله يُظهره ولا بدَّ...»(١).

ومن أوجه الإطناب التي ذكرها الإمام ابن القيِّم رحمه الله: الإطناب بذكر الخاص بعد العام؛ وذلك لتمييزه، وبيان شرفه، وقد تحدث رحمه الله عن هذا النوع من الإطناب فقال: «عطف الخاص على العام، وعكسه؛ تنبيهًا على شرفه، وتخصيصًا له بالذكر من بين النوع؛ لأنَّه من أحق أفراد النوع بالدخول فيه، **وهنا للناس طريقان:**

أحدهما: أنَّ ذكر الخاص قبل العام، أو بعده قرينة تدل على أن المراد بالعام ما عداه.

والطريق الثاني: أنَّ الخاص ذكر مرتين: مرةً بخصوصه ومرةً بشمول الاسم العام له؛ تنبيهًا على مزيد شرفه، وَهُو كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ﴾ [الأحزاب: ٧]، وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨]...»(٢).

---

(١) التبيان (ص٣٢٣).

(٢) جلاء الأفهام (ص٢٨٧).

ثالثًا: بلاغة حسن ترتيب الجمل في القرآن الكريم:

سياق الجمل في القرآن وترتيبها يدل على جلالة هذا القرآن، وقوة نظمه، وبلوغه الإعجاز في التآلف والسبك، فجمل القرآن محاكية للمعاني التي تحملها، فإن كانت معانيها تتضمن التهديد جاءت الجمل قصيرة؛ ليكون وقعها على القلب أعظم، وإذا كان الأسلوب أسلوبًا لينًا، جاءت الجمل مشتملة على عدد من المرغبات، والمحببات؛ لتستميل المخاطب، وتسترعي ذهنه؛ ليستحسنها ويستسهلها، وقد بيَّن ذلك الإمام ابن القيِّم في عدة مواضع منها[1]: حديثه عن قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه: ٤٧، ٤٨]، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تأمل حسن سياق هذه الجمل، وترتيب هذا الخطاب، ولطف هذا القول اللين الذي سلب القلوب حسنه وحلاوته مع جلالته وعظمته، كيف ابتدأ الخطاب بقوله: إنا رسولا ربك! وفي ضمن ذلك إنا لم نأتك لننازعك ملكك، ولا لنشركك فيه، بل نحن عبدان مأموران مرسلان من ربك إليك، وفي إضافة اسم «الرب» إليه هنا دون إضافته إليهما؛ استدعاء لسمعه، وطاعته، وقبوله، كما يقول الرسول للرجل من عند مولاه: أنا رسول مولاك إليك وأستاذك، وإن كان أستاذهما معًا، ولكن ينبهه بإضافته إليه على السمع والطاعة له، ثم إنهما طلبا منه أن يرسل معهما بني إسرائيل، ويخلي بينهم وبينهما، ولا يعذبهم، ومن طلب من غيره ترك العدوان والظلم وتعذيب من لا يستحق العذاب فلم يطلب منه شططًا، ولم يرهقه من أمره عسرًا، بل طلب منه غاية النَّصَف.

---

(١) انظر: بدائع الفوائد (٣/ ٦٣٤).

ثم أخبره بعد الطلب بثلاثة إخبارات: أحدها: قوله تعالى: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ [طه: ٤٧]، فقد برئنا من عهدة نسبتك لنا إلى التقول والافتراء بما جئناك به من البرهان والدلالة الواضحة، فقد قامت الحجة، ثم بعد ذلك للمرسل إليه حالتان: إما أن يسمع ويطيع فيكون من أهل الهدى، والسلام على من اتبع الهدى، وإما أن يكذب ويتولى، فالعذاب على من كذب وتولى، فجمعت الآية طلب الإنصاف، وإقامة الحجة، وبيان ما يستحق السامع المطيع، وما يستحقه المكذب المتولي بألطف خطاب، وأليق قول، وأبلغ ترغيب وترهيب»(١).

رابعًا: الإعجاز في الوحدة الموضوعية في السور القرآنية:

من أعظم أساليب البيان والبلاغة، ترابط المعاني، واتِّحاد الأهداف والمقاصد، وتسخير النص في خدمتها، وجعل بين الكلام وشائج تربطه، فيكون كالعقد المنتظم. وقد جاء هذا الأسلوب في القرآن الكريم متناهيًا في الدقة والإتقان، وفي غاية الحسن والفصاحة والبيان، يشدُّ القلوب، ويدهش العقول؛ ذلك أنَّ السورة القرآنية تتعدد فيها الموضوعات، من ترغيبٍ وترهيبٍ، وجدلٍ، وقصصٍ... ومع التتبع والتدقيق يتبيَّن أنَّ السورة لها أهدافٌ مشتركةٌ، ومقاصد رئيسة، وكلُّ ما يرد في السورة يحقق هذه الأهداف، ويراعي تلك المقاصد(٢).

هذا هو معنى الوحدة الموضوعية، وبعبارةٍ أوجز: «هي الأهداف والمقاصد المشتركة في السورة القرآنية الواحدة، وبيان ما اشتملت عليه كل سورة من غرض أو أغراض متعددة، وإظهار الروابط والتناسق بينها»(٣).

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٣٨٩).

(٢) راجع: النبأ العظيم. د.عبد الله دراز (ص١٨٠).

(٣) دراسات في التفسير الموضوعي. د.زاهر عواض الألمعي (ص٢٤) «بتصرف».

ويعد الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ هو رائد هذه الفكرة، ومبتكر هذه النظرة في البلاغة القرآنية، فهو أول من نُقل عنه محاولات في إظهار الوحدة الموضوعية في السور القرآنية، وعنه أخذ العلماء هذه الطريقة، وتوسعوا فيها وبينوها، يقول الأستاذ محمد السنباطي: «يعتبر ابن القيِّم في هذا المجال رائدًا للمدرسة الحديثة، التي تهتم بأن تقدم أمام تفسير السورة، الإطار العام للأهداف السامية التي جاءت السورة لتعالجها، وتمثل الروح الذي يسري في كيان السورة، فيربط بين أجزائها، ويجعل كل جزءٍ منها خادمًا للآخر، ومخدومًا منه، في سبيل تحقيق الرسالة العظمى، الذي قصد من السورة أن تؤديها.

وابن القيِّم في ذلك مبتكرٌ، لا متبعٌ، ومجددٌ لا مقلد»[(١)].

ومن خلال التأمل في تفسيرات الإمام ابن القيِّم يتبين هذا المنهج بشكل واضح، فقد اطَّرد في عدة مواضع من تفسيره لآيات القرآن، وهي بشكل عام تعدُّ سمةً بارزةً في تفسير الإمام ابن القيِّم، فمثلًا في سورة الفاتحة يقول: «اعلم أنَّ هذه السورة اشتملت على أمهات المطالب العالية أتمَّ اشتمال، وتضمنتها أكمل تضمن.

فاشتملت على التعريف بالمعبود - تبارك وتعالى - بثلاثة أسماء، مرجع الأسماء الحسنى والصفات العليا إليها، ومدارها عليها، وهي: «الله، والرب، والرحمٰن» وبنيت السورة على الإلٰهية، والربوبية، والرحمة، فـ«إياك نعبد» مبني على الإلٰهية، و«إياك نستعين» على الربوبية، وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم بصفة الرحمة، والحمد يتضمن الأمور الثلاثة، فهو المحمود في إلٰهيته، وربوبيته، ورحمته، والثناء والمجد كمالان لجده.

(١) منهج ابن القيِّم في التفسير. محمد أحمد السنباطي (ص٨٤).

وتضمنت إثبات المعاد، وجزاء العباد بأعمالهم، حسنها وسيئها، وتفرُّد الرب تعالى بالحكم إذ ذاك بين الخلائق، وكون حكمه بالعدل، وكل هذا تحت قوله: «مالك يوم الدين».

وتضمنت إثبات النبوات من جهات عديدة...»[١].

حصر الإمام ابن القيِّم الأغراض والأهداف التي حققتها معاني هذه السورة، وأيَّدها في هذا التسلسل والترتيب، قبل أن يشرع في بيان معاني هذه السورة على شكل مفصل، حتى يتسنى للقارئ معرفة الوشائج بين معاني هذه السورة، والمقاصد التي تهدف لتحقيقها. وهذا يعد تطبيقًا عمليًا لما يعرف بالوحدة الموضوعية للسورة.

وهذا المنهج سلكه الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «التبيان» أثناء تفسيره للسور التي جاءت فيها أقسام قرآنية[٢]. ومن ذلك مثلًا تفسيره لسورة الفجر، حيث يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «وتضمنت هذه السورة ذمَّ من اغترَّ بقوته وسلطانه، وماله، وهم هؤلاء الأمم الثلاثة:

«قوم عاد»: اغتروا بقوَّتهم.

و**«ثمود»**: اغترُّوا بجِنَانهم، وعيونهم، وزروعهم، وبساتينهم.

و**«قوم فرعون»**: اغترُّوا بالمال والرِّياسة.

فصارت عاقبتهم إلى ما قصَّ الله علينا، وهذا شأنه ـ دائمًا ـ مع كلِّ من اغترَّ بشيءٍ من ذلك، لا بدَّ أن يُفسده عليه، ويسلبه إيَّاه.

ثمَّ ذكر ـ سبحانه ـ حال الإنسان في معاملته لمن هو أضعف منه؛ كاليتيم والمسكين، فلا يُكرِم هذا، ولا يحضُّ على طعام هذا.

---

(١) مدارج السالكين (١/٤٨).

(٢) انظر: التبيان تفسيره لسورة الضحى (ص١١٠)، وسورة العصر (ص١٣٣)، وسورة النازعات (ص٢٢٠) وغيرها.

ثمَّ ذكر حرص الإنسان على جمع المال وأكله، وحبِّه له، وذلك هو الذي أوجب له عدم رحمته لليتيم والمسكين.

ثمَّ ختم السورة بمدح «النَّفس المطمئنَّة»، وهي الخاشعة المتواضعة لربها، وما تؤول إليه من كرامته ورحمته، كما ذكر قبلها حال «النَّفس الأمَّارة»، وما تؤول إليه من شدة عذابه وَوَثَاقِهِ»[١].

وعلى هذا النحو علَّق على سورة الإنسان[٢] في كتابه «الصواعق المرسلة» يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن تأمل هذه السورة علم يقينًا أنَّه لا يجوز أن يكون المراد بألفاظها العامة إنسانًا واحدًا؛ فإنَّها سورة عجيبة التبيان، افتتحت بذكر خلق الإنسان ومبدئه، وجميع أحواله من بدايته إلى نهايته، وذكره أقسام الخلق في أعمالهم، واعتقاداتهم، ومنازلهم من السعادة والشقاوة»[٣].

إنَّ ترابط المعاني في السورة القرآنية واتِّساق ذلك وائتلافه مع المقاصد والأهداف، أسلوب بياني ظاهر في السور القرآنية، ويحتاج التنبه له إلى دقة ونظر، وجمع للمعاني المشتركة التي تهدف السورة إلى ترسيخها.

❁ ❁ ❁

(١) التبيان في أيمان القرآن (ص٤٩).

(٢) كذلك علَّق على سورة النَّحل في شفاء العليل، بمثل هذا الإجمال العام لمقاصد السورة. انظر: شفاء العليل (١/ ٣٦٠).

(٣) الصواعق المرسلة (٢/ ٧٠٦).

المَبحَثُ الثَّانِي

الإعجاز في البيان عند ابن القيِّم

ويشتمل على مطلبين:

- المطلب الأول: الإعجاز في التشبيه.
- المطلب الثاني: رأي ابن القيِّم في المجاز.

* * *

المَطلَبُ الأَوَّلُ

الإعجاز في التشبيه[1]

من أعظم خصائص التشبيه القرآني أنه يمتاز بالدقة في التشبيه، فهو يصف ويمعن حتى تصبح الصورة دقيقة واضحة أخاذة، بصورة مركبة من أجزاء تقابل تلك التي في المشبه، لكنها في المشبه به أوضح وأبين[2]، ووصف الرماني تشبيهات القرآن بأنها تشبيهات بلاغية[3]، لكونها تحتاج إلى إعمال فكر في وجه التشابه بين المشبه والمشبه به، والإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في دراسته لتشبيهات القرآن نجده يعرض تلك الصورة المركبة عرضًا مفصلًا، ويقابل بين أجزاء التشبيه مقابلةً دقيقة، مظهرًا دقة تشبيهات القرآن، وحسنها، فانظر كيف فصل التشبيه في قوله تعالى:

---

(١) يأتي الحديث عن جملة من التشبيهات القرآنية في دراسة أسلوب الأمثال عند ابن القيِّم.

(٢) انظر: المعجزة الخالدة (ص٢٣٨).

(٣) انظر: النكت في إعجاز القرآن (ص٨١).

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

يقول رحمه الله: «ذكر سبحانه للكافرين مثلين: مثلًا للسراب، ومثلًا بالظلمات المتراكمة، **وذلك لأن المعرضين عن الهدى والحق نوعان:** أحدهما: من يظن أنه على شيء، فيتبين له عند انكشاف الحقائق خلاف ما كان يظنه، وهذه حال أهل الجهل وأهل البدع والأهواء الذين يظنون أنهم على هدى وعلم، فإذا انكشفت الحقائق تبين لهم أنهم لم يكونوا على شيء، وأن عقائدهم وأعمالهم التي ترتبت عليها كانت كسراب بقيعة، يرى في أعين الناظرين ماء ولا حقيقة له.

وهكذا الأعمال التي لغير الله عز وجل وعلى غير أمره، يحسبها العامل نافعة له وليست كذلك، وهذه هي الأعمال التي قال الله عز وجل فيها: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وتأمل تشبيه الله سبحانه السراب بالقيعة ـ وهي الأرض الخالية القفر من البناء والشجر والنبات، والعالم ـ فمحلُّ السراب أرض قفر لا شيء بها، والسراب لا حقيقة له، وذلك مطابق لأعمالهم وقلوبهم التي أقفرت من الإيمان والهدى. وتأمل ما تحت قوله: ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾، والظمآن الذي اشتد عطشه، فرأى السراب فظنه ماء فتبعه فلم يجده شيئًا، بل خانه أحوج ما كان إليه، فكذلك هؤلاء، لما كانت أعمالهم على غير طاعة الرسل، ولغير الله، جُعلت كالسراب، فرفعت لهم أظمأ ما كانوا وأحوج ما كانوا إليها، فلم يجدوا شيئًا، ووجدوا الله سبحانه ثَمَّ؛ فجازاهم بأعمالهم ووفاهم حسابهم»(١).

تأمل كيف قابل الإمام ابن القيِّم رحمه الله أجزاء هذا التشبيه بأجزاء المشبه

---

(١) إعلام الموقعين (٢/ ٢٧٦).

به؛ فأظهر خلال ذلك دقة تطابق المشبه مع المشبه به، ومن الملاحظ أنه درس التشبيه في هذا المثل من عدة جهات، نذكرها مرتبة كما يلي:

أولًا: عرض ابن القيِّم التشبيه في البداية عرضًا مجملًا، وقابل بين الصورتين مقابلة كلية.

ثانيًا: بعد العرض المجمل للمشبه والمشبه به، بدأ يفصل القول في أجزاء التشبيه فيبيِّن السر في اختيار الألفاظ التي تحمل معانٍ مطابقة تمامًا لحال المشبه فيقول: «وتأمل تشبيه الله سبحانه السراب بالقيعة ـ وهي الأرض الخالية القفر من البناء والشجر والنبات، والعالم ـ فمحلُّ السراب أرض قفر لا شيء بها، والسراب لا حقيقة له».

ثم يبيِّن دقة المطابقة بين المشبه والمشبه به في المعاني والألفاظ فقال: «وذلك مطابق لأعمالهم وقلوبهم التي أقفرت من الإيمان والهدى». فاتضح لنا أن السراب لا حقيقة له وكذلك أعمال الكفار، وصفة هذا السراب أنه بقيعة وهي الأرض المقفرة، وكذلك صفة أعمال الكفار أنها من قلوب مقفرة من الإيمان. فظهر من خلال ذلك التطابق بين المشبه والمشبه به.

ثالثًا: بيَّن ابن القيِّم السر في وصف حال الرائي لذلك السراب بالظمأ فقال: «وتأمل ما تحت قوله: ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ [النور: ٣٩] والظمآن الذي اشتد عطشه، فرأى السراب فظنه ماء فتبعه فلم يجده شيئًا، بل خانه أحوج ما كان إليه، فكذلك هؤلاء، لما كانت أعمالهم على غير طاعة الرسل، ولغير الله، جُعلت كالسراب، فرفعت لهم أظمأ ما كانوا وأحوج ما كانوا إليها، فلم يجدوا شيئًا». فظهر أنّ السر في وصف حال الرائي لذلك السراب بالظمأ لما له من شدّة اللّهف، واتضح أن هذه الصفة مشتركة بينه وبين الكافر عند حاجته لأعماله.

رابعًا: نلحظ أن ابن القيِّم من خلال دراسته لهذا المثل، يبرز الصفات المشتركة بين المشبه والمشبه به، فتشبيه أعمالهم بسراب بقيعة مطابق لحال أعمالهم التي لا حقيقة لها؛ لأنها كانت من قلب مقفر من الإيمان كالأرض المقفرة.

وأن الظمآن أحوج ما يكون إلى الماء، فإذا لم يجده اشتدّت حسرته، وكذلك صاحب تلك الأعمال لم تنفعه أحوج ما يكون إليها.

ومن التشبيهات القرآنية البديعة التي شدت أنظار العلماء؛ التشبيه الواقع في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣٠، ٣١].

ولهم في هذا التشبيه توجيهان[١] ذكرهما ابن القيِّم رحمه الله فقال: «تأمل هذا المثل ومطابقته لحال من أشرك بالله وتعلق بغيره، **ويجوز لك في هذا التشبيه أمران**:

أحدهما: أن تجعله تشبيهًا مركبًا، ويكون قد شبَّه من أشرك بالله، وعبد معه غيره برجل قد تسبب إلى هلاك نفسه هلاكًا لا يرجى معه نجاة، فصور حاله بصورة من خرَّ من السماء فاختطفه الطير في الهويِّ فتمزق مزعًا في حواصلها، أو عصفت به الريح حتى هوت في بعض المطارح البعيدة، وعلى هذا لا ينظر إلى كل فرد من أفراد الشبه ومقابلته من المشبه به.

(١) نقل الإمام ابن القيِّم هذين التوجيهين من الزمخشري. انظر: (٤/ ١٩٢).

والثاني: أن يكون من التشبيه المفرَّق، فيقابل كل واحد من أجزاء الممثل بالممثل به، وعلى هذا فيكون قد شبه الإيمان والتوحيد في علوه وسعته وشرفه بالسماء التي هي مصعده ومهبطه، فمنها يهبط إلى الأرض، وإليها يصعد منها، وشبه تارك الإيمان والتوحيد بالساقط من السماء إلى أسفل سافلين من حيث التضييق الشديد والآلام المتراكمة، والطير الذي يخطف أعضاءه ويمزقه كل ممزق؛ بالشياطين التي يرسلها الله ﷻ عليه تؤزه أزًّا وتزعجه وتقلقه إلى مظان هلاكه، فكل شيطان له مزعة من دينه وقلبه، كما أن لكل طير مزعة من لحمه وأعضائه، والريح التي تهوي به في مكان سحيق هو هواه الذي يحمله إلقاء نفسه في أسفل مكان وأبعده من السماء»(١).

اتضح من خلال شرح ابن القيِّم الفرق بين التشبيه المركب والمفروق، فالمركب مقابلة الصورة الكلية للمشبه بالمشبه به(٢).

والتشبيه المفروق: تشبيه كل جزء بما يقابله في المشبه به(٣).

المَطْلَبُ الثَّانِي

رأي ابن القيِّم في المجاز

المجاز(٤) من الأمور التي اتخذها نفاة الصفات ذريعة إلى إنكار صفات الله تعالى، ونسبوا الصفات الواردة في القرآن والسُّنَّة إلى المجاز ـ تعالى الله عما يقولون ـ وكانت هذه الدعوى مما يتترسون به، ويدافعون

---

(١) إعلام الموقعين (٢/ ٣١١).

(٢) انظر: معجم المصطلحات البلاغية (٢/ ٢٠١).

(٣) انظر: المرجع السابق (٢/ ٢١٣).

(٤) المجاز يراد به: «الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له، في اصطلاحٍ به التخاطب، على وجهٍ يصحُّ مع قرينةٍ عدم إرادته». انظر: بغية الإيضاح (٣/ ٤٥٩).

بها عن أقوالهم الفاسدة، يقول الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا الطاغوت لهج به المتأخرون، والتجأ إليه المعطلون، جعلوه جنة يتترسون بها من سهام الراشقين، ويصدون به عن حقائق الوحي المبين»(١).

ثم بيَّن رَحِمَهُ اللَّهُ بطلان وقوع المجاز عقلًا وشرعًا، ولغة، وفصَّل القول في ذلك تفصيلًا دقيقًا، ودفع شبه القائلين به بأكثر من خمسين وجهًا، مستشهدًا بكلام أئمة الدين واللغة، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «تقسيمكم الألفاظ ومعانيها واستعمالها فيها إلى حقيقة ومجاز: إما أن يكون عقليًا أو شرعيًّا أو لغويًّا أو اصطلاحيًّا، والأقسام الثلاثة الأُوَل باطلة، فإن العقل لا مدخل له في دلالة اللفظ وتخصيصه بالمعنى المدلول عليه حقيقة كان أو مجازًا، فإن دلالة اللفظ على معناه ليست كدلالة الانكسار على الكسر، والانفعال على الفعل، ولو كانت عقلية لما اختلفت باختلاف الأمم ولما جهل أحد معنى لفظ، والشرع لم يرد بهذا التقسيم، ولا دلَّ عليه، ولا أشار إليه، وأهل اللغة لم يصرح أحد منهم بأن العرب قسَّمت لغاتها إلى حقيقة ومجاز، ولا قال أحد من العرب قط: هذا اللفظ حقيقة وهذا مجاز، ولا يوجد في كلام من نقل لغتهم عنهم مشافهة ولا بواسطة ذلك، ولهذا لا يوجد في كلام الخليل وسيبويه والفراء وأبي عمرو بن العلاء والأصمعي وأمثالهم، كما لم يوجد ذلك في كلام رجل واحد من الصحابة ولا من التابعين ولا تابعي التابعين، ولا في كلام أحد من الأئمة الأربعة»(٢).

ثم أخذ الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ يبيِّن ويفصِّل القول في ذلك، ويرد

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة (٢/ ٦٩٠).

(٢) المرجع السابق (٢/ ٦٩٢).

على شبه القائلين بالمجاز ويناقش أقوالهم، فأفصح، وأفاد وأجاد رحمه الله تعالى[١].

❁ ❁ ❁

(١) ومن خلال هذا نتبيَّن السبب الذي جعل الإمام ابن القيِّم رحمه الله لم يكثر من دراسة علم البيان وتطبيقاته، وربما كان ذلك تحرزًا منه أن يقع في الزلل الذي وقع فيه بعض من قال بهذا القول، وإن كان رحمه الله قد أشار بعدة إشارات إلى بعض أنواع هذا العلم، نحو: الكناية، والتعريض: انظر: الصواعق المرسلة (٢/ ٥٠٣)؛ ولكنه لم يطنب القول في ذلك. وقد أوردت رأيه وفَصَّلته بمطلب مستقل وإن لم يكن له علاقة بالإعجاز؛ لأنه رأي مهم يجب أن يبرزه كل من تحدث عن آراء العلماء في البلاغة عمومًا، ناهيك أن يكون البحث في بلاغة القرآن وإعجازه، بل وعند ابن القيِّم الذي يعتبر أحد أبرز القائلين بهذا القول والمقررين له، فرأيه في هذه المسألة مشهور، وقد أخذه العلماء عنه وعن شيخه؛ ولما كان رأيه في المسألة عمدة؛ آثرت أن أبرزه على هذا النحو.

المَبْحَثُ الثَّالِثُ
الإعجاز في البديع عند ابن القيِّم

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

- **المطلب الأول: بلاغة المقابلة والطباق في القرآن الكريم.**
- **المطلب الثاني: بلاغة الاستطراد في القرآن الكريم.**
- **المطلب الثالث: بلاغة الازدواج في القرآن الكريم.**

* * *

المَطْلَبُ الأَوَّلُ
بلاغة المقابلة والطباق في القرآن الكريم

اشتمل القرآن على جملةٍ من المقابلات بين المعاني والألفاظ، كانت تلك المقابلات من أعظم البلاغة في القرآن الكريم، فقد امتازت بلطفٍ ودقةٍ معنويةٍ أخاذةٍ.

والمقابلة لغة: من مقابلة الشيء بالشيء. والمقابلة: المواجهة والتقابل[1].

وفي الاصطلاح: «هي أن يوفق بين معان ونظائرها والضد بضده»[2].

وقد اهتمَّ الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ بإظهار أسرار المقابلة في القرآن، وفي بيان حسنها ونظمها البديع، ومن ذلك ما بينه في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ

(١) انظر: لسان العرب (٥/ ٣٥١٩). (٢) إعجاز القرآن للباقلاني (ص٨٧).

أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ ـ ١٠] يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإن قيل: كيف قابلَ «اتَّقى» بـ«استغنى»؟ وهل يمكن العبد أن يستغني عن ربِّه طرْفة عين؟

قيل: هذا من أحسن المقابلة، فإنَّ المتَّقي لما استشعر فَقْره وفاقَته، وشدَّة حاجته إلى ربِّه اتَّقاه، ولم يتعرَّض لسخطه وغضبه ومقْته؛ بارتكاب ما نهاه عنه. فإنَّ من كان فقيرًا شديد الحاجة والضرورة إلى شخصٍ، فإنَّه يتقي غضبه وسخطه عليه غاية الاتِّقاء، ويجانب ما يكرهه غاية المجانبة، ويعتمد فعل ما يحبُّه ويُؤْثِره.

فقابلَ التقوى بالاستغناء تشنيعًا لحال تارك التقوى، ومبالغةً في ذمِّه بأن فَعَلَ فِعْلَ المستغني عن ربِّه، لا فِعْلَ الفقير المضطرِّ إليه الذي لا ملجأ له إلا إليه، ولا غنى له عن فضله وجوده وبرِّه طرفة عين. فللَّه ما أحْلى هذه المقابلة!»[1].

ويقول رَحِمَهُ اللَّهُ عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨، ١١٩]، «فقابلَ بين الجوع والعُريِّ؛ لأنَّ الجوع ذلُّ الباطن، والعُريَّ ذلُّ الظاهر، وقَابلَ بين الظمأ وهو حرُّ الباطن، والضُّحى وهو حرُّ الظاهر بالبروز للشمس.

وقريبٌ من هذا قوله ﷻ: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]؛ ذَكَرَ الزاد الظاهر الحسِّيَّ، والزاد الباطن المعنويَّ، فهذا زاد سفر الدنيا، وهذا زاد سفر الآخرة[2].

---

(١) التبيان (ص٩٧).

(٢) هذا من باب الجناس الذي هو: «إيراد لفظين متطابقين في الشكل مختلفين في المعنى». انظر: بغية الإيضاح: (٤/ ٦٤٠). والظاهر أنَّ ابن القيِّم لم يفرق بينهما كما كان عليه علماء البلاغة الأوائل.

ويُلمُّ به قول هود: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ [هود: ٥٢]؛ **فالأول**: القوَّة الظاهرة المنفصلة عنهم، **والثاني**: الباطنة المتصلة بهم.

ويشبهه قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ﴾ [الطارق: ١٠]، فنفى عنهم الدَّافعين: الدافع من نفسه وقُواه، والدافع من خارجٍ وهو النَّاصر[١]»[٢].

وهذا من دقيق الفهم، وتمام الحسِّ البلاغيِّ الذي يتمتع به الإمام ابن القيِّم.

المَطْلَبُ الثَّانِي

بلاغة الاستطراد في القرآن الكريم

الاستطراد في الكلام أسلوبٌ يُظهر بلاغة المتكلم، ويبيِّن جمال أسلوبه. ومعناه: «هو الانتقال من موضوعٍ إلى موضوعٍ آخر. مع حسن الخروج»[٣].

وقد جاءت في القرآن استطرادات في منتهى الحسن، وغاية البيان، بيَّن الإمام ابن القيِّم بعضها، وذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٣ ـ ١٨]،

---

(١) هذان المثالان من باب الطباق الخفيّ، وهذا يؤكد أنَّ ابن القيِّم يسير في منهجه على دراسة القدماء من علماء اللغة للبلاغة؛ أي: قبل مرحلة النضج؛ فقد تأخر نضج علم البلاغة إلى عصر السكاكي، والسمة البارزة لدراسة البلاغيين الأوائل هي الاهتمام بعلم المعاني، وهذا ملاحظ على دراسة ابن القيِّم للبلاغة القرآنية. راجع: البلاغة بين التاريخ والفن (ص١٨٨).

(٢) التبيان (ص٢٤٢).

(٣) معجم مصطلحات البلاغيين (١/ ١٣٠).

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولما ذكر ـ سبحانه ـ رؤيته لجبريل عند «سدرة المنتهى» استطرد منها، وذكر أن جنَّة المأوى عندها، وأنَّه يغشاها من أمره وخلقه ما يغشى.

وهذا من أحسن الاستطراد، وهو أسلوبٌ لطيفٌ جدًّا في القرآن، **وهو نوعان:**

أحدهما: أن يستطرد من الشيء إلى لازمه، مثل هذا، ومثل قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]، ثمَّ استطرد من جوابهم إلى قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف: ١٠ ـ ١٣]، وهذا ليس من جوابهم ولكن تقريرًا له، وإقامةً للحجَّة عليهم.

ومثله قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٤٩ ـ ٥٢] فهذا جواب موسى ثمَّ استطرد ـ سبحانه ـ منه إلى قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٣ ـ ٥٥]، ثمَّ عاد إلى الكلام الذي استطرده منه.

والنَّوع الثاني: أن يستطرد من الشخص إلى النَّوع كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٣] إلى آخره، **فالأوَّل**: آدم، **والثاني**: بنوه.

ومثله قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٩، ١٩٠] إلى آخر الآيات، فاستطرد من ذِكْر الأبوين إلى ذِكْر المشركين من أولادهما، والله أعلم»[(١)][(٢)].

المطلب الثالث

بلاغة الازدواج والمشاكلة في القرآن الكريم

لم يفصل علماء البلاغة في المراد من الازدواج[(٣)]، حيث أنه لم يرد في الكتب التي أصَّلت لعلوم البلاغة، من مثل كتاب: «الإيضاح»، و«التلخيص»، وشروحه. وغاية ما ورد في هذا الوجه البلاغي: إشارات إلى أنه أشبه بالسجع[(٤)]؛ بيد أن هذا الرأي إذا عُرض على تطبيقات العلماء[(٥)] ـ ومنها تطبيقات الإمام ابن القيِّم رحمه الله ـ لهذا الغرض البلاغي

---

(١) التبيان (ص٣٩٧).

(٢) وقد ذكر الإمام ابن القيِّم رحمه الله جملة من أنواع الاستطراد في القرآن الكريم في موضع آخر، لكن هذا الموضع أوفى وأكثر أمثلة من ذلك الموضع، لذلك آثرت الاكتفاء به لدلالته على المراد. انظر: روضة المحبين (ص٤٠٤).

(٣) لا بد من التنبه إلى أن ثمة مصطلح في هذا العلم شبيه من حيث التسمية بهذا الوجه البلاغي، وهو: «المزاوجة»، وهذا المصطلح وتطبيقاته مختلفة تمامًا عن الازدواج الذي ندرسه هنا، فإن الازدواج أعم من المزاوجة. راجع: معجم المصطلحات البلاغية (١/ ١٠٠).

(٤) راجع: ما كتبه الدكتور محمد أبو موسى في كتابه: «البلاغة القرآنية في تفسير الكشاف» (ص٥٩٠)؛ فقد بيَّن ـ حفظه الله ـ ذلك، و«معجم المصطلحات البلاغية» (١/ ٩٧).

(٥) من الكتب التي فصلت القول في الازدواج وذُكر فيها أمثلة له، كتاب «الفوائد المشوقة»، فقد قال مؤلفه فيه: «الازدواج: وهو أن يزاوج بين الكلمات أو الجمل =

يظهر بُعده، ويتبين أنهم عنوا به شيئًا أخص من السجع؛ لأن السجع مختص بأواخر الكلم، والازدواج ـ حسب تطبيقات العلماء، وبالأخص الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ ـ يعنون به مشاكلة الكلمة للكلمة في اللفظ والمعنى.

ومن خلال التتبع يظهر أن الازدواج مصطلح رديف لما يسميه البلاغيون بـ«المشاكلة»، أو أنه بعض أنواعه، والمراد بالمشاكلة: «هي أن تذكر الشيء بلفظ غيره؛ لوقوعه في صحبته»(١).

وقد ذكر الفراء رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الوجه في «معاني القرآن»(٢)، وذكره الرماني، وأفرد له بابًا في رسالته، وسماه التجانس، وقسمه إلى قسمين: المزاوجة والمناسبة(٣). ونلحظ أن الأمثلة التي ذكرها الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ

= بكلام عذب، وألفاظ حلوة. ومثاله في الكتاب العزيز قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾ [البقرة: ٩]...». الفوائد المشوقة (ص٢٢٥)، ثم ذكر جملة من الأمثلة التي تفيد بمفهومها أنه يريد المصطلح الذي يعنيه الإمام ابن القيِّم.

● مما يجب التنبيه إليه في هذا المقام؛ أن هذا الكتاب الذي نقلت عنه قد نسب إلى الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ من باب الخطأ، فلا تصح نسبة هذا الكتاب إليه بحال، ونسبته إليه من أبشع الأخطاء التي ارتكبها النساخ، فإن أدنى موازنة بين هذا الكتاب وبين كتب ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ تكشف زيف هذه النسبة، وسيأتي التنبيه على ذلك في مبحث «تأثير ابن القيِّم في المؤلفين في علوم اللغة»، وإنما دفعني إلى هذا التنبيه؛ أنه قد يتوهم قارئ أن اتفاق ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الوجه البلاغي مع ما ذكره صاحب هذا الكتاب دليل على أن هذا الكتاب لابن القيِّم! فأقول: بل من يستعرض كلام ابن القيِّم في هذا الوجه وما ذكره صاحب هذا الكتاب، ويوازن بينهما؛ يتبيَّن له أن هذا الكتاب لا يمكن أن يكون للإمام ابن القيِّم، وليس على منهجه في تحرير المسائل، ودقة ضبطه وتحليله.

(١) معجم المصطلحات البلاغية (١/ ٩٩).

(٢) انظر: معاني القرآن للفراء (١/ ١١٦).

(٣) انظر: النكت في إعجاز القرآن (ص٩٩).

لهذا الوجه نحو الأمثلة التي ذكرها الفراء والرماني، ما يدل على أنه يريد الوجه الذي ذكراه.

وقد ذكر الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا النوع من أنواع علم البديع كثيرًا في كتبه، وأبداه في غير موضع، وذكره مرة بالمشاكلة، ومرة بالازدواج، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تقريره لصفات الله عَزَّ وَجَلَّ التي تذكر على وجه المقابلة: «... وهو سبحانه ينسب إلى نفسه أحسن هذه المعاني، وما هو منها حكمة وحق وصواب، وجزاء للمسيء، وذلك غاية العدل والحق؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥، ١٦]، وقوله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، وقوله: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٥].

فهذا منه سبحانه فى أعلى مراتب الحسن، وإن كان من العبد قبيحًا سيئًا؛ لأنه ظالم فيه، وموقعه بمن لا يستحقه، والرب تعالى عادل فيه، موقعه بأهله ومن يستحقه، سواء قيل: إنه مجاز للمشاكلة الصورية، أو للمقابلة، أو سماه كذلك مشاكلة لاسم ما فعلوه، أو قيل: إنه حقيقة، وإن مسمى هذه الأفعال ينقسم إلى مذموم ومحمود، واللفظ حقيقة في هذا وهذا، كما قد بسطنا هذا المعنى واستوفينا عليه الكلام فى كتاب: «الصواعق»[(١)].

ويلحظ أنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ لفت في آخر كلامه إلى قضية مهمة ـ لا سيما عنده رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ، فقد نبَّه إلى أن المشاكلة قد عدها البعض من أضرب المجاز، ولكن ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بين ضعف هذا القول في كتابه كما ذكر، وأكد أن هذه الألفاظ لها معان محمودة ومعان مذمومة، بحسب من

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ٨١٠).

تصدر منه، وبهذا يؤكد رَحِمَهُ اللَّهُ أن هذه الألفاظ محمولة على الحقيقة لا على المجاز(١).

وأما عن ذكره رَحِمَهُ اللَّهُ لهذا الوجه معبرًا عنه بمصطلح الازدواج، فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «... ازدواج الكلام في البلاغة والفصاحة: مثل قوله: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، و﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٩٤]، فكذلك: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ٢]، ومعبودهم لا يعقل.

ثمَّ ازدوج مع هذا الكلام قوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ فاستوى اللفظان، وإن اختلف المعنيان...»(٢).

وقال عند قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]: «فإنهم كان عندهم من صفته قبل أن يروه ما طابق شخصه عند رؤيته، وجاء كما يعرفون أبناءهم من باب ازدواج الكلام، وتشبيه أحد اليقينين بالآخر فتأمله...»(٣).

❁ ❁ ❁

(١) انظر: مختصر الصواعق المرسلة للموصلي (٢/ ٧٣٧).
(٢) بدائع الفوائد (١/ ١٣٩).
(٣) المصدر السابق (٢/ ٢٨٩).

ٱلْفَصْلُ ٱلرَّابِعُ

الإعجاز اللفظي عند ابن القيِّم

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

- **المبحث الأول: فصاحة الألفاظ وأثرها في الإعجاز عند ابن القيِّم.**
- **المبحث الثاني: جزالة الألفاظ وعذوبتها وأثرها في الإعجاز عند ابن القيِّم.**
- المبحث الثالث: ائتلاف الألفاظ مع المعاني وأثرها في الإعجاز عند ابن القيِّم.

المبحث الأول

فصاحة الألفاظ وأثرها في الإعجاز عند ابن القيِّم

من لوازم البلاغة، أن تكون الألفاظ فصيحة[١]، **وفصاحتها تتمُّ إذا خلت من ثلاثة أمور:**

الأول: التنافر: وهو أن تكون الكلمة متناهيةً في الثقل على اللسان. **كلفظ** «مستشزر» **في قول امرئ القيس:**

غَدَائِرُهُ مُسْتَشْزِرَاتٌ إِلَى الْعُلَا[٢]

الثاني: الغرابة: وهو أن تكون الكلمة قليلة الاستعمال مهجورة وحشية.

الثالث: مخالفة القياس: كقول الشاعر:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الأَجْلَلِ[٣]

والقياس: «الأجلّ» بالإدغام.

وقيل: فصاحة الكلمة خلوصها من الكراهية في السمع[٤].

ولا بد للكلام البليغ أن تكون ألفاظه خاليةً من هذه العيوب،

---

(١) إنَّما توصف الألفاظ بالفصاحة ولا توصف الجمل بذلك، كما أنَّ البلاغة لا تطلق على اللفظة، فلا يقال «لفظة بليغة» وإنَّما «لفظة فصيحة». **انظر:** مفتاح العلوم (ص٥٢٦).

(٢) **الغدائر:** جمع الغديرة: وهي الخصلة من الشعر، **الاستشزار:** الارتفاع. قال هذا البيت في وصف فرسه. **انظر:** شرح ديوان امرئ القيس (١/ ٤٣).

(٣) هذا البيت من أرجوزة لأبي النجم العجلي. **انظر:** خزانة الأدب (٢/ ٣٩٠).

(٤) **انظر:** مفتاح العلوم (ص٥٢٦).

وكتاب الله العظيم الذي بلغ في الفصاحة منتهاها، وفي البلاغة أعلاها، منزَّهة ألفاظه عن الاتصاف بجزء من هذه الأوصاف، وإنَّما جاءت ألفاظه من السهولة واليسر ما يجعلها محبَّبة للنفس، تستأنس الآذان بسماعها، بعيدةً عن الغرابة، والوحشية، يدرك الناس معانيها بسهولةٍ ويسرٍ، وقد قرَّر الإمام ابن القيِّم رحمه الله هذا بقوله: «أنزل الله سبحانه الكتاب شفاءً لما في الصدور، وهدىً، ورحمةً للمؤمنين، ولذلك كانت معانيه أشرف المعاني، وألفاظه أفصح الألفاظ وأبينها وأعظمها، مطابقةً لمعانيها المرادة منها، كما وصف سبحانه به كتابه في قوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣].

فالحق: هو المعنى والمدلول الذي تضمنه الكتاب. والتفسير الأحسن: هو الألفاظ الدالة على ذلك الحق، فهي تفسيره وبيانه.

والتفسير أصله في الظهور والبيان، وباقيه في الاشتقاق الأكبر: الإسفار؛ ومنه: أسفر الفجر إذا أضاء ووضح، ومنه: السفَرَ لبروز المسافر من البيوت وظهوره، ومنه: السِّفْر الذي يتضمن إظهار ما فيه من العلم وبيانه، فلا بد من أن يكون التفسير مطابقًا للمفسر مفهمًا له، وكلما كان فهم المعنى منه أوضح وأبين كان التفسير أكمل وأحسن، ولهذا لا تجد كلامًا أحسن تفسيرًا، ولا أتم بيانًا، من كلام الله سبحانه، ولهذا سماه سبحانه بيانًا، وأخبر أنَّه يسره للذكر، وتيسيره للذكر يتضمن أنواعًا من التيسير:

إحداها: تيسير ألفاظه للحفظ.

الثاني: تيسير معانيه للفهم.

الثالث: تيسير أوامره ونواهيه للامتثال...»[1].

---

(١) الصواعق المرسلة (١/ ٣٣١).

القرآن الكريم أفصح كلام، وصيغ ألفاظه أحلى وأعذب الصيغ، وأدقها إفادةً للمعاني المقصودة منها، ولهذا لما كانت بعض الألفاظ مستثقلةً في النطق، نابئة في الآذان؛ عدل القرآن عنها بأحسن الطرق وألطفها، ومن ذلك ما قرَّره الإمام ابن القيِّم أثناء حديثه عن جمع لفظة: «السماء»، ولفظة: «الأرض». يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإن قلت فلمَ جمعوا السماء فقالوا: سماوات؟ وهلا راعوا فيها ما راعوا في الأرض فإنها مقابلة؟ فما الفرق بينهما؟

قيل: بينهما فرقان: فرق لفظي، وفرق معنوي:

أما اللفظي: فإنَّ الأرض على وزن ألفاظ المصادر الثلاثة وهو «فعل» كـ«ضرب»، وأما السماوات كان نظيرها في المصادر «التلاء» و«الجلاء» فهي بأبنية الأسماء أشبه.

وإنما الذي يماثل الأرض في معناها ووزنها السفل والتحت، وهما لا يثنيان ولا يجمعان، وفي مقابلتهما الفوق والعلو، وهما كذلك لا يجمعان، على أنه قد قيل: إنَّ السماوات ليس جمع «سماء»، وإنما هي جمع «سماوة»، وسماوة كل شيء أعلاه، وأما جمع «سماء» فقياسه «أسمية» كـ«أكسية» و«أغطية» أو «سمٰوات» وليس هذا بشيء، فإن «السماوة» هي أعلى الشيء خاصة ليست باسم لشيء عال، وإنما هي اسم لجزئه العالي، وأما السماء فاسم لهذا السقف الرفيع بجملته، فالسماوات جمعه لا جمع أجزاء عالية منه على أنه كل عال.

وأحسن من هذا الفرق أن يقال: لو جمعوا أرضًا على قياس جموع التكسير لقالوا: آرض كأفلس، أو آراض كأجمال، أو أروض كفلوس، فاستثقلوا هذا اللفظ إذ ليس فيه من الفصاحة والحسن والعذوبة ما في لفظ السماوات، وأنت تجد السمع ينبو عنه بقدر ما يستحسن لفظ

السماوات، ولفظ السماوات يَلِجُ في السمع بغير استئذان لنصاعته وعذوبته.

ولفظ الأراضي لا يأذن له السمع إلا على كره ولهذا تفادوا من جمعه إذا أرادوه بثلاثة ألفاظ تدل على التعدد كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] كل هذا تفاديًا من أن يقال: أراضٍ وآرض»[١].

وهذا من تمام فصاحة ألفاظ القرآن، وموافقتها للقياس الحَسَن، وعذوبتها وسلامتها من عيوب الكلام.

كما أنَّ من الفصاحة للكلمة أن تأتي على الوزن الدقيق الذي يحتاجه المعنى، فإن هناك فروقًا بين أوضاع الكلام[٢]، فكان ذلك داعيًا للتأمل في ألفاظ القرآن، وباعثًا للبحث عن السرِّ في وضعها على تلك الاشتقاقات، وقد عمد الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ إلى بيان تلك الأسرار، وكشف اللطائف المشتملة عليها، من ذلك تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]، يقول رَحِمَهُ اللهُ: «وأمَّا «العيشة الراضية» فالوصف بها أحسنُ من الوصف بالمرضيَّة، فإنَّها اللَّائقة بهم، فشبَّه ذلك برضاها بهم كما رَضوا بها؛ كأنَّها رضيت بهم ورضوا بها، وهذا أبلغ من مجرَّد كونها مرضيَّة فقط؛ فتأمله»[٣].

بهذا يتضح أنَّ القرآن جاء بأفصح الألفاظ، وأيسرها، وأدقِّها دلالةً على المعنى، وعلى أحسن الاشتقاقات.

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٢٠).
(٢) عدَّ ابن سنان الخفاجي هذا من ضمن أسباب فصاحة الكلمة. انظر: سر الفصاحة (ص٦٣).
(٣) التبيان (ص١٦١).

المبحث الثاني

جزالة الألفاظ وعذوبتها وأثرها في الإعجاز عند ابن القيِّم

من الصفات العظيمة التي اتَّصفت بها ألفاظ القرآن، جمعها بين سهولة اللفظ وعذوبته، وبين قوة المعنى وجزالته، فألفاظه من الفصاحة في المكان الأعلى، بعيدةٌ عن الإيغال في الغريب، غير مستكرهة، وهي في ذاتها أشدُّ مطابقةً للمعنى الذي سيقت من أجله، وكثيرًا ما يقف الإمام ابن القيِّم عند ألفاظ القرآن مبينًا هذا السر البديع، فهو يرى أنَّ أي معنى في القرآن، جاءت ألفاظه بما يناسب ذلك المعنى، من ذلك يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ ألفاظ القرآن التي وقعت في باب الحمد والذم وقعت بما فيها من الفخامة والجلالة عامة، وكان عمومها من تفخيمها وجلالة قدرها وعظمة شأنها، وذلك أن من شأن من يقصد تفخيم كلامه من عظماء الناس، **أن يستعمل فيه أمرين:**

أحدهما: العدول بكلامه عن الخصوص إلى العموم، إلى حيث تدعو الحاجة إلى ذكر الخصوص، لأمرٍ لا بد منه، ليكون خطابه كليًّا شاملًا يدخل تحته الخلق الكثير، وكلما كان الداخلون تحت خطابه أعمَّ وأكثر، كان ذلك أفخم لكلامه، وأعظم لشأنه، فأين العظمة والجلالة في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]. إلى العظمة في قوله: «يا أهل مكة اعبدوا ربكم»؟ فمن فخامة الكلام وجلالة المتكلم به أن يدخل في اللفظة الواحدة جميع ما يصلح له، فيدل باللفظ القصير على

المعاني الكثيرة العظيمة، فتجمع العموم والإيجاز والاختصار والبيان وحسن الدلالة، فتأتي بالمعنى طبق اللفظ لا يقصر عنه، ولا يوهم غيره، ومن علم هذا، وتدبر القرآن وصرف إليه فكره علم أنَّه لم يقرع الأسماع قط كلامٌ أوجز ولا أفصح ولا أشد مطابقةً بين معانيه وألفاظه منه.

وليس يوجد في الكتب المنزلة من عند الله كتابٌ جمعت ألفاظه من الإيجاز والاختصار والإحاطة بالمعاني الجليلة، والجزالة والعذوبة، وحسن الموقع من الأسماع والقلوب ما تضمنته ألفاظ القرآن، وقد شهد له بذلك أعداؤه، وسمع بعض الأعراب قارئًا يقرأ: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤]. فسجد، فقيل له: ليست بآية سجود، فقال: سجدت لفصاحة هذا الكلام.

فإذا تأملت طريقته وجدتها طريقة مخاطبة ملك الناس كلهم لعبيده، ومماليكه، وهذا أحد الدلائل الدالة على أنَّه كلامه الذي تكلم به حقيقة لا كلام غيره من المخلوقين، وإذا كان النبي ﷺ قد أوتيَ جوامع الكلام، وبيَّن كلامه وكلام الله ما لا يحصره نسبة...»[١].

كذلك تأمل ابن القيِّم رحمه الله في عدة مواضع من تفسيره لآيات القرآن، جانب عذوبة اللفظ وسهولته، وقوة أدائه للمعنى الذي جيء به من أجله، من ذلك تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ۝٣ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة: ٣، ٤]، يقول رحمه الله: «فأنكر - سبحانه - عليه حُسْبَانَه أنَّ الله لا يجمع عظامه، ثمَّ قرَّر قدرته على ذلك، ثمَّ أنكر عليه إرادة التكذيب بيوم القيامة.

فالأول: حُسبانٌ منه أنَّه لا يُحييه بعد موته.

(١) الصواعق المرسلة (٢/٧٠٨).

والثاني: تكذيبٌ منه بيوم القيامة وأنَّه يريد أن يكذِّب بما وضح وبان دليل وقوعه وثبوته، فهو مريدٌ للتكذيب به، ثم أخبر عن تصريحه بالتكذيب فقال ﷻ: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ٦].

فالأول: إرادةٌ للتكذيب.

والثاني: نطقٌ بالتكذيب وتكلُّمٌ به.

وهذا قول قويٌّ كما ترى، لكن ينبغي إفراغ هذه الألفاظ في قوالب هذا المعنى، فإنَّ لفظة «يفجر» إنَّما تدلُّ على عمل الفجور لا على التكذيب، وحذف الموصول مع ما جرَّه وإبقاء الصِّلة خلاف الأصل، فإنَّ أصحاب هذا القول قالوا: تقديره: ليكفر بما أمامه. وهذا المعنى صحيحٌ، لكن دلالة هذا اللفظ عليه ليست بالبيِّنة.

والجواب: أنَّ الأمر كذلك، لكن الفعل إذا ضمِّن معنى فعلٍ آخر لم يلزم إعطاؤه حكمَه من جميع الوجوه، بل من جلالة هذه اللغة العظيمة الشأن وجزالتها أن يذكر المتكلِّم فعلًا، وما يضمِّنه معنى فعل آخر، ويجري على المضمَّن أحكامَه لفظًا، وأحكامَ الفعل الآخر معنىً، فيكون في قوَّة ذكر الفِعْلَين مع غاية الاختصار، ومن تدبَّر هذا وجده كثيرًا في كلام الله تعالى.

فلفظة «يفجر» اقتضت «أمامه» بلا واسطة حرفٍ ولا اسم موصول، فأعطيت ما اقتضته لفظًا، واقتضى ما تضمَّنته من الفعل من ذكر الحرف والموصول، فأعطيته معنىً، فهذا وجه هذا القول لفظًا ومعنىً، والله أعلم»[1].

---

(١) التبيان (ص٢٣٤).

المَبحَثُ الثَّالِثُ

ائتلاف الألفاظ مع المعاني وأثرها في الإعجاز عند ابن القيِّم

الألفاظ هي قوالب المعاني، ومن أتمِّ البيان وأعظمه، أن تكون الألفاظ حاملة للمعاني المقصودة بدقةٍ، فكل لفظٍ له معناه في اللغة العربية، قد يشاركه غيره في أداء هذا المعنى؛ لكن بشكل عام، أو في جانب معين، وإذا تأمَّلت وفحصت المعنى الدقيق بين هذين المترادفين؛ اتَّضح أنَّ بينها فروقًا دقيقةً، فلكل لفظٍ تعبير دقيق يختص به[(١)].

وجاء القرآن الكريم بأدقِّ الألفاظ الدالة على المعنى المراد، ولا يتصوَّر أنَّ كلمةً تؤدي معنى اللفظة المختارة في القرآن، متساوية معها في أداء نفس المعنى، هذا ما لفت أنظار العلماء وجعلهم يهتمون في البحث عن المعنى الدقيق لتلك الألفاظ، والسرَّ في إيثار لفظٍ على لفظٍ، وللإمام ابن القيِّم في ذلك كلامٌ نفيسٌ، وتأملٌ لطيفٌ، وقد تعدد حديثه عن أسرار ائتلاف اللفظ والمعنى في عدة مواضع من كتبه[(٢)]، ومن أبرزها: ما بيَّنه من دقَّة التعبير بلفظة: «الزوج»: والتعبير بلفظة: «امرأة»، وسر الاختلاف بين آيات القرآن في التعبير بهذين اللفظين، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأمَّا الازدواج؛ فجمع زوج، وقد يقال: زوجة، والأولى أفصح، وبها جاء القرآن، قال الله تعالى لآدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]،

---

(١) راجع: المزهر (١/ ٣١٧).

(٢) انظر: التبيان (ص١١)، مدارج السالكين (١/ ٩٤)، شفاء العليل (٣/ ١٠٦٤).

وقال تعالى - في حقِّ زكريا عليه السلام -: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُۥٓ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، ومن الثاني: قول ابن عباس رضي الله عنه في عائشة رضي الله عنها: «إنها زوجة نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة»(١). . . .

وقد يُجمع على «زوجات» وهذا إنَّما هو جمع زوجة، وإلا فجمع زوج «أزواج».

قال تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ [يس: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ [الزخرف: ٧٠]، وقد وقع في القرآن الإخبار عن أهل الإيمان بلفظ الزوج مفردًا وجمعًا، كما تقدم.

وقال تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ﴾ [الأحزاب: ٦]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ [الأحزاب: ٢٨]، والإخبار عن أهل الشرك بلفظ «المرأة» وقال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ [المسد: ١] إلى قوله: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ [المسد: ٤]، وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ﴾ [التحريم: ١٠]، فلما كانتا مشركتين؛ أوقع عليهما اسم «المرأة»، وقال في فرعون: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ [التحريم: ١١]، لما كان هو المشرك وهي مؤمنة؛ لم يسمها زوجًا له وقال في حق آدم عليه السلام: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، وقال للنبي ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، وقال في حق المؤمنين: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ﴾ [البقرة: ٢٥]. . .».

ثم يقول بعد ذلك: «إنَّ السرَّ في ذكر المؤمنين ونسائهم بلفظ

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» عن عمار بن ياسر رضي الله عنه، كتاب الفتن، باب حديث: «إنها زوجة نبيكم. . .» رقم (٧١٠١)، والبيهقي في السنن رقم (١٦٧١٦)، والطبراني في الكبير رقم (١٠٠). كلهم عن عمار بن ياسر رضي الله عنه.

الأزواج أنَّ هذا اللفظ مشعر بالمشاكلة، والمجانسة، والاقتران، كما هو المفهوم من لفظه؛ فإنَّ الزوجين هما الشيئان المتشابهان المتشاكلان، أو المتساويان، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢]...».

ثم يقول: «فتأمل هذا المعنى؛ تجده أشدَّ مطابقةً لألفاظ القرآن ومعانيه، ولهذا وقع على المسلمة امرأة الكافر، وعلى الكافرة امرأة المؤمن لفظ «المرأة» دون «الزوجة» تحقيقًا لهذا المعنى، والله أعلم...».

ثم يقول: «وتأمل هذا المعنى في آية المورايث، وتعليقه ـ سبحانه ـ بلفظ الزوجة دون المرأة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ﴾ [النساء: ١٢] إيذانًا بأنَّ هذا التوارث إنما وقع بالزوجية المقتضية للتشاكل والتناسب، والمؤمن والكافر لا تشاكل بينهما ولا تناسب، فلا يقع بينهما التوارث.

وأسرار مفردات القرآن ومركباته فوق عقول العالمين»(١).

من خلال هذا اتَّضح دقَّة إصابة ألفاظ القرآن للمعاني المرادة، وهذا أمرٌ يدلُّ على إعجاز هذا القرآن وجلالة ألفاظه ومعانيه.

ومن المواضع التي تكرر بحث ابن القيِّم لها، هو مطابقة ما ختمت به بعض آيات القرآن من أسماء وصفات لله تعالى، فجاءت تلك الصفات مطابقةً لمقتضى معنى الآية؛ فإنَّ كل صفةٍ لله ﷻ وردت في القرآن فالموضع الذي وردت فيه مستلزمٌ لتلك الصفة أشد لزوم، يقول الإمام ابن القيِّم عند قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١]:

(١) جلاء الأفهام (ص٢٩١ ـ ٢٩٤) «باختصار».

«فذكر العزَّة المتضمنة لكمال القدرة والتصرف، والحكمة المتضمنة لكمال الحمد والعلم، وقوله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨] وسمع بعض الأعراب قارئًا يقرؤها: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فقال: ليس هذا كلام الله، فقال أتكذب بالقرآن؟ فقال: لا. ولكن لا يحسن هذا، فرجع القارئ إلى «حفظه» فقال: ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فقال: صدقت.

وإذا تأملت ختم الآيات بالأسماء والصفات وجدت كلامه مختتمًا بذكر الصفة التي يقتضيها ذلك المقام، حتَّى كأنَّها ذكرت دليلًا عليه وموجبة له: وهذا كقوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]؛ أي: فإنَّ مغفرتك لهم تصدر عن عزة هي كمال القدرة، وحكمة هي كمال العلم، لا عن عجز وجهل.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦] في ثلاثة مواضع من القرآن يذكر ذلك عُقَيب ذكره الأجرام العلوية، وما تضمنه من فلق الإصباح، وجعل الليل سكنًا، وإجراء الشمس والقمر بحساب لا يعدوانه، وتزيين السماء الدنيا بالنجوم وحراستها بها، وأخبر أنَّ هذا التقدير المحكم المتقن صادرٌ عن عزته وعلمه، ليس أمرًا اتفاقيًا، لا يمدح به فاعله، ولا يثنى عليه به كسائر الأمور الاتفاقية...»[1].

وبهذا يضع الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ قاعدة مهمة، ويلفت إلى سر بديع من أسرار ائتلاف الألفاظ والمعاني، وهو أن صفات الله عَزَّ وَجَلَّ التي ختمت بها الآيات القرآنية، مستلزمة لمعنى تلك الآيات، ولها علاقة وثيقة بسياق الآية التي جاءت فيها.

---

(١) شفاء العليل (٣/ ١٠٦٤).

ومن الألفاظ التي شدَّت أنظار العلماء، ولفت انتباههم التعبير بها، لفظة «مرضعة» في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ [الحج: ٢].

وهنا سرٌّ لطيفٌ ـ من أسرار العربية ـ؛ وهو أنَّ صفات المرأة التي اختصت بها عن الرجال، الأصل أن تأتي بدون التاء، فتقول: امرأةٌ حاملٌ، ومرضعٌ، وحائضٌ، دون تاء التأنيث؛ لأنَّها مما تختص به المرأة عن الرجل، فلا حاجة للتأنيث فيها؛ لأنَّ المعنى منصرف تمامًا إلى المراد، ولا يخشى فيها اللبس(١).

لكنَّ الآية جاءت بزيادة التاء وهذه الزيادة تفيد وصفًا دقيقًا أدقُّ من لو أنها جاءت خالية منها، يقول الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «المرضع من لها ولد ترضعه، والمرضعة من ألقمت الثدي للرضيع، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ [الحج: ٢]، أبلغ من مرضعٍ في هذا المقام، فإن المرأة قد تذهل عن الرضيع إذا كان غير مباشر للرضاعة، فإذا التقم الثدي، واشتغلت برضاعه لم تذهل عنه إلا لأمر أعظم عندها من اشتغالها بالرضاع.

وتأمل ـ رحمك الله ـ السرَّ البديع في عدوله سبحانه عن كل حامل إلى قوله: ﴿ذَاتِ حَمْلٍ﴾ فإن الحامل قد تطلق على المهيأة للحمل، وعلى من هي في أول حملها ومبادئه، فإذا قيل: ذات حمل لم يكن إلا لمن ظهر حملها وصلح للوضع كاملًا أو سقطًا، كما يقال: ذات ولد، فأتى في المرضعة بالتاء التي تحقق فعل الرضاعة دون التهيؤ لها، وأتى في الحامل بالسبب الذي يحقق وجود الحمل وقبوله للوضع، والله تعالى أعلم...»(٢).

---

(١) راجع: التصريح بمضمون التوضيح (٢/ ٤٨٩).

(٢) بدائع الفوائد (٤/ ٨٠٠).

هكذا جاءت ألفاظ القرآن على أدقِّ الأوصاف التي تدلُّ على المعنى المراد، ولا يمكن أن يجتمع في كلامٍ مهما كانت فصاحة قائله هذا التآلف الدقيق المحكم، فإن يكن في بعضٍ كلامه فيستحيل ذلك في جميعه، وهذا من أسرار بلاغة القرآن وإعجازه.

۞ ۞ ۞

ٱلْفَصْلُ ٱلْخَامِسُ

الإعجاز الأسلوبي

ويشتمل على خمسة مباحث:

- المبحث الأول: الإعجاز في أسلوب الأمثال في القرآن الكريم عند ابن القيِّم.
- المبحث الثاني: الإعجاز في أسلوب القسم في القرآن الكريم عند ابن القيِّم.
- المبحث الثالث: الإعجاز في أسلوب القصص القرآنية عند ابن القيِّم.
- المبحث الرابع: الإعجاز في أسلوب الجدل في القرآن الكريم عند ابن القيِّم.
- المبحث الخامس: الإعجاز في أسلوب الترغيب والترهيب في القرآن الكريم عند ابن القيِّم.

المبحث الأول
الإعجاز في أسلوب الأمثال في القرآن الكريم عند ابن القيِّم

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

- المطلب الأول: فائدة ضرب الأمثال.
- المطلب الثاني: طريقة ابن القيِّم في دراسة أسرار المثل القرآني.
- المطلب الثالث: الإعجاز في دقة ألفاظ المثل القرآني.

* * *

المطلب الأول
فائدة ضرب الأمثال

يعد ضرب الأمثال[١] أسلوبًا مميزًا من أساليب القرآن الكريم، فهو من أعظم الدلائل على إعجازه، لما تحمله تلك الأمثال من معانٍ عظيمة، وفوائد عديدة، بصورة تشبيهية بلغت أعلى مراتب البلاغة في دقة التشبيه[٢]، وحسن النظم، وعذوبة اللفظ، وكثرة

---

(١) أصل المثل يعود إلى الشبه والنظير، وهذا مثل هذا؛ أي: نظيره، والمثل المضروب مأخوذ من هذا؛ لأنه يذكر مُوَرًّى به عن مِثْلِهِ في المعنى. انظر: مقاييس اللغة (٥/ ٢٩٦).

(٢) اختلف العلماء في الفرق بين التمثيل والتشبيه إلى أقوال كثيرة: فمنهم من قال أنه لا فرق بينهما، ومن هؤلاء الزمخشري وابن الأثير، ويظهر أن ابن القيِّم سائر على هذا القول، فقد درس التشبيه والتمثل معًا، ويطلق على التشبيه أحيانًا لفظ المثل، =

الفائدة[١]، ولهذا حثَّ الله تعالى عباده على تعقُّلها، والتفكُّر فيها، في غير موضع من كتابه، فقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]، وقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وقال: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الحاثة على التفكُّر في هذه الأمثال وتعقُّلها، ولهذا حرص العلماء ـ رحمهم الله ـ حرصًا شديدًا على إيضاح هذه الأمثال، واستخراج مكنوناتها، والتفقه فيها، بل وشددوا على الحرص في تفهمها، قال الماوردي رحمه الله: «من أعظم علم القرآن علم أمثاله»[٢].

سعى العلماء في استخراج الفوائد من أمثال القرآن كلٌّ حسب علومه واهتمامه؛ فالفقيه يستخرج منها أحكامه، والأصولي يبرز ما فيها من قواعد أصولية وأدلة عقلية، والواعظ يسير على أسلوبها في الترغيب والترهيب، والبياني يعرض دقة تشبيهاتها وحسن نظمها... فأبرزوا ما فيها من فوائد عظيمة، كانت خير شاهد على عظمة هذه الأمثال، وعظمة ما احتوت عليه.

ومن العلماء الذين أجادوا في دراستهم لأمثال القرآن الإمام ابن القيِّم رحمه الله، فقد شغف بدراستها شغفًا شديدًا، وبحثها في عدة

= والعكس بالعكس، دون التفريق بينهما. ومن العلماء من يرى أن التفريق بينهما من جهة الخفاء والوضوح. يقول عبد القاهر الجرجاني: «**اعلم أن الشيئين إذا شبه أحدهما بالآخر كان ذلك على ضربين: أحدهما**: أن يكون من جهة أمر بيِّن لا يحتاج إلى تأويل... **والآخر**: أن يكون الشبه مُحَصلًا بضرب من التأويل...». أسرار البلاغة (١/ ١٩٠) وقد بسط القول في هذه القضية الدكتور: عبد الفتاح بسيوني. **انظر**: دراسات بلاغية (ص١٥٣).

(١) **انظر**: النكت في إعجاز القرآن الكريم (ص٨٢).

(٢) الإتقان (٥/ ١٩٣٣).

مواضع من كتبه؛ بل إنه يبحث المثل الواحد أحيانًا في أكثر من موضع، يزيد أشياء لم يذكرها، ويجلي أسرارًا لم تتجل في المواضع الأخرى.

وقد جسد رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذلك الشغف بعزمه على إفرادها في كتاب مستقل[١]، يقول في ذلك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن ضرب الأمثال مما يأنس به العقل؛ لتقريبه المعقول من المشهود، وقد قال تعالى ـ وكلامه المشتمل على أعظم الحجج وقواطع البراهين ـ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وقد اشتمل منها على بضعة وأربعين مثالًا كان بعض السلف إذا قرأ مثلًا لم يفهمه يشتد بكاؤه ويقول: لست من العالمين. وسنفرد لها كتابًا مستقلًّا، متضمنا لأسرارها ومعانيها، وما تضمنته من كنوز العلم وحقائق الإيمان، وبالله المستعان وعليه التكلان»[٢].

بحث ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «إعلام الموقعين»، جملة من أمثال القرآن، درسها فيه دراسة تحليلية دقيقة، بيَّن من خلالها عظمة هذه الأمثال، ودقة تشبيهاتها، وجمال ألفاظها، بأسلوبه الأدبي الجميل، وقوة استنباطه الدقيق، فأظهر جوانب إعجاز القرآن في أمثاله، وأبرز القيمة المعنوية والفوائد المستنبطة من تلك الأمثال، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبيِّنًا فوائدها: «ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور: التذكير، والوعظ، والحث، والزجر، والاعتبار، والتقرير، وتقريب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس بحيث يكون نسبته للعقل كنسبة المحسوس إلى الحس.

وقد تأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر على المدح

---

(١) وقد ذكر عامة المترجمون لابن القيِّم أنه صنف كتابًا في أمثال القرآن. والصواب أنه جزء من «إعلام الموقعين». **انظر**: ابن قيِّم الجوزية حياته آثاره موارده (ص٢٢١).

(٢) الكافية الشافية (ص٢٧).

والذم، وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر، أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر. . . والله أعلم»[١].

وهذه الجملة الشاملة من فوائد أمثال القرآن، وأغراضها، تدل على تأمل ابن القيِّم الدقيق، وتدل على أنه استنبطها بعد دراسة فاحصة شاملة للأمثال القرآنية، ولهذا نجد العلماء قد احتفوا بهذه الفوائد التي ذكرها، وجعلوها في مقدمة حديثهم عن أمثال القرآن[٢]، بل منهم من شرحها شرحًا مفصلًا[٣]، لما رأوا فيها من إيجاز مع شمول ودقة استنباط.

أمثال القرآن الكريم من أعظم الدلائل على إعجازه، فالمتأمل فيها وفي ما احتوت عليه من حكم ومعانٍ، وما احتوت من فوائد جمة؛ يعلم عظمة هذا القرآن، وعظمة المتكلم به ﷻ، فهي إلى دقة تصويرها، اشتملت على تلك الفوائد العظيمة، بصورة من الدقة والتناسب العجيب.

وقد أجاد ابن القيِّم رحمه الله إجادة بالغة في إبرازه للغرض الأساسي من المثل القرآني ـ أثناء دراسته لهذه الأمثال ـ، فعندما يكون المستفاد من المثل الوعظ والتذكير والحث، يصوغ المثل بأسلوب الواعظ المذكر الحاث على ما يدعو إليه المثل، وعند ما يكون المستفاد من المثل الزجر والتنبيه، يصوغ المثل بأسلوب الزاجر الواعظ مقربًا المثل للعقل، وعندما يكون المستفاد منه تقرير أمر من الأمور، يصوغ المثل بأسلوب جدلي تقريري على نهج أسلوب المثل. . . .

طبق الإمام ابن القيِّم هذا المنهج على عامة أمثال القرآن التي

---

(١) بدائع الفوائد (٤/ ٧٨٨). (٢) انظر: البرهان (١/ ٥٣١).

(٣) وقد شرح الدكتور: عبد الرحمٰن حبنكة الميداني جملة من هذه الفوائد وسماها: «أغراض ضرب الأمثال» شرحها شرحًا مفصلًا، بكلام نفيس. انظر: أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع (ص٥٩).

درسها، ومن أمثلة تطبيقه لهذا المنهج، تفسيره للمثل في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]. يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا من أحسن القياس التمثيلي، فإنه شبه تمزيق عرض الأخ بتمزيق لحمه، ولما كان المغتاب يمزق عرض أخيه في غيبته كان بمنزلة من يقطع لحمه في حال غيبة روحه عنه بالموت، ولما كان المغتاب عاجزًا عن دفعه عن نفسه بكونه غائبًا عن ذمِّه كان بمنزلة الميت الذي يقطع لحمه ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه، ولما كان مقتضى الأخوة التراحم والتواصل والتناصر فعلق عليها المغتاب ضد مقتضاها من الذم والعيب والطعن كان ذلك نظير تقطيع لحم أخيه، والأخوة تقتضي حفظه وصيانته والذب عنه، ولما كان المغتاب متمتعًا بعرض أخيه متفكهًا بغيبته وذمه متحليًا بذلك شبه بآكل لحم أخيه بعد تقطيعه، ولما كان المغتاب محبًّا لذلك معجبًا به شبه بمن يحب أكل لحم أخيه ميتًا، ومحبته لذلك قدر زائد على مجرد أكله، كما أن أكله قدر زائد على تمزيقه.

فتأمل هذا التشبيه والتمثيل وحسن موقعه ومطابقة المعقول فيه المحسوس، وتأمل إخباره عنهم بكراهة أكل لحم الأخ ميتًا، ووصفهم بذلك في آخر الآية، والإنكار عليهم في أولها أن يحب أحدهم ذلك، فكما أن هذا مكروه في طباعهم فكيف يحبون ما هو مثله ونظيره؟ فاحتج عليهم بما كرهوه على ما أحبوه، وشبه لهم ما يحبونه بما هو أكره شيء إليهم، وهم أشد شيء نفرة عنه؛ فلهذا يوجب العقل والفطرة والحكمة أن يكونوا أشد شيء نفرة عما هو نظيره ومشبهه، وبالله التوفيق»(١).

---

(١) إعلام الموقعين (٢/ ٢٩٧).

وفي حديث ابن القيِّم ﷺ عن هذا المثل نلحظ أنه صاغ المثل بأسلوب الزاجر عن الغيبة مبرزًا تطابق المثل للحس، مع إيضاحه للغرض الذي هو تفخيم أمر الغيبة وذم المغتاب. هكذا يظهر ابن القيِّم الفوائد المستنبطة من أمثال القرآن.

ومن الفوائد التي نجدها تتكرر عند ابن القيِّم أثناء بحثه لأمثال القرآن، هي تلك الفوائد التي ابتدأ بحثه بها، حيث يقول: «ومن هذا ما وقع في القرآن من الأمثال التي لا يعقلها إلا العالمون؛ فإنها تشبيه شيء بشيء في حكمه، وتقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين من الآخر، واعتبار أحدهما من الآخر»[١].

وهذا الذي ذكره ﷺ من أبرز خصائص المثل القرآني[٢].

كذلك من فوائد المثل التي ذكرها ابن القيِّم؛ أن هذه الأمثال أقيسة عقلية يعلم بها أن حكم الشيء حكم نظيره، فقال: «... وضرب الأمثال، وصرفها في الأنواع المختلفة، وكلها أقيسة عقلية ينبه بها عباده على أن حكم الشيء حكم مثله، فإن الأمثال كلها قياسات يعلم منها حكم الممثل من الممثل به»[٣].

هذه أبرز الفوائد التي ذكرها الإمام ابن القيِّم في دراسته لأمثال القرآن.

---

(١) إعلام الموقعين (٢/ ٢٧٠).
(٢) وسيأتي التفصيل فيها في المطلب التالي.
(٣) إعلام الموقعين (٢/ ٢٤٨).

المَطلَبُ الثَّانِي

طريقة ابن القيِّم في دراسة أسرار المثل القرآني

لابن القيِّم طريقة مميَّزة في عرض المثل القرآني، فنراه يجمع الأدلة وأقوال المفسرين ويصوغها في قالب واحد، بتسلسل جميل، وأسلوب أدبي رفيع، يبرز فيه التشبيه ويطابق بين أجزائه، ويستنبط أهداف المثل بدقة وعمق، ويبيِّن عظم معانيه ودقة ألفاظه، دون التعرض لأقوال المفسرين في الآية، وخلافات أهل اللغة والمعاني ـ إلا بقدر ما يبين المعنى ـ؛ ليظهر لنا من خلال ذلك دقة معاني أمثال القرآن، وجمال ألفاظها، وسمو أهدافها بمنهج رائد فريد. وصفه الدكتور عبد الفتاح لاشين بقوله: «... وقد بلغ حسه البلاغي فيها مبلغًا عظيمًا، فكشف لنا عن بلاغتها، وحسن بيانها، وجمال تأثيرها، بطريقته التي عرفناها عنه، تقصٍّ في البحث، وعمق في الإدراك والفهم»(١).

وسنعرض طريقته بالتفصيل، من خلال دراسته لمثل من أمثال القرآن، وهو: المثل الذي ضربه الله ﷻ في سورة النور، لنوره في قلب عبده المؤمن فقال رَحِمَهُ اللَّهُ في ذلك: «وقد ضرب ﷻ لنوره في قلب عبده مثلًا لا يعقله إلا العالمون، فقال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

قال أبي بن كعب: مثل نوره في قلب المسلم(٢).

---

(١) ابن القيِّم وحسه البلاغي في تفسير القرآن (ص١٦٩).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٧/ ٢٩٧)، والحاكم، كتاب التفسير رقم (٣٥٦٧) =

وهذا هو النور الذي أودعه في قلبه من معرفته، ومحبته، والإيمان به، وذكره، وهو نوره الذي أنزله إليهم(١)؛ فأحياهم به، وجعلهم يمشون به بين الناس، وأصَّله في قلوبهم، ثم تقوى مادته؛ فتتزايد حتى يظهر على وجوههم، وجوارحهم، وأبدانهم، بل ثيابهم، ودورهم، يبصره من هو من جنسهم، وسائر الخلق له منكرون، فإذا كان يوم القيامة برز ذلك النور، وصار بإيمانهم يسعى بين أيديهم في ظلمة الجسر حتى يقطعوه، وهم فيه على حسب قوته وضعفه في قلوبهم في الدنيا، فمنهم من نوره كالشمس، وآخر كالقمر، وآخر كالنجوم، وآخر كالسراج، وآخر يُعطى نورًا على إبهام قدمه يضيء مرة ويطفأ أخرى، وإذا كانت هذه حال نوره في الدنيا، فأعطي على الجسر بمقدار ذلك، بل هو نفس نوره ظهر له عيانًا(٢).

= من طريق أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أُبَيٍّ. قال الحاكم: «صحيح الإسناد، ولم يخرجاه». ووافقه الذهبي. وقد أطال ابن القيِّم ﷺ في بيان معنى النور في «مفتاح دار السعادة» وساق جمعًا من الأدلة لبيان معنى في الآية. انظر: (١/ ٢٣٣).

(١) اختُلِفَ في عود الضمير إلى أقوال كثيرة، فقال بعضهم: يعود على الله ﷻ - وهذا القول رجحه ابن القيِّم وعليه بنى معنى الآية. انظر: اجتماع الجيوش الإسلامية (ص٢٣) -، وقال آخرون: الضمير يعود على المؤمن. والمعنى: مثل نور المؤمن الذي في قلبه «كمشكاة». وقال بعضهم: يعود على هدي الله وبيانه. وهو القرآن، فيكون المعنى: مثل نور هذا القرآن في قلب المؤمن. وبعضهم قال: عني بالنور محمد ﷺ، والهاء عائدة إلى الله. وقال آخرون: الضمير يعود إلى الله، والمقصود بالنور الطاعه. انظر: تفسير الطبري (١٧/ ٢٩٧).

(٢) هو في ذلك يشير إلى الحديث الطويل، والذي فيه: (... فَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ مِثْلَ الْجَبَلِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ فَوْقَ ذَلِكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ مِثْلَ النَّخْلَةِ بِيَمِينِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى دُونَ ذَلِكَ بِيَمِينِهِ، حَتَّى يَكُونَ آخِرَ ذَلِكَ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ عَلَى إِبْهَامِ قَدَمِهِ يُضِيءُ مَرَّةً وَيُطْفِئُ مَرَّةً، فَإِذَا أَضَاءَ قَدَّمَهُ، وَإِذَا طَفِئَ قَامَ، فَيَمُرُّ وَيَمُرُّونَ عَلَى الصِّرَاطِ، وَالصِّرَاطُ كَحَدِّ السَّيْفِ دَحْضٌ مَزِلَّةٌ؛ فَيُقَالُ: انْجُوا عَلَى قَدْرِ نُورِكُمْ؛ فَمِنْهُمْ =

ولما لم يكن للمنافق نور ثابت في الدنيا، بل كان نوره ظاهرًا لا باطنًا؛ أعطى نورًا ظاهرًا مآله إلى الظلمة والذهاب.

وضرب الله ﷻ لهذا النور ومحله وحامله ومادته مثلًا بالمشكاة وهي: الكوة في الحائط[1]؛ فهي مثل الصدر، وفي تلك المشكاة زجاجة من أصفى الزجاج، وحتى شبهت بالكوكب الدري في صفائه وبياضه، وهي مثل القلب، وشبه بالزجاجة؛ لأنها جمعت أوصافًا هي في قلب المؤمن، وهي الصفاء، والرقة، والصلابة، فيرى الحق والهدى بصفائه، وتحصل منه الرأفة، والشفقة والرحمة برقته، ويجاهد أعداء الله ـ تعالى ـ ويغلظ عليهم، ويشتد في الحق، ويصلب فيه بصلابته، ولا تبطل صفة منه صفة أخرى، ولا تعارضها، بل تساعدها، وتعاضدها ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ﴾ [الفتح: ٢٩] وقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ

= مَنْ يَمُرُّ كَانْقِضَاضِ الْكَوْكَبِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالطَّرْفِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالرِّيحِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَشَدِّ الرَّجُلِ وَيَرْمُلُ رَمَلًا، فَيَمُرُّونَ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، حَتَّى يَمُرَّ الَّذِي نُورُهُ عَلَى إِبْهَامِ قَدَمِهِ قَالَ: يَجُرُّ يَدًا وَيُعَلِّقُ يَدًا، وَيَجُرُّ رِجْلًا وَيُعَلِّقُ رِجْلًا، وَتَضْرِبُ جَوَانِبَهُ النَّارُ!). أخرجه الطبراني في الكبير رقم (٩٧٦٣)، والحاكم رقم (٣٨٤٢)، وقال: «حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في: «صحيح الترغيب والترهيب» رقم (٣٥٩١).

(١) وهذا القول روي عن ابن عباس بسند ضعيف. واختلف في معنى «المشكاة» إلى أقوال؛ فروي عن ابن عباس ﷺ، ومجاهد ومحمد بن كعب، وغيرهم: أن المراد بـ«المشكاة» موضع الفتيلة، ولهذا قال بعدها: «فيها مصباح»، ورجح هذا القول الإمام ابن كثير، وقال: «وهو المشهور». انظر: تفسير ابن كثير (٥/٥٤١). وقال بعض المفسرين المراد بـ«المشكاة»: كل كوة لا منفذ فيها. وقال بعضهم: المشكاة صدر المؤمن. وقال بعضهم: المراد بالمشكاة القرآن. وقيل: المراد بالمشكاة القنديل. راجع: تفسير الطبري (١٧/٣٠١). وأولى الأقوال بالصواب ـ والله أعلم ـ: أن المراد بها الفتيلة. وهو ما رجحه ابن كثير.

﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣]. وفي أثر: «القلوب آنية الله ـ تعالى ـ في أرضه، فأحبها إليه أرقها، وأصلبها، وأصفاها»[١].

وبإزاء هذا القلب قلبان مذمومان في طرفي نقيض: أحدهما: قلب حجري قاس لا رحمة فيه، ولا إحسان، ولا بر، ولا له صفاء يرى به الحق، بل هو جبار جاهل: لا علم له بالحق، ولا راحم للخلق، **وبإزائه:** قلب ضعيف مائي لا قوة فيه، ولا استمساك، بل يقبل كل صورة، وليس له قوة حفظ تلك الصور، ولا قوة التأثير في غيره، وكل ما خالطه أثر فيه من قوي وضعيف، وطيب وخبيث.

وفي الزجاجة مصباح، وهو النور الذي في الفتيلة، وهي حاملته، ولذلك النور مادة، وهو زيت قد عصر من زيتونة في أعدل الأماكن، تصيبها الشمس أول النهار وآخره؛ فزيتها من أصفى الزيت وأحسنه، وأبعده من الكدر، حتى إنه ليكاد من صفائه يضيء بلا نار؛ فهذه مادة نور المصباح.

وكذلك مادة نور المصباح الذي في قلب المؤمن، هو من شجرة الوحي التي هي أعظم الأشياء بركة، وأبعدها من الانحراف، بل هي أوسط الأمور، وأعدلها وأفضلها، لم تنحرف انحراف اليهودية ولا انحراف النصرانية[٢]، بل هي وسط بين الطرفين المذمومين في كل شيء، فهذه مادة مصباح الإيمان في قلب المؤمن.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في الزهد رقم (٢٢٧٣)، تهذيب الكمال للمزي (٣٤/ ١٥١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (١٦٩١).

(٢) هذا القول روي عن الضحاك، قال عند قوله تعالى: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [النور: ٣٥] لا يهودي ولا نصراني. أخرجه ابن أبي حاتم من طريق أبي هشام بن حوشب عن أبي سنان عن الضحاك رقم (١٤٦٠٩). وأخرجه الحافظ ابن كثير في تفسيره. وقال عنه المحقق د: حكمت بشير: «وأبو هشام لم أجد له ترجمه، ومتنه غريب». =

ولما كان ذلك الزيت قد اشتد صفاؤه حتى كاد أن يضيء بنفسه، ثم خالط النار؛ فاشتدت بها إضاءة، وقويت مادة ضوء النار به؛ كان ذلك نورًا على نور.

وهكذا المؤمن قلبه مضيء، يكاد يعرف الحق بفطرته وعقله، ولكن لا مادة له من نفسه؛ فجاءت مادة الوحي فباشرت قلبه، وخالطت بشاشته؛ فازداد نورًا بالوحي على نوره الذي فطره الله ـ تعالى ـ عليه، فاجتمع له نور الوحي إلى نور الفطرة؛ فصار نورًا على نور، فيكاد ينطق بالحق وإن لم يسمع فيه أثرًا، ثم يسمع الأثر مطابقًا لما شهدت به فطرته، فيكون نورًا على نور، فهذا شأن المؤمن يدرك الحق بفطرته مجملًا، ثم يسمع الأثر جاء به مفصلًا فينشأ إيمانه عن شهادة الوحي والفطرة...»[1].

بهذا التفصيل عرض الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ معاني هذا المثل، **وفيما يلي نعرض طريقة دراسته بشكل مفصل:**

١ ـ بيَّن ابن القيِّم ـ في البداية ـ أن الغاية والهدف الأساسي الذي سيق المثل من أجله؛ هو الحث على الاستزادة من نور القرآن بالأخذ به، والعمل بما فيه، وبالمحافظة على ما يزيد الإيمان وينميه في القلب، وبيَّن أن نور القرآن والإيمان الذي أودعه الله في قلب المؤمن، يظهر أثره

= تفسير ابن كثير (٥/ ٥٤٤). وهناك أقوال في الآية أرجح من هذا القول، فقد روي عن: ابن عباس رضي الله عنهما، وعن عكرمة، ومجاهد، وسعيد بن جبير أنهم قالوا في معنى الآية: أنها شجرة ليست بالشرقية بقعتها فلا تصل إليها الشمس إلا في أول النهار، وليست بالغربية بقعتها فلا تصل إليها الشمس إلا في آخر النهار، بل هي في مكان وسط، تصيبها الشمس من أول النهار إلى آخره؛ فيأتي زيتها صافيًا معتدلًا مشرقًا. وقد رجح ابن كثير هذا القول. انظر: تفسير ابن كثير (٥/ ٥٤٣).

(١) الوابل الصيب (ص١١٦)

عليه في الدنيا، وإذا كان يوم القيامة برز ذلك النور ليسعى به صاحبه على الصراط، كلٌّ حسب حظه من نور القرآن والإيمان في الدنيا، فمنهم من نوره كالشمس، ومنهم من نوره كالقمر، وآخر كالنجم، وآخر كالسراج، فيظهر له نوره هناك عيانًا؛ فكأنه يشير إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ [الحديد: ١٢]، وكذلك يشير إلى الحديث الطويل الذي أخرجه الحاكم، عن عبد الله بن مسعود ﷺ وفيه: «قال: فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل بين يديه، ومنهم من يعطى نوره فوق ذلك، ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة بيمينه، ومنهم من يعطى دون ذلك بيمينه حتى يكون آخر ذلك من يعطى نوره على إبهام قدمه يضيء مرة، ويطفئ مرة، فإذا أضاء قدّمه»[١].

ثم يلفت بإشارة بسيطة إلى حال نور المنافقين، ليبيِّن من خلاله الفرق بين حالهم وحال المؤمنين؛ من أجل ذلك نجده ﷺ يذكر المثل الذي ضربه الله ﷻ لحال نور المنافقين وهو قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا...﴾ الآية [البقرة: ١٧] بعد عرضه لهذا المثل[٢].

وإذا نظرنا في إيضاحه ﷺ للهدف والمعنى الأساسي للمثل، نجده يستنبط ذلك كله من مجموعة أدلة صاغها صياغة واحدة، بأسلوب أدبي، وعرض منطقي، ليبرز من خلالها الهدف والقيمة المعنوية التي يرسخها المثل، ونلحظ أن ابن القيِّم في دراسته لأمثال القرآن يهتم اهتمامًا بالغًا بإبراز الهدف والقيمة المعنوية من المثل، بل نجده يحاول أن يوجه كل ما يذكره من مسائل تتعلق بالمثل لخدمة الهدف الذي سيق المثل له، فيذكر المشبه والمشبه به ويربط بينهما وبين الهدف، ويذكر وجه الشبه

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: الوابل الصيب (ص١١٩)، وكذلك: اجتماع الجيوش الإسلامية (ص٣٩).

ويربط بينه وبين الهدف، ويذكر دقة الألفاظ ويبرز خدمتها للهدف، فهو لا يقتصر على دراستها لغويًّا ويكتفي بإظهار جمال تلك الصور، أو يقتصر على دراسة المعاني بمنأى عن إبراز دقة التصوير وجمال الألفاظ وقوة التراكيب؛ بل يشملها كلها بدراسة عميقة، وفهم دقيق، واستنباط جيد.

٢ ـ ثم بعد عرضه للغرض من المثل يدلف إلى التفصيل بذكر المشبه وهو النور ومحله ومادته وحامله، والمشبه به وهي: «المشكاة» ويفصل القول في ذلك، فيذكر أجزاء المشبه ويطابق بينها وبين المشبه به، مبينًا دقة التطابق بينهما، وانظر إليه عند قوله: «وشبهت بالزجاجة لأنها جمعت أوصافًا هي في قلب المؤمن، وهي الصفاء، والرقة والصلابة» فظهر أن الزجاجة مطابقة تمامًا لقلب المؤمن.

وإن كان ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ يرى أنه من الأسلم عدم التكلف في التفصيل والتعرض لأجزاء المثل، وأن تشبيه الجملة برمتها أقرب وأصح، وذلك في موضع آخر درس فيه هذا المثل قال فيه: «وفي هذا التشبيه لأهل المعاني طريقتان: أحدهما: طريقة التشبيه المركب، وهي أقرب مأخذًا وأسلم من التكلف، وهي أن تشبه الجملة برمتها بنور المؤمن؛ من غير تعرض لتفصيل كل جزء من أجزاء المشبه، ومقابلته بجزء من المشبه به، وعلى هذا عامة أمثال القرآن»[1]، إلا أننا نجد ابن القيِّم في دراسته لأمثال القرآن يفصل في ذكر المشبه والمشبه به تفصيلًا دقيقًا؛ لكن لعله يقصد بالتكلف هنا الذي لا دليل عليه، وهو الذي يؤخذ بمجرد اللغة دون الرجوع إلى أقوال المفسرين، ولهذا نجد ابن القيِّم في عرضه لهذه الأمثال لا يذكر قولًا إلا وهو مستند إلى دليل شرعي، أو قول من أقوال

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية (ص٢٤).

المفسرين[١]، وكذلك في دراسته لبقية أمثال القرآن.

ثم يلفت لفتة أخرى إلى الفرق بين قلب المؤمن المراد في الآية، وقلب الكافر والمنافق بطريقة من الاستنباط الدقيق؛ وذلك من خلال بيان الضد لقلب المؤمن، فهو يؤكد وجه الشبه بين قلب المؤمن في صفائه وصلابته ورقته بالزجاجة، بذكر ذلك القلب الحجري القاسي الذي لا رحمة فيه ولا إحسان، والقلب الضعيف المريض الذي لا قوة فيه.

وانظر إلى دقته رَحِمَهُ اللَّهُ حيث إنه أشار في بداية عرضه للمثل عند إبراز الهدف إلى نور المؤمن، وأشار إلى حال نور المنافق، وهنا عند بيان المشبه والمشبه به ووجه الشبه أشار إلى قلب المؤمن، وذكر ضده وهما القلبان المذمومان ـ فكأنه انتقل من المجمل إلى المفصل ـ، وبيَّن الفرق بينهما، ليتضح من خلال ذلك الهدف ويتأكد المعنى.

٣ ـ نجد ابن القيِّم بعد عرضه للمشبه والمشبه به يعرض دقة وجه الشبه، وانظر إليه مثلًا عند قوله: «وفي الزجاجة مصباح، وهو النور الذي في الفتيلة، وهي حاملته، ولذلك النور مادة، وهو زيت قد عصر من زيتونة في أعدل الأماكن، تصيبها الشمس أول النهار وآخره؛ فزيتها من أصفى الزيت وأحسنه، وأبعده من الكدر، حتى إنه ليكاد من صفائه يضيء بلا نار؛ فهذه مادة نور المصباح.

وكذلك مادة نور المصباح الذي في قلب المؤمن، هو من شجرة الوحي التي هي أعظم الأشياء بركة، وأبعدها من الانحراف، بل هي

---

(١) وهذا هو المنهج الصواب الذي اشترطه العلماء في تفسير كتاب الله ـ تعالى ـ، فذكر شيخ الإسلام أن منشأ الخلاف الواقع في التفسير من جهة الاستدلال هو أحد جهتين: إحداهما: «قوم فسروا القرآن بمجرد ما يسوغ أن يريده بكلامه من كان من الناطقين بلغة العرب، من غير نظر إلى المتكلم بالقرآن، والمنزل عليه والمخاطب به» مقدمة التفسير (ص٩٦).

أوسط الأمور، وأعدلها وأفضلها، لم تنحرف انحراف اليهودية ولا انحراف النصرانية، بل هي وسط بين الطرفين المذمومين في كل شيء، فهذه مادة مصباح الإيمان في قلب المؤمن.

ولما كان ذلك الزيت قد اشتد صفاؤه حتى كاد أن يضيء بنفسه، ثم خالط النار؛ فاشتدت بها إضاءة، وقويت مادة ضوء النار به؛ كان ذلك نورًا على نور.

وهكذا المؤمن قلبه مضيء، يكاد يعرف الحق بفطرته وعقله، ولكن لا مادة له من نفسه؛ فجاءت مادة الوحي فباشرت قلبه، وخالطت بشاشته؛ فازداد نورًا بالوحي على نوره الذي فطره الله تعالى عليه، فاجتمع له نور الوحي إلى نور الفطرة؛ فصار نورًا على نور، فيكاد ينطق بالحق وإن لم يسمع فيه أثرًا».

وهكذا نجد ابن القيِّم يعرض صورة تركيب المثل من حيث المشبه والمشبه به، ووجه الشبه بينهما، عرضًا دقيقًا كلمة بكلمة، وجملة بجملة، ومعنى إجمالي بمعنى إجمالي.

٤ ـ نرى ابن القيِّم ـ في أغلب الأمثال التي درسها ـ لم يصب اهتمامه على إبراز المسائل البلاغية التي يذكرها البلاغيون في دراستهم للأمثال، بقدر ما كان يهتم به من إبراز الهدف من المثل والقيمة المعنوية منه، فنجده يركز على ما يخدم الهدف ويوضح المعنى، فيذكر المشبه والمشبه به ووجه الشبه بينهما، دون التعرض لنوع التشبيه من حيث الحس والعقل، أو أقسام التشبيه باعتبار طرفيه، أو باعتبار وجه الشبه، التي يذكرها البلاغيون دائمًا، إلا في القليل، ومن ذلك ما ذكره في آخر كلامه عن هذا المثل حيث يقول: «فذكر ﷻ نوره في السمٰوات والأرض، ونوره في قلوب عباده المؤمنين، النور المعقول المشهود

بالبصائر والنور الذي استنارت به البصائر والقلوب، والنور المحسوس المشهود بالأبصار، الذي استنارت به أقطار العالم العلوي والسفلي»، فتبيَّن لنا أن هذا المثل تشبيه معقول بمحسوس[(١)].

كذلك في كتابه «اجتماع الجيوش الإسلامية» عند دراسته لهذا المثل نجده ذكر تقسيم آخر يقسمه البلاغيون، وذلك باعتبار وجه الشبه[(٢)]، فقال: «**وفي هذا التشبيه لأهل المعاني طريقتان:**

أحدهما: طريقة التشبيه المركب[(٣)]، وهي أقرب مأخذًا وأسلم من التكلف، وهي أن تشبه الجملة برمتها بنور المؤمن؛ من غير تعرض لتفصيل كل جزء من أجزاء المشبه، ومقابلته بجزء من المشبه به، وعلى هذا عامة أمثال القرآن.

---

(١) **قسم البلاغيون التشبيه باعتبار الحس والعقل إلى أقسام:**
١ - تشبيه محسوس بمحسوس. وهذا شائع في القرآن، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ [محمد: ١٢].
٢ - تشبيه معقول بمعقول.
٣ - تشبيه معقول بمحسوس. وهذا أيضًا شائع في القرآن، ومن أمثلته هذا المثل الذي ذكرناه.
٤ - تشبيه محسوس بمعقول. وهذا اختُلف هل وقع في القرآن منه شيء، أو لم يقع؟ ورأي جمهرة المتأخرين من البلاغيين أنه لا يقع في القرآن، والسبب أنّ التشبيه إنما يؤتى به لتقريب المعنى المعقول الذي لا يتصور في الأذهان، وهذا لا يتحقق في مثل هذا النوع من التشبيه.
انظر: التبيان في ضوء أساليب القرآن الكريم (ص٤٠ ـ ٢٥).

(٢) وذكر هذا التقسيم عند مثلين من أمثال القرآن التي درسها في (إعلام الموقعين) وهي قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١] **انظر**: (٢/ ٣١١).
وقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١] **انظر**: (٢/ ٣١٣).

(٣) **يقصد به التشبيه المجمل** «وهو: التشبيه الذي لم يذكر فيه وجه الشبه» البلاغة العربية للميداني (٢/ ١٧٣).

فتأمل صفة «المشكاة» وهي: كوة لا تنفذ لتكون أجمع للضوء، قد وضع فيها مصباح، وذلك المصباح داخل زجاجة تشبه الكوكب الدري في صفائها وحسنها، ومادته من أصفى الأدهان وأتمها وقودًا، من زيت شجرة في وسط القراح[(١)] لا شرقية ولا غربية بحيث تصيبها الشمس في إحدى طرفي النهار، بل هي في وسط القراح محمية بأطرافه، تصيبها الشمس أعدل إصابة... فمن شدة إضاءة زيتها وصفائه وحسنه يكاد يضيء من غير أن تمسه نار، فهذا المجموع المركب هو مثل نور الله تعالى الذي وضعه في قلب عبده المؤمن وخصه به.

والطريقة الثانية: طريقة التشبيه المفصل[(٢)].

فقيل: المشكاة: صدر المؤمن، والزجاجة: قلبه، وشبه قلبه بالزجاجة لرقتها وصفائها وصلابتها، وكذلك قلب المؤمن فإنه قد جمع الأوصاف الثلاثة، فهو يرحم ويحسن ويتحنن ويشفق على الخلق برقته...»[(٣)]، والطريقة الثانية هي التي درس فيها المثل السابق.

ومن خلال عرض طريقة ابن القيِّم في إبراز أسرار المثل القرآني، تبيِّن عمق دراسته لها، ودقة فهمه، وسعة علمه، وقوة استنباطه، وصحة منهجه؛ ما جعل دراسته لأمثال القرآن لها مزية خاصة عن غيرها، فتلقتها الأمة بالقبول، وأصبحت مرجعًا مهمًّا في هذا النوع من علوم القرآن.

---

(١) **القراح**: الماء الذي لم يخالطه شيء. اللسان (٢/ ٥٦١).

(٢) **التشبيه المفصل**: وهو الذي ذكر فيه وجه الشبه.

(٣) اجتماع الجيوش الإسلامية (ص٢٤).

المَطْلَبُ الثَّالِثُ

الإعجاز في دقة ألفاظ المثل القرآني

من خصائص التشبيه الجيد، أن تكون ألفاظ التشبيه واقعة في المشبه موقعًا دقيقًا، «لأن الدقة في اختيار. . . العناصر هي التي تكسب الصورة ثراء وخصوبة، وتجعلها أقدر على التعبير والإيحاء، وبمقدار شمول الدلالة، واستيعابها، وقدرتها على الإشارة والوحي تكون منزلة التشبيه وبلاغته»(١)، وقد بلغت أمثال القرآن أعلى مراتب البلاغة في دقة الألفاظ، بل إن دقة الألفاظ من أهم خصائصها(٢)، وهي دليل قاطع على إعجاز هذا الكتاب الكريم، وحسن نظمه، وقوة معانيه.

ومن منهج ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ وطريقته في إبراز أسرار المثل القرآني؛ أن يبيِّن السر البديع في اختيار ألفاظ المثل، فيدرسها دراسة دقيقة فاحصة، مبيِّنًا السر في اختيار اللفظ في الآية وإيثاره على غيره، وإيضاح الفرق بين اللفظين، وتمييز الفاضل من المفضول، بحس مرهف رقيق، ومنهج سليم صحيح، واطرد هذا المنهج في عدد من الأمثال التي درسها ابن القيِّم في كتبه، ويتجلى هذا المنهج بوضوح في دراسته رَحِمَهُ اللَّهُ للمثل الذي ضربه الله ﷻ في سورة البقرة لحال نور المنافقين، ففصل القول في دقة ألفاظ هذا المثل تفصيلًا دقيقًا مبينًا السر البديع في اختيار تلك الألفاظ فيقول: «قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٧، ١٨].

شبَّه سبحانه أعداءه المنافقين بقوم أوقدوا نارًا لتضيء لهم وينتفعوا

---

(١) الإعجاز البلاغي لمحمد أبو موسى (ص١٠٢).

(٢) انظر: المعجزة الخالدة (ص٢٤٠).

بها، فلما أضاءت لهم النار فأبصروا في ضوئها ما ينفعهم ويضرهم، وأبصروا الطريق بعد أن كانوا حيارى تائهين، فهم كقوم سفرٍ ضلّوا عن الطريق فأوقدوا النار لتضيء لهم الطريق، فلما أضاءت لهم فأبصروا وعرفوا طفئت تلك النار وبقوا في الظلمات لا يبصرون، قد سدت عليهم أبواب الهدى الثلاث، فإن الهدى يدخل إلى العبد من ثلاثة أبواب: مما يسمعه بأذنه، ويراه بعينه، ويعقله بقلبه. وهؤلاء قد سدت عليهم أبواب الهدى، فلا تسمع قلوبهم شيئًا، ولا تبصره، ولا تعقل ما ينفعها.

وقيل: لما لم ينتفعوا بأسماعهم وأبصارهم وقلوبهم، نزلوا بمنزلة من لا سمع له ولا بصر ولا عقل، والقولان متلازمان.

وقال في صفتهم: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨]؛ لأنهم قد رأوا في ضوء النهار وأبصروا الهدى، فلما طفئت عنهم لم يرجعوا إلى ما رأوا وأبصروا.

وقال ﷻ: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧] ولم يقل: ذهب نورهم، وفيه سر بديع، وهو انقطاع سر تلك المعية الخاصة التي هي للمؤمنين من الله تعالى، فإن الله تعالى مع المؤمنين، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، فذهاب الله بذلك النور انقطاع لمعيته الخاصة التي خص بها أولياءه، فقطعها بينه وبين المنافقين فلم يبق عندهم بعد ذهاب نورهم ولا معهم، فليس لهم نصيب من ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] ولا من: ﴿قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢].

وتأمل قوله تعالى: ﴿أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ كيف جعل ضوءها خارجًا عنه منفصلًا، ولو اتصل ضوءها به ولابسه لم يذهب؛ ولكنه كان ضوء مجاورة لا ملابسة ومخالطة، وكان الضوء عارضًا والظلمة أصلية، فرجع

الضوء إلى معدنه، وبقيت الظلمة في معدنها، فرجع كل منهما إلى أصله اللائق به، حجة من الله قائمة، وحكمة بالغة تعرف بها إلى أولي الألباب من عباده.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧] ولم يقل: بنارهم ليطابق أول الآية؛ فإن النار فيها إشراق وإحراق، فذهب بما فيها من الإشراق وهو النور، وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق، وهو النارية.

وتأمل كيف قال: ﴿بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧] ولم يقل: بضوئهم، مع قوله: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ [البقرة: ١٧] لأن الضوء هو زيادة في النور، فلو قيل: ذهب الله بضوئهم لأوهم الذهاب بالزيادة فقط دون الأصل، فلما كان النور أصل الضوء كان الذهاب به ذهابًا بالشيء وزيادته.

وأيضًا: فإنه أبلغ في النفي عنهم، وأنهم من أهل الظلمات الذين لا نور لهم.

وأيضًا: فإن الله تعالى سمى كتابه نورًا، ورسوله ﷺ نورًا، ودينه نورًا، وهداه نورًا، ومن أسمائه النور، والصلاة نور، فذهابه سبحانه بنورهم ذهاب بهذا كله.

وتأمل مطابقة هذا المثل لما تقدمه من قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦] كيف طابق هذه التجارة الخاسرة التي تضمنت حصول الضلالة والرضى بها، وبذل الهدى في مقابلتها، وحصول الظلمات التي هي الضلالة، والرضى بها؛ بدلًا عن النور الذي هو الهدى، فبدلوا الهدى والنور، وتعوضوا عنه الظلمة والضلالة، فيا لها من تجارة ما أخسرها، وصفقة ما أشد غبنها.

وتأمل كيف قال الله: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ فوحَّده، ثم قال:

﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ﴾ [البقرة: ١٧] فجمعها، فإن الحق واحد، وهو صراط الله المستقيم الذي لا صراط يوصل إليه سواه، وهو عبادته وحده لا شريك له، بما شرعه على لسان رسوله ﷺ، لا بالأهواء والبدع وطرق الخارجين عما بعث الله به رسوله من الهدى ودين الحق؛ بخلاف طرق الباطل؛ فإنها متعددة متشعبة. ولهذا يفرد سبحانه الحق، ويجمع الباطل؛ كقوله: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فجمع سبل الباطل، ووحَّد سبيله الحق، ولا يناقض هذا قوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٦]؛ فإن تلك هي طرق مرضاته التي يجمعها سبيله الواحد وصراطه المستقيم، فإن طرق مرضاته كلها ترجع إلى صراط واحد وسبيل واحد، وهي سبيله التي لا سبيل إليه إلا منها.

وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه خطَّ خطًّا مستقيمًا، وقال: (**هَذَا سَبِيلُ اللهِ**)، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: (**هَذِهِ سُبُلٌ** - قَالَ يَزِيدُ: مُتَفَرِّقَةٌ - **عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ**، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣])(١).

وقد قيل: إن هذا مثل للمنافقين وما يوقدونه من نار الفتنة التي

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده رقم (٤١٤٢). وابن حبان في صحيحه (٦/٧). وصححه ابن القيِّم هنا.

يوقعونها بين أهل الإسلام ويكون بمنزلة قول الله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤] ويكون قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ مطابقًا لقوله تعالى: ﴿أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ ويكون تخييبهم وإبطال ما راموه هو تركهم في ظلمات الحيرة لا يهتدون إلى التخلص مما وقعوا فيه ولا يبصرون سبيلًا، بل هم صم بكم عمي.

وهذا التقدير وإن كان حقًّا ففي كونه مرادًا بالآية نظر، فإن السياق إنما قصد لغيره، ويأباه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ وموقد نار الحرب لا يضيء ما حوله أبدًا. ويأباه قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ وموقد نار الحرب لا نور له. ويأباه قوله تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ وهذا يقتضي أنهم انتقلوا من نور المعرفة والبصيرة إلى ظلمة الشك والكفر. قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هو المنافق أبصر ثم عمي، وعرف ثم أنكر»، ولهذا قال: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾؛ أي: لا يرجعون إلى النور الذي فارقوه.

وقال تعالى: في حق الكفار: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، فسلب العقل عن الكفار، إذ لم يكونوا من أهل البصيرة والإيمان، وسلب الرجوع عن المنافقين؛ لأنهم آمنوا ثم كفروا فلم يرجعوا إلى الإيمان»[١].

من خلال هذا التحليل الدقيق يتبين عمق دراسة ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ لألفاظ المثل القرآني، وهذا العمق اكتسبه رَحِمَهُ ٱللَّهُ من عدة أمور: الإحاطة بالأدلة الشرعية والفهم الجيد لها، والتمكن من قواعد اللغة العربية، ومعرفة أقوال المفسرين، والحس البلاغي الفذ الذي يتمتع به ابن القيِّم، هذا الذي أكسب ابن القيِّم هذا العمق في دراسة ألفاظ المثل القرآني.

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية (ص٣٩).

فهو يستشهد على دقة اللفظ في المثل بالنصوص الشرعية بشيء من الاستنباط الدقيق، ويظهر ذلك في قوله: «وقال ﷻ: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل: ذهب نورهم، وفيه سر بديع، وهو انقطاع سر تلك المعية الخاصة التي هي للمؤمنين من الله تعالى، فإن الله تعالى مع المؤمنين، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]»، واستدلاله بالنصوص الشرعية لبيان دقة اللفظ ظاهر من خلال هذا المثل.

ويظهر تمكنه من قواعد اللغة العربية من خلال بحثه للإفراد والجمع في قوله ـ تعالى ـ ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ وقوله: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ﴾ فتبيَّن السر البديع من إفراد النور وهو: أن الحق واحد. وبين السر في جمع الظلمات وهو: أن الباطل طرقه متعددة. وبسط القول في ذلك بحس العالم المحرر، واللغوي المتبحر.

وابن القيِّم في دراسته لدقة ألفاظ أمثال القرآن لم يكن بمنأى عن مناهج المفسرين، بل نجده يستشهد لدقة اللفظ بما جاء في القرآن الكريم، فيرد الآيات بعضها إلى بعض، ويرجع إلى أقوال المفسرين، ويدرس تلك الأقوال ويرجح ما هو مناسب للآية بفهم عميق، ويظهر ذلك عند قوله: «وقد قيل: إن هذا مثل للمنافقين وما يوقدونه من نار الفتنة التي يوقعونها بين أهل الإسلام ويكون بمنزلة قول الله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤] ويكون قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ مطابقًا لقوله تعالى: ﴿أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ ويكون تخييبهم وإبطال ما راموه هو تركهم في ظلمات الحيرة لا يهتدون إلى التخلص مما وقعوا فيه ولا يبصرون سبيلًا، بل هم صمٌّ بكمٌ عميٌ.

وهذا التقدير وإن كان حقًّا ففي كونه مرادًا بالآية نظر، فإن السياق

إنما قصد لغيره، ويأباه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ وموقد نار الحرب لا يضيء ما حوله أبدًا. ويأباه قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ وموقد نار الحرب لا نور له. ويأباه قوله تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ وهذا يقتضي أنهم انتقلوا من نور المعرفة والبصيرة إلى ظلمة الشك والكفر. قال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «هو المنافق أبصر ثم عمي، وعرف ثم أنكر»، ولهذا قال: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨]؛ أي: لا يرجعون إلى النور الذي فارقوه».

فظهر من خلال هذا معرفته بأقوال المفسرين وإحاطته بها، والملكة التفسيرية التي حباه الله ـ تعالى ـ بها.

وإلى جانب ذلك كله فإن ابن القيِّم يتمتع بحس بلاغي فريد، فمن خلال تحليله لألفاظ هذا المثل ظهر ذلك الحس، فبذوقه الرائد يحلل النص القرآني ويبيِّن دقة اللفظ وجماله وحسن موقعه، فيظهر إعجاز تلك الألفاظ بتأملات لطيفة دقيقة، انظر إلى قوله: «وتأمل كيف قال: ﴿بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل: بضوئهم، مع قوله: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾؛ لأن الضوء هو زيادة في النور، فلو قيل: ذهب الله بضوئهم لأوهم الذهاب بالزيادة فقط دون الأصل، فلما كان النور أصل الضوء كان الذهاب به ذهابًا بالشيء وزيادته.

وأيضًا: فإنه أبلغ في النفي عنهم، وأنهم من أهل الظلمات الذين لا نور لهم.

وأيضًا: فإن الله تعالى سمى كتابه نورًا، ورسوله ﷺ نورًا، ودينه نورًا، وهداه نورًا، ومن أسمائه النور، والصلاة نور، فذهابه سبحانه بنورهم ذهاب بهذا كله».

وبهذا يتبيَّن عمق ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في دراسته لألفاظ أمثال القرآن، وإجادته في تحليله لها.

المَبحَثُ الثَّانِي

الإعجاز في أسلوب القسم في القرآن الكريم عند ابن القيِّم

ويشتمل على أربعة مطالب:

- المطلب الأول: الغرض من القسم في القرآن.
- المطلب الثاني: الإعجاز في التناسب بين المقسم به والمقسم عليه.
- المطلب الثالث: الإعجاز في بلاغة حذف جواب القسم في القرآن.
- المطلب الرابع: الإعجاز في القسم بعد الحروف المقطعة.

* * *

المَطلَبُ الأَوَّلُ

الغرض من القسم في القرآن

القسم(١) أسلوب من أساليب الكلام التي اشتهرت عند العرب(٢)،

---

(١) والقَسَمُ، بالتحريك: اليَمِينُ، والجمع أقسام. وقد أقسم بالله، واستقسمه به، وقاسمه: حلف له. وتقاسم القوم: تحالفوا. وفي التنزيل: ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ [النمل: ٤٩]. اللسان (٥/ ٣٦٣٠).

(٢) يقول الدكتور عبد الجليل عبد الرحيم: «اللغة العربية وآدابها تتميز عن اللغات الأخرى، بأن للقسم فيها منزلة كبرى، فنحن قلما نجد القسم مستعملًا في اللغات الأخرى وآدابها». لغة القرآن (ص٢٦٥).

يؤتى به لتأكيد الكلام وتحقيقه(١)، فهو يعد من أعظم المؤكدات للكلام وأجلها، وكانت العرب تعظم شأن القسم وتجله؛ لأنهم يعتقدون أنّ اليمين الكاذبة تدع الديار بلاقع(٢)، ولا تترك شيخًا ولا يافعًا(٣)، لأجل ذلك كانوا لا يطرحونها إلا في مواطن الجد والصرامة.

والمتأمل في أقسامهم يلمس جانبًا مهمًّا؛ وهو أنّ أقسامهم اتسمت بصياغة وعبارات تكسب الكلام جلالة ومهابة، انظر إلى قولهم: «لا وفالق الإصباح، وباعث الأرواح»، وقولهم: «لا والذي شق الجبال للسيل، والرجال للخيل»، وقولهم: «لا والذي نادى الحجيج»(٤)، وغيرها. ففي صياغة تلك الأقسام ما يشعر بعظمة الأمر، وهذا من أهم أغراض القسم إلى جانب التوكيد.

وقد يأتي القسم ولا يراد به إثبات صحة الكلام من عدمه، بل إن المشهور من عادات العرب وشيمهم، الصدق ونبذ الكذب، ويعد الكذب عندهم عارًا وقدحًا ومنقصةً(٥)، ومع هذا نجد القسم موجودًا في كلامهم بكثرة، ما يؤكد أنّ القسم ليس المراد به تأكيد الكلام فحسب، بل له أغراض أخرى متعددة(٦)، إلى جانب ذلك الغرض الرئيس.

---

(١) قال سيبويه: «اعلم أن القسم تأكيد لكلامك» الكتاب (٣/ ١٠٤).

(٢) والبلاقع: جمع بلقعة، وهي: الأرض الخالية. قال في اللسان: «والبلقعة: الأرض القفر التي لا شيء بها... والبلقعة: الأرض التي لا شجر بها، تكون في الرمل وفي القيعان، يقال: قاع بلقع، وأرض بلاقع. ويقال: اليمين الفاجرة تذر الديار بلاقع». اللسان (١/ ٣٤٨).

(٣) انظر: مفاتيح الغيب للرازي (٢٦/ ٤١). (٤) انظر: المزهر للسيوطي (٢/ ٢٢٨).

(٥) وهذا أمر مشهور عن العرب، ويدل عليه حديث أبو سفيان ﷺ مع هرقل الروم، عند ما كان يسأله عن النبي ﷺ، قال أبي سفيان ﷺ: «والله لولا الحياء يومئذ من أن يأثر أصحابي عني الكذب لكذبته حين سألني عنه...» سبق تخريجه.

(٦) وقد ذكر الدكتور سامي عطا، أغراض القسم في كتابه: أسلوب القسم الظاهر في القرآن: بلاغته، أغراضه. انظر: (ص٢٥).

وكذلك القسم في القرآن جاء على أغراض عدة بأسلوب بديع، في أعلى درجات الفصاحة والبلاغة، ظهر من خلاله التباين العظيم بينه وبين كلام العرب، واتضحت دقة معاني هذا الكتاب الكريم وشرفها، وعظيم ما يدعو إليه.

وقد أفرد الإمام ابن القيِّم ﵀ دراسة أقسام القرآن في كتابه المشهور: «التبيان في أيمان القرآن»[1]، والذي يعد المرجع الرئيس في هذا النوع من علوم القرآن، وأبرز من خلاله عظمة تلك الأقسام، وجلالها، وعظيم إعجاز هذا الكتاب الكريم، **وبيَّن جملة من أغراض القسم في القرآن نلخصها من كلامه في ما يأتي:**

الغرض الأول: يأتي القسم في القرآن على أمر يراد توكيده وتحقيقه، فلا بد أن يكون المقسم به من الأمور الظاهرة المشهودة، قال ابن القيِّم ﵀: «والمقسم عليه يراد بالقسم توكيده وتحقيقه، فلا بدّ أن يكون مما يحسن فيه ذلك؛ كالأمور الغائبة والخفية إذا أُقسم على ثبوتها.

فأما الأمور المشهودة الظاهرة كالشمس، والقمر، والليل، والنهار، والسماء، والأرض، فهذه يقسم بها ولا يقسم عليها[2]»[3].

وهذه القاعدة التي صدَّر كتابه بها ﵀ نجده يطبقها على أقسام القرآن من خلال بحثه لها، حتى إنه أصبح يقيس الأقوال عليها، فما اتفق معها من أقوال المفسرين رجحه، وما خالفها من أقوالهم عدل عنه،

---

(١) يعدُّ كتاب ابن القيِّم «التبيان في أيمان القرآن» أهم المصادر في هذا النوع من علوم القرآن، حتى أن بعض العلماء عده المصدر الأول، وذكر أنه الكتاب الأول في القسم القرآني، انظر: إمعان في أقسام القرآن (ص٣).

(٢) هذا الكلام نقله ابن القيِّم بنصه من شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀. انظر: مجموع الفتاوى (١٣/ ٣١٥).

(٣) التبيان في أيمان القرآن (ص٥).

وبيَّن وجه ضعف ذلك القول من خلال هذه القاعدة، انظر إلى قوله عند تفسير القسم في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥]، تجده رَحِمَهُ اللَّهُ رجح قول من قال: أنّ المراد بها: «النجوم»[1]، على من قال أنّ المقصود بالخنس: «الظباء»[2] أو «بقر الوحش»[3]، مستندًا على هذه القاعدة، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولما كان للنجوم حال ظهورٍ، وحال اختفاءٍ، وحال جريانٍ، وحال غروبٍ، أقسم ـ سبحانه ـ بها في أحوالها كلها، ونبَّه بخنوسها على حال ظهورها؛ لأنَّ «الخنوس» هو الاختفاء بعد الظهور، ولا يقال لما لا يزال مختفيًا: أنه قد خنس. فذكر ـ سبحانه ـ جريانها وغروبها صريحًا، وخنوسها وظهورها، واكتفى من ذكر طلوعها بجريانها الذي مبدؤه الطلوع، فالطلوع أول جريانها.

فتضمن القسم: طلوعها، وغروبها، وظهورها، واختفاءها، وذلك من آياته ودلائل ربوبيته.

وليس قول من فسرها بـ«الظباء»، و«بقر الوحش» بالظاهر؛ لوجوه:

أحدها: أنّ هذه الأحوال في الكواكب السيارة أعظم آيةً وعبرةً.

الثاني: أنّ اشتراك أهل الأرض في معرفته بالمشاهدة والعيان.

---

(١) قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «النجوم تخنِسُ بالنهار، وتكنس بالليل». أخرجه الطبري في تفسيره (٢٤/ ١٥٢)، والحاكم في المستدرك: كتاب التفسير برقم: (٣٩٥٩)، وصححه ووافقه الذهبي. وهو قول: الحسن البصري، وقتادة، وابن زيد، والسدي، وبكر بن عبد الله المزني. وغيرهم. **انظر**: تفسير الطبري (٢٤/ ١٥٢)، والجامع لأحكام القرآن (٢٢/ ١٠٨)، وتفسير ابن كثير (٧/ ٤٩٧).

(٢) فسرها «بالظباء»: ابن عباس رضي الله عنهما، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والضحاك، وجابر بن زيد. **انظر**: تفسير الطبري (٢٤/ ١٥٧)، وتفسير ابن كثير (٧/ ٤٩٨).

(٣) وفسرها بـ«بقر الوحش»: ابن مسعود رضي الله عنه، وجابر بن زيد، وإبراهيم النخعي. **انظر**: تفسير الطبري (٢٤/ ١٥٤)، وتفسير ابن كثير (٧/ ٤٩٧).

الثالث: أنّ «البقر» و«الظباء» ليست لها حالة تختفي فيها عن العيان مطلقًا، بل لا تزال ظاهرةً في الفلوات.

الرابع: أنّ الذين فسروا الآية بذلك قالوا: ليس خنوسها من الاختفاء قال الواحدي: «هو من الخنس في الأنف، وهو تأخر الأرنبة، وقصر القصبة، والبقر والظباء أنوفهن خنس، والبقرة خنساء، والظبي أخنس». ومنه سميت «الخنساء»، لخنس أنفها.

ومعلوم أن هذا أمر خفي يحتاج إلى تأمل، وأكثر الناس لا يعرفونه، وآيات الرب التي يقسم بها لا تكون إلا ظاهرة جلية يشترك في معرفتها الخلائق، وليس الخنس في أنف البقرة والظباء بأعظم من الاستواء والاعتدال في أنف ابن آدم، فالآية فيه أظهر».

فنجده رَحِمَهُ اللَّهُ رجح قوله انطلاقًا من تلك القاعدة، وغير ذلك مواضع كثيرة[1]، سواءًا في الترجيح أو إظهار مطابقة القسم لها.

الغرض الثاني: يقسم الله تعالى بآياته المستلزمة لذاته وصفاته، وقد نبّه ابن القيّم على هذا المعنى كثيرًا ـ أثناء دراسته أقسام القرآن[2] ـ ومن ذلك قوله عند تفسيره للقسم في سورة الشمس وهو قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ إلى قوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ١ ـ ٨] قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد تضمن هذا القسم الإقسام بالخلّاقِ والمخلوق، فأقسم بالسماء وبانيها، والأرض وطاحيها، والنفس ومسويها[3]».

---

(١) انظر: تفسيره للقسم في «سورة المرسلات» (ص٢٢٥)، أيضًا تجده رد بعض الأقوال لمخالفتها هذه القاعدة.

(٢) انظر ـ مثلًا ـ: كلامه عن القسم في «سورة الليل» (ص٨٦)، وكذلك في «سورة الضحى» (ص١١٠)، وكذلك في «سورة الانشقاق» (ص١٧٨)، وكذلك في «سورة المدثر» (ص٢٥٠). وغير ذلك من المواضع.

(٣) فتكون «ما» بمعنى «من» أو «الذي». وبه قال: الحسن، ومجاهد، وغيرهما. =

وقد قيل: إنّ «ما» مصدرية[١]، فيكون الإقسام بنفس فعله تعالى، فيكون قد أقسم بالمصنوع الدال عليه سبحانه، وبصنعته الدالة على كمال علمه، وقدرته، وحكمته، وتوحيده.

ولما كانت حركة الشمس والقمر، والليل والنهار؛ أمرًا يشهد الناس حدوثه شيئًا فشيئًا، ويعلمون أنَّ الحادث لا بد له من محدث، كان العلم بذلك منزلًا منزلة ذكر المحدث له لفظًا، فلم يذكر الفاعل في الأقسام الأربعة الأول.

ولهذا سلك طائفة من النُّظَّار الاستدلال بالزمان على الصانع، وهو استدلال صحيح؛ قد نبَّه عليه القرآن في غير موضع؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]»[٢].

ودلالة هذا القسم على صفات الله تعالى واضحة، ولا شك أن آيات الله الكونية دالة عليه سبحانه، وهذا المعنى الذي ذكره ابن القيِّم وطبَّقه على أقسام القرآن ـ التي درسها في كتابه ـ نبه عليه شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ فقال: «وهو ـ سبحانه ـ يقسم بأمور على أمور، وإنما يقسم بنفسه المقدسة الموصوفة بصفاته، أو آياته المستلزمة لذاته وصفاته»[٣].

وهذه القواعد التي ذكرها شيخ الإسلام صدَّر ابن القيِّم كتابه بها، وبنى عليها كلامه في أقسام القرآن.

= وهو اختيار ابن جرير. انظر: تفسير الطبري (٢٤/ ٤٣٧)، والجامع لأحكام القرآن (٢٢/ ٣١٠).

(١) وهو قول: قتادة. واختاره المبرد. وغيرهم. انظر: الجامع لأحكام القرآن (٢٢/ ٣١٠).

(٢) التبيان في أيمان القرآن (ص٢٦).

(٣) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣١٤).

وقد عارض العلامة عبد الحميد الفراهي[(١)] ابن القيِّم في هذا الرأي، ورأى أنَّ أقسام القرآن ليست دالة على صفات الله ﷻ، وأخذ يرد على ابن القيِّم ويضعف رأيه، وأطال الكلام في ذلك[(٢)]، ومن ضمن ما قال: «. . . أقسام القرآن بالمخلوقات ليست إلا آيات دالة، وأنها نوع من القسم مباين للأقسام التعظيمية، وليس من القسم بصفات الله كما ذهب إليه ابن القيِّم رحمه الله»[(٣)].

والحق أنّ آيات الله تعالى تستلزم صفاته، كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام ابن القيِّم؛ لأنّ حركة الشمس والقمر، والليل والنهار، أمر يشهد الناس حدوثه، ولا بدّ لهذه الحوادث الكونية من محدث، فهي دلالة على أفعال الله ﷻ وقدرته.

وقد أشار ابن القيِّم رحمه الله إلى أنّ القرآن نبَّه على هذا المسلك في غير موضع، من تلك المواضع الآية التي ذكرها، ومن ذلك أيضًا، أنّ الله سبحانه يستدل على إعادة الخلق بإخراج النبات ـ وهذا كثيرٌ في القرآن ـ[(٤)]، وذلك يستلزم صفات من صفات الله ﷻ قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج: ١٣].

---

(١) هو: العلامة عبد الحميد بن عبد الكريم بن قربان قنبر، الأنصاري، الفراهي. وتوفي سنة ١٣٤٩هـ. عالمًا ذا ثقافة واسعة، من مؤلفاته: «مفردات القرآن»، «إمعان في أقسام القرآن»، «أساليب القرآن» وغيرها. انظر ترجمته في: مقدمة كتابه «مفردات القرآن» (ص١١ ـ ٤١)، للمحقق: محمد أجمل الإصلاحي.

(٢) انظر: إمعان في أقسام القرآن (ص١٢).

(٣) المرجع السابق (ص١٣).

(٤) من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وجمع بين الاستدلال بالأمرين - بالآيات المستلزمة للصفات، وصفاته ﷻ - في قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، قال ابن القيِّم: «فهذا استدلالٌ بالآيات المعاينة المخلوقة، ثم قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]، فهذا استدلال بكمال ربوبيته، وكمال أوصافه»[(١)].

أيضًا طريقة الاستدلال بآيات الله على صفاته من جدل الأنبياء الذي حكاه الله عنهم في محاجَّتهم لمعارضيهم، انظر إلى محاجَّة إبراهيم عليه السلام التي حكاها الله ﷻ في سورة البقرة، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فحَجَّهُ إبراهيم عليه السلام بآية من آيات الله، أظهر من خلالها للمعارض قدرة الله ﷻ.

ومن ذلك أيضًا، محاجة موسى عليه السلام لفرعون وقومه التي حكاها الله ﷻ في سورة الشعراء، قال الله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٣ - ٢٨].

وغير ذلك كثيرٌ في القرآن، وإنما المراد الاستشهاد لما قال ابن القيِّم رحمه الله.

---

(١) التبيان في أيمان القرآن (ص٣٤٣).

ثم إن القول بأنّ القسم بآيات الله يستلزم القسم بذاته وصفاته؛ رأي جمع من علماء التفسير: كالرازي[١]، والبيضاوي[٢]، وابن كثير[٣]، والثعالبي[٤]، والبقاعي[٥]، وأبي السعود[٦]، والقاسمي[٧]، ومن

---

(١) يقول عند تفسيره للقسم في سورة الذاريات: «الأيمان التي حلف الله تعالى بها كلها دلائل أخرجها في صورة الأيمان مثاله قول القائل لمنعمه: وحق نعمك الكثيرة إني لا أزال أشكرك، فيذكر النعم وهي سبب مفيد لدوام الشكر، ويسلك مسلك القسم، كذلك هذه الأشياء كلها دليل على قدرة الله تعالى على الإعادة...». مفاتيح الغيب (١٩٤/٢٨).

(٢) قال في جواب القسم في سورة الذاريات: «جواب القسم: كأنه استدل باقتداره على هذه الأشياء العجيبة المخالفة لمقتضى الطبيعة على اقتداره على البعث للجزاء الموعود». أنوار التنزيل وأسرار التأويل (١٤٦/٥).

(٣) يقول ابن كثير في تفسير القسم في سورة الضحى: «وهذا قسم منه تعالى بالضحى وما جعل فيه من الضياء، ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [٢]؛ أي: سكن فأظلم وادلَهَم. قاله مجاهد، وقتادة، والضحاك، وابن زيد، وغيرهم. وذلك دليل ظاهر على قدرة خالق هذا وهذا». تفسير ابن كثير (٥٩١/٧).

(٤) يقول الثعالبي رحمه الله: «أقْسَمَ اللهُ تعالى بالشمسِ: إما على التنبيهِ منها على الاعتبارِ المؤدِّي إلى معرفةِ الله تعالى». الجواهر الحسان (٥٩٤/٥).

(٥) يقول في تفسيره لسورة الشمس: «... فقال مقسمًا بما يدل على تمام علمه، وشمول قدرته في الآفاق علويها وسفليها، والأنفس سعيدها وشقيها، وبدأ العالم العلوي، فأفاد ذلك قطعًا العلم بأنه الفاعل المختار، وعلى العلم بوجوب ذاته وكمال صفاته...». نظم الدرر (٦٩/٢٢).

(٦) قال رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥]: «أي: بمساقطِها، وهي: مغاربُها؛ وتخصيصُها بالقسم لما في غروبها من زوالِ أثرِها، والدلالةِ على وجودِ مؤثرٍ دائمٍ لا يتغيرُ؛ أو لأن ذلكَ وقتُ قيامِ المتهجدينَ والمبتهلين إليه تعالى، وأوانُ نزولِ الرحمةِ والرضوانِ عليهم؛ أو بمنازلِها ومجاريها، فإنَّ له تعالَى في ذلك من الدليلِ على عظمِ قُدرتِه وكمالِ حكمتِه ما لا يحيطُ به البيانُ». تفسير أبي السعود (٢٦٧/٥).

(٧) قال بعد تفسيره للقسم في سورة الذاريات: «الأيمان التي أقسم الله تعالى بها كلُّها دلائل أخرجها في صورة الأيمان، مثاله قول القائل لمنعمه: وحق نعمتِك الكثيرة إني لا أزال أشكرك. فيذكر النعم وهي سبب مفيد لدوام الشكر، ويسلك مسلك القسم، كذلك هذه الأشياء كلها دليل على قدرة الله تعالى على الإعادة». (٥٥٢٢/٥) وقد =

المعاصرين من علماء التفسير ـ قال به ـ: السعدي[(١)]، والشيخ عطية بن محمد سالم في تكملته لأضواء البيان[(٢)]، والشيخ ابن عثيمين[(٣)]. وغير هؤلاء، وليس ثمة دليل يمنع قولهم.

والخلاصة: أنّ كلام ابن القيِّم من باب تفسير القرآن بالقرآن ـ ومعلوم أنه أصح طرق التفسير ـ، وأن قول ابن القيِّم قال به جماعة من المفسرين، وليس هناك نص يخالفه، بل هو موافق لطريقة القرآن. فلهذا يترجح قول ابن القيِّم. والله تعالى أعلم.

الغرض الثالث: القسم «ببعض المخلوقات دليل على أنه من عظيم مخلوقاته»[(٤)] ﷻ، أو لبيان شرف المقسم به، وبيان علوّ شأنه، قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإنما يقسم ـ سبحانه ـ من كل جنس بأعلاه، كما أنه لما أقسم بالنفوس أقسم بأعلاها، وهي النفس الإنسانية.

= نقل هذا من الرازي بنصه وعزاه إليه. ونقل أيضًا من كتاب ابن القيِّم «التبيان» أثناء تفسيره لأقسام القرآن.

(١) قال بعد تفسيره للقسم في سورة الشمس: «أقسم تعالى بهذه الآيات العظيمة، على النفس المفلحة، وغيرها من النفوس الفاجرة فقال: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ [١]؛ أي: نورها ونفعها الصادر منها، ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ [٢]؛ أي: تبعها في المنازل والنور، ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ [٣]؛ أي: جلى ما على وجه الأرض وأوضحه، ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ [٤]؛ أي: يغشى وجه الأرض، فيكون ما عليها مظلمًا.
فتعاقب الظلمة والضياء، والشمس والقمر، على هذا العالم بانتظام وإتقان، وقيامًا لمصالح العباد، أكبر دليل على أن الله بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه المعبود وحده الذي كل معبود سواه فباطل». تفسير السعدي (ص٩٢٦).

(٢) قال ﷺ عند سور الشمس ـ مثلًا ـ: «فالشمس وحدها آية دالة على قدرة خالقها». أضواء البيان (٩/ ٢٣٧).

(٣) قال ﷺ: «أقسم الله تعالى بالشمس وضحاها وهو ضوءها لما في ذلك من الآيات العظيمة الدالة على كمال قدرة الله ﷻ، وكمال علمه ورحمته». تفسير جزء عم (ص٢٢٤).

(٤) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣١٤)، والتبيان في أيمان القرآن (ص٥).

ولما أقسم بكلامه أقسم بأشرفه وأجلّه؛ وهو: القرآن.

ولما أقسم بالعلويات أقسم بأشرفها وهي: السماء، وشمسها، وقمرها، ونجومها.

ولما أقسم بالزمان أقسم بأشرفه، وهو: الليالي العشر.

وإذا أراد ـ سبحانه ـ أن يقسم بغير ذلك أدرجه في العموم؛ كقوله عزَّ تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨، ٣٩]، وقوله: ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [الليل: ٣] في قراءة رسول الله ﷺ، ونحو ذلك»[(١)].

ونلحظ أن ابن القيِّم يحاول دائمًا إبراز عظمة المقسم به من خلال دراسته لأقسام القرآن[(٢)]، ويوضح مكانته وعلو شأنه، ويرى ابن القيِّم رحمه الله أنّ بعض أقسام القرآن، إنما جاءت لبيان عظمة المقسم به ومكانته فحسب، وليس المراد بها الإقسام على شيء بعينه، ولهذا استَحسَنَ أن يكون جواب القسم محذوفًا في بعض أقسام القرآن لهذا الغرض، قال رحمه الله: «والجواب يحذف تارةً ولا يُراد ذكره، بل يراد تعظيم المقسم به وأنه مما يحلف به»[(٣)]، وذلك مثل القسم الذي في سورة البروج، فنجده رحمه الله بعد أن ذكر وجوه العظمة التي في المقسم به، قال: «والأحسن أن يكون هذا القسم مستغنيًا عن الجواب؛ لأن القصد التنبيه

---

(١) التبيان في أيمان القرآن (ص١٨٨).

(٢) يكاد يكون ذلك منهجًا مطردًا في جميع ما يَذكُره من الأقسام، ولا سيما إذا كانت وجوه العظمة خفية في القسم، فمثل القسم في سورة التين، نلحظ أنه رحمه الله ذكر فوائد هاتين الثمرتين، وذكر تعليلًا آخر وهو: أن المقصود قد يكون محل نبات هاتين النبتتين، وهذا قول قال به بعض المفسرين. انظر: جامع البيان (٢٤/٥٠٣)، وإن كان هذا القول قد ضعفه ابن جرير، ورأى أن المقصود بالتين: الذي يؤكل، والزيتون الذي يعصر.

(٣) التبيان في أيمان القرآن (ص١٣).

على المقسم به، وأنه من آيات الرب العظيمة. ويبعد أن يكون الجواب: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ [البروج: ٤]. . .»[١].

بل جعل عظمة المقسم به وعلوّ شأنه قاعدة في أقسام القرآن، ولهذا تجد أنه يرجح الأقوال حسب موافقتها لهذه القاعدة، انظر إليه مثلًا وهو يرد قول من قال: إنّ المراد بالخنس: «بقر الوحش»، أو «الظباء»[٢]، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «. . . ليس بالبين أقسام الرب ـ تعالى ـ بالبقر والغزلان، وليس هذا عرف القرآن ولا عادته، وإنما يقسم ـ سبحانه ـ من كل جنس بأعلاه، كما أنه لما أقسم بالنفوس أقسم بأعلاها، وهي النفس الإنسانية. . .»[٣].

ورأى بعض العلماء[٤] أن القسم في القرآن ليس دليلًا على عظمة المقسم به، أو شرفه، وقد أخذوا على ابن القيِّم قوله بهذا الرأي؛ ولكن رأي ابن القيِّم هذا رأي مشهور، حكاه الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ عن قتادة. قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكان قتادة يذهب في ما أقسم الله به من الأشياء، أنه إنما أقسم به لعظيم شأنه عنده»[٥]، وقال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ عند قوله تعالى: «﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: ١، ٢]. قال: آيتان عظيمتان يكررهما الله على الخلائق»[٦].

وهو أيضًا رأي جمع من علماء التفسير، فإضافة إلى قتادة وإلى

---

(١) التبيان في أيمان القرآن (ص١٤٣). وكذلك قال في القسم في «سورة ص». راجع: (ص١٥)، فقد أطال القول فيه وذكر آراء المفسرين، ورد على من قدروا جواب للقسم.

(٢) وقد سبق الحديث عن هذه الأقوال في الغرض الأول.

(٣) التبيان في أيمان القرآن (ص١٨٨).

(٤) هو رأي العلامة عبد الحميد الفراهي. انظر: إمعان في أقسام القرآن (ص١٣). والدكتورة عائشة بنت الشاطئ. انظر: التفسير البياني (١/ ٢٤).

(٥) جامع البيان (٢٤/ ٤٥٥).

(٦) المصدر السابق.

شيخ الإسلام والإمام ابن القيِّم، هو رأي: الزمخشري[١]، والرازي[٢]، والقرطبي[٣]، والبقاعي[٤]، وأبي السعود[٥]، والقاسمي[٦]، والألوسي[٧]، ومن المعاصرين: السعدي[٨]، والشيخ عطية بن محمد سالم في تكملة أضواء البيان[٩]، والشيخ ابن عثيمين[١٠]. وغيرهم كثير، بل نجد أن الدكتورة: عائشة بنت الشاطئ، قبل أن تذكر رأيها[١١] في أقسام القرآن تقول: «والرأي السائد عند الأقدمين، أن هذا القسم القرآني يحمل معنى التعظيم للمقسم به»[١٢]، فهو كما قالت رأي سائد.

ثم إن ابن القيِّم استقرأ أقسام القرآن، فرأى أن من عادات القرآن القسم بأعظم الأشياء، وهذا يعد من تفسير القرآن بالقرآن.

الغرض الرابع: القسم على أصول الأيمان التي يجب على الخلق الإيمان بها، ومعرفتها. قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فهو ـ سبحانه ـ يقسم على أصول الإيمان، التي يجب على الخلق معرفتُها: تارة يقسم على التوحيد، وتارة يقسم على أن القرآن حق، وتارة على أن الرسول حق، وتارة على الجزاء والوعد والوعيد، وتارة على حال الإنسان».

وذكر رَحِمَهُ اللَّهُ لكل أصل من هذه الأصول المقسم عليها أمثلة، وأذكر ـ في ما يلي ـ مثالًا واحدًا لكل أصل من هذه الأصول، **من الأمثلة التي ذكرها**:

---

(١) انظر: الكشاف (٦/ ٤٠٠).
(٢) انظر: تفسير الرازي (٣١/ ١٩٨).
(٣) انظر: تفسير القرطبي (١٩/ ٥١١).
(٤) انظر: نظم الدرر (٢٢/ ٦٩).
(٥) انظر: إرشاد العقل السليم (٥/ ٥٠٧).
(٦) انظر: محاسن التأويل (٧/ ٦١٦٧).
(٧) انظر: روح المعاني (٣/ ٦٨).
(٨) انظر: تفسير السعدي (ص٩٢٦).
(٩) انظر: أضواء البيان (٩/ ٢٣٧).
(١٠) انظر: تفسير جزء عم (ص٢٤٤).
(١١) ورأيها هو: أن القسم في القرآن بالواو «قد خرج عن أصل الوضع اللغوي في القسم للتعظيم، إلى معنى بياني...». الإعجاز البياني (١/ ٢٥).
(١٢) ورأيها هو: أن القسم في القرآن بالواو «قد خرج عن أصل الوضع اللغوي في القسم للتعظيم، إلى معنى بياني...». الإعجاز البياني (١/ ٢٥).

«فالأول: [القسم على التوحيد][(١)]؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ﴾ [الصافات: ١ ـ ٤].

والثاني: [القسم على أن القرآن حق][(٢)]؛ كقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ [الواقعة: ٧٥ ـ ٧٧]»[(٣)].

الثالث: القسم على أنّ الرسول ﷺ حق؛ كقوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ [الحاقة: ٣٨ ـ ٤٠].

الرابع: «القسم على الجزاء والوعد والوعيد؛ ففي مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾ [الذاريات: ١] إلى آخر القسم، ثم ذكر تفصيل الجزاء، وذكر الجنة والنار، وذكر أن في السماء رزقهم وما يوعدون، ثم قال: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣]»[(٤)].

الخامس: «القسم على أحوال الإنسان؛ فكقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ [الليل: ١] إلى قوله: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ٤] إلى آخر السورة»[(٥)].

الغرض الخامس: القسم لإثبات صدق الكلام لمن أنكر وجحد ـ وهذا يعد من أهم أغراض القسم ـ. وقد جاء القسم في القرآن الكريم على هذا الغرض، فقد أمر الله نبيّه ﷺ أن يقسم على صدق تحقق الميعاد في ثلاثة مواضع من القرآن، يقول ابن القيِّم رحمه الله: «وقد أمر نبيه أن يقسم على الجزاء والمعاد في ثلاث آيات:

---

(١) هذه الزيادة من الباحث: لكي يفهم الكلام؛ لطول الانقطاع.
(٢) أيضًا هذه الزيادة من الباحث: لكي يفهم الكلام؛ لطول الانقطاع.
(٣) التبيان في أيمان القرآن (ص٨).
(٤) المرجع السابق (ص٩).
(٥) المرجع السابق (ص١٠).

١ ـ فقال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾ الآية [التغابن: ٧].

٢ ـ وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٣].

٣ ـ وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ [يونس: ٥٣]»[(١)].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في موضع آخر بعد ذكره لهذه الآيات الثلاث: «. . . يأمر رسوله ﷺ أن يقسم على ما أقسم عليه هو ـ سبحانه ـ من: النبوة، والقرآن، والمعاد.

فأقسم ـ سبحانه ـ لعباده، وأمر أصدق خلقه أن يقسم لهم، وأقام البراهين القطعيَّة على ثبوت ما أقسم عليه، فأبى الظالمون إلا جحودًا وتكذيبًا»[(٢)].

وفي هذه الأقسام أعظم حجة على أولئك المنكرين الجاحدين، بل قد تكون الحجة عليهم بما يعتقدونه: أن اليمين الكاذبة تمحق الديار، وتهلك البشر، فلو لم يكن محمد ﷺ صادقًا في هذه الأقسام؛ لما أيده الله عَزَّوَجَلَّ، ونصره، وعصمه من خلقه، ولعاجله بالإهلاك؛ لأنّ كمال حكمته تأبى أن يقره، على كذبه، وافترائه على الله ـ لو كان مفترى ـ.

وقد ذكر ابن القيِّم هذا المعنى ـ بعد حديثه عن قسم من أقسام القرآن ـ، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «. . . ثم أقام ـ سبحانه ـ البرهان القاطع على صدق رسوله ﷺ، وأنه لم يتقول عليه فيما قاله، وأنه لو تقول عليه لما أقره، ولعاجله بالإهلاك، فإن كمال علمه وقدرته وحكمته تأبى أن يقر

---

(١) التبيان في أيمان القرآن (ص٩).
(٢) المرجع السابق (ص٢٢).

من تقول عليه، وافترى عليه، وأضل عباده، واستباح دماء من كذبه، وحريمهم وأموالهم، وأظهر في الأرض الفساد والجور والكذب وخالف الحق، فكيف يليق بأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وأقدر القادرين أن يقره على ذلك؟

بل كيف يليق به أن يؤيده، وينصره، ويعليه، ويظهره، ويظفره بأهل الحق: يسفك دماءهم، ويستبيح أموالهم وأولادهم ونساءهم، قائلًا: إن الله أمرني بذلك وأباحه لي؟! بل كيف يليق به أن يصدقه بأنواع التصديق كلها، فيصدقه بإقراره، وبالآيات المستلزمة لصدقه التي دلالتها على التصديق؛ كدلالة التصديق بالقول وأظهر... إلخ»[1].

وكلام ابن القيِّم هذا يرد شبهة من قال: إنّ القسم في القرآن جاء على أمور مهمة؛ كالمعاد والتوحيد والرسالة. ولا فائدة فيها للقسم، لا للمنكر بها؛ فإنه يطلب الدليل والبرهان، والقسم ليس فيه شيء منه[2]...

ومفهوم كلام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ يبطل هذه الشبهة، إذ إنّ حال المقسم المرسل بهذا القرآن أعظم دليل وبرهان على صدق القسم؛ بل هو دليل بما يعتقدونه، من خراب الديار، وهلاك النفوس، والدليل بما تقتضيه حكمة الله أعظم وأكبر.

المَطْلَبُ الثَّانِي

الإعجاز في التناسب بين المقسم به والمقسم عليه

يعدُّ من أهم عناصر القسم التي أبرزت عظمة هذا الكتاب الكريم، وكانت دليلًا واضحًا على إعجازه، وبلوغه المنزلة العليا في البلاغة والبيان؛ التناسب بين المقسم به والمقسم عليه. فقد كان شاهد صدقٍ

(١) التبيان في أيمان القرآن (ص٢٦٩).
(٢) انظر: إمعان في أقسام القرآن (ص٤).

على أنَّ هذا الكتاب كلام رب العالمين، الذي لا يستطيع بشرٌ الإتيان بمثله، أو مجاراته، وأوضح البون الشاسع بينه وبين كلام العرب ـ مع أنهم بلغوا في الفصاحة شأوًا بعيدًا ـ.

فقد تفطَّن بعض علماء التفسير إلى أنَّ ثمة تناسبًا وارتباطًا بين القسم والمقسم عليه، حتى جعل بعضهم أقسام القرآن من الأقسام الاستدلالية(١)؛ **بمعنى**: أنَّ في المقسم به دليلًا على صحة المقسم عليه وصدق ثبوته، وهذه القاعدة نتجت عن النظر في التناسب بين المقسم به والمقسم عليه، فنجدهم درسوا العلة من اختلاف الأقسام في القرآن وتعدد أنواعها، ونظروا في المقسم عليه فوجدوه مختلفًا باختلاف تلك الأقسام، وكلُّ قسمٍ موافقٌ للمقسم عليه مطابقًا له، ثم اجتهدوا في بيان هذا التطابق بحسب ما يظهر لهم.

وهذا الملحظ عده العلماء من أهم ما يميّز القسم القرآني، ومن أهم وجوه الإعجاز فيه، يقول الشيخ عطية محمد سالم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وبعد التأمل، ظهر ـ والله تعالى أعلم ـ أنه سبحانه لا يقسم بشيء في موضع دون غيره إلا لغرض يتعلق بهذا الموضع، يكون بين المقسم به والمقسم عليه مناسبة وارتباط، وقد يظهر ذلك جليًا، وقد يكون خفيًا. وهذا فعلًا ما تقتضيه الحكمة والإعجاز في القرآن»(٢).

وقد أشار بعض المفسرين إلى ذلك التناسب بإشارات بسيطة(٣) ـ عند بعض الأقسام ـ كالزمخشري(٤)، والرازي، والنيسابوري(٥) من

---

(١) **انظر**: إمعان في أقسام القرآن (ص٤١).
(٢) أضواء البيان (٩/ ٦٩).
(٣) **انظر**: التفسير البياني (١/ ٢٦).
(٤) **انظر** ما كتبه الدكتور محمد أبو موسى. في كتابه: «البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري» (ص٣١٥).
(٥) **انظر**: التفسير البياني (١/ ٢٦).

خلال تفسيرهم لأقسام القرآن، ولم تكن تلك الإشارات جلية واضحة دقيقة، بل كانت تعتمد على تأويلات بعيدة متكلفة ـ كما وصفتها الدكتورة عائشة بنت الشاطئ ـ(١).

فلم يكن ما يعتمد عليه في التناسب بين المقسم به والمقسم عليه، حتى جاء الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ فنص على هذا التناسب، ورسم منهجًا واضحًا له، وجلَّى ما كان خفيًّا من مناسبات بين القسم والمقسم عليه، معتمدًا على تأويلات صحيحة عن السلف، بعيدة عن التكلف، متناسبة مع معاني ومقاصد تلك الآيات والسور، وأصبح كل من جاء بعد ابن القيِّم يترسم خطاه في إيضاح المناسبات في الأقسام، بل فتق الأذهان لتتبع أقسام القرآن وتأملها واستخراج أسرارها.

فكان ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ أول من وضع معالم هذا الوجه البياني البديع(٢)، واتفق العلماء معه على هذا الملحظ؛ وإن كانوا قد رأوا آراء تختلف معه في بعض جوانب هذا العلم من علوم القرآن، إلا أنهم اتحدوا على التناسب بين المقسم به والمقسم عليه.

وابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ قد أبدع وأجاد في إيضاح هذا التناسب والارتباط، فنجده رَحِمَهُ اللهُ ينظر في مقاصد السورة كاملة، مع الملابسات المتعلقة بالسورة من سبب نزول أو غيره، ويعرض معنى السورة الإجمالي

---

(١) التفسير البياني (١/ ٢٦). وهي فعلًا كما وصفتها؛ فنجد الرازي ـ مثلًا ـ عند تفسيره للقسم في «سورة الضحى» يقول: «الزمان ساعة، فساعة ساعة ليل، وساعة نهار، ثم يزداد فمرة تزداد ساعات الليل وتنقص ساعات النهار، ومرة بالعكس فلا تكون الزيادة لهوى ولا النقصان لقلى بل للحكمة». مفاتح الغيب (٣١/ ٢٠٩)، ويقصد بذلك زيادة ساعات الليل في الشتاء، وزيادة ساعات النهار في الصيف، وليس في الآيات ما يدل على ذلك لا من قريب ولا بعيد.

(٢) انظر: إمعان في أقسام القرآن (ص١٢).

عرضًا موجزًا، معتمدًا في ذلك على أقوال المفسرين، ويرجح تلك الأقوال وفق مطابقتها للمقصد من القسم؛ الذي ولا بد يخدم المقصد الرئيس في السورة، ومن خلال ذلك يظهر وجه التناسب والارتباط بين القسم والمقسم عليه(١).

وقد بدا هذا المنهج جليًا في دراسته لعدد من أقسام القرآن في كتابه، ومن ذلك كلامه عن القسم في «سورة الضحى»، حيث يقول: «إقسامه ـ سبحانه ـ بالضحى ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [٢] على إنعامه على رسوله ﷺ، وإكرامه له، وإعطائه ما يرضيه، وذلك متضمن لتصديقه له، فهو قسم على صحة نبوته، وعلى جزائه في الآخرة، فهو قسم على النبوة والمعاد.

وأقسم بآيتين عظيمتين من آياته؛ دالتين على ربوبيته، وحكمته، ورحمته، وهما الليل والنهار.

فتأمل مطابقة هذا القسم ـ وهو نور الضحى الذي يوافي بعد ظلام الليل ـ للمقسم عليه؛ وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه، حتى قال أعداؤه: «ودَّعَ مُحَمَّدًا رَبُّهُ»(٢) فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره، بعد ظلمة احتباسه واحتجابه.

وأيضًا؛ فإن الذي فلق ظلمة الليل عن ضوء النهار؛ هو الذي فلق

(١) لم يذكر ابن القيِّم التناسب بين المقسم به والمقسم عليه في جميع الأقسام التي ذكرها في كتابه، وإنما اطرد هذا المنهج في الأقسام التي ذكر فيها وجه التناسب.

(٢) أخرجه البخاري من حديث جندب بن سفيان البجلي رضي الله عنه قال: «اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين ـ أو ثلاثًا ـ، فجاءت امرأة فقالت: يا محمد، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين ـ أو ثلاثة ـ فأنزل الله ﷻ ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ١ ـ ٣]». صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب سورة الضحى رقم (٤٩٥٠).

ظلمة الجهل والشرك بنور الوحي والنبوة، فهذان للحس، وهذان للعقل.

وأيضًا؛ فإن الذي اقتضت رحمته أن لا يترك عباده في ظلمة الليل سرمدًا، بل هداهم بضوء النهار إلى مصالحهم ومعايشهم، لا يليق به أن يتركهم في ظلمة الجهل والغي، بل يهديهم بنور الوحي والنبوة إلى مصالح دنياهم وآخرتهم.

فتأمل حسن ارتباط المقسم به بالمقسم عليه، وتأمل هذه الجزالة والرونق الذي على هذه الألفاظ، والجلالة التي على معانيها.

ونفى ـ سبحانه ـ أن يكون ودَّع نبيَّه أو قلاه، **فالتوديع**: الترك، **والقلى**: البغض[1]، فما تركه منذ اعتنى به وأكرمه، ولا أبغضه منذ أحبه»[2].

ثم أخذ يبيِّن معنى السورة مستدلًا بأقوال المفسرين كعادته رَحِمَهُ اللَّهُ.

ومن ضمن ما ذكره رَحِمَهُ اللَّهُ عن التناسب في أقسام القرآن مناسبة الأقسام المتعددة بعضها لبعض، فقد تبدو المناسبة واضحة في بعض الأقسام المتعددة كما في «سورة الشمس» مثلًا: فأقسم سبحانه بالشمس، وفي مقابلها القمر، وأقسم بالنهار، وفي مقابله الليل، وهكذا، وكذلك في سورة الضحى وغيرها؛ فواضح في مثل هذه الأقسام الارتباط المعنوي والحسي؛ لكن هناك بعض الأقسام في القرآن تبدو متباعدة مختلفة، فعمد ابن القيِّم إلى مثل تلك الأقسام وأوضح مناسبة بعضها لبعض، وبين المقاصد المشتركة بينها، فمثلًا: في «سورة القيامة» يقول: «وجمع ـ سبحانه ـ في القسم بين: محل الجزاء وهو يوم القيامة، ومحل الكسب وهو «النفس اللوامة»»[3].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٥٩١).

(٢) التبيان في أيمان القرآن (١١٠ ـ ١١١). (٣) المرجع السابق (ص٢٥).

وفي «سورة البلد» يقول: «وأقسم ـ سبحانه ـ بالبلد الأمين وهو «مكة» أم القرى، ثم أقسم بالوالد وما ولد، وهو آدم وذريته في قول جمهور المفسرين.

وعلى هذا فقد تضمن القسم: أصل المكان، وأصل السكان؛ فمرجع البلاد إلى مكة، ومرجع العباد إلى آدم»[(١)].

وإليك قوله مفصلًا لتظهر لك طريقته في استخراج المناسبة بين الأقسام المتعددة، حيث يقول في القسم الذي في «سورة المرسلات»: «... لكن هنا أمرًا ينبغي التفطن له، وهو أنه ـ سبحانه ـ جعل الإقسام في هذه السورة نوعين، وفصل أحدهما من الآخر، وجعل «العاصفات»[(٢)] معطوفًا على «المرسلات»[(٣)] بـ«فاء» التعقيب، فصارا كأنهما نوع واحد، ثم جعل «الناشرات»[(٤)] كأنه قسم مبتدأ فأتى فيه بـ«الواو»، ثم عطف عليه «الفارقات» و«الملقيات»[(٥)] بـ«الفاء»، فأوهم هذا أن «الفارقات» و«الملقيات» مرتبط بـ«الناشرات»، وأن «العاصفات» مرتبط بـ«المرسلات».

---

(١) التبيان في أيمان القرآن (ص٥٧).

(٢) قال القرطبي: هي «الرياح بغير اختلاف». تفسير القرطبي (٢١/ ٤٩٦).

(٣) جمهور المفسرين على أنها الرياح. قاله: القرطبي في تفسيره (٢١/ ٤٩٥)، والشوكاني في «فتح القدير» (٤/ ٤٠٦)، وهو اختيار ابن القيِّم. التبيان في أيمان القرآن (ص٢٢٥).

(٤) هي: «الرياح تأتي بالمطر». ذكره ابن القيِّم ﷺ عن ابن مسعود، ومجاهد، والحسن، وقتادة. التبيان في أيمان القرآن (ص٢٢٦)، وانظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٥٨٥)، وقيل: «هي الملائكة تنشر كتب بني آدم وصحائف أعمالهم». قاله: ابن عباس، وعطاء، ومسروق، ومقاتل. انظر: التبيان في أيمان القرآن (ص٢٢٦)، واختار هذا القول ابن جرير في تفسيره، انظر: (٢٣/ ٥٨٧).

(٥) «الفارقات» و«الملقيات» هي: الملائكة. قال به: ابن مسعود، وابن عباس، ومسروق، ومجاهد، وقتادة، والربيع بن أنس، والسدي، والثوري. انظر: تفسير ابن كثير (٧٤٥٤).

وقد اختلف في «الفارقات» والأكثرون على أنها الملائكة[1]، ويدل عليه عطف «الملقيات ذكرًا» عليها بـ«الفاء»، وهي الملائكة بالاتفاق[2].

وعلى هذا فيكون القسم بالملائكة التي تنشر أجنحتها عند النزول، ففرقت بين الحق والباطل، فألقت الذكر على الرسل إعذارًا وإنذارًا.

ومن جعل «الناشرات»: الرياح[3] جعل «الفارقات» صفة لها، وقال: هي تفرق السحاب هٰهنا وهٰهنا، ولكن يأبى ذلك عطف «الملقيات» بـ«الفاء» عليها.

ومن قال: «الفارقات» آيُ القرآن[4]؛ تُفرِّقُ بين الحق والباطل، فقوله يلتئم مع كون «الناشرات» الملائكة أكثر من التئامه إذا قيل: إنها «الرياح».

ومن قال: هي جماعات الرسل[5]؛ فإن أراد الرسل من الملائكة فظاهر، وإن أراد الرسل من البشر فقد تقدم[6] بيان ضعف هذا القول.

ويظهر ـ والله أعلم بما أراد من كلامه ـ أن القسم في هذه السورة وقع على النوعين: الرياح، والملائكة. ووجه المناسبة: أن حياة الأرض والنبات وأبدان الحيوان بالرياح، فإنها من روح الله، وقد جعلها الله تعالى نشورًا، وحياة القلوب والأرواح بالملائكة.

فبهذين النوعين يحصل نوعا الحياة، ولهذا ـ والله أعلم ـ فصل

---

(١) قاله: ابن مسعود، وابن عباس، ومسروق، ومجاهد، وقتادة، والربيع بن أنس، والسدي، والثوري. انظر: تفسير ابن كثير (٧٤٥٤).

(٢) وهكذا قال ابن كثير في تفسيره. انظر: (٧/ ٤٥٤).

(٣) هو قول: ابن مسعود، ومجاهد، والكلبي، وقتادة. انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٥٨٥).

(٤) هو قول: قتادة. انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٥٨٨).

(٥) انظر: تفسير القرطبي (٢١/ ٤٩٧).

(٦) انظر: التبيان في أيمان القرآن (ص٢٢٤).

أحد النوعين من الآخر بـ«الواو» وجعل ما هو تابع لكل نوع بعده بـ«الفاء»»[(١)].

فنلحظ هنا أن ابن القيِّم جمع ما كان أولى بألفاظ الآيات من المعاني، ثم بين وجه التناسب بين القسمين، فأزال الإشكال، ودفع الإيهام.

وقد اعتمد ابن القيِّم رحمه الله على وجوه المناسبات بين الأقسام في ترجيح الأقوال، وهذا أمر بارز في منهجه في تَأَمُّلِ أقسام القرآن، سواء كان ذلك التناسب بين القسم والمقسم عليه، أو الأقسام المتعددة، فما كان متفقًا من أقوال المفسرين مع مناسبة القسم للمقسم به رجحه، وما لم يتوافق مع مناسبة القسم ضعفه، وبيَّن وجه ضعفه من خلال وجه التناسب، انظر مثلًا إلى كلامه عن القسم في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥]، نجده رحمه الله رجح قول من قال: أن المراد بالنجوم في الآية الكواكب[(٢)].

وبيَّن وجه التناسب بين المقسم به والمقسم عليه؛ ليتأكد المعنى، فقال: «وعلى هذا فتكون المناسبة بين ذكر النجوم في القسم، وبين المقسم عليه ـ وهو القرآن ـ **من وجوه**:

أحدها: أن النجوم جعلها الله يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وآيات القرآن يُهتدى بها في ظلمات الجهل والغي، فتلك هداية في الظلمات الحسية، وآيات القرآن هداية في الظلمات المعنوية، فجمع بين الهدايتين.

---

(١) التبيان في أيمان القرآن (٢٢٧ ـ ٢٢٨).

(٢) قول: مجاهد، وقتادة. وقال بعضهم: بمعنى: «أنزل القرآن على رسوله نجومًا متفرقة». انظر: تفسير الطبري (٢٢/٣٥٩).

مع ما في النجوم من الزينة الظاهرة للعالم، وفي إنزال القرآن من الزينة الباطنة.

ومع ما في النجوم من الرجوم للشياطين، وفي آيات القرآن من رجوم شياطين الإنس والجن.

والنجوم آياته المشهودة المعاينة، والقرآن آياته المتلوة السمعية. مع ما في مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية ومواقعها عند النزول»[١].

وبكلامه هذا رحمه الله يتضح وجه الترجيح؛ لموافقة هذا المعنى ما تقتضيه الحكمة والمقصد من الآيات.

المَطلبُ الثَّالِثُ

الإعجاز في بلاغة حذف جواب القسم

تعدُّ من أبرز ملامح البلاغة في القسم القرآني، ما وقع في بعض أقسام القرآن من حذف جواب القسم، وكان حذفه في غاية البلاغة والبيان، وذلك لأن القسم مستغنٍ عن الجواب؛ إما لكون الجواب يستنبط منه، فيكون حينئذ حذفه أبلغ؛ حيث جعل السامع هو من يستنبط هذا الجواب بتأمله وتدبره، فيكون فيه من التقرير للمنكر ما لا يحصل لو ذكر، أضف إلى ذلك ما فيه من الإيجاز والاختصار، وما فيه من تنبيه السامع وتنشيطه[٢].

وقد يحذف الجواب؛ لأن المراد من القسم التنبيه على المقسم به وتعظيمه وإعلاء شأنه، وبيان أنه مما يحلف به.

---

(١) التبيان في أيمان القرآن (ص٣٢٢).

(٢) ذكر الفراهي رحمه الله بعض جوانب البلاغة في القسم في كتابه «إمعان في أقسام القرآن» انظر: (ص٤٨).

وقد ذكر ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ جملة من أغراض حذف جواب القسم، وأبرز ما في ذلك الحذف من تمام البيان والبلاغة، وحسن النظم، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «والجواب يحذف تارة ولا يراد ذكره، بل يراد تعظيم المقسم به، وأنه مما يحلف به؛ كقوله النبي ﷺ: (**مَنْ كَانَ حَالِفًا، فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ**)[(١)][(٢)].

... وقد يكون هذا النوع بحرف القسم مجردًا، كما في الحديث: كان أكثر يمين رسول الله ﷺ: (**لَا وَمُقَلِّبَ القُلُوب**)[(٣)]. وكان بعض السلف إذا اجتهد في يمينه قال: «واللهِ الذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ».

وتارة يحذف الجواب وهو مراد؛ إما لكونه قد ظهر وعرف: إما بدلالة الحال ـ كمن قيل له: كل، فقال: لا؛ والله الذي لا إله إلا هو ـ، **أو بدلالة السياق.**

وأكثر ما يكون هذا إذا كان في نفس المقسم به ما يدل على المقسم عليه، وهي طريقة القرآن، فإن المقصود يحصل بذكر المقسم به، فيكون حذف المقسم عليه أبلغ وأوجز؛ كمن أراد أن يقسم على أن الرسول حق، فقال: والذي أرسل محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق، وأيده

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب الشهادات، باب كيف يستحلف رقم (٢٦٧٩)، ومسلم في «صحيحه»، كتاب الأيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله رقم (١٦٤٦)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) ولكن هذا ـ والله أعلم ـ يبعد أن يكون من باب حذف جواب القسم؛ لأنه ليس قسمًا أصلًا، وإنما هو حكاية القسم أو إخبار عن ما يحلف به. ومعلوم أن القسم من أساليب الإنشاء غير الطلبي، فعلى هذا هو مخالف للقسم في الأسلوب، فليس هو بقسم. والحديث الذي ذكره ابن القيِّم رحمه الله مثل قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٥٣]، وأمثال هذه الآية، فليس هذا من القسم لأنه حكاية القسم.

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب التوحيد، باب مقلب القلوب رقم (٧٣٩١)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

بالآيات البينات، وأظهر دعوته، وأعلى كلمته، ونحو ذلك؛ فلا يحتاج إلى ذكر الجواب، استغناء عنه بما في القسم من الدلالة عليه.

وكمن أراد أن يقسم على التوحيد، وصفات الرب ونعوت جلاله، فقال: والله الذي لا إلٰه إلا هو، عالم الغيب والشهادة، الرحمٰن الرحيم، الأول الآخر، الظاهر الباطن.

وكمن أراد أن يقسم على علوِّه فوق عرشه، فقال: والذي استوى على عرشه فوق سمٰواته، يصعد إليه الكلم الطيب، وترفع إليه الأيدي، وتعرج الملائكة والروح إليه، ونحو ذلك.

وكذلك من حلف لشخص أنه يحبه ويعظمه، فقال: والذي ملأ قلبي من محبتك وإجلالك ومهابتك...؛ ونظائر ذلك، لم يحتج إلى ذكر الجواب، وكان في المقسم به ما يدل على المقسم عليه.

فمن هذا قوله تعالى: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص: ١]، فإن في المقسم به من تعظيم القرآن ووصفه بأنه ذي الذكر ـ المتضمن لتذكير العباد ما يحتاجون إليه ـ، وللشرف، والقدر ما يدل على المقسم عليه، وكونه حقًّا من عند الله، غير مفترىً كما يقوله الكافرون.

وهذا معنى قول كثير من المفسرين ـ متقدميهم ومتأخريهم ـ[(١)]: إن الجواب محذوف تقديره: إن القرآن لحق وهذا مطرد في كل ما شأنه ذلك[(٢)]»[(٣)].

---

(١) انظر: الكشاف (٥/ ٢٤٠)، وتفسير القرطبي (١٨/ ١٢٤)، وتفسير ابن كثير للقسم في «سورة ق» وقد ذكر أن القسم في هاتين السورتين جوابهما محذوف دل عليه السياق. انظر: (٧/ ٨).

(٢) مثل القسم في «سورة ق» وقد ذكره ابن القيِّم في كتابه التبيان (ص٦٤٣).

(٣) التبيان (١٣ ـ ١٥).

الذي نلحظه من كلام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ؛ أنه يرى أن أقسام القرآن التي حذف منها جواب القسم، إنما حذف لدلالة السياق عليه، وهذا ظاهر في المثال الذي أورده؛ إذ إنّ تخصيص القرآن بالذكر فيه تشريف وتعظيم لهذا الكتاب، والمراد من القسم إيضاح هذا المعنى، فاستغنى بذكر ذلك الوصف عن الجواب لدلالة السياق عليه.

وقد يحذف الجواب لدلالة القسم عليه، فقد يكون القسم ذاته مستلزمًا لجواب القسم، وهذا مثل القسم الذي في «سورة النازعات»: فقد رأى ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ أن القسم نفسه مستلزم لجواب القسم فقال: «وجواب القسم محذوفٌ ـ يدل عليه السياق ـ وهو البعث المستلزم لصدق الرسول وثبوت القرآن، أو أنه من القسم الذي أريد به التنبيه على الدلالة والعبرة بالمقسم به، دون أن يراد به مقسمٌ عليه بعينه، وهذا القسم يتضمن الجواب المقسم عليه وإن لم يذكر لفظًا، ولعل هذا مراد من قال: إنه محذوف للعلم به.

لكن هذا الوجه ألطف مسلكًا؛ فإن المقسم به إذا كان دالًّا على المقسم عليه مستلزمًا له، استغنى عن ذكره بذكره، وهذا غير كونه محذوفًا لدلالة ما بعده عليه فتأمله»[(١)].

ومعنى كلام ابن القيِّم: أن القسم دالٌّ على المقسم عليه، فالنازعات التي هي: الملائكة التي تنزع الأرواح من الأجساد، والناشطات: التي تنشطها؛ أي: تخرجها بسرعة وخفة... إلى آخر أوصافهم التي ذكرت في القسم؛ دالّة على ربوبية الله ووحدانيته، وكمال صفاته، كما يرى ابن القيِّم[(٢)] حيث يقول: «فإن إقسامه ـ سبحانه ـ بهذه

---

(١) التبيان في أيمان القرآن (ص٢١٧).

(٢) يرى بعض المفسرين أن جواب القسم محذوف تقديره: «لتبعثنَّ»، انظر: معاني القرآن للفراء (٣/ ٢٣١)، والكشاف (٥/ ٣٠٤)، وتفسير القرطبي (٢٢/ ٤٤).

الأشياء لظهور دلالتها على ربوبيته، ووحدانيته، وعلمه، وقدرته، وحكمته، فالإقسام بها - في الحقيقة - إقسام بربوبيته وصفات كماله، فتأمله»، فاستغني بذكر أوصاف الملائكة عن ذكر صفاته تبارك وتعالى؛ لأنها مستلزمة لذلك، كما ذكر ابن القيِّم.

وقد يحذف جواب القسم؛ لأنَّ المراد التنبيه على المقسم به، وأنه من آيات الله العظيمة، كما ذكر ابن القيِّم ذلك في القسم الذي في «سورة البروج»، حيث يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «والأحسن أن يكون هذا القسم مستغنيًا عن الجواب[١]؛ لأنَّ القصد التنبيه على المقسم به وأنه من آيات الرب العظيمة»[٢][٣].

وبهذا تظهر بلاغة حذف جواب القسم، وحسن هذا الأسلوب، ودقة نظم هذا الكتاب الكريم، وجليل معانيه.

المطلب الرابع

الإعجاز في القسم بعد الحروف المقطعة

اختلفت أقوال العلماء في المراد بالحروف المقطعة، وذكروا في ذلك أقوالًا كثيرة[٤]، فمنهم من يقول: الله أعلم بمراده بها[٥]، ومنهم من يقول: إنها أسماء للقرآن[٦]، ومنهم من يقول: إنها أقسام أقسم الله

---

(١) وهو اختيار الفراء في «معاني القرآن» (٣/ ٢٥٣)، وابن جرير الطبري (٢٤/ ٢٧٧).

(٢) التبيان في أيمان القرآن (ص١٤٣).

(٣) ذكر ابن القيِّم رحمه الله في القسم الذي في «سورة القيامة» جملة من أغراض القسم، ومن ضمنها هذا الأخير. انظر: التبيان في أيمان القرآن (ص٢٣٠).

(٤) انظر: تفسير الرازي (٢/ ٣)، تفسير القرطبي (١/ ٢٣٧)، وتفسير ابن كثير (١/ ٢٤١).

(٥) حكاه القرطبي في تفسيره: عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود رضي الله عنهم، وقاله عامر الشعبي وسفيان الثوري والربيع بن خيثم، وغيرهم. واختاره. انظر: تفسير القرطبي (١/ ٢٣٧).

(٦) قال به: مجاهد، وقتادة، وزيد بن أسلم. انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٤٢).

بها(١)، وقيل: إنّ مباني كلمات القرآن ـ الذي هو كلام الله ﷻ ـ من هذه الحروف، ففي ذلك إشارة إلى شرف تلك الحروف، وعلوّ شأنها، وعظيم قدرها(٢)... إلى آخر تلك الأقوال.

ونجد ابن القيِّم ؒ يدرس تلك الحروف المقطعة في كتابه: «التبيان في أيمان القرآن» معللًا ذلك بأنَّ هذه الحروف لم تأتِ في القرآن إلا وجاء بعدها قسم بالقرآن، أو خبر عنه؛ إلا في موضعين(٣)، وهذا ينبئ عن علاقة معنوية قد أشار إليها ابن القيِّم ؒ، وإليك قوله عنها مفصلًا، يقول: «الصحيح أنَّ «ن» و«ق» و«ص» من حروف الهجاء التي يفتتح الرب ـ سبحانه ـ بها بعض السور، وهي: أحادية، وثنائية، وثلاثية، ورباعية، وخماسية، ولم تجاوز الخمسة، ولم تذكر ـ قط ـ في أول سورة إلا وعقبها يذكر القرآن؛ إما مقسمًا به، وإما مخبرًا، عنه ما خلا سورتين: سورة «كهيعص»، و«ن». كقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ١، ٢]، ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [آل عمران: ١ ـ ٣]، ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف: ١، ٢]، ﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾ [الرعد: ١]، وهكذا إلى آخره.

ففي هذا تنبيه على شرف هذه الحروف، وعظم قدرها، وجلالتها؛ إذ هي مباني كلامه، وكتبه التي تكلم ـ سبحانه ـ بها، وأنزلها على

---

(١) رواه علي بن أبي طلحة: عن ابن عباس ﷺ أخرجه ابن جرير في تفسيره (١/ ٢٠٧)، وابن كثير في تفسيره (١/ ٢٤٣).

(٢) هذا القول حكاه الرازي عن الأخفش، ولم أجده في كتاب «معاني القرآن» وهو القول الذي قال به ابن القيِّم ؒ ـ كما سيأتي ـ، وهو قريب لنص ما ذكره الرازي في تفسيره (٢/ ٨). ويدل على أن ابن القيِّم نقل من الرازي في كتابه «التبيان» ولم يعز إليه، وإن كان واضح استفادة ابن القيِّم من الرازي في ثنايا الكتاب، لكن هذا دليل قطعي.

(٣) يأتي ذكرهما في كلام ابن القيِّم بعد قليل.

رسله، وهدى بها عباده، وعرفهم بواسطتها نفسه، وأسماءه، وصفاته، وأفعاله، وأمره، ونهيه، ووعيده، ووعده، وعرفهم بها الخير والشر، والحسن والقبيح، وأقدرهم على التكلم بها، بحيث يبلغون بها أقصى ما في أنفسهم، بأسهل طريق وأقله كلفة ومشقة، وأوصَلِهِ إلى المقصود، وأدَلِّهِ عليه، وهذا من أعظم نعمه عليهم، كما هو من أعظم آياته. . . »(١).

وتعليل ابن القيِّم بأن هذه الحروف لم تذكر إلا ويأتي بعدها قسم بالقرآن، أو خبر عنه، هو تعليل جمع من العلماء فقد ذكر الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ أن جمعًا من العلماء المحققين(٢) قالوا: «إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بيانًا لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله؛ هذا مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها»(٣).

ثم قال - الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ - بعد ذكر هذا القول معللًا: «قلت: ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف، فلا بدَّ أن يذكر فيها انتصار للقرآن، وبيان إعجازه وعظمته؛ وهذا معلوم بالاستقراء».

❁ ❁ ❁

---

(١) التبيان (ص٢٩٩).

(٢) قال الحافظ ابن كثير: «وقد حكى هذا المذهب فخر الدين الرازي في «تفسيره» عن المبرد وجمع من العلماء المحققين. وحكى القرطبي عن الفراء وقطرب نحو هذا، وقرره الزمخشري في «كشافه»، ونصره أتم نصر. وإليه ذهب الشيخ الإمام العلامة شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، وشيخنا الحافظ الجهبذ الإمام أبو الحجاج المزي، وحكاه لي عن أبي العباس ابن تيمية». تفسير ابن كثير (١/ ٢٤٨).

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٢٤٨).

المَبْحَثُ الثَّالِثُ

الإعجاز في أسلوب القصص القرآنية عند ابن القيِّم

ويشتمل على مطلبين:

- المطلب الأول: الإعجاز في أهداف القصص القرآنية.
- المطلب الثاني: أسرار التعبير في القصص القرآنية.

* * *

المَطْلَبُ الأَوَّلُ

الإعجاز في أهداف القصص القرآنية

أسلوب القصة أسلوب قرآني فريد، تجاوز ما يعرفه البشر من حدود أدبية للقصة[1]، ليصل إلى مرتبة الإعجاز التي تبهر العقول، وتشهد على أن هذا الكتاب تنزيل من رب العالمين، لا يمكن لبشر الإتيان بمثله أو مجاراته.

فمقاصد تلك القصص أعظم المقاصد وأعلاها، وأهدافها أجلّ الأهداف وأسماها، صادقة في كل أحداثها ووقائعها، واقعية بعيدة عن

---

(١) يقول الدكتور محمد صالح الشنطي: «القصة بمفهومها العام قديمة قدم البشر، ولكنها كفن لم تظهر إلا في القرن التاسع عشر، وبذور هذا الفن موجودة في التربة الأدبية العربية منذ القدم، وأكمل وجه من وجوهها ما ورد في القرآن الكريم من قصص الأنبياء والأمم الغابرة، ويعتبر القصص القرآني ذخيرة غنية بأروع الأساليب القصصية، حتى تلك الأساليب الفنية التي لم تظهر إلا في العصر الحديث». الأدب العربي الحديث (ص٣٢٣).

الخيال، ومع هذا فاقت الخيال جمالًا وحسنًا؛ إذ إن الأدباء يعتبرون أهم شروط القصة ـ في الآداب الإنسانية ـ: الجنوح نحو الخيال المغرق، وإمتاع الخيال الإنساني حتى لو تجردت القصة عن الواقعية والصدق[1]. فلا يمكن لخيال بشرٍ أن ينسج ما يشبه تلك القصص القرآنية البديعة، جامعًا ما جمعت من مقاصد وأهداف، وجمال عباراتٍ وأسلوب، ودقة وصف وتصوير، وقد صدق الله حيث يقول: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]، ويقول: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ [آل عمران: ٦٢].

إنَّ أي قصةٍ تحكى لا بد أن يكون لها هدف جيء بها لتحقيقه، ولا يمكن لعاقل أن يقص قصة دون أن يقصد بها هدفًا معينًا، وتختلف تلك الأهداف بحسب نوع القصة، وبحسب قدرة قائلها على تضمينها ما يضمره ويعتقده من قيم[2].

فكيف إذا كانت القصة تحمل عقائد وتشريعات وآدابًا سامية؟ وكان قائلها أحكم الحاكمين، الذي خلق الفِطَرَ وهو أعلم بما يصلحها ويهذبها، ويعلم ما تميل إليه تلك النفوس وما يزكيها؟ فلا شك أنها ستكون أعظم القصص وأجلها، وأهدافها ستكون أعلى الأهداف وأسماها.

ولهذا نجد العلماء كثيرًا ما ينبهون إلى ما يستفاد من تلك القصص، ويستخرجون دقيق مقاصدها وما تهدف إليه، ومن هؤلاء الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد اعتنى كثيرًا بما في تلك القصص من عبر وفوائد، ومقاصد وأهداف، فأخذ يبرزها ويستشهد بها كلما سنحت مناسبة

---

(١) انظر: أسلوب القرآن بين الهداية والإعجاز (ص٢٢٤).

(٢) راجع: الإعجاز القصصي، للأستاذ الدكتور سعيد عطية (ص٣٠).

لذكرها، مع فقهه العميق لما تحمله تلك القصص، واستنباطه الدقيق لمكنونات الفوائد فيها، فهو بحق عالم فاهم بكتاب الله تعالى، وأكبر شاهد على ذلك، قوله عن قصة يوسف عليه السلام: «وفي هذه القصة من العبر والفوائد ما يزيد على ألف فائدة...»(١)، والناظر في كتب ابن القيِّم يلمس ذلك الفهم للقصة القرآنية، من خلال ذكره لأهدافها ومقاصدها.

ونحن بهذا الصدد لا يسعنا إيراد جميع ما قاله ابن القيِّم من أهداف لتلك القصص(٢)، **ولكن نذكر أهمها مرتبًا كما يلي:**

أولًا: قصص الأنبياء مع أقوامهم فيها تسلية وتثبيت للنبي ﷺ، وفيها تخفيف لما كان يلقاه ﷺ من أذى المشركين، فإن جميع الأنبياء عذبوا وأُوذوا من أقوامهم، ومع هذا صبروا ولم يهنوا، واجتهدوا في دعوة من أرسلوا إليهم حتى هدى الله من هدى إلى الحق، ولهذا تكرر بعض القصص في القرآن لما فيها من عظيم المواساة والتخفيف عليه ﷺ، يقول ابن القيِّم رحمه الله: «... يكرر تعالى قصة موسى ويعيدها، ويبديها، ويسلي رسوله ﷺ، ويقول رسول الله ﷺ عندما يناله من أذى الناس:

(١) الداء والدواء (ص٤٨٧)، وقد عزم رحمه الله على إفرادها بكتاب مستقل، فقال بعد كلامه هذا: «لعلنا إن وفق الله أن نفردها في مصنف مستقل»، ولا نعلم هل تحقق لابن القيِّم ما تمناه!، لكن المترجمين له رحمه الله لم يذكروا شيئًا عن هذا الكتاب سوى هذا النص الذي سقناه. راجع: ابن قيِّم الجوزية، حياته، آثاره، موارده (ص٢٨٥).

(٢) لكثرتها، وتنوعها، وتشعبها. فمثلًا: قصة يوسف؛ ذكرها في عدة مواضع من كتبه، ذكرها في: «إعلام الموقعين» (٥/ ١٤٧)، وفي: «شفاء العليل» (١/ ٣٥٢)، وفي: «الداء والدواء» (ص٤٨٢)، وفي: «روضة المحبين» (ص٤٤٢)، وغيرها. وفي كل موضع من هذه المواضع يختلف الغرض الذي ساقها من أجله رحمه الله، هذا في قصة واحده!!، وقس على ذلك باقي القصص. فآثر الباحث أن يختار بعض تلك الفوائد، وإن كانت كلها من الأهمية بمكان، لكن مخافة الإطالة والتكرار؛ هي التي دعت إلى ذلك. وأسأل المولى التسديد والتوفيق في الاختيار.

(أُوذِيَ مُوسَى بِأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَصَبَرَ)[(١)]»[(٢)].

هي كذلك تسلية لكل من دعا إلى الحق فأوذي وعذب، فإن فيها دعوة الاقتداء بالأنبياء الذين هم صفوة الخلق، والتأسي بصبرهم وثباتهم في تبليغ شرع الله، وأنَّ هذا البلاء سُنَّة الله تعالى، يقول ﷺ: (أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً: الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ)[(٣)].

ثانيًا: قصص القرآن دليل صريح على أن دعوة الرسل واحدة وإن اختلفت التشريعات، وأن دين الرسل لا يختلف[(٤)]، فدعوتهم قائمة على توحيد الله ﷻ وأن لا يعبد بحق سواه، قال ابن القيِّم رحمه الله: «وجميع الرسل إنما دعوا إلى «إياك نعبد، وإياك نستعين»؛ فإنهم كلهم دعوا إلى توحيد الله وإخلاص عبادته، من أولهم إلى آخرهم. فقال نوح لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩] وكذلك قال هود، وصالح، وشعيب: [الأعراف: ٦٥، ٧٣، ٨٥] وإبراهيم؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب الأدب، باب الصبر في الأذى رقم (٦١٠٠). عن ابن مسعود رضي الله عنه.
(٢) جلاء الأفهام (ص٢٦٥).
(٣) رواه أحمد رقم (٢٧٠٧٩)، وابن حبان في «صحيحه» رقم (٢٩٠٠)، والترمذي رقم (٢٣٩٨)، وقال: «حديث حسن صحيح»، وصححه الألباني في: «السلسلة الصحيحة» رقم (١٤٣).
(٤) ذكر ابن القيِّم رحمه الله فصولًا في كتابه «مدارج السالكين» عن اتفاق دعوة الرسل، وأنه لا دين سوى الإسلام صحيح، قال رحمه الله: «دل قوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩] على أنه دين جميع أنبيائه ورسله وأتباعهم من أولهم إلى آخرهم». مدارج السالكين (٤/ ٤٨٤).

﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ۝٥١ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥١، ٥٢]»[١].

ثالثًا: العبرة والعظة من أحوال الأمم السابقة، والاتعاظ من تلاعب الشيطان بهم، ووقوعهم في مكايده، ففي قصص القرآن تحذير لهذه الأمة من اتباع خطواته، وفيها كشف لمكره وكيده من خلال النظر في سير الأمم السابقة.

وابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه: «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان»، بيَّن جملة من تلاعب الشيطان بالأمم السابقة، معتمدًا على ما ورد في القرآن من قصصهم؛ ليحذر الأمة من الاغترار بمصائد الشيطان، والتفطن لكيده ومكره، ومن تلك القصص التي أطنب فيها، وفصل القول فيما يستفاد ويؤخذ منها، قصص قوم موسى، فقد ذكر جملة من قصصهم الواردة في القرآن وبين كيف تلاعب بهم الشيطان، وكيف انجرفوا مع مكره وكيده، ففي تلك القصص دروس وعبر كثيرة جدًّا، ومن ضمن قصصهم التي تكلم عنها رَحِمَهُ اللَّهُ قصة القتيل الذي قتلوه وتدافعوا فيه، حتى أُمروا بذبح بقرة وضربه ببعضها، يقول ابن القيِّم: «وفي هذه القصة أنواع من العبر» ثم ذكر جملة من تلك العبر، **نذكر أهمها في ما يلي**[٢]:

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «منها: أنه لا ينبغي مقابلة أمر الله ـ تعالى ـ بالتعنت، وكثرة الأسئلة، بل يُبادر إلى الامتثال؛ فإنهم لما أُمروا أن يذبحوا بقرة؛ كان الواجب عليهم أن يبادروا إلى الامتثال بذبح أيّ بقرة اتفقت؛ فإن الأمر بذلك لا إجمال فيه ولا إشكال، بل هو بمنزلة قوله: أعتق رقبة، وأطعم مسكينًا، وصم يومًا، ونحو ذلك.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٢٠٧).

(٢) استخلصت من كلام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ ما يتعلق بهذه الفائدة فقط.

ولذلك غلط من احتج بالآية على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب؛ فإن الآية غنية عن البيان المنفصل، مبينة بنفسها، ولكن لما تعنتوا وشددوا شدد عليهم.

قال أبو جعفر بن جرير، عن الربيع، عن أبي العالية: لو أن القوم حين أُمروا أن يذبحوا بقرة؛ استعرضوا بقرة من البقر فذبحوها، لكانت إياها ولكنهم شدّدوا على أنفسهم، فشدّد الله عليهم(١).

ومنها: أنه لا يجوز مقابلة أمر الله ـ الذي لا يعلم المأمور به وجه الحكمة فيه ـ بالإنكار، وذلك نوع من الكفر؛ فإن القوم لما قال لهم نبيهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧]؛ قابلوا هذا الأمر بقولهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ [البقرة: ٦٧]، فلما لم يعلموا وجه الحكمة في ارتباط هذا الأمر بما سألوه عنه؛ قالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ [البقرة: ٦٧]؛ وهذا من غاية جهلهم بالله ورسوله؛ فإنه أخبرهم عن أمر الله لهم بذلك ولم يكن هو الآمر به؛ ولو كان هو الآمر به؛ لم يجز لمن آمن بالرسول أن يقابل أمره بذلك، فلما قال لهم: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]، وتيقنوا أن الله ـ سبحانه ـ أمره بذلك؛ أخذوا في التعنت بسؤالهم عن عينها ولونها، فلما أُخبروا عن ذلك رجعوا إلى السؤال مرة ثالثة عن عينها، فلما تعينت لهم ولم يبق إشكال؛ توقفوا في الامتثال، ولم يكادوا يفعلون.

ثم من أقبح جهلهم وظلمهم: قولهم لنبيهم: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٧١]؛ فإن أرادوا بذلك: أنك لم تأت بالحق قبل ذلك في أمر البقرة؛ فتلك ردة وكفر ظاهر، وإن أرادوا: أنك الآن بينت لنا البيان التام في تعيين البقرة المأمور بذبحها، فذلك جهل ظاهر؛ فإن البيان قد

---

(١) تفسير الطبري (٢/ ٩٩).

حصل بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧]؛ فإنه لا إجمال في الأمر، ولا في الفعل، ولا في المذبوح، فقد جاء رسول الله بالحق من أول مرة.

قال محمد بن جرير: وقد كان بعض من سلف يزعم أن القوم ارتدوا عن دينهم، وكفروا بقولهم لموسى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٧١]، وزعم أن ذلك نفي منهم أن يكون موسى عليه السلام أتاهم بالحق في أمر البقرة قبل ذلك، وأن ذلك كفر منهم.

قال: وليس الأمر كما قال ـ عندنا ـ؛ لأنهم قد أذعنوا بالطاعة بذبحها، وإن كان قولهم الذي قالوا لموسى جهلةً منهم، وهفوة من هفواتهم[(١)].

ومنها: الإخبار عن قساوة قلوب هذه الأمة وغلظها، وعدم تمكن الإيمان فيها.

قال عبد الصمد بن معقل، عن وهب: كان ابن عباس يقول: إن القوم ـ بعد أن أحيا الله ـ تعالى ـ الميت فأخبرهم بقاتله ـ: أنكروا قتله، وقالوا: والله ما قتلناه، بعد أن رأوا الآيات والحق.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤][(٢)].

ومنها: مقابلة الظالم الباغي بنقيض قصده شرعًا وقدرًا؛ فإن القاتل

---

(١) تفسير الطبري (٢/ ١١٢).

(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» عن: محمد بن سعيد، قال: حدثني أبي، قال: حدثني عمّي، قال: حدثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس رضي الله عنهما. (٢/ ١٢٩). وأخرجه ابن كثير من طريق العوفي. (١/ ٤٥٥). وقال الشيخ أبو إسحاق الحويني ـ في تحقيقه لتفسير ابن كثير ـ: «سنده ضعيف».

قصده ميراث المقتول، ودفع القتل عن نفسه، ففضحه الله ـ تعالى ـ، وهتكه وحرمه ميراث المقتول»[١].

رابعًا: في القصص القرآني دعوة إلى الاقتداء بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فهم أعظم الخلق تعظيمًا لأمر الله تعالى، وأشدهم امتثالًا له، وأكثرهم بعدًا عن محارم الله وتعظيمًا لها، وقد ورد في القرآن جملة من قصصهم، جسدت تلك القصص أروع أمثلة الامتثال لأمر الله، فمن تلك القصص قصة إبراهيم عليه السلام في امتثاله لأمر الله بذبح ابنه، يقول الإمام ابن القيِّم رحمه الله واصفًا ذلك الامتثال: «. . . إبراهيم ﷺ لما بلغ ما بلغ ـ هو وولده[٢] ـ في المبادرة إلى الامتثال، والعزم على إيقاع الذبح المأمور به، ألقاه الوالد على جبينه في الحال، وأخذ الشفرة، وأهوى إلى حلقه ـ أعرض في تلك الحال عن نفسه وولده ـ، وفني[٣] بأمر الله عنهما؛ فتوسط بحر جمع السر والقلب والهمّ على الله،

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان (٢/ ١٠٧١ ـ ١٠٧٤).

(٢) في المطبوع: (وهو وولده) ولعل الصواب ما أثبت.

(٣) الفناء من مصطلحات الصوفية، ومعناه عندهم: «هو سقوط الأوصاف المذمومة عن السالك أو المريد الصادق». معجم ألفاظ الصوفية (ص٢٢٧). ويقول ابن القيِّم رحمه الله ـ عند شرحه لكلام الإمام الهروي في «باب الفناء» ـ: «والفناء الذي يترجم عليه؛ [أي: الإمام الهروي] هو غاية التعلق ونهايته؛ فإنه انقطاع عن ما سوى الرب تعالى من كل وجه». مدارج السالكين (٤/ ٣١٠). وعبر الإمام ابن القيِّم رحمه الله في كتابه هذا بجملة من مصطلحات القوم، والسبب في ذلك؛ أنه في كتابه هذا يشرح كتاب «منازل السائرين» للإمام الهروي رحمه الله، وكما هو معلوم أن الإمام الهروي من علماء الصوفية ـ انظر: ترجمته في سير أعلام النبلاء (١٨/ ٥٠٣) ـ. ومع أن ابن القيِّم عبَّر بتلك المصطلحات في كتابه، إلا أنه وقف موقف المحذر من أن تأخذ تلك المصطلحات على إطلاقها، يقول رحمه الله: «لم يرد في الكتاب، ولا في السُّنَّة، ولا في كلام الصحابة والتابعين مدح لفظ «الفناء» ولا ذمه، ولا استعملوا لفظه في هذا المعنى المشار إليه البتة، ولا ذكره مشايخ الطريق المتقدمون. ولا جعلوه غاية ولا مقامًا وقد كان القوم أحق بكل كمال، وأسبق إلى كل غاية محمودة. ونحن لا ننكر هذا اللفظ مطلقًا، =

وجاوز حد التفرقة(١) المانعة من امتثال هذا الأمر.

قوله: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾ [الصافات: ١٠٣]؛ أي: استسلما وانقادا لأمر الله، فلم يبق هناك منازعة لا من الوالد ولا من الولد، بل استسلام صرف، وتسليم محض(٢).

قوله: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣]؛ أي: صرعه على جبينه، وهو: جانب الجبهة الذي يلي الأرض عند النوم(٣)، وتلك هي هيئة ما يراد ذبحه»(٤).

وأما عن بعدهم عن ما حرم الله ﷻ، وتعظيمهم لها، فقد بلغوا في ذلك مبلغًا عظيمًا، فهذا نبيّ الله يوسف ﵇ وقد توفرت له الدواعي الدافعة للفاحشة، يعرض ويترفع ويمتنع، تعظيمًا لأمر الله، وقد ذكر ابن القيِّم ثلاثة عشر دافعًا ابتُلِيَ بها يوسف ﵇(٥)، تدفعه إلى ارتكاب الفاحشة، ومع هذا صلوات الله وسلامه عليه يصبر، ويجاهد، ويتخذ كل

= ولا نقبله مطلقًا. ولا بد فيه من التفصيل. وبيان صحيحه من معلوله، ووسيلته من غايته». مدارج السالكين (٤/ ٣٢٤).

(١) كذلك هذه الكلمة هي من مصطلحات الصوفية، ومعناها عندهم: «هو كسب العبد من إقامة العبودية من تكاليف وفرائض شرعية، ثم هو ما يليق بأحوال البشرية، فإذا خاطب العبد الصالح الله تعالى بلسان نجواه مستغفرًا، أو سائلًا، أو داعيًا، أو راجيًا، أو شاكرًا، أو مبتهلًا، أو تائبًا، فهو في محل التفرقة وهو ما يسمى «الفرق»». معجم ألفاظ الصوفية (ص١٠٨). وانظر: كلام ابن القيِّم ﵀ عن هذا المصطلح وتعليقه عليه، وبيان الخطأ والمحذور فيه. راجع: مدارج السالكين (٤/ ٤٠٤).

(٢) قاله: مجاهد، وعكرمة، وقتادة والسدي وابن إسحاق. وغيرهم. انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٣٨٦).

(٣) قال به: ابن جرير ﵀ في تفسيره، وحكي نحوه عن ابن زيد. قال صاحب القاموس: «الجبينان: حرفان مكتنفا الجبهة من جانبيها فيما بين الحاجبين مصعدًا إلى قصاص الشعر أو حروف الجبهة ما بين الصدغين متصلًا بحذاء الناصية كله جبين». القاموس المحيط (١١٨٥).

(٤) مدارج السالكين (٤/ ٣٩).

(٥) انظر: الداء والدواء (ص٤٨٢).

سبيل في البعد عن الوقوع في المعصية، يقول ابن القيِّم بعد ذكره لتلك الدوافع: «ومع هذه الدَّواعي كلِّها، فآثر مرضاة الله وخوفه، وحمله حبه لله على أن اختار السجن على الزِّنى فقال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ [يوسف: ٣٣]، وعلم أنه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه، وأن ربه تعالى إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن؛ صبا إليهن بطبعه، وكان من الجاهلين، وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه»[١].

خامسًا: الحث على التخلق بأخلاق أكرم الخلق ـ الذين هم الأنبياء ـ، والتأدب بآدابهم فهم صفوة الخلق الذين اصطفاهم الله، ولا شك أنهم أكمل الخلق وأعظمهم خلقًا، فهم دعاة إلى مكارم الأخلاق.

وأعظم أدب دلوا عليه، هو الأدب مع الله ﷻ في خطابهم وسؤالهم له، فقد بلغوا في ذلك الدرجة العالية، والرتبة الرفيعة، يقول ابن القيِّم ﵀: «وتأمل أحوال الرسل صلوات الله وسلامه عليهم مع الله، وخطابهم وسؤالهم، كيف تجدها كلها مشحونة بالأدب قائمة به؟

قال المسيح ﵇: ﴿إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ﴾ [المائدة: ١١٦] ولم يقل: لم أقله، وفرقٌ بين الجوابين في حقيقة الأدب، ثم أحال الأمر على علمه سبحانه بالحال وسره، فقال: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي﴾ [المائدة: ١١٦] ثم برأ نفسه عن علمه بغيب ربه وما يختص به سبحانه، فقال: ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾ [المائدة: ١١٦]، ثم أثنى على ربه، ووصفه بتفرده بعلم الغيوب كلها فقال: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦]»[٢].

ويذكر ﵀ أدب الخليل ﵇ فيقول: «وكذلك قول إبراهيم

---

(١) الداء والدواء (ص٤٨٧). وعلق أيضًا على هذه القصة، ـ بكلام يشبه هذا ـ في كتابه «روضة المحبين» انظر: (ص٤٤٢).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ١٩١).

الخليل ﷺ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨ - ٨٠]، ولم يقل وإذا «أمرضني» حفظًا للأدب مع الله»(١).

ثم يذكر أدب الخضر عليه السلام فيقول: «وكذلك قول الخضر عليه السلام في السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]، ولم يقل «فأراد ربك أن أعيبها» وقال في الغلامين: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢]»(٢).

ثم ذكر جملة من أدبهم مع الله عز وجل.

وبعد ذلك ذكر أدبهم مع الخلق، وكيف أنهم كانوا في غاية الخُلُقِ والإحسان إلى الخلق، واستشهد رحمه الله لذلك بقصة يوسف عليه السلام مع إخوته يقول رحمه الله: «وقول يوسف لأبيه وإخوته: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ [يوسف: ١٠٠]، ولم يقل: «أخرجني من الجب» حفظًا للأدب مع إخوته، وتَفَتِّيًا عليهم: أن لا يخجلهم بما جرى في الجب، وقال: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ [يوسف: ١٠٠]، ولم يقل: «رفع عنكم جهد الجوع والحاجة» أدبًا معهم. وأضاف ما جرى إلى السبب، ولم يضفه إلى المباشر الذي هو أقرب إليه منه فقال: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ [يوسف: ١٠٠]، فأعطى الفتوة والكرم والأدب حقه؛ ولهذا لم يكن كمال هذا الخلق إلا للرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم»(٣).

سادسًا: تهدف قصص القرآن إلى تعليم طرق الدعوة إلى الله، وذلك بالتأسي برسل الله في دعوتهم لأقوامهم، واتباع المنهج الذي سلكوه في تبليغهم ما أمروا به، فهم أفضل من دعا إلى الله، وكذلك

---

(١) مدرج السالكين (٣/ ١٩٤). (٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق (٣/ ١٩٥).

طرقهم هي أفضل الطرق في نشر دين الله، فقد سلكوا كل طرق الدعوة لهداية الخلق إلى الصراط المستقيم، وقد ذكر الله ﷻ طرق دعوتهم في القرآن، يقول الإمام ابن القيِّم رحمه الله: «وتأمل امتثال موسى لما أُمر به كيف قال لفرعون: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٨، ١٩]، فأخرج الكلام معه مخرج السؤال والعرض لا مخرج الأمر وقال: ﴿إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ ولم يقل: إلى أن أزكيك فنسب الفعل إليه هو وذكر لفظ التزكي دون غيره، لما فيه من البركة والخير والنماء، ثم قال: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أكون كالدليل بين يديك الذي يسير أمامك، وقال: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ استدعاء لإيمانه بربه الذي خلقه ورزقه ورباه بنعمه صغيرًا ويافعًا وكبيرًا.

وكذلك قول إبراهيم الخليل لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢]، فابتداء خطابه بذكر أبوته الدالة على توقيره ولم يسمه باسمه ثم أخرج الكلام معه مخرج السؤال فقال: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾ ولم يقل: لا تعبد. ثم قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ [مريم: ٤٣]، فلم يقل له: إنك جاهل لا علم عندك، بل عدل عن هذه العبارة إلى ألطف عبارة تدل على هذا المعنى فقال: ﴿جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ ثم قال: ﴿فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾.

وهذا مثل قول موسى لفرعون: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [النازعات: ١٩]، ثم قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٥] فنسب الخوف إلى نفسه دون أبيه كما يفعل الشفيق الخائف على من يشفق عليه»[1].

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٦٣٤).

ثم بعد ذلك يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكذلك سائر خطاب الأنبياء لأمتهم في القرآن، إذا تأملته وجدته ألين خطاب وألطفه»[١].

سابعًا: قصص القرآن الكريم هي قياسات يقاس عليها، وليس المراد بالقياس هنا القياس في الأحكام الشرعية فحسب، بل هو أعم من ذلك، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ بعد كلامه عن الأمثال: «ونظير ذلك ذكر القصص فإنها كلها أمثال وهي أصول قياس واعتبار»، ثم عقب على كلامه مبينًا أنها شاملة لكل ما يصلح أن يقاس عليها، يقول: «ولا يمكن [هنا][٢] تعديد ما يعتبر بها؛ لأن كل إنسان له في حالة منها نصيب»[٣].

وقد طبق الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ هذه القاعدة في كتابه «إعلام الموقعين» الذي تحدث في أكثره عن القياس، فنلحظ أنه في حديثه عن الحيل، استدل على إبطالها بقصة أصحاب السبت، وتحايلهم على الصيد في وقت النهي، وحذر المتحايلين على شرع الله من مشابهة اليهود ومماثلتهم، وعدَّ هذه القصة من أعظم الدلائل على بطلان الحيل في الشريعة وبشاعتها، ففي تلك القصة أعظم زاجر لمن دعته نفسه إلى ذلك[٤].

ومن ضمن القصص القرآني التي ذكرها ابن القيِّم في باب القياس وتكررت في كتبه[٥]؛ حكومة النبيين الكريمين داود وسليمان عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فإن

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٦٣٤).

(٢) في المطبوع (هناك) والتصويب من كتاب «إعجاز القرآن الكريم عند شيخ الإسلام ابن تيمية» (ص٢٣٥).

(٣) مجموع الفتاوى (١٤/ ٥٨).

(٤) انظر: إعلام الموقعين (٥/ ٧١)، وانظر: (٥/ ١٣٩).

(٥) أشار إلى ما ذكره في «إعلام الموقعين» في كتابه «مفتاح دار السعادة» انظر: (١/ ٢٤١)، وذكرها في تهذيب سنن أبي داود (١٢/ ١٧٩).

هذه القصة دليل صريح على ضمان المتلف لما أتلفه، يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وعلى هذا الأصل[١] تبتنى الحكومة المذكورة في كتاب الله ﷻ التي حكم فيها النبيان الكريمان داود وسليمان صلّى الله عليهما وسلم؛ إذ حكما في الحرث الذي نفشت فيه غنم القوم، والحرث: هو البستان[٢]، وقد روي أنه كان بستان عنب، وهو المسمى بالكرم[٣]، والنفش: رعيُ الغنم ليلًا[٤]، فحكم داود بقيمة المتلف، فاعتبر الغنم فوجدها بقدر القيمة، فدفعها إلى أصحاب الحرث، إما لأنه لم يكن لهم دراهم أو تعذر بيعها ورضوا بدفعها ورضي أولئك بأخذها بدلًا عن القيمة، وأما سليمان فقضى بالضمان على أصحاب الغنم وأن يضمنوا ذلك بالمثل بأن يعمروا البستان حتى يعود كما كان، ولم يُضيِّع عليهم مغله من الإتلاف إلى حين العود، بل أعطى أصحاب البستان ماشية أولئك ليأخذوا من نمائها بقدر نماء البستان فيستوفوا من نماء غنمهم نظير ما فاتهم من نماء حرثهم، وقد اعتبر النماءين فوجدهما سواء، وهذا هو العلم الذي خصه الله به وأثنى عليه بإدراكه...»[٥].

ثم يقول بعد ذلك: «وما حكم به نبي الله سليمان هو الأقرب إلى العدل والقياس، وقد حكم رسول الله ﷺ أن على أهل الحوائط حفظها

(١) الكلام متصل بما قبله، ويقصد بـ«الأصل» هنا؛ ضمان الإتلاف.

(٢) قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: «والحرث إنما هو حرث الأرض، وجاز أن يكون ذلك زرعًا، وجاز أن يكون ذلك غرسًا، وغير ضار الجهل بأي ذلك كان»، وقد رجح ابن جرير هذا القول. **انظر**: تفسير الطبري (١٦/ ٣٢١).
وقال الرازي في تفسيره: «أكثر المفسرين على أن الحرث هو الزرع». مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٩٥).

(٣) روي هذا القول عن ابن مسعود رضي الله عنه، وشريح، وغيرهما. **انظر**: تفسير الطبري (١٦/ ٣٢١).

(٤) قال به: شريح والزهري وقتادة. وغيرهم. **انظر**: تفسير ابن كثير (٥/ ٣٤٥).

(٥) إعلام الموقعين (٣/ ٨٠).

بالنهار وأن ما أفسدت المواشي بالليل ضمانه على أهلها[١]، فصح بحكمه ضمان النفش، وصح بالنصوص السابقة والقياس الصحيح وجوب الضمان بالمثل، وصح بنص الكتاب الثناء على سليمان بتفهيم هذا الحكم، فصح أنه الصواب وبالله التوفيق»[٢].

وبهذا يتضح أن القصص القرآني ليست مجرد قصص تاريخية تحكى؛ بل تتعد ذلك ليصاغ منها قواعد شرعية بأسلوب فني بديع.

المَطْلَبُ الثَّانِي

أسرار التعبير في القصص القرآنية

تمتاز القصة القرآنية بدقة التعبير، فهي تصف الأحداث وصفًا دقيقًا، بألفاظٍ مفصحةٍ عن أحداث القصة أتم إفصاح، حاملة في ثناياها تلك الأهداف والقيم، بنسج متآلف بديع، فتلك الألفاظ وتلك المعاني تجتمع مع التصوير الدقيق؛ فتجعل القارئ للقصة وكأنه يشاهد أحداثها، متفاعلًا معها بقلبه ومشاعره، مشدودًا نحوها، متطلعًا لتسلسلها، مندهشًا من براعة التصوير وجماله وروعته[٣]. هذا من أهم ما يميز القصة القرآنية.

وقد تأمل الإمام ابن القيِّم رحمه الله قصة من قصص هذا الكتاب العزيز، وساق أحداثها مبينًا ما اشتملت عليه، بفهمه العميق رحمه الله وحسه الأدبي الفائق، فاستخرج لنا أسرار تلك القصة، وأظهر جمالها وروعتها.

---

(١) أخرجه أحمد رقم (٢٣٦٩١)، والحاكم رقم (٢٣٥٨)، وغيرهما. وقال الحاكم: «صحيح الإسناد على خلاف فيه بين معمر والأوزاعي». وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٢٣٨).

(٢) إعلام الموقعين (٣/ ٨١).

(٣) راجع: الجانب الفني في قصص القرآن (ص١٦٧).

تلك القصة هي قصة إبراهيم عليه السلام(١)، التي حكاها الله عز وجل في سورة الذاريات، ـ فنسوق الآيات أولًا، ثم نذكر كلام ابن القيِّم عليها ـ يقول الله عز وجل: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝٢٤ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٢٧ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ۝٢٨ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۝٢٩ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٢٤ ـ ٣٠].

تأمَّل ابن القيِّم رحمه الله هذه الآيات بمنهج شمولي متكامل، ففي البداية بين جملة ما تحمله هذه الآيات، وما تتضمنه من أسرار، معاتبًا من ينظر إلى آيات القرآن دون تدبر وتفهم وتأمل، فيقول رحمه الله: «فعهدي بك إذا قرأت هذه الآية، وتطلعت إلى معناها وتدبرتها؛ فإنما تطلع منها على: أن الملائكة أتوا إبراهيم في صورة الأضياف يأكلون ويشربون، وبشروه بغلام عليم، وأن امرأته عجبت من ذلك، فأخبرتها الملائكة أن الله قال ذلك. ولم يتجاوز تدبرك غير ذلك.

فاسمع الآن بعض ما في هذه الآيات من أنواع الأسرار.

وكم قد تضمنت من الثناء على إبراهيم.

وكيف جمعت الضيافة وحقوقها؟.

وكيف يراعى الضيف؟.

وما تضمنت من الرد على أهل الباطل من الفلاسفة والمعطلة.

وكيف تضمنت علمًا عظيمًا من أعلام النبوة؟

---

(١) درسها ابن القيِّم رحمه الله في موضعين من كتبه؛ **أحدهما**: في «جلاء الأفهام» (ص٣٣٤)، **والثاني**: في كتابه: «الرسالة التبوكية» وهذا الذي سنذكره هنا إن شاء الله؛ لأن ابن القيِّم في هذا الموضع كانت دراسته للقصة أوسع من التي في «جلاء الأفهام».

وكيف تضمنت جميع صفات الكمال التي مردها إلى العلم والحكمة...»[1].

وبعد هذا الإجمال أخذ ابن القيِّم رحمه الله يفصِّل القول في الأسرار التي تضمنتها الآيات، فتحدث في البداية عن الاستفهام الذي افتتحت به القصة، وذكر أسراره وبلاغته، يقول رحمه الله: «**فاسمع الآن بعض تفاصيل هذه الجملة:**

قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٤] افتتح سبحانه القصة بصيغة موضوعة للاستفهام، وليس المراد بها[2] حقيقة الاستفهام، ولهذا قال بعض الناس: إن ﴿هَلْ﴾ في مثل هذا الموضع بمعنى «قد» التي تقتضي التحقيق[3].

ولكن في ورود الكلام في مثل هذا الاستفهام سر لطيف، ومعنى بديع، فإن المتكلم إذا أراد أن يخبر المخاطب بأمر عجيب ينبغي الاعتناء به، وإحضار الذهن له، صدَّر له الكلام بأداة الاستفهام؛ لتنبيه سمعه وذهنه للخبر، فتارة يصدره بـ«ألا»، وتارة يصدره بـ«هل»، فقول: هل علمت ما كان من كيت وكيت؟ إما مذكرًا به، وإما واعظًا له مخوفًا، وإما منبهًا على عظمة ما يخبر به، وإما مقررًا له.

فقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ [النازعات: ١٥].

و﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ [ص: ٢١].

---

(١) الرسالة التبوكية (ص٢٠٤).

(٢) في المطبوع (وليس المرد به حقيقته من الاستفهام)، وأشار المحقق في الحاشية إلى أن أحد النسخ المخطوطة ورد فيها النص بقوله: (بها حقيقة)، ولعله أولى من ما ذكر.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٤٩١). وراجع: الإتقان (٤/ ١٢٠٧)، فقد ذكر السيوطي من معاني «هل» أنها بمعنى «قد» التي تفيد التحقيق.

و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١].

و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٤].

متضمن لتعظيم هذه القصص، والتنبيه على تدبرها، ومعرفتها ما تضمنته.

وفيه أمر آخر، وهو: التنبيه على أن إتيان هذا إليك عَلَمٌ من أعلام النبوة؛ فإنه من الغيب [الذي][١] لا تعلمه أنت ولا قومك، فهل أتاك من غير إعلامنا وإرسالنا وتعريفنا أم لم يأتك إلا من قبلنا؟[٢]

فانظر ظهور هذا الكلام بصيغة الاستفهام، وتأمل عِظَمَ موقعه في جميع موارده يشهد أنه من الفصاحة في ذروتها العليا»[٣].

أوضح ابن القيِّم رحمه الله سبب افتتاح القصة بصيغة الاستفهام، وبيَّن أن السر في ذلك هو التشويق والتنبيه واسترعاء الأسماع، وعنصر التشويق ـ كما يذكر الأدباء ـ من أهم عناصر القصة[٤]، يؤتى به لجذب الانتباه، وطرد الملل عن السامع.

ولكن من المهم الذي يجب التنبيه عليه، هو أن قصص القرآن لم يقصد بها مراعاة الجوانب الفنية فحسب، بل هي سبك متآلف من الخصائص الفنية والمعاني المقصودة[٥]، فمع إفادة الاستفهام هنا ـ في الآية ـ التشويق والتنبيه وغيرها من الأغراض البلاغية، كذلك هو يفيد معنى أساسيًّا رئيسًا، وهو أن القصص من علامات نبوة محمد ﷺ، فنبه

(١) هذه الكلمة ليست في المطبوع ويستقيم الكلام بإثباتها.

(٢) انظر: الكشاف (٥/ ٦١٥). (٣) الرسالة التبوكية (ص٢٠٧).

(٤) يقول الدكتور محمد الشنطي: «وعنصر التشويق هام جدًّا في بناء الحبكة»، **والحبكة هي**: مصطلح أدبي يطلق على نسج القصة. **انظر**: الأدب العربي الحديث (ص٣٣١).

(٥) راجع: التصوير الفني في القرآن الكريم، لسيد قطب (ص١٤٣).

الاستفهام بمفهومه على أن هذه القصص من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله ﷻ، ولا يمكن لبشر أن يأتي به من قبل نفسه.

ثم يكمل ابن القيِّم تأمله في هذه القصة، مبينًا أسرار الاشتقاقات والتراكيب لألفاظها، فيقول: «وقوله: ﴿ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٤] متضمن لثنائه على خليله إبراهيم؛ **فإن في ﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ قولين:**

أحدهما: إكرام إبراهيم لهم؛ ففيه مدح له بإكرام الضيف[(١)].

والثاني: أنهم مكرمون عند الله؛ كقوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، وهو متضمن أيضًا لتعظيم خليله ومدحه، إذ جعل ملائكته المكرمين أضيافًا له[(٢)].

فعلى كلا التقديرين فيه مدح لإبراهيم.

قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ﴾ متضمن لمدح آخر لإبراهيم حيث رد عليهم السلام أحسن مما حيوه به؛ فإن تحيتهم باسم منصوب متضمن لجملة فعلية، تقديره: سلَّمنا عليك سلامًا، وتحية إبراهيم لهم باسم مرفوع متضمن لجملة اسمية، تقديره: سلامٌ دائم أو ثابت أو مستقر عليكم[(٣)].

ولا ريب أن الجملة الاسمية تقتضي الثبوت واللزوم، والفعلية تقتضي التجدد والحدوث؛ فكانت تحية إبراهيم أكمل وأحسن.

ثم قال: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٢]، **وفي هذا من حسن مخاطبة الضيف والتذمم منه وجهان من المدح:**

---

(١) حكاه ابن جرير ﷺ عن مجاهد (٢١/ ٥٢٥).

(٢) قال به: ابن عباس ﵄، ومحمد بن كعب، وعطاء، وجماعة. انظر: الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٤٩٢).

(٣) انظر: الكشاف (٥/ ٦١٥).

أحدهما: أنه حذف المبتدأ، والتقدير: أنتم منكرون[(١)]، فتذمم منهم، ولم يواجههم بهذا الخطاب لما فيه من الاستيحاش، بل قال: ﴿قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥]، ولا ريب أن حذف المبتدأ في هذا من محاسن الخطاب، وكان النبي ﷺ لا يواجه أحدًا بما يكرهه بل يقول: (**مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُونَ كَذَا، وَيَفْعَلُونَ كَذَا**)[(٢)].

والثاني: قوله: ﴿قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ فحذف فاعل الإنكار، وهو الذي كان أنكرهم؛ كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿نَكِرَهُمۡ﴾ [هود: ٧٠] ولا ريب أن قوله: ﴿مُّنكَرُونَ﴾ ألطف من أن يقول: أنكرتكم[(٣)]»[(٤)].

والناظر في هذه القصة يرى دقة النظم وحسنه، فالكلمة تعبر عن المعنى في دقة لا يمكن وصفها، فتأمل لفظة «مكرمون» وما دلت عليه في كلا التقديرين من الثناء على إبراهيم، وتعبير إبراهيم ﷷ بالجملة الفعلية وما فيها من التنبيه على الخلق الرفيع.

فإن التعبير بالجملة الاسمية والجملة الفعلية، غرض بلاغي بديع، أشاد به أهل البيان، يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني ـ متحدثًا عن الفرق بين الجملة الاسمية والفعلية ـ: «وهو فرق لطيف تَمَسُّ الحاجة في علم البلاغة إليه. وبيانه: أن موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من أن يقتضي تجديد شيئًا بعد شيء.

وأما الفعل فموضوعه على أَنَّه يقتضي تجدُّدَ المعنى المثبتِ به شيئًا بعد شيء»[(٥)].

---

(١) انظر: معاني القرآن للفراء (٣/ ٨٦)، وتفسير الطبري (٢١/ ٥٢٦).
(٢) صحيح مسلم رقم (٣٤٦٩)، وصحيح البخاري رقم (٦١٠١).
(٣) يكون هذا التقدير إذا كان المعنى: أنه أنكر سلامهم، وحُكِيَ هذا المعنى عن أبي العالية. انظر: الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٤٩٣).
(٤) الرسالة التبوكية (ص٢١٢).
(٥) دلائل الإعجاز (ص١٧٤).

فعلى هذا يكون التعبير في الآية تعبيرًا بلغ غاية البيان، وأعلى درجات البلاغة، ويكون هذا الأسلوب قد جلَّى لنا ما تضمنه هذا القرآن من دقة النظم وجماله، وهذا الغرض الفنيُّ أيضًا إضافة إلى ما فيه من البلاغة، احتوى على الدعوة إلى ذلك الخلق الرفيع، الذي هو: ردُّ التحية للمحيي بأحسن من تحيته، وهذا يؤكد ما ذكره العلماء من احتواء القصص القرآني على القيم وجمال المعنى، إضافة إلى حسن السبك وجمال النظم.

ثم تحدَّث الإمام ابن القيِّم عن تقدير المحذوف في قوله تعالى: ﴿قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ وقال إن التقدير: «أنتم منكرون»، أو «أنكرتكم»، ولكن أبو حيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يستحسن التقدير، ورأى أنه بعيد؛ لأنه لا يناسب مقام إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما فيه من الفظاظة والتذمم، ورأى أن الأولى بالتقدير أن يقال: «هؤلاء قوم منكرون. وقال ذلك لنفسه، أو لمن كان معه من أتباعه وغلمانه بحيث لا يسمع ذلك الأضياف»[(١)].

ثم يواصل ابن القيِّم تأمله لهذه الآيات؛ مبينًا ما احتوت تلك العبارات من آداب سامية، وأخلاق رفيعة في إكرم الضيف، فيقول: «وقوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٦، ٢٧] متضمن وجوهًا من المدح وآداب الضيافة، وإكرام الضيف.

منها: قوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾ [الذاريات: ٢٦] والروغان: الذهاب بسرعة واختفاء[(٢)]، وهو: يتضمن المبادرة إلى إكرام الضيف، والاختفاء يتضمن ترك تخجيله وألا يعرض للحياء، وهذا بخلاف من يتثاقل ويتبارد على ضيفه، ثم يبرز بمرأى منه، ويحل صرة النفقة، ويزن ما يأخذ،

---

(١) البحر المحيط (٩/ ٥٥٥).

(٢) قال في اللسان: «راغ إلى كذا؛ أي: مالَ إليه سِرًّا». لسان العرب (ص١٧٧٨).

ويتناول الإناء بمرأى منه، ونحو ذلك، مما يتضمن تخجيل الضيف وحياءه، فلفظة «راغ» تنفي هذين الأمرين[١].

وفي قوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾ مدح آخر لما فيه من الإشعار أن كرامة الضيف معدة حاصلة عند أهله، وأنه لا يحتاج أن يستقرض من جيرانه، ولا يذهب إلى غير أهله إذ نُزل الضيف حاصل عندهم.

وقوله: ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾ يتضمن ثلاثة أنواع من المدح:

أحدها: خدمة ضيفه بنفسه فإنه لم يرسل به وإنما جاء به بنفسه.

الثاني: أنه جاءهم بحيوان تام لم يأتهم ببعضه؛ ليتخيروا من أطيب لحمه ما شاؤوا.

الثالث: أنه سمين ليس بمهزول، وهذا من نفائس الأموال ولد البقر السمين، فإنهم يعجبون به، فمن كرمه هان عليه ذبحه وإحضاره.

وقوله: ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾ متضمن المدح وأدب آخر، وهو: إحضار الطعام إلى بين يدي الضيف، بخلاف من يهيئ الطعام في موضع، ثم يقيم ضيفه؛ فيورده عليه.

وقوله: ﴿قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾؛ فيه مدح وأدب آخر؛ فإنه عرض عليهم الأكل بقوله: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾، وهذه صيغة عرض مؤذنة بالتلطف[٢]، بخلاف من يقول: ضعوا أيديكم في الطعام، كلوا، تقدموا، ونحو ذلك»[٣].

فتأمل ما حملته هذه الألفاظ من آداب الكرم، وحسن الضيافة، ومع إيجازها فقد أفصحت عن تلك المعاني أتم إفصاح، ودلت عليها أعظم دلالة.

---

(١) انظر: الكشاف (٥/٦١٦).

(٢) انظر: تفسير البيضاوي (٥/١٤٨).

(٣) الرسالة التبوكية (ص٢١٤).

وتأمل جمال التصوير، ودقة التعبير في قوله: ﴿فَرَاغَ﴾ فإنها في منتهى البلاغة والبيان، يقول الفراء رحمه الله في معنى قوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ «رجع إليهم، والروغ وإن كان على هذا المعنى؛ فإنه لا ينطق به حتى يكون صاحبه مُخْفِيًا لذهابه ومجيئه»(١).

ثم تأمل دقة التعبير بحرف الجر «إلى» في قوله: ﴿إِلَيْهِمْ﴾ وابن القيِّم رحمه الله استدل على أن إبراهيم عليه السلام قرب الطعام إلى بين أيدي أضيافه، بما يفيده حرف الجر «إلى»، فإن من معاني هذا الحرف: الدلالة على الغاية المكانية(٢).

وتأمل التعبير بـ«ألا» وما فيه من التلطف كما ذكر ابن القيِّم، فإن مما يفيده هذا الحرف: التحضيض والعرض بلين(٣).

ثم انتقل الإمام ابن القيِّم بعد ذكر هذه المعاني، واصفًا الداعي الذي دفع إبراهيم عليه السلام إلى خوفه من أضيافه، وبين مشاعر أهله في استقبال البشرى، يقول رحمه الله: «وقوله: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [الذاريات: ٢٨]؛ لأنه لما رآهم لا يأكلون من طعامه أضمر منهم خوفًا أن يكون معهم شر، فإن الضيف إذا أكل من طعام رب المنزل اطمأن إليه(٤)، وأنس به، فلما علموا منه ذلك: ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]، وهذا الغلام إسحاق لا إسماعيل(٥)؛ لأن امرأته عجبت من ذلك، فقالت: عجوز عقيم لا يولد لمثلي، فأنى لي بالولد؟ وأما إسماعيل فإنه من سريته هاجر وكان بكره، وأول ولده، وقد بيّن

---

(١) معاني القرآن للفراء (٣/ ٧٦).
(٢) انظر: أوضح المسالك (٣/ ٤٣).
(٣) انظر: الإتقان (٣/ ١٠٣٧).
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٤٩٣).
(٥) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٥٢٧).

سبحانه هذا في سورة هود في قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] وهذه هي القصة نفسها.

وقوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ [الذاريات: ٢٩]؛ فيه بيان ضعف عقل المرأة وعدم ثباتها، إذ بادرت إلى الندبة، فصكت الوجه عند هذا الإخبار.

وقوله: ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾؛ فيه حسن أدب المرأة عند خطاب الرجال، واقتصارها من الكلام على ما يتأدى به الحاجة، فإنها حذفت المبتدأ ولم تقل: أنا عجوز عقيم، واقتصرت على ذكر السبب الدال على عدم الولادة، لم تذكر غيره، وأما في سورة هود، فذكرت السبب المانع منها ومن إبراهيم وصرحت بالعجب»(١).

من أهم ما يذكر العلماء في قصص القرآن الإصابة في نقل العواطف(٢)، فتجعل القارئ يعايش تلك القصة بمشاعره، متأثرًا بتغيرات القصة، متفاعلًا مع أحداثها، وهذا بلا شك غاية الإبداع والروعة في الأسلوب، وينتج عنه بقاء السامع متشوقًا لمعرفة القصة، دون ملل، أو سهو وشرود ذهن.

ثم يبيِّن ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ ما ختمت به هذه القصة من صفات الله تعالى، مبينًا ما تضمنته تلك الصفات بعقيدته الصافية، ومنهجه الصحيح، وموضحًا وجه التناسب بين ختم القصة بتلك الصفات، ومعاني القصة، فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ [الذاريات: ٣٠] متضمن لإثبات صفة القول له.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ متضمن لإثبات صفة الحكمة

(١) الرسالة التبوكية (ص٢١٥).
(٢) راجع: الجانب الفني في قصص القرآن (ص١٩٩).

والعلم اللذين هما مصدر الخلق والأمر، فجميع ما خلقه سبحانه صادر عن علمه وحكمته، وكذلك أمره وشرعه مصدره عن علمه وحكمته.

والعلم والحكمة متضمنان لجميع صفات الكمال، فالعلم يتضمن الحياة ولوازم كمالها من القيومية، والقدرة، والبقاء، والسمع، والبصر، وسائر الصفات التي يستلزمها العلم التام.

والحكمة تتضمن كمال الإرادة، من العدل، والرحمة، والإحسان، والجود، والبر، ووضع الأشياء في مواضعها على أحسن وجوهها، ويتضمن إرسال الرسل، وإثبات الثواب والعقاب...»[(١)].

ثم أخذ رَحِمَهُ اللَّهُ يبيِّن وجه التناسب بين هذه الصفات وبين القصة فيقول: «واختصت هذه القصة بذكر هذين الاسمين لاقتضائهما لهما؛ لتعجب النفوس من تولد مولود بين أبوين لا يولد لمثلهما عادة، وخفاء العلم بسبب هذا الإيلاد، وكون الحكمة اقتضت جريان هذه الولادة على غير العادة المعروفة؛ فذكر في الآية اسم العلم والحكمة المتضمن لعلمه سبحانه بسبب هذا الخلق، وغايته، وحكمته في وضعه موضعه من غير إخلال بموجب الحكمة»[(٢)].

فانظر إلى جمال هذه القصة، وانظر إلى ما تضمنته كل مفردة فيها، فكل مفردة تحمل جمعًا من المعاني، ثم انظر إلى الجمل التي تركبت من تلك المفردات، تجدها حملت أجمل أساليب البيان والبلاغة، وتأمل قوة السبك ودقة النظم، الذي لا يمكن أن يجتمع في غير كلام الله عَزَّ وَجَلَّ.

ثم انظر إلى عظيم فهم هذا العالم الجليل، وانظر إلى سعة علمه رَحِمَهُ اللَّهُ، فقد تأمل هذه الآيات بمنهج شمولي تحليلي متكامل، فتكلم

---

(١) الرسالة التبوكية (ص٢١٦).

(٢) المصدر السابق (ص٢٨١).

عن الأساليب البلاغية في القصة، وتكلم عن المفردات من حيث الاشتقاق والتركيب، وتكلم عن مقاصد الآيات والقيم المستفادة منها، وتكلم عن التناسب بين الألفاظ والمعاني، معتمدًا على أقول المفسرين في ما يقول.

فرحم الله هذا الإمام الجهبذ الفذ، ورفع درجاته في جنات نعيم.

❁ ❁ ❁

المَبْحَثُ الرَّابِعُ
الإعجاز في أسلوب الجدل في القرآن الكريم عند ابن القيِّم

ويشتمل على مطلبين:

- المطلب الأول: اشتمال القرآن الكريم على أحسن الجدل.
- المطلب الثاني: أسرار المناظرة في القرآن الكريم.

* * *

المَطْلَبُ الأَوَّلُ
اشتمال القرآن الكريم على أحسن الجدل

القران الكريم نزل على قوم أهل جدل وخصام، أصحاب لسن وبلاغة في الحجة، وصفهم الله ﷻ بأنهم ﴿قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧]؛ أي: أهل خصومة شديدة[1]. وقال تعالى عن بعضهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤]؛ أي: إذا جادلك وراجعك[2]. فكثيرًا ما كان أولئك القوم يثيرون الشبه لدفع الحق والتشكيك في ما يدعو إليه رسول الله ﷺ، مجتهدين في ذلك، باذلين ما في وسعهم من فصاحة وبيان، مستدلين بأنواع الأدلة لتدعيم شبههم وتقويتها.

---

(١) يقول ابن جرير عن معنى الآية: «فإنهم أهل لددٍ وجدل بالباطل، لا يقبلون الحق. واللَّدَدُ: شدة الخصومة». وحكى هذا القول عن قتادة. انظر: تفسير الطبري: (١٥/ ٦٤٥).

(٢) حكى ابن جرير ﷺ هذا القول عن ابن عباس ﷺ. انظر: تفسير الطبري (٣/ ٥٧٣).

فلما كان هذا حال القوم؛ جاءت معجزة نبينا ﷺ التي تحداهم بها مدعمة بالحجج الداحضة لشبههم، المبطلة لها، فجاء القرآن مملوءًا بحجج الله البالغة المفحمة لأولئك القوم، الملزمة لمن تجرد منهم عن الأهواء لاتباع الحق، وترك الهوى، فكانت حجج القرآن في غاية القوة والرصانة والإقناع، تسلم لها العقول بمجرد سماعها؛ لصحتها، ولسهولتها، وقربها، بمعنى أن حجج القرآن بعيدة عن طرق الفلاسفة الجدلية التي سنوها، فكانت: «لحم جزورٍ غثٌ، في رأس جبلٍ وعرٍ»[1]، نعم. لم تكن حجج القرآن معقدة، بل جاءت بأفصح العبارات وأعذبها، وأقرب الطرق إلى العقل، قليلة المقدمات، بعيدة عن التكلف، بل إن تلك الأوصاف التي اتصفت بها حجج القرآن من أعظم الدلائل على صحتها؛ لأنَّ من يملك الحق لا يحتاج إلى التقعر في الخطاب، ولا إلى اتخاذ طرق ملتوية لإيضاح حجته؛ لأنَّ الحق أبلج.

ولقد تنوعت أساليب الجدل في القرآن، وجاءت على طرائق عدة؛ فمنها ما جاء الجدل فيه مباشرًا صريحًا نحو الآيات التي تكشف شبه كفار قريش، وتدحض إشكالاتهم، وتفضح المنافقين وترد عليهم، ومنها ما كان الجدل فيه ضمنًا. ومن أشهر أمثلة هذا النوع قصص الأنبياء التي قصها الله وفيها محاورة وجدال مع أقوامهم، فقد روى القرآن الكريم لنا كثيرًا من تلك المناظرات البديعة التي لم تكن مجرد روايات وقصص تحكى مجردة عن الفائدة؛ بل إنَّ الجدل الذي حكاه القرآن عن تلك الأمم دليل قاطع على أن ملة الشرك ملة واحدة، وأن شبه المشركين متفقة، فتلك المناظرات والأدلة العقلية التي وردت عن أنبياء الله ﷷ تدحض أباطيل المشركين في كل وقت، وفي أي زمان، فمناظرات

(١) كما وصفها شيخ الإسلام ؒ. انظر: نقض المنطق (ص١٥٥).

إبراهيم عليه السلام لنمرود؛ هي مناظرة لكل من اعتقد اعتقاده، وفكر فكرته.

ومناظرة موسى عليه السلام لفرعون؛ هي مناظرات لكل مشرك متعالٍ على ربوبية وألوهيَّة الحق جلَّ وعلا.

كما أن تلك المناظرات هي دليل على أن الإسلام دين واحد، وأن التوحيد دعوة رسل الله جميعهم، وفي هذا تدعيم لدعوة النبي ﷺ، وأنه لم يكن بدعًا من الرسل.

وقد سعى العلماء - رحمهم الله - في استخراج آيات الجدل من كتاب الله تعالى، ودرسوها دراسة دقيقة، واستخرجوا لنا طرق الجدل التي وردت في القرآن، وبيَّنوا حسن تلك المجادلات وجمالها. وأوضحوا لنا إعجاز هذا الكتاب الكريم من خلال هذا النوع من علوم القرآن، ودفعوا بذلك شبه الفلاسفة الذين يعتقدون أن القرآن ليس فيه شيء من الجدل.

ومن العلماء الذين اهتموا - اهتمامًا بالغًا - بدراسة هذا النوع من علوم القرآن الإمام ابن القيِّم رحمه الله، فله فيه كلام جميل نفيس، وآراء سديدة موفقة، بل أصبحت كتبه مرجعًا مهمًّا من مراجع هذا العلم، لما اتصف به رحمه الله من دقة التحرير، وصفاء المنبع، وبعد عن الآراء الفلسفية المتلوثة بأفكار المنطق اليوناني.

ولقد أوضح رحمه الله قوة حجج القرآن، ورصانتها، ووضوحها، ما يجعلها من أعظم الشواهد على إعجاز هذا الكتاب الكريم، مبينًا فساد رأي الفلاسفة الذين يزعمون أن الجدل لا يكون إلا للخاصة، وأن دعوة الأنبياء دعوة للجمهور: ولا تكون إلا بطريق الخطابة[1].

---

(١) ممن زعم هذا القول: «الجاحظ». انظر: الإتقان (٥/ ١٩٥٤).

إنَّ الجدل شريعة موضوعة لإظهار الحق، وهو من لوازم الدعوة إلى دين الله تعالى؛ فلهذا جاء القرآن الكريم مملوءًا بالحجج المتنوعة الطرق، المتعددة الأساليب، يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «القرآن مملوء بالاحتجاج، وفيه جميع أنواع الأدلة والأقيسة الصحيحة.

وأمر الله تعالى رسوله ﷺ فيه بإقامة الحجة والمجادلة؛ فقال تعالى: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وهذه مناظرات القرآن مع الكفار موجودة فيه، وهذه مناظرات رسول الله ﷺ وأصحابه لخصومهم، وإقامة الحجج عليهم، لا ينكر ذلك إلا جاهل مُفرِطٌ في الجهل»(١).

فينبغي على المسلمين أن يهتموا بحجج القرآن، ولا ينصرفوا عنها إلى حجج الفلاسفة التي هي من صنيع البشر، ولا ينصرفوا إلى ما هو عرضة للخطأ والنقصان، وما هو مظنة للتناقض والاختلاف، فهذا كتاب الله ﷻ أدلته شاهدة على إعجازه، هادية إلى سبيل الحق بأسهل الطرق وأوضحها، يقول الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ متحدثًا عن أسلوب الجدل في القرآن: «... هذا كنز من كنوز القرآن التي ضل عنها أكثر المتأخرين، فوضعوا لهم شريعة جدلية، فيها حق وباطل، ولو أعطوا القرآن حقه لرأوه وافيًا بهذا المقصود، كافيًا فيه، مغنيًا عن غيره»(٢).

ويقول رَحِمَهُ اللهُ: «... كل متكلم ومستدل ومحاج إذا بالغ في تقرير ما يقرره وأطال وأعرض القول فيه؛ فغايته ـ إن صح ما يذكره ـ أن ينتهي إلى بعض ما في القرآن»(٣).

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٤٥٧).

(٢) بدائع الفوائد (٤/ ٩٠٢).

(٣) بدائع الفوائد (٤/ ٩١٠).

ومع ما بلغ إليه أسلوب الجدل في القرآن من وضوح وظهور، وكثرة وتنوع، وما بلغ إليه من دلالة على إعجاز هذا الكتاب الكريم؛ إلا أنه جاء من يشكك في وجوده في القرآن، ويزعم مزاعم بعيدة كل البعد عن الصحة، منطلقًا من شبه فلسفية، وآراء كلامية[١]، جاعلًا من المنطق اليوناني حكمًا يحتكم إليه، وهو مليء بالتناقضات والتطويل والهذيان، وكلام الله ﷻ حجته ظاهرة واضحة، ودلالاته جلية لا تخفى، تخاطب العقول بما تعرفه. وكيف يقارن كلام خالق الخلق ﷻ؟ بما صنعه الخلق؟! يقول الإمام ابن القيِّم رحمه الله مبطلًا هذه الشبه: «وقد يقع في وهم كثير من الجهال أن الشريعة لا احتجاج فيها، وأن المرسل بها ﷺ لم يكن يحتج على خصومه ولا يجادلهم!.

ويظن جهال المنطقيين وفروخ اليونان أن الشريعة خطاب للجمهور لا احتجاج فيها، وأن الأنبياء دعوا الجمهور بطريق الخطابة والحجج للخواص وهم أهل البرهان! يعنون نفوسهم ومن سلك طريقتهم!!.

وكل هذا من جهلهم بالشريعة والقرآن؛ فإن القرآن مملوء من الحجج والأدلة والبراهين في مسائل التوحيد وإثبات الصانع والمعاد، وإرسال الرسل، وحدوث العالم، فلا يذكر المتكلمون وغيرهم دليلًا صحيحًا على ذلك إلا وهو في القرآن بأحسن عبارة، وأوضح بيان، وأتم معنىً، وأبعده عن الإيرادات والأسئلة»[٢].

بل إن هذا الوضوح واليسر الذي وصف الإمام ابن القيِّم رحمه الله به حجج القرآن من أعظم الشواهد على صدق تلك الحجج، وأقربها من نفس مريد الحق، فإن من يجنح إلى دقائق المخاصمة، ويحيط حجته بالغموض الذي لا يفهمه إلا خواص الناس، لهو العاجز عن إقامة

---

(١) انظر: الإتقان (٥/ ١٩٥٤).
(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٤٥٤).

الحجة؛ لأن من يستطيع إقناع الأكثرين بالحجة الواضحة الجلية، لا يعدل عنها إلى الحجة الغامضة التي لا تقنع إلا الأقلين، وقد أكثر الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ من إبراز هذا المعنى في دراسته لجدل القرآن، وأبداه كثيرًا، وبيَّن أن هذا التيسير مقصد وهدف من أهداف القرآن الذي جاء لهداية الخلق أجمعين، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «والله سبحانه حاجَّ عباده على ألسن رسله وأنبيائه فيما أراد تقريرهم به، وإلزامهم إياه، بأقرب الطرق إلى العقل، وأسهلها تناولًا، وأقلها تكلفًا، وأعظمها غناءً ونفعًا، وأجلها ثمرة وفائدة، فحججه سبحانه العقلية التي بينها في كتابه جمعت بين كونها عقلية سمعية ظاهرة واضحة، قليلة المقدمات، سهلة الفهم، قريبة التناول، قاطعة للشكوك والشبه، ملزمة للمعاند والجاحد؛ ولهذا كانت المعارف التي استنبطت منها في القلوب أرسخ، ولعموم الخلق أنفع»[١].

ومع إن حجج القرآن جاءت من السهولة واليسر بمكان، كذلك هي من حيث دقائق الحجاج وأسراره في أعلى مراتب الحجاج، ولا تعارض بين اشتمالها على دقائق المحاجة وبين سهولتها ويسرها، وليس المنطق اليوناني معيار تقاس عليه حجج القرآن وبراهينه، بل هو معيار الوثنيين من الإغريق ومن غرر به من سائر الكفار، توهمًا منهم أن التعويل عليه يعصم الذهن من الخطأ والزلل ويقود إلى المعارف، وتبعهم في ذلك بعض المسلمين، وتأثروا بأفكارهم، وأخذوا هذا العلم جملة وتفصيلًا، دون التمييز بين الصحيح والفاسد فيه، مع أن المتأمل فيه يدرك التناقض والاختلاف بين أصوله[٢]، وقد اعترف حذاق أهل هذا العلم من

---

(١) الصواعق المرسلة (١/ ٤٦٠).

(٢) انظر: أصول الجدل والمناظرة في الكتاب والسُّنَّة (ص٤٥٤). ولقد وفق الله الإمامين =

الإسلاميين؛ بأن أدلة القرآن أحسن الأدلة، وأفصحها عبارة، وأوضحها بيانًا، وأتمها معاني، وأبعدها عن كثرة الإيرادات والأسئلة، يقول الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد اعترف بهذا حذاق المتكلمين من المتقدمين والمتأخرين:

قال أبو حامد في أول «الإحياء» فإن قلت: فلم لم تورد في أقسام العلم الكلام والفلسفة وتبيِّن أنهما مذمومان أو ممدوحان؟

فاعلم أن حاصل ما يشتمل عليه الكلام من الأدلة التي ينتفع بها فالقرآن والأخبار مشتملة عليه، وما خرج عنهما فهو إما مجادلة مذمومة ـ وهي من البدع كما سيأتي بيانه ـ، وإما مشاغبة بالتعلق بمناقضات الفرق، وتطويل بنقل المقالات التي أكثرها ترهات وهذيانات تزدريها

= الكريمين ـ شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام ابن القيِّم ـ في تجريد الحجب عن هذا العلم، وكشف أسراره وبيان تناقضاته، وبيَّنوا أنه لا حاجة للمسلم من تعلمه، لما هو مشتمل عليه من أمور فاسدة، ودعاوى باطلة كثيرة، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «بل الواقع قديمًا وحديثًا أنك لا تجد من يلزم نفسه أن ينظر في علومه به ويناظر به، إلا وهو فاسد النظرة والمناظرة، كثير العجز عن تحقيق علم وبيانه». نقض المنطق (ص١٥٥).

ويقول الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ عند كلامه عن العلوم وبيانه للصحيح منها والفاسد: «وأما المنطق فلو كان علمًا صحيحًا كان غايتُهُ أن يكون كالمساحة والهندسة ونحوها، فكيف وباطله أضعاف حقِّه؟! وفساده وتناقض أصوله واختلاف مبانيه توجب مراعاتها الذهن أن يزيغ في فكره. ولا يؤمن بهذا إلا من قد عرفه وعرف فساده وتناقضه ومناقضة كثير منه للعقل الصريح». مفتاح دار السعادة (١/ ٤٨٣).

ويقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما دخل المنطق على علم إلا أفسده وغيَّر أوضاعه وشوَّش قواعده». مفتاح دار السعادة (١/ ٤٨٥).

بل إن الحذاق من أهل هذا العلم لا يلتزمون قواعده، هربًا من صعوبتها وطولها، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «ونفس الحذاق منهم لا يلتزمون قوانينه في كل علومهم، بل يعرضون عنها، إما لطولها وإما لعدم فائدتها وإما لفسادها وإما لعدم تميزها وما فيها من الإجمال والاشتباه، فإن فيه مواضع كثيرة هي لحم جزور غث على رأس جبل وعر، لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقل». نقض المنطق (ص١٥٥).

الطباع وتمجها الأسماع[١]»[٢].

وينقل ابن القيِّم كَلَّلهُ اعتراف عالم آخر فيقول: «وقال الرازي في كتابه: «أقسام اللذات»[٣]: لقد تأملت الكتب الكلامية والمناهج الفلسفية؛ فما رأيتها تروي غليلًا، ولا تشفي عليلًا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، اقرأ في الإثبات: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، واقرأ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي»[٤].

ثم يختتم الإمام ابن القيِّم كَلَّلهُ نقله لتلك الاعترافات باعتراف عظيم لأحد المتكلمين، يقول ابن القيِّم كَلَّلهُ ناقلًا قوله: «وقال بعض المتكلمين: أفنيت عمري في الكلام أطلب الدليل، وإذا أنا لا أزداد إلا بعدًا عن الدليل، فرجعت إلى القرآن أتدبره وأتفكر فيه، وإذا أنا بالدليل حقًّا معي وأنا لا أشعر به، فقلت: والله ما مثلي إلا كما قال القائل:

وَمِنَ العَجَائِبِ وَالعَجَائِبُ جَمَّةٌ ... قُرْبُ الحَبِيبِ وَمَا إِلَيْهِ وُصُولُ
كَالعِيسِ فِي البَيْدَاءِ يَقْتُلُهَا الظَّما ... وَالمَاءُ فَوْقَ ظُهُورِهَا مَحْمُولُ[٥]

قال: فلما رجعت إلى القرآن إذا هو الحُكمُ والدليلُ، ورأيت فيه من أدلة الله وحججه وبراهينه وبيناته ما لو جمع كلُّ حقٍّ قاله المتكلمون في كتبهم لكانت سورة من سور القرآن وافية بمضمونه، مع حسن البيان، وفصاحة اللفظ، وتطبيق المفُصَّل، وحسن الاحتراز والتنبيه على مواقع

(١) انظر: إحياء علوم الدين (١/ ٢٢).
(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٤٥٥).
(٣) هذا الكتاب من كتب الرازي الأخيرة، التي رجع فيها عن آرائه الفلسفية، وقد ذكره شيخ الإسلام في النبوات: (١/ ٤٥٣)، وكذلك الإمام ابن القيِّم في عدد من كتبه. وهو من كتب الرازي المفقودة.
(٤) مفتاح دار السعادة (١/ ٤٥٦).
(٥) البيتان في كتاب «حياة الحيوان الكبرى» بغير نسبه. انظر: (ص١٢٦).

الشبه، والإرشاد إلى جوابها، وإذا هو كما قيل - بل فوق ما قيل -:

كَفَى وَشَفَى مَا فِي الفُؤَادِ فَلَمْ يَدَعْ ... لِذِي إِرْبَةٍ فِي القَوْلِ جِدًّا وَلَا هَزْلَا[١]

... إلى آخر كلامه»[٢].

فإذا كان هذا رأي أصحاب هذا العلم فيه، وهذه هي اعترافاتهم بقوة حجج القرآن وصحتها، فلا يعدل عنها إلى تلك الموازين الجائرة العائلة، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «هذه الموازين عائلة، لا عادلة [يعني: اليونانية]، وكانوا فيها من المطففين ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾ [المطففين: ٢، ٣]. وأين البخس في الأموال من البخس في العقول والأديان؟ مع أن أكثرهم لا يقصدون البخس، بل هم بمنزلة من قد ورث موازين من أبيه يزن بها تارة له وتارة عليه، ولا يعرف أهي عادلة أم عائلة؟

والميزان الذي أنزلها الله مع الكتاب حيث قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ﴾ [الشورى: ١٧] وقال: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥]، هي ميزان عادلة تتضمن اعتبار الشيء بمثله وخلافه، فيسوي بين المتماثلين ويفرق بين المختلفين بما جعله الله في فطر عباده وعقولهم من معرفة التماثل والاختلاف»[٣].

وبهذا يتقرر أن حجج القرآن أحسن الحجج، وما سواها من حجج يعتريها النقص والتناقض، وأن حجج القرآن شاهدة على إعجاز هذا الكتاب الكريم، وصحة ما جاء فيه، تقر بذلك العقول الصحيحة.

---

(١) البيت لحسان بن ثابت رضي الله عنه، وفي الديوان: «كفى وشفى ما في النفوس فلم يدع». وفي الكتاب «ما في الفؤاد» «لذي أرب» بدلًا من (إربة) والتصحيح من الديوان. انظر: ديوانه (ص٢١١).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٤٥٧).

(٣) الرد على المنطقيين (ص٣٨١).

المَطْلَبُ الثَّانِي

أسرار المناظرة في القرآن الكريم

المناظرة هي: «تردد الكلام بين شخصين يقصد كل واحد منهما تصحيح قوله وإبطال قول صاحبه»[(١)]. ولها طرق وأساليب تطورت على مرِّ العصور والأزمنة، حتى أصبحت علمًا ذا قواعد وأصول ومصطلحات، مع أنها في الأصل علمٌ بديهي يعرفه عامة الناس[(٢)]، قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]؛ لكن لما كانت مدارك الناس تختلف، وقدراتهم على الخصام متفاوتة، تأمل الحكماء في هذا الأسلوب فاستخرجوا له تلك الأصول والقواعد[(٣)]؛ لتكون عونًا وعضدًا لإظهار الحق ودفع الباطل، وأصبح العلماء يتدارسون تلك القواعد والأصول؛ لتكون سلاحًا لهم في مقارعة الخصوم، وطريقة لإقناع المعارضين والجاحدين، مقرين بأن سلطان العقل هو أعظم السلاطين، فتملُّك العقول بالحجة أشد من تملُّك الأبدان بالقهر والسلاح، فإذا اقتنع العقل بشيء انقاد له البدن.

أضف إلى ذلك ما في المناظرات من إظهار للحق وفضح للباطل، فإذا انقطع المحاج لزمه اتباع الحق، وإلا أصبح معاندًا مكابرًا، وبذلك يفتضح أمر الباطل بين الناس، ويتميَّز لهم الحق من غيره.

وظهور الجدل عادة ما يكون في المجتمع المتعدد الملل والأفكار

(١) مناهج الجدل في القرآن الكريم (ص٢٥).

(٢) انظر: أصول الجدل والمناظرة في القرآن والسُّنَّة (ص٥).

(٣) ينسب وضع قواعد هذا العلم لفلاسفة اليونان، مثل: «أفلاطون» و«أرسطو» وغيرهم، ولا يعني ذلك أنهم اخترعوا تلك القواعد وابتدعوها، بل المقصود أن جهدهم في وضع هذا العلم كجهد الخليل بن أحمد في وضع أوزان الشعر، وجهد سيبويه في وضع النحو العربي. انظر: مناهج الجدل في القرآن الكريم (ص٣٠).

والاتجاهات، فكل فرد من هذا المجتمع تحمله قناعاته واعتقاداته للدفاع عنها، والترويج لها. ولما نزل القرآن الكريم نجد أنه نزل في مجتمع له تلك التعددية، فإذا تأملنا تاريخ الجزيرة العربية وقت نزوله؛ نجد أنها كانت تضم عددًا من أطياف المجتمع المختلفة، ولا سيما على المستوى الديني، فكان فيها المشركين، وكذلك فيها اليهود، والنصارى، أضف إلى ذلك ما ظهر بعد بدء دولة الإسلام في المجتمع المدني من المنافقين، فكان هذا التنوع يحتِّم نشوء صراعات جدلية تستلزم تلك المناظرات.

فالمشركون في مكَّة يثيرون بعض الشبه حول ما جاء به محمد ﷺ، فتأتيهم حجج القرآن فتدحض تلك الشبه فينقلبوا خاسرين، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣].

ثم لما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، اتسعت دائرة التنوع الفكري ليلتقي باليهود المعاندين الجاحدين، فيفضح القرآن الكريم ما في قلوبهم من خلال تلك المناظرات، ويبين حقدهم وعداوتهم للإسلام والمسلمين.

وهكذا كلما اتسعت دائرة الإسلام وتعددت الأفكار المحيطة بالدولة الإسلامية نجد تجددًا في مناظرات القرآن حتى أصبح هذا الكتاب الكريم يحوي جملة من المناظرات البديعة، التي تضمنت أسرارًا عجيبة، فأخذ العلماء في تبيان تلك الأسرار وتجليتها، لما رأوا فيها من النفع العظيم لمن اقتدى بها، ولما تميزت به من قوة الحجة، مع السهولة واليسر وقلة المقدمات وصحة النتائج.

وقد كتب الإمام ابن القيِّم رحمه الله في كتابه «بدائع الفوائد» فصولًا عن أسرار المناظرات في القرآن[1]، وبين ما اشتملت عليه تلك المناظرات

---

(١) انظر: بدائع الفوائد (٤/ ٩٠٢ ـ ٩٤٥).

من فوائد عظيمة، ومحاسن جمة، بل إن الإمام ابن القيِّم رحمه الله درس قضية الإعجاز ـ من حيث مقولات العلماء فيه، ووجوه إعجازه، والتحدي. . . وغير ذلك مما يدرس في كتب الإعجاز ـ أثناء بحثه لأسرار المناظرات في القرآن، وذكر رحمه الله جملة من تلك المناظرات وعلَّق عليها بأسلوبه الأدبي الجميل، وتحليله التفصيلي الدقيق. **ونذكر في ما يلي دراسته رحمه الله لبعض المناظرات:**

المناظرة الأولى: مناظرات المشركين المنكرين للبعث:

هذه الشبهة من الشبه العظيمة التي تتردد في صدور المشركين، ولهذا تنوعت الحجج لتقرير الإيمان بالبعث، وترسيخ هذا الأصل من أصول الدين، وجاءت أدلة القرآن منبهةً للعقول بدلائل محسوسة حتى تعي تلك الفكرة، وتزيل من القلوب تلك الشبهة، بل تعددت أساليب القرآن لدفعها فمرةً يأتي دفعها بأسلوب القسم، ومرة بالقياس، ومرة بالاستدلال، والمشركون في غيٍّ وضلال لا يذعنون ولا يرتدعون، بل إنهم من شدة إصرارهم على تلك الشبهة يجادلون ويحاجّون دفاعًا عنها، فتأتي آيات القرآن فتقطع عليهم المحاجة وتفحمهم وتلزمهم بالتسليم لها، يقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٩ ـ ٥٢].

يقول الإمام ابن القيِّم رحمه الله: «فتأمل ما أجيبوا به عن كل سؤال على التفصيل، فإنهم قالوا أولًا: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا﴾ فقيل لهم في جواب هذا السؤال: إن كنتم تزعمون أنه لا خالق

لكم ولا رب، فهلّا كنتم خلقًا جديدًا لا يفنيه الموت كالحجارة والحديد أو ما هو أكبر في صدوركم من ذلك.

فإن قلتم: لنا رب خالق خلقنا على هذه الصفة وأنشأنا هذه النشأة التي لا تقبل البقاء، ولم يجعلنا حجارة ولا حديدًا، فقد قامت عليكم الحجة بإقراركم. فما الذي يحول بين خالقكم ومنشئكم وبين إعادتكم خلقًا جديدًا؟

وللحجة تقرير آخر وهو أنكم لو كنتم من حجارة أو حديد أو خلق أكبر منهما، لكان قادرًا على أن يفنيكم ويحيل ذواتكم وينقلها من حال إلى حال، ومن قدر على التصرف في هذه الأجسام مع صلابتها وشدتها بالإفناء والإحالة ونقلها من حال إلى حال فما يعجزه عن التصرف فيما هو دونها بإفنائه وإحالته ونقله من حال إلى حال.

فأخبر سبحانه أنهم يسألون سؤالًا آخر بقولهم: من يعيدنا إذا استحالت أجسامنا وفنيت؟ فأجابهم بقوله: ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥١] وهذا الجواب نظير جواب قول السائل: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]، فلما أخذتهم الحجة ولزمهم حكمها انتقلوا إلى سؤال آخر يتعللون به كما يتعلل المقطوع بالحجاج بذلك وهو قولهم: ﴿مَتَىٰ هُوَ﴾ فأجيبوا بقوله: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥١، ٥٢][١].

فتأمل ما في هذه المناظرة البديعة من دقة في التسلسل والتدرج لإلزام الخصم، فتدرج ﷺ مع أولئك الجاحدين فألزمهم بالإقرار بالخالق سبحانه من خلال شبهتهم، بما طرح عليهم من مقترح فاعترفوا أنهم غير

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة (١/ ١٩٣).

قادرين على التحكم في خلقهم، وأن لهم خالقًا خلقهم على تلك الهيئة، فلزمهم الإقرار بالخالق ﷻ، فإذا أقروا بذلك، لزمهم الإقرار بأن من خلق هذا الخلق وبدأه وأنشأه؛ هيِّن عليه إعادته مرة أخرى، وبذلك تقوم الحجة عليهم بأحسن تقرير، وينقطع أولئك الجاحدون المعاندون.

المناظرة الثانية: مناظرة اليهود لتقديمهم الهوى على الحق:

اليهود قوم أهل هوى يقدمون ما تمليه إليه أهواؤهم على الحق الذي يجب اتباعه، وهذا معلوم من سيرتهم، فكلما شقَّ عليهم في دينهم شيء تحايلوا عليه وبحثوا عن أي سبيل للخلاص منه مهما كانت بشاعته، فأنكر الله ﷻ عليهم فعلتهم. يقول ابن القيِّم رحمه الله - متحدثًا عن المناظرت - في قوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ إلى قوله: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥ - ٨٧].

يقول رحمه الله: «فهذا هو الذي تسميه النظَّار والفقهاء التشهي والتحكم، فيقول أحدهم لصاحبه: لا حجة لك على ما ادعيت سوى التشهي والتحكم الباطل، فإن جاءك ما لا تشتهيه دفعته ورددته. وإن كان القول موافقًا لما تهواه وتشتهيه إما من تقليد من تعظمه، أو موافقة ما تريده قبلته وأجزته فترد ما خالف هواك، وتقبل ما وافق هواك. وهذا الاحتجاج والذي قبله مفحمان(١) للخصم لا جواب له وعليهما البتة، فإن الأخذ ببعض الكتاب يوجب الأخذ بجميعه والتزام بعض شرائعه يوجب التزام جميعها، ولا يجوز أن تكون الشرائع تابعة الشهوات، إذ لو كان

(١) يقصد بذلك ما ورد في الآيات السابقة، وهو قوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥].

الشرع تابعًا للهوى والشهوة لكان في الطباع ما يغني عنه، وكانت شهوة كل أحد وهواه شرعًا له: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]»[1].

فانظر كيف أفحمت هذه الحجة أولئك القوم، فانقطعوا وخنعوا لما وصفوا به؛ لأنه لا سبيل لهم إلى نقض هذه الدعوى، وهم يرون ما استدل الله به عليهم من تذكيرهم بتاريخهم وأفعالهم، ولا مبرر لهم ارتكابهم تلك الأعمال.

المناظرة الثالثة: مناظرة جرت بين المؤمنين والمنافقين:

خطر المنافقين على المؤمنين خطر عظيم، ولهذا دائمًا ما يحذر القرآن الكريم منهم ومما انطوت عليه سرائرهم، من عداوة للإسلام وأهله، فكيدهم خفي لا يظهر للناس، وربما كانت أعمالهم منطلقة من دعوى الإصلاح، وفي حقيقتها هي معاول هدم مزخرفة، فإذا تفطن لهم المؤمنون وزجروهم عن فعلهم ادَّعوا الإصلاح، فقطع الله تعالى عليهم تلك الدعوى، وفضحهم وأظهر حقيقتهم، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ [البقرة: ١١، ١٢].

يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ معلقًا على هذه المناظرة: «فهذه مناظرة جرت بين المؤمنين والمنافقين. فقال لهم المؤمنون: لا تفسدوا في الأرض، فأجابهم المنافقون بقولهم: إنما نحن مصلحون، فكأن المناظرة انقطعت بين الفريقين، ومنع المنافقون ما ادعى عليهم أهل الإيمان من كونهم مفسدين وإن ما نسبوهم إليه إنما هو صلاح لا فساد. **فحكم العزيز**

---

(١) بدائع الفوائد (٤/٩١٨).

الحكيم بين الفريقين بأن أسجل على المنافقين أربع إسجالات:

أحدها: تكذيبهم، **والثاني**: الإخبار بأنهم مفسدون، **والثالث**: حصر الفساد فيهم بقوله: هم المفسدون، **والرابع**: وصفهم بغاية الجهل، وهو أنه لا شعور لهم البتة بكونهم مفسدين، وتأمل كيف نفى الشعور عنه في هذا الموضع، ثم نفى عنهم العلم في قولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ فقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣]، فنفى علمهم بسفههم وشعورهم بفسادهم، وهذا أبلغ ما يكون من الذم والتجهيل أن يكون الرجل مفسدًا، ولا شعور له بفساده البتة مع أن أثر فساده مشهور في الخارج مرئي لعباد الله وهو لا يشعر به، وهذا يدل على استحكام الفساد في مداركه وطرق علمه.

وكذلك كونه سفيهًا، والسفه غاية الجهل، وهو مركب من عدم العلم بما يصلح معاشه ومعاده وإرادته بخلافه، فإذا كان بهذه المنزلة، وهو لا يعلم بحاله كان من أشقى النوع الإنساني، فنفى العلم عنه بالسفه الذي هو فيه متضمن لإثبات جهله ونفي الشعور عنه بالفساد الواقع منه متضمن لفساد آلات إدراكه. فتضمنت الآيتان الإسجال عليهم بالجهل، وفساد آلات الإدراك، بحيث يعتقدون الفساد صلاحًا والشر خيرًا»[١].

فتأمل ما حملته هذه المناظرة من تقريع الخصم وتوبيخه، وفضحه وبيان حقيقة أمره، وقلب الحجة عليه، بأوجز عبارة، وأتم معنى.

ومن تأمل أسرار مناظرات القرآن وجدها مفصحةً عن عظمة هذا الكتاب دالة على إعجازه وقوة حجته يقول الإمام ابن القيِّم: «وإذا تأملت

(١) بدائع الفوائد (٤/ ٩٠٦).

القرآن وتدبرته وأعرته فكرًا وافيًا اطلعت فيه من أسرار المناظرات، وتقرير الحجج الصحيحة، وإبطال الشبه الفاسدة، وذكر النقض والفرق والمعارضة والمنع على ما يشفي ويكفي لمن بصره الله وأنعم عليه بفهم كتابه»(١).

❁ ❁ ❁

(١) بدائع الفوائد (٤/ ٩٠٦).

المَبْحَثُ ٱلْخَامِسُ
الإعجاز في أسلوب الترغيب والترهيب في القرآن الكريم عند ابن القيِّم

ويشتمل على مطلبين:

- **المطلب الأول: الترغيب في الجنة والترهيب من النار.**
- **المطلب الثاني: الترغيب في الأعمال الصالحة والترهيب من الأعمال السيئة.**

* * *

المَطْلَبُ ٱلْأَوَّلُ
الترغيب في الجنة والترهيب من النار

جبلت النفس الإنسانية على حب الثواب والرغبة فيه، والخوف من العقاب والرهبة منه، وهذه صفة ملازمة للإنسان يشترك فيها كل البشر، فمن السهل التأثير على الإنسان من خلال تحبيبه وإغرائه بمصلحة أو لذة أو متعة آجلة مؤكدة، مقابل القيام بعمل ما أو الامتناع عنه، ومن السهل التأثير عليه من خلال ترهيبه وتهديده بعقوبة إذا امتنع عن القيام بعمل طلب منه، أو اقترف ذنبًا نهي عنه.

بل هو سلوك تربوي ناجع، يقمع أهواء النفس البشرية، ويطوعها لما يطلب منها تنفيذه أو الابتعاد عنه.

إن الترغيب والترهيب من الأساليب القرآنية التربوية الفريدة، يقوم

على معالجة النفس البشرية بتشويقها لما تحبه من الخير، والأمن والسلامة مما تكرهه وتحذره من الشر[١].

«والأصل في الترغيب أن يكون في نيل رضا الله ورحمته وجزيل ثوابه في الآخرة. وأن يكون الترهيب بالتخويف من غضب الله وعذابه الأليم في الآخرة»[٢].

واتبع القرآن الكريم في ذلك طريقة التصوير الدقيقة الرائعة، التي تتلذذ بها الأسماع، وتتوق لتحصيلها النفوس؛ فهو يعبر عن مشاهد القيامة المتخيلة في الذهن، ويصف الحالة النفسية لأهل ذلك الموقف، ويصور المشاهد والأحداث؛ فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حيٌّ وكأنه يعيش تلك الأحداث، متأثرًا بها أيما تأثر[٣]، ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، فإذا رسم القرآن مشاهد القيامة، وصور ذلك النعيم الذي أعده الله لأوليائه، وما أعده الله ﷻ لأعدائه من العذاب العظيم، تاقت النفوس لذلك النعيم، وارتاعت من ذكر ذلك العذاب العظيم، فامتثلت الأوامر واجتنبت النواهي طوعًا.

فأضاف هذا الأسلوب البديع إلى النفس المؤمنة وازعًا دينيًا قويًا، أصبح دافعًا لكثير من المسلمين في البحث عن ما يرضي الله ﷻ، والابتعاد عن ما يجلب ويقرب من سخط الله تعالى، ويرتقي هذا الأسلوب بالفرد المسلم من مجرد النظر في الثواب والعقاب، إلى البحث

---

(١) انظر: التربية القرآنية في سورة النور (ص٢٨١).
(٢) أسلوب القرآن الكريم بين الهداية والإعجاز (ص١٢٩).
(٣) التصوير الفني في القرآن (ص٣٦). «بتصرف».

عن الأوامر لاتباعها، والتعرف على النواهي لاجتنابها؛ طلبًا لرضا الله تبارك وتعالى: إذ إنَّ الترغيب والترهيب تشتد حاجة العبد إليه إذا ضعفت إنابته، وإلا إذا قويت إنابته كانت حاجته إلى معرفة الأمر والنهي أشد، يقول الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنما يشتد افتقار العبد إلى العظة - وهي الترغيب والترهيب - إذا ضعفت إنابته وتذكره؛ وإلا فمتى قويت إنابته وتذكره: لم تشتد حاجته إلى التذكير والترغيب والترهيب؛ ولكن تكون الحاجة منه شديدة إلى معرفة الأمر والنهي.

والعظة يراد بها أمران: الأمر والنهي المقرونان بالرغبة والرهبة، ونفس الرغبة والرهبة. فالمنيب المتذكر: شديد الحاجة إلى الأمر والنهي، والمعرض الغافل: شديد الحاجة إلى الترغيب والترهيب، والمعارض المتكبر: شديد الحاجة إلى المجادلة.

فجاءت هذه الثلاثة في حق هؤلاء الثلاثة في قوله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]»(١).

الترغيب والترهيب منهج يسلكه كل واعظٍ ومذكرٍ بالله، مستلهمًا ذلك المنهج من أسلوب القرآن الكريم، مستشهدًا على قوله بآياته، مقتبسًا أفكاره مما ورد فيه، والإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد أبدع وأجاد في هذا الأسلوب، والسبب في ذلك يعود إلى ما كان يشغل فكر هذا العالم الكريم من الاهتمام بشأن الأمة، والحرص البالغ على إرشاد الناس إلى الحق، والتحذير من مغبة الزيغ والبعد عن سبيل الرشاد، والمتأمل في كتبه يجد ذلك منهجًا جليًا تتسم به مؤلفاته، فكلما سنحت فرصة للتذكير والوعظ، نجد ذلك الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ يطنب ويستطرد في ذلك دون استطالة أو شعور بالخروج عن الموضوع والبعد عنه؛ لما يرى في ذلك من الأهمية

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٥).

الكبرى، والواجب العظيم الذي تقع مسؤوليته على العالم، بل من شدة اهتمامه بهذا الأسلوب نجده قد أفرد مصنفات متخصصة في هذا الباب، فألَّف رَحِمَهُ اللهُ كتابًا سماه: «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح»، ساق فيه الأدلة من الكتاب والسُّنَّة التي تدل على ما أعده الله عَزَّ وَجَلَّ لعباده في الجنة من النعيم المقيم، شاحذًا الهمم للبذل والسعي في تحصيلها، مبينًا أن الفوز بها هو الفوز الأعظم، والنجاح الأكبر.

أيضًا من الكتب التي صنفها في هذا الباب: كتاب «مدارج السالكين»، وكتاب «طريق الهجرتين»، وهو في تلك الكتب كلها يسلك منهج القرآن في الترغيب والترهيب، جاعلًا من كتاب الله تعالى نموذجًا يحتذى، ومنهجًا يقتدى، مؤمنًا أن الترغيب والترهيب في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ أسلوب قد بلغ الذروة في التأثير، يقصد القلوب فيستميلها وينشطها على السعي للفوز بالنعيم، ويقرع القلوب ويحذرها من الوقوع في العذاب الأليم، بأسلوب فائق الجمال، بديع معجز يبهر العقول، ويدهش القلوب.

«كثيرًا ما يقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب في القرآن»[1]، يقول الزمخشري في الكشاف: «من عادته عَزَّ وَجَلَّ في كتابه، أن يذكر الترغيب مع الترهيب، ويشفع البشارة بالإنذار»[2].

ويقول أبو السعود رَحِمَهُ اللهُ: «من السُّنَّة السنيَّة القرآنية، شفع الوعد بالوعيد والجمع بين الترغيب والترهيب»[3]، فلا تكاد تجد ذكر الجنة في القرآن إلا ويعقبه ذكر النار، فيصور الله عَزَّ وَجَلَّ لعباده الجنة وما فيها من نعيم مقيم، وما فيها من لذائذ ومتع، وما فيها مما تشتهيه الأنفس وتلذ

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٦٣١).
(٢) الكشاف (١/ ٢٢٥).
(٣) إرشاد العقل السليم (٢/ ١٩).

الأعين، نعيم لا يشوبه كدر، ولا يعتريه نصب أو حزن، ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥].

ويصور القرآن الكريم ما يلقاه أهل النار من خزي عظيم، وكرب وعذاب أليم، لا تحتمله الأجساد، ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ﴾ [فاطر: ٣٦، ٣٧]، طعامهم فيها الزقوم، وشرابهم الحميم، ولباسهم من قطران، ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٤ ـ ١٠٨]، فانضاف إليهم العذاب النفسي إلى العذاب البدني، بما يلقونه من تقريع وتبكيت، أعاذنا الله والمسلمين منها.

يتحدث الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ عن مشهد من مشاهد ذلك اليوم العظيم، وهو عند ما يمتاز الفريقين، ويساق كلٌّ إلى مآله، معتمدًا على ما ذكره الله تعالى من وصف لذلك المشهد، فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال الله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] وقال في صفة النار: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧١] بغير واو، فقالت طائفة: هذه واو الثمانية دخلت في أبواب الجنة لكونها ثمانية، وأبواب النار سبعة فلم تدخلها الواو، وهذا قول ضعيف لا دليل عليه ولا تعرفه العرب ولا أئمة العربية وإنما هو من استنباط بعض المتأخرين[1].

---

(١) حكاه الثعلبي في تفسيره. انظر: الكشف والبيان (٨/٢٥٧).

وقالت طائفة أخرى: الواو زائدة والجواب الفعل الذي بعدها كما هو في الآية الثانية[(١)]، وهذا أيضًا ضعيف، فإن زيادة الواو غير معروف في كلامهم، ولا يليق بأفصح الكلام أن يكون فيه حرف زائد لغير معنى ولا فائدة.

وقالت طائفة ثالثة: الجواب محذوف، وقوله: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ عطف على قوله: ﴿جَآءُوهَا﴾ وهذا اختيار أبي عبيدة[(٢)] والمبرد[(٣)] والزجاج[(٤)] وغيرهم.

قال المبرد: وحذف الجواب أبلغ عند أهل العلم. قال أبو الفتح بن جني: وأصحابنا يدفعون زيادة الواو ولا يجيزونه ويرون أن الجواب محذوف للعلم به[(٥)].

بقي أن يقال: فما السر في حذف الجواب في آية أهل الجنة وذكره في آية أهل النار؟ فيقال: هذا أبلغ في الموضعين؛ فإن الملائكة تسوق أهل النار إليها وأبوابها مغلقة حتى إذا وصلوا إليها فتحت في وجوههم فيفجأهم العذاب بغتة، فحين انتهوا إليها فتحت أبوابها بلا مهلة، فإن هذا شأن الجزاء المرتب على الشرط أن يكون عقيبه، فإنها دار الإهانة والخزي، فلم يستأذن لهم في دخولها ويطلب إلى خزنتها أن يمكنوهم من الدخول، وأما الجنة فإنها دار الله ودار كرامته ومحل خواصه

---

(١) يقول ابن الجوزي: «روي عن جماعة من اللغويين منهم الفراء». انظر: زاد المسير (٧/ ١٩٩). ولم يذكر الفراء عن ذلك شيئًا في «معاني القرآن»، ومن الذين قالوا بهذا القول: الأخفش. انظر: معاني القرآن للأخفش (٢/ ٤٩٧).

(٢) انظر: مجاز القرآن (٢/ ١٩٢).

(٣) حكاه ابن الجوزي. انظر: زاد المسير (٧/ ٢٠٠).

(٤) انظر: معاني القرآن للزجاج (٤/ ٣٦٤).

(٥) انظر: الخصائص (٢/ ٤٦٢).

وأوليائه، فإذا انتهوا إليها صادفوا أبوابها مغلقة، فيرغبون إلى صاحبها ومالكها أن يفتحها لهم، ويستشفعون إليه بأولي العزم من رسله، وكلهم يتأخر عن ذلك حتى تقع الدلالة على خاتمهم وسيدهم وأفضلهم فيقول: أنا لها، فيأتي إلى تحت العرش ويخر ساجدًا لربه فيدعه ما شاء الله أن يدعه، ثم يأذن له في رفع رأسه وأن يسأله حاجته، فيشفع إليه سبحانه في فتح أبوابها فيشفعه ويفتحها تعظيمًا لخطرها، وإظهارًا لمنزلة رسوله وكرامته عليه...»[(١)].

ومما يذكر العلماء في معنى الآية: «إن زيادة الواو دليل على أن الأبواب فتحت لهم قبل أن يأتوا، لكرامتهم على الله تعالى، والتقدير: حتى إذا جاؤوها وأبوابها مفتحة، بدليل قوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ [ص: ٥٠] وحذف الواو في قصة أهل النار؛ لأنهم وقفوا على النار وفتحت بعد وقوفهم إذلالًا وترويعًا لهم»[(٢)].

فتأمل قوة أسلوب القرآن الكريم في وصف ذلك المشهد العظيم، وكيف خاطب هؤلاء باللين، وخاطب أولئك بالشدة والقسوة، مع أن الفرق من حيث اللفظ حرف واحد، وهذا من تمام إعجاز هذا الكتاب الكريم، وقوة أسلوبه.

ثم يستمر الإمام ابن القيّم رحمه الله في وصف ذلك المشهد فيقول: «وتأمل ما في سوق الفريقين إلى الدارين زمرًا[(٣)] من فرحة هؤلاء

---

(١) حادي الأرواح (ص٨٢).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٨/٣١٨)، وقال بهذا القول جمع من المفسرين منهم: الزجاج انظر: معاني القرآن (٤/٣٦٤)، والنحاس انظر: إعراب القرآن (٤/٢٣)، والزمخشري انظر: الكشاف (٥/٣٢٥)، وابن الجوزي انظر: زاد المسير (٧/٢٠٠)، والرازي في تفسيره انظر: (٢٧/٢٣). وغيرهم.

(٣) زمرًا أي: جماعات. انظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة (٢/١٩١).

بإخوانهم وسيرهم معهم كل زمرة على حدة، مشتركين في عمل، متصاحبين فيه على زمرتهم وجماعتهم، مستبشرين، أقوياء القلوب كما كانوا في الدنيا وقت اجتماعهم على الخير، كذلك يؤنس بعضهم بعضًا ويفرح بعضهم ببعض، وكذلك أصحاب الدار الأخرى يساقون إليها زمرًا يلعن بعضهم بعضًا، ويتأذى بعضهم ببعض، وذلك أبلغ في الخزي والفضيحة والهتيكة من أن يساقوا واحدًا واحدًا، فلا تهمل تدبر قوله: ﴿زُمَرًا﴾ وقال خزنة أهل الجنة لأهلها: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ [الزمر: ٧٣] فبدؤهم بالسلام المتضمن للسلامة من كل شر ومكروه؛ أي: سلمتم فلا يلحقكم بعد اليوم ما تكرهون، ثم قالوا لهم ﴿طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]؛ أي: سلامتكم ودخولها بطيبكم، فإن الله حرمها إلا على الطيبين، فبشروهم بالسلامة والطيب والدخول والخلود.

وأما أهل النار فإنهم لما انتهوا إليها على تلك الحال من الهم والغم والحزن وفتحت لهم أبوابها وقفوا عليها، وزيدوا على ما هم عليه توبيخ خزنتها وتبكيتهم لهم بقولهم: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ﴾ [الزمر: ٧١] فاعترفوا، وقالوا: بلى، فبشروهم بدخولها والخلود فيها وإنها بئس المثوى لهم»[١].

فانظر إلى الفرق بين الفريقين، فريق يدعى بلطف ويستقبل بحفاوة واستهلال، وفريق يستقبل بالتقريع، والتوبيخ، والتبكيت، ويسجل عليهم استحقاقهم للعذاب باعتراف أنفسهم، وانظر إلى ما في ذلك من الصغار والذل والإذعان، فموقفهم موقف إذعان وتسليم تام[٢].

ثم ينتقل ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ لبيان السر البديع في قول الملائكة لأهل

---

(١) حادي الأرواح (ص٨٣ ـ ٨٤).

(٢) انظر: مشاهد القيامة لسيد قطب (ص١٧٠).

الجنة: ﴿فَادْخُلُوهَا﴾ [الزمر: ٧٣] وقولهم لأهل النار: ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ [غافر: ٧٦] فيقول رحمه الله: «وتأمل قول خزنة الجنة لأهلها: ﴿فَادْخُلُوهَا﴾ وقول خزنة النار لأهلها: ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ تجد تحته سرًّا لطيفًا ومعنى بديعًا لا يخفى على المتأمل، وهو أنها لما كانت دار العقوبة وأبوابها أفظع شيء وأشده حرًّا وأعظم غمًّا يستقبل فيها الداخل من العذاب ما هو أشد منها، ويدنو من الغم والخزي والكرب بدخول الأبواب، فقيل: ادخلوا أبوابها، صغارًا لهم وإذلالًا وخزيًا، ثم قيل لهم: لا يقتصر بكم على مجرد دخول الأبواب الفظيعة ولكن وراءها الخلود في النار.

وأما الجنة فهي دار الكرامة والمنزل الذي أعده الله لأوليائه فبشروا من أول وهلة بالدخول إلى المقاعد والمنازل والخلود فيها.

وتأمل قوله سبحانه: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ [ص: ٥٠، ٥١] كيف تجد تحته معنى بديعًا؛ وهو أنهم إذا دخلوا الجنة لم تغلق أبوابها عليهم بل تبقى مفتحة كما هي[١]. وأما النار فإذا دخلها أهلها أغلقت عليهم أبوابها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ [الهمزة: ٨]؛ أي: مطبقة مغلقة، ومنه سمي الباب وصيدًا، وهي ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ [الهمزة: ٨، ٩] وقد جعلت العمد ممسكة للأبواب من خلفها كالحجر العظيم الذي يجعل خلف الباب.

قال مقاتل: «يعني: أبوابها عليهم مطبقة فلا يفتح لها باب، ولا يخرج منها غم، ولا يدخل فيها روح آخر الأبد»[٢]، وأيضا فإن في تفتيح الأبواب لهم إشارة إلى تصرفهم وذهابهم وإيابهم وتبوئهم في الجنة

---

(١) انظر: معاني القرآن للفراء (٢/ ٤٠٨)، وانظر: معاني القرآن للزجاج (٤/ ٣٣٧).
(٢) انظر: زاد المسير (٩/ ١٣٦).

حيث شاؤوا، ودخول الملائكة عليهم كل وقت بالتحف والألطاف من ربهم، ودخول ما يسُرُّهم عليهم كل وقت. وأيضا إشارة إلى أنها دار أمن لا يحتاجون فيها إلى غلق الأبواب كما كانوا يحتجون إلى ذلك في الدنيا»[١].

ثم يبيِّن الله ﷻ عظيم سعادة أهل الجنة بنجاتهم، وبما وجدوه من صدق وعد ربهم فيقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

وبهذا يختتم المشهد بما يلقي في النفس من رغبة ورهبة، وجلال ومهابة، تاركًا في النفس المؤمنة الأثر البالغ، والحرص الشديد على الفوز بذلك النعيم، والحرص الشديد في النجاة من ذلك العذاب الأليم[٢].

المطلب الثاني

الترغيب في الأعمال الصالحة والترهيب من الأعمال السيئة

سلك القرآن الكريم كل طريقة تحقق هداية الخلق، وتخرجهم من الظلمات إلى النور، بأسلوب يأسر الأفئدة، ويقنع العقول فتذعن له، بيَّن للبشر الأعمال الموصلة إلى النجاة، مذكرًا لهم بجزيل ثوابها، والأعمال التي تكون سببًا في الهلاك، وذكرهم بعظيم عقابها، ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

وطريقته في إيضاح تلك الأعمال، طريقة تدل على عظمة هذه

(١) حادي الأرواح (ص٨٤).

(٢) راجع: مشاهد القيامة لسيد قطب (ص١٧٠).

الشريعة، وعلى عظمة هذا الكتاب، دليل لا يشوبه شك أنه كلام رب العالمين، ودليل على أن هذا الكتاب منبع هداية وإرشاد، يقصد هداية البشر كلهم، فعندما كانت تصدر أعمال حسنة أو أخرى سيئة من أناس معينين؛ كانت تنزل آيات القرآن عامة، يشترك في ثواب تلك الأعمال الحسنة كل من قام بها إلى يوم الدين، وكذلك الأعمال السيئة يحذرها ويجتنبها كل من يقرأ هذا القرآن، يقول الإمام ابن القيِّم رحمه الله: «ومن تأمل خطاب القرآن وألفاظه وجلالة المتكلم به وعظمة ملكه وما أراد به من الهداية العامة لجميع الأمم قرنًا بعد قرن إلى آخر الدهر وأنه جعله إنذارًا لكل من بلغه من المكلفين لم يخف عليه أن خطابه العام إنما جعل بإزاء أفعال حسنة محمودة، وأخرى قبيحة مذمومة، وأنه ليس منها فعل إلا والشركة فيه موجودة أو ممكنة، وإذا كانت الأفعال مشتركة كان الوعد والوعيد المعلق بها مشتركًا ألا ترى أن الأفعال التي حكيت عن أبي جهل بن هشام والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وأضرابهم وعن عبد الله بن أبي وأضرابه كان لهم فيها شركاء كثيرون حكمهم فيها حكمهم.

ولهذا عدل الله سبحانه عن ذكرهم بأسمائهم وأعيانهم إلى ذكر أوصافهم وأفعالهم وأقوالهم، لئلا يتوهم متوهم اختصاص الوعيد بهم، وقصره عليهم، وأنه لا يجاوزهم فعلق سبحانه الوعيد وقصره عليهم...

وهكذا الحكم فيمن أثنى عليه ومدحه بما صدر منه من قول أو فعل عدل سبحانه عن ذكره باسمه وعينه إلى ذكره بوصفه وفعله ليتناول المدح لمن شركه في ذلك من سائر الناس»[1].

إن ثواب الأعمال المحمودة الذي ذكر في القرآن يدل على رب

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٧٠٤).

كريم رحيم، لا يسع كرمه وفضله شيء، يجزل العطاء لمن امتثل أمره، فإذا علمت النفوس المؤمنة ذلك؛ تسابقت إلى فعل الخير، بمضاء ودون تقاعس.

وإذا تأمل المؤمن جزاء السيئة في القرآن، يرى تمام عدل الله ﷻ فيدفعه ذلك إلى الحياء من ربه، وعدم السعي في مواطن الزلل، ويفتح له باب الرجاء، والإنابة والعودة إلى الله إن صدرت منه سيئة، دون قنوط أو يأس من رحمة الله. قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

ومن نماذج الثواب في القرآن، ثواب الإنفاق في سبيل الله، فقد حثَّ القرآن على هذا العمل النبيل، وقتل طمع النفوس، وصوَّر أروع صور الثواب، ليجعل من المؤمن إنسانًا باذلًا كريمًا، غير آبه بالأهواء الإنسانية من حب المال، وجمعه، وادخاره، بل جعله يبذله في وجوه الخير راضية بها نفسه، منشرحٌ بها صدره.

لا شك أن الأسلوب الذي استطاع أن يزيل تلك الصفات الإنسانية أسلوب عظيم، يحتاج إلى تأمل وتدبر، وقد جمع الإمام ابن القيِّم رحمه الله جملة من الآيات التي تحث على الإنفاق؛ في كتابه: «طريق الهجرتين»، وتحدث عن طريقة القرآن في الترغيب في ذلك العمل النبيل[١]، موضحًا جلالة ذلك الأسلوب وجماله، **فنذكر أولًا الآيات التي تحدث عنها ثم نورد كلامه عليها:**

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١٨].

---

(١) ذكر ابن القيِّم رحمه الله عددًا من الآيات القرآنية التي تحث على الإنفاق، وما سيأتي جزء من كلامه عنها. وللاستزادة راجع: طريق الهجرتين (٢/ ٧٨٩ ـ ٨٢٤).

وقال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وقال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١].

يقول الإمام ابن القيِّم: «فصدر سبحانه الآية بألطف أنواع الخطاب، وهو الاستفهام المتضمن لمعنى الطلب، وهو أبلغ في اللطف من صيغة الأمر. والمعنى: هل أحد يبذل هذا القرض الحسن، فيجازى عليه أضعافًا مضاعفة؟

وسمَّى ذلك الإنفاق قرضًا حسنًا حثًّا للنفوس وبعثًا لها على البذل؛ لأن الباذل متى علم أن عين ماله يعود إليه ولا بد، طوعت له نفسه بذله، وسهل عليه إخراجه. فإن علم أن المستقرض مليٌّ وفيٌّ محسن كان أبلغ في طيب قلبه وسماحة نفسه. فإن علم أن المستقرض يتجر له بما اقترضه، وينميه له، ويثمره حتى يصير أضعاف ما بذله، كان بالقرض أسمح وأسمح. فإن علم أنه مع ذلك كله يزيده من فضله وعطائه أجرًا آخر من غير جنس القرض، وأن ذلك الأجر حظٌّ عظيم وعطاء كريم، فإنه لا يتخلف عن قرضه إلا لآفة في نفسه من البخل والشح أو عدم الثقة بالضمان، وذلك من ضعف إيمانه؛ ولهذا كانت الصدقة برهانًا لصاحبها.

وهذه الأمور كلها تحت هذه الألفاظ التي تضمنتها الآية، فإنه سماه قرضًا، وأخبر أنه هو المقترض لا قرض حاجة ولكن قرض إحسان إلى المقرض، واستدعاء لمعاملته ليعرف مقدار الربح، فهو الذي أعطاه ماله، واستدعى منه معاملته به. ثم أخبر عما يرجع إليه بالقرض وهو الأضعاف المضاعفة. ثم أخبر عما يعطيه فوق ذلك من الزيادة، وهو الأجر الكريم.

وحيث جاء هذا الإقراض في القرآن قيده بكونه حسنًا، **وذلك يجمع أمورًا ثلاثة**: **أحدها**: أن يكون من طيب ماله، لا من رديئه وخبيثه. **الثاني**: أن يخرجه طيبة به نفسه، ثابتة عند بذله، ابتغاء مرضاة الله. **الثالث**: أن لا يمن به ولا يؤذي[(١)]. فالأول يتعلق بالمال، والثاني يتعلق بالمنفق بينه وبين الله، والثالث بينه وبين الآخذ»[(٢)].

ثم تشتاق النفوس لمعرفة ماهية تلك المضاعفة، لتزداد إيمانًا إلى إيمانها، ويزيد بذلها وعطاؤها، فيضرب الله ﷻ مثلًا يبيِّن كيفية تلك المفاضلة، ويقربها إلى العقول لتعيها فيقول الله ﷻ: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

يقول الإمام ابن القيِّم ؒ: «وهذه الآية كأنها كالتفسير والبيان لمقدار الأضعاف التي يضاعفها للمقرض، ومثله سبحانه بهذا المثل إحضارًا لصورة التضعيف في الأذهان بهذه الحبة التي غيبت في الأرض، فأنبتت سبع سنابل، في كل سنبلة مائة حبة، حتى كأن القلب ينظر إلى هذا التضعيف ببصيرته، كما تنظر العين إلى هذه السنابل التي هي من الحبة الواحدة. فينضاف الشاهد العياني إلى الشاهد الإيماني القرآني، فيقوى إيمان المنفق، وتسخو نفسه بالإنفاق.

وتأمل كيف جمع السنبلة في هذه الآية على سنابل، وهي من جموع الكثرة، إذ المقام مقام تكثير وتضعيف؛ وجمعها على سنبلات في

---

(١) يقول ابن الجوزي: «**وفي معنى القرض الحسن ستة أقوال**: **أحدها**: أنه الخالص لله، قاله الضحاك، **والثاني**: أن يخرج عن طيب نفس، قاله مقاتل، **والثالث**: أن يكون حلالًا، قاله ابن المبارك. **والرابع**: أن يحتسب عند الله ثوابه، **والخامس**: أن لا يتبعه منًّا ولا أذى، **والسادس**: أن يكون من خيار المال». **انظر**: زاد المسير (١/ ٢٩٠).

(٢) طريق الهجرتين (٢/ ٧٩٠ ـ ٧٩١).

قوله: ﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ [يوسف: ٤٣] فجاء بها على جمع القلة؛ لأن السبعة قليلة، ولا مقتضى للتكثير.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١]. قيل: المعنى والله يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء، لا لكل منفق، بل يختص برحمته من يشاء. وذلك لتفاوت أحوال الإنفاق في نفسه، وفي صفات المنفق وأحواله، في شدة الحاجة وعظيم النفع وحسن الموقع. وقيل: والله يضاعف لمن يشاء فوق ذلك، فلا يقتصر به على السبعمائة، بل يجاوز في المضاعفة هذا المقدار إلى أضعاف كثيرة.

واختلف في تقدير الآية فقيل: مثل نفقة الذين ينفقون في سبيل الله كمثل حبة. وقيل: مثل الذين ينفقون في سبيل الله كمثل باذر حبة، ليطابق الممثل للممثل به. فهنا أربعة أمور: منفق، ونفقة، وباذر، وبذر، فذكر سبحانه من كل شق أهم قسميه، فذكر من شق الممثل المنفق، إذ المقصود ذكر حاله وشأنه؛ وسكت عن ذكر النفقة لدلالة اللفظ عليها. وذكر من شق الممثل به البذر إذ هو المحل الذي حصلت فيه المضاعفة، وترك ذكر الباذر لأن الغرض لا يتعلق بذكره. فتأمل هذه البلاغة والفصاحة والإيجاز المتضمن لغاية البيان. وهذا كثير في أمثال القرآن، بل عامتها ترد على هذا النمط.

ثم ختم الآية باسمين من أسمائه الحسنى مطابقين لسياقها، وهما: «الواسع والعليم». فلا يستبعد العبد هذه المضاعفة، ولا يضيق عنها عَطَنُه، فإن المضاعف سبحانه واسع العطاء، واسع الغنى، واسع الفضل. ومع ذلك فلا يظنَّ أنَّ سعة عطائه تقتضي حصولها لكل منفق، فإنه عليم بمن تصلح له هذه المضاعفة وهو أهل لها، ومن لا يستحقها ولا هو أهل لها؛ فإن كرمه سبحانه وفضله لا يناقض حكمته، بل يضع

فضله مواضعه بسعته ورحمته، ويمنعه من ليس من أهله بحكمته وعلمه»[(١)].

ومن خلال تلك الآيات يعظم قدر الإنفاق في قلب المؤمن، ويتصور ذلك الفضل العظيم، فيسارع ويسابق إليه ويتنافس فيه، راجيًا ذلك الفضل العظيم، والثواب الجزيل.

وقد بيَّن ابن القيِّم رحمه الله ذلك من خلال الآيات بيانًا تامًّا، وتأملها تأملًا يبيِّن دقة نظره، وعمق فهمه لهذا الأسلوب القرآني البديع، الذي يسلب العقول، ويزرع المبادئ في النفس، فتثمر التطبيق والعمل.

ولما كانت النفوس مجبولة على الحرص والمحافظة على ما كسبت، حذر القرآن من أن يصيب ذلك الربح العظيم آفة تذهبه، وتسبب لذلك المنفق بخسارة عظيمة، وبين تلك الآفات التي تصيب الإنفاق فتبطله بيانًا جليًّا واضحًا، لتحذر النفوس تلك الآفات، وتصون أعمالها من خطرها. يقول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

يقول الإمام ابن القيِّم رحمه الله ـ بعد أن ذكر هذه الآية ـ: «تضمنت هذه الآية الإخبار بأن المن والأذى يحبط الصدقة، وهذا دليل على أن الحسنة قد تحبط بالسيئة...»[(٢)].

ثم يقول: «وقد يقال: إن المن والأذى المقارن للصدقة هو الذي يبطلها دون ما يلحقها بعدها، إلا أنه ليس في اللفظ ما يدل على هذا

---

(١) طريق الهجرتين (٢/ ٧٩٢ ـ ٧٩٤).
(٢) طريق الهجرتين (٢/ ٨٠٠).

التقييد، والسياق يدل على إبطالها به مطلقًا. وقد يقال: تمثيله بالمرائي الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر يدل على أن المن والأذى المبطل هو المقارن كالرياء وعدم الإيمان، فإن الرياء لو تأخر عن العمل لم يبطله.

ويجاب عن هذا بجوابين: أحدهما: أن التشبيه وقع في الحال التي يحبط بها العمل، وهي حال المرائي والمانّ المؤذي في أن كل واحد منهما يحبط العمل، **الثاني**: أن الرياء لا يكون إلا مقارنًا للعمل؛ لأنه **«فعال»** من الرؤية؛ **أي**: صاحبه يعمل ليرى الناس عمله فلا يكون متراخيًا. وهذا بخلاف المن والأذى فإنه يكون مقارنًا ومتراخيًا، وتراخيه أكثر من مقارنته.

وقوله: ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ﴾ **إما أن يكون المعنى**: كإبطال الذي ينفق، فيكون شبَّه الإبطال بالإبطال؛ **أو المعنى**: لا تكونوا كالذي ينفق ماله رئاء الناس، فيكون تشبيهًا للمنفق بالمنفق.

وقوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾؛ **أي**: مثل هذا المنفق الذي قد بطل ثواب نفقته ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ وهو الحجر الأملس. **وفيه قولان: أحدهما**: أنه واحد، **والثاني**: جمع صفوانة. ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾ وهو المطر الشديد ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾ وهو الأملس الذي لا شيء عليه من نبات ولا غيره.

وهذا من أبلغ الأمثال وأحسنها، فإنه يتضمن تشبيه قلب هذا المنفق للرياء الذي لم يصدر إنفاقه عن إيمان بالله واليوم الآخر بالحجر لشدته وصلابته وعدم الانتفاع به. وتضمن تشبيه ما علق به من أثر الصدقة بالغبار الذي علق بذلك الحجر. والوابل الذي أزال ذلك التراب عن الحجر وأذهبه بالمانع الذي أبطل صدقته وأزالها، كما يذهب الوابل التراب الذي على الحجر فيتركه صلدًا؛ فلا يقدر المنفق على شيء من ثوابه لبطلانه وزواله.

وفيه معنى آخر، وهو أن المنفق لغير الله هو في الظاهر عامل عملًا يرتب عليه الأجر ويزكو له كما تزكو الحبة التي إذا بذرت في التراب الطيب أنبتت سبع سنابل، في كل سنبلة مائة حبة. ولكن وراء هذا الإنفاق مانع يمنع من نموه وزكائه، كما أن تحت التراب حجرًا يمنع من نبات ما يبذر من الحب فيه، فلا ينبت ولا يخرج شيئًا»[١].

ثم انتقل القرآن الكريم ليبيِّن للعبد المحافظة الكاملة على العمل الصالح، ليرسم له درسًا يكون نموذجًا ومنهجًا في حياته، فيبيع الحسنة بالحسنة، ويجنب السيئات التي تحبط أعماله الصالحة، يبيِّن ذلك بمثل غاية في التأثير، واصفًا ذلك الخسران وصفًا يجعل الفرد المسلم يشمئز منه، مجتنبًا لكل طريق من شأنه أن يصل به إلى تلك الحال يقول الله ﷻ: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

يقول الإمام ابن القيِّم عند تفسيره لهذه الآية: «قال الحسن: «هذا مثل قل ـ والله ـ من يعقله من الناس. شيخ كبير ضعف جسمه، وكثر صبيانه أفقر ما كان إلى جنته، وإن أحدكم ـ والله ـ أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا»[٢].

وفي صحيح البخاري عن عبيد بن عمير قال: قال عمر يومًا لأصحاب النبي ﷺ: فيم ترون هذه الآيات نزلت: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾؟ قالوا: الله أعلم. فغضب عمر، فقال: قولوا: نعلم أو

(١) طريق الهجرتين (٢/ ٨٠١).
(٢) أخرجه الطبري (٤/ ٦٧٦)، وابن أبي حاتم في التفسير رقم (٢٧٨٢) بنحوه.

لا نعلم. فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين. فقال عمر: قم يا ابن أخي ولا تحقر بنفسك. قال ابن عباس: ضربت مثلًا لعمل. قال عمر: أي عمل. قال ابن عباس: لعمل. قال عمر: لرجل عمل بطاعة الله، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله(١).

فقوله تعالى ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٦٦] أخرجه مخرج الاستفهام الإنكاري، وهو أبلغ من النفي والنهي، وألطف موقعًا؛ كما ترى غيرك يفعل فعلًا قبيحًا فتقول: أيفعل هذا عاقل؟ أيفعل هذا من يخاف الله والدار الآخرة؟

وقال: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ بلفظ الواحد لتضمنه معنى الإنكار العام، كما تقول أيفعل هذا أحد فيه خير؟ وهو أبلغ في الإنكار من أن يقال: أتودون. وقوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ﴾ أبلغ في الإنكار من لو قيل: أيريد؛ لأن محبة هذا الحال المذكورة وتمنيها أقبح وأنكر من مجرد إرادتها.

وقوله: ﴿أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ [البقرة: ٢٦٦] خص هذين النوعين من الثمار بالذكر؛ لأنهما أشرف أنواع الثمار، وأكثرها منافع فإن منهما القوت والغذاء والدواء والشراب والفاكهة والحلو والحامض، ويؤكلان رطبًا يابسًا، ومنافعهما كثيرة جدًّا... ثم قال: ﴿فَأَصَابَهَا﴾ [البقرة: ٢٦٦]؛ أي: الجنة ﴿إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ [البقرة: ٢٦٦]، ثم قال تعالى: ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ﴾ [البقرة: ٢٦٦]. هذا إشارة إلى شدة حاجته إلى جنته، **وتعلق قلبه بها من وجوه**: **أحدها**: أنه قد كبر سنه عن الكسب والتجارة ونحوها. **الثاني**: أن ابن آدم عند كبره يشتد

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، باب قوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ [البقرة: ٢٦٦] رقم (٤٥٣٨).

حرصه. **الثالث**: أن له ذرية، فهو حريص على بقاء جنته لحاجته وحاجة ذريته. **الرابع**: أنهم ضعفاء، فهم كلٌّ عليه، لا ينفعونه بقوتهم وتصرفهم. **الخامس**: أن نفقتهم عليه، لضعفهم وعجزهم. وهذا نهاية ما يكون من تعلق القلب بهذه الجنة. لخطرها في نفسها، وشدة حاجته وذريته إليها.

فإذا تصورت هذه الحال وهذه الحاجة، فكيف تكون مصيبة هذا الرجل إذا أصاب جنته إعصار، وهي الريح التي تستدير في الأرض(١)، ثم ترتفع في طبقات الجو كالعمود، وفيه نار مرت بتلك الجنة، فأحرقتها، وصيرتها رمادًا؟ فصدق والله الحسن: «هذا مثل قلَّ من يعقله من الناس»(٢).

ولهذا نبَّه سبحانه على عظم هذا المثل، وحدا القلوب إلى التفكر فيه لشدة حاجتها إليه فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٦]. فلو فكر العاقل في هذا المثل وجعله قبلة قلبه لكفاه وشفاه. فهكذا العبد إذا عمل بطاعة الله ثم أتبعها بما يبطلها ويفرقها من معاصي الله، كانت كالإعصار ذي النار المحرق للجنة التي غرسها بطاعته وعمله الصالح.

... فلو تصور العامل بمعصية الله بعد طاعته هذا المعنى حق تصوره، وتأمله كما ينبغي، لما سوَّلت له نفسه ـ والله ـ إحراق أعماله الصالحة وإضاعتها. ولكن لا بد أن يغيب عنه علمه عند المعصية ولهذا استحق اسم الجهل، فكل من عصى الله فهو جاهل.

---

(١) قال الزجاج: «الإعصار الرياح التي تهب من الأرض كالعمود إلى نحو السماء وهي التي تُسَمِّيها الناس الزَّوْبَعَة، وهي ريح شديدة، لا يقال إنها إعْصارٌ حتى تَهُبّ بشدة». انظر: معاني القرآن للزجاج (١/ ٣٤٩).

(٢) مرَّ تخريجه قبل قليل.

. . . وتأمل كيف ضرب سبحانه المثل للمنفق المرائي ـ الذي لم يصدر إنفاقه عن الإيمان ـ بالصفوان الذي عليه التراب، فإنه لم ينبت شيئًا أصلًا، بل ذهب بذره ضائعًا، لعدم إيمانه وإخلاصه. ثم ضرب المثل لمن عمل بطاعة الله مخلصًا بنيته لله، ثم عرض له ما أبطل ثوابه، بالجنة التي هي من أحسن الجنان وأطيبها وأزهرها، ثم سلط عليها الإعصار الناري فأحرقها. فإن هذا نبت له شيء وأثمر له عمله ثم احترق، والأول لم يحصل له شيء يدركه الحريق. فتبارك من جعل كلامه حياة للقلوب وشفاء للصدور وهدى ورحمة»[(١)].

ويكتمل بهذا أسلوب الترغيب في العمل الصالح، ويكتمل التحذير والترهيب من خسران ذلك العمل الصالح، فيرتقي القرآن الكريم بالفرد المسلم في درجات الفلاح، بمنهج تربوي راقٍ، لا يعتريه نقص أو خلل، مقنع غاية الإقناع، يحول دون النفس وأهوائها، ويشحذ الهمم لتحصيل ثواب الأعمال الصالحة، والبعد والحذر من الوقوع في الأعمال السيئة التي من شأنها إضاعة تلك الأعمال، بانيًا مجتمعًا مسلمًا محافظًا، ملتزمًا بتعاليم هذا الدين الحنيف وقيمه السامية، جاعلًا رضا الله ﷻ غايته العظمى، وقضيته الكبرى.

❁ ❁ ❁

(١) طريق الهجرتين (٢/٨٠٦ ـ ٨١٢).

البَابُ الثَّالِثُ

ابن القيِّم بين التأثر والتأثير وموقفه من المخالفين في إعجاز القرآن الكريم

ويشتمل على ثلاثة فصول:

- الفصل الأول: تأثر ابن القيِّم في مسائل الإعجاز بالعلماء السابقين.
- الفصل الثاني: تأثير ابن القيِّم في مسائل الإعجاز على العلماء بعده.
- الفصل الثالث: رد ابن القيِّم على المخالفين في الإعجاز

الْفَصْلُ الْأَوَّلُ

تأثر ابن القيِّم في مسائل الإعجاز بالعلماء السابقين

ويشتمل على مبحثين:

- المبحث الأول: تأثر ابن القيِّم في مسائل الإعجاز بالمفسرين.
- المبحث الثاني: تأثر ابن القيِّم في مسائل الإعجاز بأهل اللغة.

المَبْحَثُ الأَوَّلُ

تأثر ابن القيِّم في مسائل الإعجاز بالمفسرين

طالع الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ كتب التفسير، وتأثَّر بمؤلفيها على اختلاف اهتماماتهم في تفاسيرهم، وكان تأثُّره تبعًا لما يشتهر به ذلك المفسر، ولما يعدُّ سمةً بارزةً على منهجه، فمثلًا في ما يختص بالتفسير المأثور، نجد الإمام ابن القيِّم يعتمد على تفسير الطبري وينقل عنه ويستفيد منه، وكذلك تفسير ابن أبي حاتم... أما في ما يختص بجوانب الإعراب والمعاني، فنلحظ أنَّه ينقل عن الكتب التي تميَّزت بذلك أمثال كتب معاني القرآن وأعاريبه.

وهكذا يسير الإمام ابن القيِّم حسب ما تميَّز به كل تفسير، فيأخذ عنه ويستفيد منه.

وأمَّا ما يختص بمسائل إعجاز القرآن وبيان نظمه وفصاحته، فإنَّ الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ قد اهتمَّ برأي بعض علماء التفسير، وتأثَّر ببعضهم، ونقل عن البعض الآخر؛ فممن تأثَّر الإمام ابن القيِّم به تأثّرًا واضحًا: تفسير الزمخشري ـ لكن هذا التأثر ليس على إطلاقه، ولا يمكن أن يقال: إن ابن القيِّم تأثر بالزمخشري تأثرًا مطلقًا، بل من المعروف عقيدة الزمخشري، ونعلم حرص ابن القيِّم على صفاء العقيدة؛ وإنما كان هذا التأثر محصورًا في جانب البيان والبلاغة، وكان ذلك على حذر ويقظة من ابن القيِّم كما سياتي ـ، وممن استفاد منهم الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ ونقل عنهم في هذا الشأن: الإمام ابن عطيَّة، والإمام الرازي

رحمهما الله، فإنَّ مسائل البيان المنقولة من كتب التفسير عند ابن القيِّم، أغلبها من هذه التفاسير.

والشأن في ما يختص بهذا الموضوع هو توضيح التأثُّر الذي حصل لابن القيِّم من خلال بحثه لإعجاز القرآن، أمَّا النقل في بعض الأحيان، فهذا لا يعد تأثرًا؛ لأنَّه لا يدلُّ على انطباعٍ وتقفٌّ للمنهج الذي سار عليه ذلك المفسر.

من خلال هذا ندرس تأثُّر ابن القيِّم بالزمخشري؛ لأنَّ تفسيره كان له أثرٌ واضحٌ على ابن القيِّم.

• تأثر ابن القيِّم بالزمخشري:

يعدُّ تفسير الزمخشري مرجعًا مهمًّا في ما يختص بمسائل البيان، وله في ذلك آراء قوية، ودراسةٌ وبحثٌ مستفيض، والإمام ابن القيِّم نظر في هذا التفسير وفي طريقة مؤلفه، وطريقة عرضه لمسائل نظم القرآن وبلاغته، فتأثَّر بذلك المنهج في عمومه.

فأصبح الإمام ابن القيِّم عندما يبيِّن بلاغة آيات القرآن، يدرسها بمنهجٍ شموليٍّ من جهة الوضع النحوي، ومن جهة الدرس البلاغي، ومن جهة الألفاظ... على غرار منهج الزمخشري الذي سار عليه.

ثم لم يقتصر ذلك التأثُّر عند المنهج والطريقة العامة، إنَّما تجاوز ذلك إلى الاهتمام بنفس الجوانب التي اهتمَّ بها الزمخشري، من ذلك مثلًا دراسة أمثال القرآن، حيث يعدُّ الزمخشري مميزًا في دراسته لها، فقد لحظ الإمام ابن القيِّم ذلك التميُّز، فنحا نحوه، بل نقل ـ أحيانًا ـ كلام الزمخشري بنصِّه فمثلًا عند تفسيره للمثل في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩]، بعد أن فسَّر الإمام ابن القيِّم

المثل قال: «وقال الزمخشري: «لقائل أن يقول: شبَّه دين الإسلام بالصيِّب؛ لأنَّ القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر، وما يتعلق به من شبه الكفار بالظلمات، وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق، وما يصيب الكفرة من الأفزاع والبلايا والفتن من جهة أهل الإسلام بالصواعق، **والمعنى**: أو كمثل ذوي صيِّب والمراد: كمثل قوم أخذتهم السماء على هذه الصفة، فلقوا منها ما لقوا...».

ثم يواصل ابن القيِّم نقله عن الزمخشري فيقول: «قال: والصحيح الذي عليه علماء البيان لا يتخطَّونه أنَّ المثلين جميعًا من جهة التمثيلات المرتكبة دون المفرقة، لا يُتكلف لواحدٍ واحد شيئًا يقدر شبهه به، وهذا القول الفحل، والمذهب الجزل بيانه: أنَّ العرب تأخذ أشياء فرادى، معزولًا بعضها من بعض، لم يأخذ هذا بحجزة ذاك فتشبهها بنظائرها، كما جاء في القرآن، حيث شبَّه كيفية حاصلة من مجموع أشياء قد تضامَّت وتلاصقت حتى عادت شيئًا واحدًا بأخرى مثلها[(١)]»[(٢)].

نقل الإمام ابن القيِّم كلام الزمخشري إلى تتمته، وتأثر به في دراسته لأمثال القرآن تأثرًا واضحًا جدًّا. لكنَّ هذا التأثر من ابن القيِّم كان على حذرٍ من عقيدة الزمخشري، فإذا تبيَّن الإمام ابن القيِّم خطأً منه أشار إليه، وتوقف عنده، فمثلًا عند تفسيره للمثل في قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦]، يقول

---

(١) تفسير الزمخشري (١/ ١٩٩).

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية (ص٤٨ ـ ٤٩).

ابن القيِّم: «وقال الزمخشري: «المعنى ولو لَزِم العمل بالآيات، ولم ينسلخ منها لرفعناه بها، وذلك أنَّ مشيئة الله تعالى رَفْعه تابعة للزومه الآيات، فذكرت المشيئة والمراد ما هي تابعة له ومسببة عنه؛ كأنَّه قيل: ولو لزمها لرفعناه بها، قال: ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٧٦] فاستدرك المشيئة بإخلاده الذي هو فعله، فوجب أن يكون ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٦] في معنى ما هو فعله، ولو كان الكلام على ظاهره لوجب أن يقال: لو شئنا لرفعناه، ولكنا لم نشأ».

فهذا منه شنشنة نعرفها من قَدَرِيٍّ نافٍ للمشيئة العامة، مبعد للنُّجعة في جعل كلام الله معتزليًا قدريًا، فأين قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ من قوله: «ولو لزمها» ثم إذا كان الملزوم لها موقوفًا على مشيئة الله وهو الحق بطل أصله، وقوله: «إن مشيئة الله تابعة للزومه الآيات» مِن أفْسد الكلام وأبْطله، بل لزومه لآياته تابع لمشيئة الله، فمشيئة الله سبحانه متبوعة، لا تابعة، وسببٌ لا مسبب، وموجبٌ مقتضٍ لا مقتضىً، فما شاء الله وجب وجوده، وما لم يشأ امتنع وجوده»(١).

هكذا كان موقف الإمام ابن القيِّم من الزمخشري موقف الحذِر المتيقظ.

ومن الجوانب الملحوظة في تأثُّر ابن القيِّم بالزمخشري، دراسته لأقسام القرآن، حيث يعدُّ تفسير الكشاف من أبرز المصادر التي اعتمد عليها ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان أسرار القسم القرآني.

فمثلًا في تفسير القسم في سورة التين تشابه كلام الإمام ابن القيِّم مع كلام الزمخشري إلى حدٍّ كبيرٍ، حتَّى إنَّ التسلسل في العرض كان

(١) إعلام الموقعين (٢/ ٢٩٥).

على شاكلةٍ واحدةٍ إلا أنَّ الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ اجتزأ الأحاديث الضعيفة التي أوردها الزمخشري، وأشار إلى نفس الأقوال التي أشار إليها الزمخشري، وحتَّى تتضح المقارنة نذكر كلام الزمخشري ثم نذكر كلام ابن القيِّم.

يقول الزمخشري عند قوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين: ١ ـ ٣]، «ومعنى القسم بهذه الأشياء؛ الإبانة عن شرف البقاع المباركة وما ظهر فيها من الخير والبركة بسكنى الأنبياء والصالحين، فمنبت التين والزيتون مهاجر إبراهيم ومولد عيسى ومنشؤه. والطور: المكان الذي نودي منه موسى. ومكة: مكان البيت الذي هو هدى للعالمين، ومولد رسول الله ﷺ...»(١).

ذكر الزمخشري قبل ذلك أنَّ القَسَم بهاتين الشجرتين، كان لعظيم فائدتهما، وذكر جملةً من فوائد هاتين الشجرتين، ومنافعهما، ولكنَّه مالَ إلى القول بأنَّ القَسَم قَسمٌ بمكان نبت ذلك الشجر(٢).

أما ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ ذكر أنَّ المراد بالقَسَم نوع الشجرتين، وذلك لما لها من فوائد عظيمة، وذكر جملةً من فوائدها، ثم قال: «ولا ينافي أن يكون مَنْبته مرادًا، فإنَّ مَنبت هاتين الشجرتين حقيقٌ بأن يكون من جملة البقاع الفاضلة الشريفة، فيكون الإقسامُ قد تناول الشجرتين ومنبتهما، وهو مَظْهَر عبد الله ورسوله وكلمته وروحه: عيسى ابن مريم، كما أنَّ «طور سينين» مَظْهَرُ عبده ورسوله وكليمه: موسى، فإنَّه الجبل الذي كلَّمه عليه وناجاه، وأرسله إلى فرعون وقومه.

---

(١) الكشاف (٦/ ٤٠١).
(٢) راجع: المصدر السابق (٦/ ٤٠٠).

ثمَّ أقسم بـ«البلد الأمين» ـ وهو مكة ـ مَظْهَرِ خاتم أنبيائه ورسله، سيِّد ولد آدم...»[١].

هكذا يبدو واضحًا مدى استفادة ابن القيِّم من تفسير الزمخشري، في دراسته لأقسام القرآن، هذا في مثالٍ واحدٍ وإلا إذا تتبعنا باقي الأقسام اتَّضح ذلك التأثر بشكلٍ كبيرٍ، ومن أبرز الجوانب التي تأثَّر ابن القيِّم فيها بالزمخشري في أقسام القرآن: البحث في المناسبة بين جوانب القسم والمقسم به، التي بدأها الزمخشري[٢] وأفاضَ القول فيها الإمام ابن القيِّم وأبداها، وأظهرها بوضوح.

والمقصود: أنَّ الإمام ابن القيِّم تأثَّر بالزمخشري في طريقته، ومنهجه وأسلوبه في دراسة بلاغة القرآن، وكذلك تأثَّر بالجوانب التي اهتمَّ بها الزمخشري في تفسيره لآيات القرآن.

أمَّا العالم الذي كان له بصمة واضحة، وتأثير بارز على الإمام ابن القيِّم في قضايا إعجاز القرآن بوجه عام؛ فهو شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

• تأثُر ابن القيِّم بشيخ الإسلام:

الإمام ابن القيِّم متأثر بشيخه في كافة الفنون والعلوم، ومن العلوم التي بدا فيها التأثر واضحًا، علم إعجاز القرآن، فإن المنهج العام الذي سلكه الإمام ابن القيِّم، هو نفس المنهج الذي سلكه شيخ الإسلام، فكلا الإمامين يريان شمولية إعجاز القرآن، وأن القرآن معجز بلفظه وفصاحته ومعجز بمعانيه التي وردت فيه، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام رحمه الله:

---

(١) التبيان في أيمان القرآن (ص٧٠).

(٢) راجع: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري (ص٣٨١).

«والقرآن مما يعلم الناس عربهم وعجمهم أنّه لم يُوجد له نظيرٌ، مع حرص العرب، وغير العرب على معارضته؛ فلفظه آية، ونظمه آية، وإخباره بالغيوب آية، وأمره ونهيه آية، ووعده ووعيده آية، وجلالته وعظمته وسلطانه على القلوب آية. وإذا ترجم بغير العربي كانت معانيه آية. كلّ ذلك لا يوجد له نظيرٌ في العالم»[(١)].

أما الإمام ابن القيِّم فعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «وتقرير النبوة بهذه الآية وجوه متعددة: . . .».

ثم بدأ في بيان هذه الوجوه: **فذكر أن أحدها**: عجز العرب الذين هم أهل الفصاحة والبلاغة، عن الإتيان بمثل هذا القرآن، وتركهم المعارضة وإقدامهم على القتال وتعريض أنفسهم للمهالك، دليل على عجزهم[(٢)].

ثم يقول: «**وثانيها**: إقدامه ﷺ على هذا الأمر وإسجاله على الخلائق إسجالًا عامًّا إلى يوم القيامة، أنهم لن يفعلوا ذلك أبدًا، فهذا لا يقدم عليه ويخبر به إلا عن علم لا يخالجه شك مستند إلى وحي من الله تعالى، وإلا فعلم البشر وقدرته يضعفان عن ذلك.

وثالثها: النظر إلى نفس ما تحدى به، وما اشتمل عليه من الأمور التي تعجز قوى البشر على الإتيان بمثله، الذي فصاحته ونظمه وبلاغته فرد من أفراد إعجازه.

وهذا الوجه يكون معجزة لمن سمعه وتأمله وفهمه، وبالوجهين

---

(١) النبوات (١/ ٥١٧).

(٢) انظر: بدائع الفوائد (٤/ ٩١١).

الأولين يكون معجزة لكل من بلغه خبره ولو لم يفهمه ولم يتأمله. . .»[١].

وبين كلام شيخ الإسلام والإمام ابن القيِّم تطابق في المعنى كما هو واضح، فإنهم يرون أن القرآن معجز بلفظه ومعناه، معجز بلفظه ومعناه للعربي، ومعجز بمعناه لغير العربي، كذلك الإعجاز فيه لا يقتصر على معنى البلاغة والفصاحة، وإنما ما جاء فيه من الإخبار بالمغيبات والوعد والوعيد. . . كل ذلك من إعجاز القرآن.

ولم يقتصر تأثر الإمام ابن القيِّم بشيخ الإسلام إلى هذا الحد، وإنَّما تجاوزه إلى بحث المواضيع التي بحثها شيخ الإسلام والإفاضة فيها من ذلك: دراسة أقسام القرآن، فشيخ الإسلام بحث أقسام القرآن ووضع مقدمات في هذا العلم من علوم القرآن[٢]، اعتمد عليها الإمام ابن القيِّم وطبقها على أقسام القرآن[٣]، كذلك أمثال القرآن فكلا الإمامين بحث أمثال القرآن[٤]، وكشف عن أسرارها ومعانيها. وغير ذلك من المواضيع التي اتفقت فيها آراء الإمامين وبدا فيه التأثر بشيخ الإسلام واضحًا عند الإمام ابن القيِّم.

❁ ❁ ❁

(١) بدائع الفوائد (٤/ ٩١١).
(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٣/ ٣١٤).
(٣) التبيان (ص٥).
(٤) انظر: مجموع الفتاوى (١٤/ ٥٤).

المَبْحَثُ الثَّانِي

تأثر ابن القيِّم في مسائل الإعجاز بأهل اللغة

علوم اللغة تعدُّ المصدر الثاني من المصادر الرئيسة في دراسة ابن القيِّم لإعجاز القرآن، ولقد اعتمد ابن القيِّم في بحثه المسائل اللغوية المتعلقة بإعجاز القرآن على آراء جمع من علماء اللغة، وتتبع أقوالهم، وحقق ودقق فيها، فنظر في كتاب سيبويه، واستفاد منه وتأثر بعلمه، وطالع كتب معاني القرآن وأعاريبه ونقل عن أصحابها، واطَّلع على مجاز القرآن لأبي عبيدة واستفاد منه، كذلك كتب ابن قتيبة، وكتب ابن جني وتأثر بهما... وهكذا كتب شتى في فنون العربية استفاد منها الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في بحثه لإعجاز القرآن.

لكن إذا أردنا أن نعرف على وجه الخصوص أيُّ العلماء كان له الأثر الأكبر على الإمام ابن القيِّم في بحثه لإعجاز القرآن، فمن خلال التتبع يبدو أنَّ إمام النحو سيبويه كانت له بصمة خاصة على علوم ابن القيِّم وتطبيقاته، وبحثه لمسائل الإعجاز.

والعالم الثاني الذي يعد الأبرز من حيث التأثِير على ابن القيِّم في مسائل اللغة: هو الإمام السهيلي رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فقد تتبَّع الإمام ابن القيِّم أقواله، وأُعجب بها ونشرها في كتابه «بدائع الفوائد» على وجه الخصوص، وسائر كتبه عامة.

وحتى نستوضح حجم تأثير هذين العالمين على الإمام ابن القيِّم؛

نقف عند كل واحد منهما وقفة نبيِّن من خلالها بالشواهد والأمثلة مدى ذلك التأثر.

• تأثرُ الإمام ابن القيِّم بسيبويه:

اعتمد الإمام ابن القيِّم على القواعد والأصول التي وضعها سيبويه، وطبَّقها واحتفى بها وبقائلها، وهي في كتب ابن القيِّم كثيرةٌ جدًّا، يصعب حصرها، لكن نذكر أمثلةً يتضح من خلالها المراد بإذن الله.

تأثَّر الإمام ابن القيِّم في قضيَّة التقديم والتأخير بسيبويه، فكثيرًا ما يورد القاعدة التي وضعها سيبويه، ويطبقها على آيات القرآن.

من تلك المواضع: يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «قال سيبويه وهو يذكر الفاعل والمفعول: «كأنَّهم يقدمون الذي بيانه أهمُّ لهم، وهم بشأنه أعنى، وإن كانا جميعًا يهمانهم ويعنيانهم»...»[(١)].

وقد طبَّق الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ هذه القاعدة في بحثه لأسرار التقديم والتأخير في القرآن، وبيَّن إعجاز القرآن في هذا الجانب، وأوضح درجة الفصاحة التي بلغتها تعبيرات القرآن معتمدًا على هذا الأساس الذي وضعه سيبويه.

ومن المسائل التي تأثَّر الإمام ابن القيِّم فيها بسيبويه: مسألة الفروق بين حروف المعاني، وذهب إلى أنَّه لا يصحُّ أن ينوب بعضها عن بعض، معتمدًا على ما قرَّره سيبويه في هذا الباب.

يقول الإمام ابن القيِّم عند بيانه للحروف الداخلة على لفظ الهداية في القرآن، كيف أنَّ لكل واحدٍ منها شأنًا، يقول في ذلك رَحِمَهُ اللهُ: «... أن فعل

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٧١٨).

الهداية: يتعدى بنفسه تارةً، وبحرف «إلى» تارةً، وباللام تارة، والثلاثة في القرآن:

فمن المعدَّى بنفسه هذه الآية، وقوله: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢]، ومن المعدَّى بـ«إلى» قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٦١]، ومن المعدَّى باللام قوله في قول أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

والفروق لهذه المواضع تدق جدًّا عن أفهام العلماء، ولكن نذكر قاعدةً تشير إلى الفرق، وهي أنَّ الفعل المعدَّى بالحروف المتعددة لا بد أن لا يكون له مع كل حرفٍ معنى زائد على معنى الحرف الآخر، وهذا بحسب اختلاف معاني الحروف: فإن ظهر اختلاف الحرفين ظهر الفرق نحو: «رغبت عنه ورغبت فيه، وعدلت إليه وعدلت عنه، ومِلْت إليه وعنه، وسعيت إليه وسعيت به»، وإنْ تفاوت معنى الأدوات عَسُر الفرق نحو: قصدت إليه وقصدت له، وهديته إلى كذا وهديته لكذا، وظاهرية النحاة يجعلون أحد الحرفين بمعنى الآخر.

وأما فقهاء أهل العربية فلا يرتضون هذه الطريقة، بل يجعلون للفعل معنًى مع الحرف، ومعنًى مع غيره، فينظرون إلى الحرف وما يستدعي من الأفعال، فيشرّبون الفعل المتعدى به معناه.

هذه طريقة إمام الصناعة سيبويه ـ رحمه الله تعالى ـ وطريقة حُذَّاق أصحابه...»[١].

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٢٥٢).

وعلى هذا سار ابن القيِّم في تفسيره لحروف الأدوات وحروف الجر.

ومن تأثُّر الإمام ابن القيِّم بسيبويه، ما أورده في حديثه عن المثل في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]. قال الإمام ابن القيِّم: «قال سيبويه: **المعنى**: ومثلكَ يا محمد ومَثَلُ الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به[١]؛ وعلى قوله **فيكون المعنى**: ومثل الذين كفروا ودَاعيهم كمثل الغنم والناعق بها...»[٢].

ثم فصَّل القول في هذا المثل، منطلقًا من كلام سيبويه الذي ذكره.

إنَّ جهود الإمام سيبويه لها أثرٌ كبيرٌ في التأثير على دراسة ابن القيِّم لإعجاز القرآن، والنظر في فصاحته وبلاغته وجمال معانيه ودقَّة نظمه، وقد يطول المقام لو تتبعنا تلك التأثُّرات، ولعلَّ ما مضى أعطى صورةً واضحةً عن حجم ذلك التأثُّر، وتلك الاستفادة.

• تأثُّر الإمام ابن القيِّم بالسهيلي:

الإمام السهيلي يعدُّ الشخصيَّة الكبرى التي لها أثرٌ على الإمام ابن القيِّم في الدرس اللغوي، حتَّى إنَّ بعض المتسرعين وصف الإمام ابن القيِّم بأنَّه ناقلٌ لكلام السهيلي تمامًا، وليس له فضل في تلك المباحث اللغوية[٣].

---

(١) انظر: الكتاب (١/ ٢١٢).

(٢) إعلام الموقعين (٢/ ٣١٤).

(٣) وقد ردَّ عن هذه المقولة الدكتور: أيمن الشوا. في بحثه: بين نتائج الفكر للسهيلي وبدائع الفوائد لابن القيِّم. انظر: (ص٥٧). بحث منشور ضمن مجلة جامعة دمشق، المجلد (٢٨) العدد: (٣+٤). ٢٠٠٨م. وكذلك ردَّ على هذه المقولة محقق بدائع الفوائد الشيخ علي بن محمد العمران (١/ ٥٦).

وهذا الرأي يتاهفت إذا نظرنا في القضايا التي نقلها الإمام ابن القيِّم عن السهيلي؛ إذ إنَّ ابن القيِّم كثيرًا ما يتعقب السهيلي، ويزيد على أقواله، وربما ردَّها أحيانًا، وهذا يدل على أنَّ الإمام ابن القيِّم يتمتَّع بحريَّةٍ في المناقشة والرأي، غير قاصرٍ نفسه على رأي أحد.

الإمام السهيلي رَحِمَهُ اللَّهُ له آراءٌ جليلةٌ، أبداها في كتابه «نتائج الفكر» وحُقَّ للإمام ابن القيِّم الإعجاب بها وتفنيدها، ومتابعة وموافقة السهيلي عليها، فكثيرًا ما يثني الإمام ابن القيِّم على تلك الدقائق التي يكشفها السهيلي، اعترافًا منه بحسن بحثه وبراعته ودقته.

ومن أمثلة ذلك: ما ذكره الإمام ابن القيِّم من تأملاتٍ عند قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الجاثية: ٢١]، يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: أحسبوا هذا فهم مغترون؟ أم لم يحسبوه فما لهم مقيمون على السيئات؟ وعلى هذا سائر ما يرد عليك من هذا الباب.

وتأمَّل كيف يذكر سبحانه القسم الذي يظنونه ويزعمونه، فينكره عليهم وأنَّه مما لا ينبغي أن يكون، ويترك ذكر القسم الآخر الذي لا يذهبون إليه، فتردَّد الكلام بين قسمين، فيصرح بإنكار أحدهما وهو الذي سيق لإنكاره، ويكتفي منه بذكر الآخر، وهذه طريقة بديعة عجيبة في القرآن نذكرها في باب الأمثال وغيرها، وهي من باب الاكتفاء عن غير الأهمّ بذكر الأهمّ لدلالته عليه، فأحدهما مذكور صريحًا والآخر ضمنًا ولذلك أمثلة في القرآن يحذف منها الشيء للعلم بموضعه»[١].

ثم يقول: «ومن هذا الباب حذفٌ كثيرٌ من الأجوبة في القرآن

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ٢٠٩).

لدلالة «الواو» عليها لعلم المخاطب أن الواو عاطفة ولا يعطف بها إلا على شيء؛ كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ [يوسف: ١٥]، وكقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧١]، وهذا الباب واسع في اللغة، فهذا ما في هذه المسألة.

وكان قد وقع لي هذا بعينه أمام المقام بمكة، وكان يجول في نفسي فأضرب عنه صفحًا لأنِّي لم أره في مباحث القوم، **ثمَّ رأيته بعد لفاضلين من النحاة: أحدهما**: حام حوله وما ورد، ولا أعرف اسمه، **والثاني**: أبو القاسم السهيلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنَّه كشفه وصرَّح به[1]»[2].

هذا يدلُّ على فطنة الإمام ابن القيِّم ودقَّته في فهم معاني القرآن، كما يدلُّ على ثقته بعلم السهيلي واعترافه بدقائق استنباطه.

ومن الأبواب التي تأثَّر الإمام ابن القيِّم فيها بالسهيلي: باب التقديم والتأخير، وقد سبق الحديث عنه في علم المعاني.

ومن المسائل البليغة التي استفادها الإمام ابن القيِّم من السهيلي؛ السرُّ في التعبير بلفظة «الصراط»، واطراد ذلك في القرآن، ومجيئها في سورة الأحقاف بلفظ «الطريق» في قوله تعالى حكايةً عن الجن: ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠]، يقول الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ كاشفًا عن هذا السرّ: «وتعبيرهم عنه هٰهنا بالطريق فيه نكتة بديعة، وهي أنهم قدموا قبله ذكر موسى، وأنَّ الكتاب الذي سمعوه مصدقًا لما بين يديه من كتاب موسى وغيره، فكان فيه كالنبأ عن رسول الله ﷺ في قوله لقومه: ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]؛ **أي**: لم أكن أول رسول بعث

---

(١) **انظر**: نتائج الفكر (ص٢٠٦).
(٢) بدائع الفوائد (١/ ٢١٠).

إلى أهل الأرض بل قد تقدمت رسل من الله إلى الأمم، وإنَّما بعثت مصدقًا لهم بمثل ما بعثوا به من التوحيد والإيمان، فقال مؤمنو الجن: ﴿قَالُوا يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠]؛ أي: إلى سبيل مطروق، قد مرَّت عليه الرسل قبله، وإنَّه ليس بدع كما قال في أول السورة نفسها، فاقتضت البلاغة والإعجاز لفظ الطريق؛ لأنَّه فعيل بمعنى مفعول؛ أي: مطروق، مَشت عليه الرسل والأنبياء قبل، فحقيق على من صدَّق رسل الله وآمن بهم أن يؤمن به ويصدقه، فذكر الطريق هاهنا إذًا أولى؛ لأنَّه أدخل في باب الدعوة والتنبيه على تعيُّن أتباعه. والله أعلم. ثم رأيت هذا المعنى بعينه قد ذكره السهيلي(١) فوافق فيه الخاطرَ الخاطر»(٢).

هذه بعض الشواهد التي توضِّح استفادة الإمام ابن القيِّم من السهيلي، ومَنْ يُوازنْ بين كتاب «بدائع الفوائد» وكتاب السهيلي «نتائج الفكر» يتَّضح له حجم ذلك التأثُر، فقد استند الإمام ابن القيِّم في كثيرٍ من فوائده على ما ذكره السهيلي، مع زيادات الإمام ابن القيِّم، وتهذيبه، وتوضيحه.

❁ ❁ ❁

---

(١) انظر: نتائج الفكر (ص٢٣٦).

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٢٤٧).

ٱلْفَصْلُ ٱلثَّانِي

تأثير ابن القيِّم في مسائل الإعجاز على العلماء بعده

يشتمل على ثلاثة مباحث:

- ▫ المبحث الأول: تأثير ابن القيِّم على المؤلفين في التفسير.
- ▫ المبحث الثاني: تأثير ابن القيِّم على المؤلفين في علوم اللغة.
- ▫ المبحث الثالث: تأثير ابن القيِّم على المؤلفين في علوم القرآن.

المَبْحَثُ الْأَوَّلُ
تأثير ابن القيِّم على المؤلفين في التفسير

أثَّر الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ على جمع من المفسرين، في كافة علوم القرآن التي وردت في تفاسيرهم، ومن الصعوبة البالغة حصر جميع من تأثر بالإمام ابن القيِّم؛ لأن الله ﷻ قد بارك لهذا العالم في علمه، فانتشر في أنحاء المعمورة، وتلقاه علماء الأمة بالقبول، واستفاد من علومه كثير ممن أتي بعده، وحسبنا أن نشير في هذا المبحث إلى بعض علماء التفسير، الذين اهتموا بجهود الإمام ابن القيِّم في ما يختص بعلم إعجاز القرآن.

من أبرز المفسرين الذين تأثروا بالإمام ابن القيِّم في إعجاز القرآن: الإمام ابن كثير، والعلامة الألوسي، والعلامة جمال الدين القاسمي، والعلامة محمد رشيد رضا، والعلامة السعدي، والعلامة محمد الأمين الشنقيطي ـ رحمة الله على الجميع ـ.

تأثر هؤلاء العلماء بعلوم الإمام ابن القيِّم، وشحنت تفاسيرهم بعدد من النقول عنه، واحتفوا بآرائه، وتابعوه فيها، واقتفوا طريقته ومنهجه. وفي ما يلي نعرض مدى تأثر بعض هؤلاء العلماء في ما يختص بإعجاز القرآن.

• تأثير ابن القيِّم على الإمام ابن كثير:

الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ يعدُّ من تلاميذ الإمام ابن القيِّم، وممن صحبوه ولازموه، يقول عن ذلك ابن كثير: «وكنت من أصحب الناس

له، وأحب الناس إليه...»[١] وقد أثنى الإمام ابن كثير على علم ابن القيِّم ثناءً عطرًا، فأجلَّ علمه وأكبره[٢]، وعالم بمكانة ابن كثير يدرك غزارة علم ابن القيِّم، لا شك أنه سيستفيد منه ومن علومه.

ومن خلال التتبع لما كتبه الإمام ابن كثير في إعجاز القرآن ظهر أنه يسير على النهج الذي سار عليه الإمام ابن القيِّم، ذلك أن الإمام ابن القيِّم يرى الشمول في إعجاز القرآن الكريم، وكذلك الإمام ابن كثير، والإمام ابن القيِّم يرى أن التحدي كان لأهل العربية وغيرهم، وكذلك الإمام ابن كثير، استدل الإمام ابن القيِّم على معجزة النبي ﷺ بهذه الشريعة وما تضمنه من أسرار وحكم، وكذلك الإمام ابن كثير... التأثر بدا ظاهرًا، حتى إن النص الذي أطنب ابن كثير فيه عن إعجاز القرآن جاء بنفس التسلسل الذي ورد عند ابن القيِّم، وحتى يتضح ذلك أكثر نعرض كلام ابن القيِّم ثم نردفه بكلام ابن كثير ليظهر مدى التأثر بين الإمامين.

يقول الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]: «... كما يقول المعجز لمن يدعي مقاومته: اجهد علي بكل من تقدر عليه من أصحابك وأعوانك وأوليائك، ولا تبق منهم أحدًا حتى تستعين به؛ فهذا لا يقدم عليه إلا أجهل العالم وأحمقه وأسخفه عقلًا إن كان غير واثق بصحة ما يدعيه؛ أو أكملهم وأفضلهم وأصدقهم وأوثقهم بما يقوله، والنبي ﷺ يقرأ هذه الآية وأمثالها على أصناف الخلائق: أميهم، وكتابيهم، وعربهم، وعجمهم،

(١) البداية والنهاية (١٨/ ٥٢٣).
(٢) وقد سبق ذكر ذلك في تمهيد هذا البحث تحت المطلب الخامس من الترجمة لابن القيِّم.

ويقول: لن تستطيعوا ذلك، ولن تفعلوه أبدًا، فيعدلون معه إلى الحرب والرضى بقتل الأحباب، فلو قدروا على الإتيان بسورة واحدة لم يعدلوا عنها إلى اختيار المحاربة، وإيتام الأولاد، وقتل النفوس، والإقرار بالعجز عن معارضته.

وتقرير النبوة بهذه الآية وجوه متعددة: هذا أحدها.

وثانيها: إقدامه ﷺ على هذا الأمر وإسجاله على الخلائق إسجالًا عامًّا إلى يوم القيامة أنهم لن يفعلوا ذلك أبدًا، فهذا لا يقدم عليه ويخبر به إلا عن علم لا يخالجه شك، مستند إلى وحي من الله تعالى، وإلا فعلم البشر وقدرته يضعفان عن ذلك.

وثالثها: النظر إلى نفس ما تحدى به، وما اشتمل عليه من الأمور التي تعجز قوى البشر على الإتيان بمثله؛ الذي فصاحته ونظمه وبلاغته فرد من أفراد إعجازه.

وهذا الوجه يكون معجزة لمن سمعه وتأمله وفهمه، وبالوجهين الأولين يكون معجزة لكل من بلغه خبره، ولو لم يفهمه ولم يتأمله. فتأمل هذا الموضع من إعجاز القرآن تعرف فيه قصور كثير من المتكلمين وتقصيرهم في بيان إعجازه، وأنهم لن يوفوه عشر معشار حقه، حتى قصر بعضهم الإعجاز على صرف الدواعي عن معارضته مع القدرة. . .»[(١)].

هذا بعض كلام الإمام ابن القيِّم، أما الحافظ ابن كثير فيقول: «القرآن العظيم معجز من وجوه كثيرة؛ من فصاحته، وبلاغته، ونظمه، وتراكيبه، وأساليبه، وما تضمنه من الإخبار بالغيوب الماضية والمستقبلة، وما اشتمل عليه من الأحكام المحكمة الجلية، فالتحدي ببلاغة ألفاظه

(١) بدائع الفوائد (٤/ ١١٠).

يخص فصحاء العرب، والتحدي بما اشتمل عليه من المعاني الصحيحة الكاملة ـ وهي أعظم في التحدي عند كثير من العلماء ـ يعم جميع أهل الأرض من الملتين؛ أهل الكتابين وغيرهم من عقلاء اليونان والهند والفرس والقبط وغيرهم من أصناف بني آدم في سائر الأقطار والأعصار، وأما من زعم من المتكلمين أن الإعجاز إنما هو من صرف دواعي الكفرة عن معارضته مع إمكان ذلك، أو هو سلب قدرهم على ذلك، فقول باطل وهو مفرع على اعتقادهم أن القرآن مخلوق. . .»(١).

هذا جزء من كلام الإمامين، وبقيته على نفس التطابق، ونفس المنهج، هذا يؤكد أن الإمام ابن كثير استفاد من الإمام ابن القيِّم، ونقل عنه.

ومن الجوانب التي نلمس فيها جانبًا من التأثر بتأملات الإمام ابن القيِّم، تفسير ابن كثير لقصة إبراهيم مع أضيافه في سورة الذاريات: يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «. . . الرفع أقوى وأثبت من النصب، فرده أفضل من التسليم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦]، فالخليل اختار الأفضل.

وقوله: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥]: وذلك أن الملائكة وهم: جبريل وإسرافيل وميكائيل قدموا عليه في صور شبان حسان عليهم مهابة عظيمة؛ ولهذا قال: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٢].

وقوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ [الذاريات: ٢٦]؛ أي: انسلَّ خفية في سرعة، ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٦]؛ أي: من خيار ماله. وفي الآية الأخرى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩]؛ أي: مشوي

---

(١) البداية والنهاية (٨/ ٥٤٧).

على الرضف، ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ [الذاريات: ٢٧]؛ أي: أدناه منهم، ﴿قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٧]: تلطف في العبارة وعرض حسن.

وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة؛ فإنه جاء بطعامه من حيث لا يشعرون بسرعة، ولم يمتن عليهم أولًا فقال: «نأتيكم بطعام؟» بل جاء به بسرعة وخفاء، وأتى بأفضل ما وجد من ماله، وهو عجل فتي سمين مشوي، فقربه إليهم، لم يضعه، وقال: اقتربوا، بل وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمرًا يشق على سامعه بصيغة الجزم، بل قال: ﴿قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾...»[1].

وللإمام ابن القيِّم رحمه الله نحو هذه التأملات، حتى كأنها نص كلامه، ـ وقد وردت في «مبحث الإعجاز القصصي»[2] ـ وذكرها الإمام ابن القيِّم في «الرسالة التبوكية»[3].

من الأمور المتعلقة بالإعجاز وتأثر بها الإمام ابن كثير من الإمام ابن القيِّم، الوحدة الموضوعية في السور القرآنية، فقد ذكر الأستاذ محمد أحمد السنباطي أن ابن كثير استفاد منهجه في دراسته موضوعات سور القرآن من الإمام ابن القيِّم، وأن الإمام ابن القيِّم يعتبر رائد هذا المنهج، ومبتكرًا له[4]. وعلى هذا فإن الإمام ابن كثير رحمه الله اقتبس من علوم ابن القيِّم وفوائده، وتأثر به تأثرًا واضحًا.

• تأثير الإمام ابن القيِّم على الشيخ جمال الدين القاسمي:

يعدُّ جمال الدين القاسمي من العلماء الذين اهتموا بتراث الإمام ابن القيِّم، فقد استفاد من ابن القيِّم في كافة الفنون، وحقق بعض كتبه،

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٤).

(٢) انظر: (ص٣٩٦).

(٣) الرسالة التبوكية.

(٤) انظر: منهج ابن القيِّم في التفسير، محمد أحمد السنباطي (ص٩٧).

ونقل عنه جملة من الأقوال، فلقد ضمن تفسيره جملة من تفسيرات الإمام ابن القيِّم، واهتم بآرائه، فمن ذلك تأثره بالمنهج الذي سار عليه الإمام ابن القيِّم في دراسته لأمثال القرآن، بل إن كثيرًا ما يضمن كلام ابن القيِّم تفسيره لها، فمثلًا عند قوله تعالى: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠]، يقول القاسمي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال الإمام العلامة «ابن القيِّم» في كتابه «اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية»: في هذه الآية، شبّه، سبحانه، أعداءه المنافقين، بقوم أوقدوا نارًا لتضيء لهم، وينتفعوا بها، فلمّا أضاءت لهم النار فأبصروا في ضوئها ما ينفعهم ويضرهم، وأبصروا الطريق ـ بعد أن كانوا حيارى تائهين ـ فهم كقوم سفْرٍ ضلّوا عن الطريق، فأوقدوا النار لتضيء لهم الطريق، فلما أضاءت لهم ـ فأبصروا وعرفوا ـ طفئت تلك الأنوار، وبقوا في الظلمات لا يبصرون، قد سدت عليهم أبواب الهدى الثلاث ـ فإن الهدى يدخل إلى العبد من ثلاثة أبواب: مما يسمعه بأذنه، ويراه بعينه، ويعقل بقلبه، وهؤلاء قد سدّت عليهم أبواب الهدى: فلا تسمع قلوبهم شيئًا، ولا تبصره، ولا تعقل ما ينفعها...[1]»[2].

تأثر القاسمي برأي ابن القيِّم في تفسيره لأمثال القرآن تأثرًا واضحًا جدًّا، فكثيرًا ما ينقل عنه فيها[3]، وبين إعجابه بتلك التأملات.

ومن تأثر القاسمي بابن القيِّم استفادته من اللطائف والمعاني الدقيقة التي ينبه لها الإمام ابن القيِّم، ومن أمثلة ذلك ما ذكره عند قوله تعالى:

---

(١) انظر: اجتماع الجيوش الإسلامية (ص٣٩).
(٢) محاسن التأويل (١/ ٦٠).
(٣) انظر: محاسن التأويل (١/ ٣٧٣)، (١١/ ٣٨٣٦)، (١٦/ ٥٨٠٠). وغيرها.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩]، يقول القاسمي: «قال ابن القيِّم في «دار السعادة»: «تأمل هذه الآية تجد تحتها معنى شريفًا عظيمًا. وهو أن من نسي ربه، أنساه ذاته ونفسه، فلم يعرف حقيقته ولا مصالحه، بل نسي ما به صلاحه وفلاحه، في معاشه ومعاده، فصار معطلًا مهملًا...»(١)»(٢).

وتأثُّر القاسمي رَحِمَهُ اللَّهُ بالإمام ابن القيِّم ظاهر بيِّن من خلال تفسيره، وإنما هذه نبذة يسيرة ترشد إلى أثر ابن القيِّم في العلماء بعده.

• تأثير الإمام ابن القيِّم على العلامة السعدي:

تأثَّر العلامة السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ بعلم الإمام ابن القيِّم، وطالع كتبه واستفاد من آرائه، وتأثر بمنهجه وطريقته، ومن العلوم التي أخذها السعدي عن الإمام ابن القيِّم، علم إعجاز القرآن، وأسرار تعبيراته، فقد نقل في مقدمة تفسيره جملة من الفوائد التي ذكرها الإمام ابن القيِّم مشيدًا بها عارفًا أهميتها، يقول السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فوائد مهمة تتعلق بتفسير القرآن من بدائع الفوائد لابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ [قال: فصل] النكرة في سياق النفي تعم، مستفاد من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، وفي الاستفهام من قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، وفي الشرط من قوله: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ [مريم: ٢٦]، ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾ [التوبة: ٦]، وفي النهي من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ [هود: ٨١].

وفي سياق الإثبات، بعموم العلة والمقتضى كقوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١٤].

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٣١٢).

(٢) محاسن التأويل (٦/ ٥٧٥٠).

وإذا أضيف إليها «كل» نحو ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١] ومن عمومها بعموم المقتضى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧]. . .»[(١)](٢).

نقل السعدي عن ابن القيِّم جملة من الفوائد الجليلة، بتلخيص بديع، وتنظيم عجيب، ومما نقله عن ابن القيِّم قوله: «نفي التساوي في كتاب الله قد يأتي بين الفاعلين؛ كقوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ الآية [التوبة: ١٩].

وقد يأتي بين الفاعِلِين كقوله: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ﴾ [النساء: ٩٥].

وقد يأتي بين الجزاءين كقوله: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠].

وقد جمع الله بين الثلاثة في آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ [فاطر: ١٩، ٢٠] الآيات. . .».

والعلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ جعل كلام الإمام ابن القيِّم في مقدمة تفسيره؛ لمعرفته بعظم تلك الآراء، ونفاستها، ولأنها جامعة مختصرة، قواعد هامة لمن أراد النظر في تفسير كتاب الله.

هذا جانب يسير، وإطلالة على أثر الإمام ابن القيِّم على المؤلفين في التفسير في ما يخص علم إعجاز القرآن، وإذا أردنا التقصي والتتبع قد يطول المقام، والمراد هو إيضاح أثر جهود ابن القيِّم في هذا العلم، ومن خلال هذه النظرة اتضح حفاوة العلماء بكلام ابن القيِّم، والإشادة به، واستفادتهم البالغة منه.

---

(١) انظر: بدائع الفوائد (٤/ ٧٨٣).

(٢) تفسير السعدي (ص٣١).

المبحث الثاني

تأثير ابن القيِّم على المؤلفين في علوم اللغة

ترك الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ بصمة واضحة على علوم اللغة، وأفاد الدرس اللغوي فائدة عظيمة، ورغم أن جهوده اللغوية ومؤلفاته لم يصل إلينا منها سوى كتاب «بدائع الفوائد»، وما كان منثورًا في كتبه من مسائل لغوية[١]؛ إلا إنه حصلت بها فائدة واضحة للدرس اللغوي.

وأبرز تلك التأثيرات ما نبَّه عليه رَحِمَهُ اللَّهُ في مسألة المجاز وعدم وقوعه في اللغة، فقد فنَّد رَحِمَهُ اللَّهُ القول في ذلك، فأفاد وأجاد، ولذلك اهتم العلماء ببحثه لهذه القضية، وتأثروا بآرائه، ومن أبرز من تأثر بمنهجه في هذا الجانب: العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ، فقد كتب رسالة سماها: «منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز»، ذكر فيها رأي الإمام ابن القيِّم ورأي شيخه، ورجحه وأثنى عليه، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يمكن إثبات مجاز في اللغة العربية أصلًا، كما حققه العلامة ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في الصواعق»[٢].

ثم أخذ رَحِمَهُ اللَّهُ يفصل القول في هذه القضية متأثرًا تأثرًا واضحًا بالإمام ابن القيِّم وشيخه، موضحًا ما بيَّناه من منافاة المجاز لإعجاز القرآن الكريم.

---

(١) لأن له رَحِمَهُ اللَّهُ كتابين مفقودين في علوم اللغة، وهما: «معاني الأدوات والحروف»، وكتاب «الحكومة بين البصريين والكوفيين». انظر: ابن قيِّم الجوزية حياته، آثاره، موارده (ص٢٩٩) و(ص٢٤٤).

(٢) منع جواز المجاز (ص٣٥).

كان الاهتمام بجهود الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ اللغوية لدى العلماء السابقين محصورًا حول ما يتعلق بعلوم القرآن خاصة وعلوم الشريعة عامة[١]، ولم تنصرف الجهود لتمييز ذلك الدرس اللغوي كفصول مستقلة إلا في العصر الحديث، فقد تنبه العلماء والباحثون إلى عراقة الدرس اللغوي وقوته عند الإمام ابن القيِّم، فألفوا الكتب لفرز هذا التراث اللغوي الأصيل، ولكن مع هذا التنبه إلا أنه كان هناك عائق كان له أثر كبير في عدم الاهتمام الكافي بجهود ابن القيِّم في هذا الفن، هذا العائق هو ذلك الكتاب الذي نسب خطأ إلى الإمام ابن القيِّم، كتاب «الفوائد المشوقة»[٢]، فانصرفت جهود بعض الباحثين إلى الاهتمام بهذا المصدر، ظنًّا منهم أن هذا الكتاب لابن القيِّم، وتركوا بقية كتبه؛ إذ يعد هذا الكتاب متخصصًا في هذا العلم، فاكتفوا بما هو مختص وتركوا البحث في الموارد الثانية ـ حسب ظنهم ـ، فكان هذا التشويش حائل دون الدراسة الصحيحة لتراث ابن القيِّم الصحيح.

وبالرغم من ذلك إلا أن بعض الباحثين تنبهوا لهذا الخطأ وساروا بالاتجاه الصحيح، وصرفوا جهودهم في الموارد الموثوقة التي صحت نسبتها لابن القيِّم، فاستخلصوا بدائع أفكاره اللغوية، وبينوا جمال بحثه، وعذوبة حسه اللغوي.

---

(١) راجع: مقدمة تحقيق كتاب «بدائع الفوائد» ط: عالم الفوائد (١/ ٣٥).

(٢) بيَّن عدد من العلماء خطأ نسبة هذا الكتاب لابن القيِّم، وأوضحوا التباين بين مادة هذا الكتاب، ومنهج ابن القيِّم وعلومه، وقد كتب في هذا الدكتور: زكريا سعيد علي رَحِمَهُ اللَّهُ بما لا مزيد عليه، وبيَّن بالشواهد والأدلة القاطعة أنه لا تصح نسبة هذا الكتاب لابن القيِّم، وبيَّن أنه جزء من مقدمة تفسير ابن النقيب. انظر: تحقيق مقدمة تفسير ابن النقيب (ص٣)، وكذلك بيَّن العلامة بكر أبو زيد رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه: «ابن قيِّم الجوزية حياته، آثاره، موارده» أن هذا الكتاب لا تصح نسبته إلى الإمام ابن القيِّم. انظر: (ص٢٩١).

وأهم تلك الدراسات هو ما كتبه الدكتور: طاهر سليمان في كتابه: «ابن قيِّم الجوزية، جهوده في الدرس اللغوي»، وكذلك ما كتبه الدكتور: عبد الفتاح لاشين في كتابه: «ابن القيِّم وحسه البلاغي في تفسير القرآن»، كان لهذين البحثين أثر بارز في تمييز تراث ابن القيِّم اللغوي، وإيضاح قيمة نتاجه الذي خلفه رَحِمَهُ اللَّهُ، **وسلَّطت الضوء على جوانب مهمة حول تناول ابن القيِّم لمباحث اللغة:**

أما البحث الأول منهما: فوضَّح المنهج الذي سار عليه الإمام ابن القيِّم في اللغة، وجملته أن الإمام ابن القيِّم متذوق لجمال اللغة، ومستعذب لأساليبها، وسخر ذلك التذوق وذلك الحس في دراسة النصوص؛ فاستعمل النحو لبيان دقة الوضع اللغوي لنصوص القرآن، وبيَّن قوة الدلالة على المعنى في تلك النصوص، ودرس هذا البحث في عمومه جهود ابن القيِّم اللغوية من ناحية علاقته بمباحث الأصول، وأوضح أنه أقرب في بحثه للغة إلى الأصوليين منه إلى اللغويين[1] ـ كما يرى مؤلفه ـ.

أما البحث الثاني: فسلط الضوء على البلاغة القرآنية عند ابن القيِّم، ووصف المنهج الذي سار عليه الإمام ابن القيِّم بأنه منهج بلاغي مميَّز، يقول الدكتور لاشين في ذلك: «ابن القيِّم كان يتمتع بحس بلاغي في فهم آيات الكتاب المبين، وقدرة عظيمة على استخراج اللطائف البيانية، والأسرار البلاغية، وتوجيه الآيات توجيه تظهر فيه البراعة، وحسن الابتكار، ما يحمل القارئ على تقديره والاعتزاز به، فقد بلغ الغاية في دقة الفهم، ولغته في النص، واستنتاج كثير من اللطائف البلاغية والأسرار البيانية التي لم نسمعها من غيره»[2].

---

(١) راجع: ابن قيِّم الجوزية. جهوده في الدرس اللغوي (ص٦٧).

(٢) ابن القيِّم وحسه البلاغي في تفسير القرآن (ص١٢).

هكذا وصف الدكتور لاشين جهود ابن القيِّم البلاغية، وهي من أبرز ما يظهر به إعجاز القرآن اللغوي، ثم قسم ما تحصل لديه مما كتبه ابن القيِّم عن بلاغة الآيات التي فسرها حسب تقسيم البلاغيين، وبين جمال دراسات ابن القيِّم، وحسه البلاغي في التفسير[١].

❁ ❁ ❁

(١) ابن القيِّم وحسه البلاغي في تفسير القرآن (ص٣٧).

المَبحثُ الثَّالِثُ

تأثير ابن القيِّم على المؤلفين في علوم القرآن

للإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ جهود بارزة في علوم القرآن، احتفى بها العلماء، واستفادوا منها، لما فيها من عمقٍ، ودقةٍ وفقهٍ، وقد يكون الأمر عسيرًا إن أردنا تتبع من استفاد من كتابات ابن القيِّم في علوم القرآن، وذلك لأنَّ بعض العلماء الأجلاء الذين كتبوا في علوم القرآن نقلوا عنه أمثال: الزركشي، والبقاعي، والسيوطي[1]، وهذه الكتب استفاد الناس مما جمعت، وأخذت عنها في علومٍ شتى، ومن ضمن مصادر هذه الكتب بعض كتب ابن القيِّم، فنقل علمه بواسطتها وكان لها سبب كبير في نشر كتاباته.

- **تأثير الإمام ابن القيِّم على الزركشي:**

استفاد الزركشي في كتابه «البرهان» في عدة مواضع من كتاب الإمام ابن القيِّم «بدائع الفوائد»، ونقل عنه نص كلامه، ومن تلك النقول ما كتبه من فوائد الأمثال في القرآن، يقول الزركشي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه في أمور كثيرة: التذكير، والوعظ، والحث، والزجر، والاعتبار، والتقرير وترتيب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس؛ بحيث يكون نسبته للفعل كنسبة المحسوس إلى الحسِّ، وتأتي أمثال القرآن مشتملةً على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم،

(١) راجع: مقدمة تحقيق بدائع الفوائد (١/ ٣٥).

وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر[١]»[٢]. وهذا نصُّ كلام ابن القيِّم في «البدائع».

ومن المواضيع أيضًا التي نقل عن الإمام ابن القيِّم فيها، أسرار الجمع والتثنية والإفراد في القرآن، فقد استفاد استفادةً واضحةً من كتاب «بدائع الفوائد» في هذا النوع من علوم القرآن[٣].

• تأثير الإمام ابن القيِّم على السيوطي:

تعدُّ بعض كتب ابن القيِّم من المصادر الرئيسيَّة عند السيوطي، وذلك مثل كتاب «بدائع الفوائد»، الذي قال عنه في بغية الوعاة: «بدائع الفوائد، مجلدان وهو كثير الفائدة، أكثره مسائل نحوية»[٤].

وعدَّه في مصادره في «الإتقان» ضمن الكتب الجامعة[٥].

ومن كتب ابن القيِّم التي نقل عنها السيوطي في الإتقان كتاب «الفوائد» فنقل عنه في النوع «الحادي والخمسون في وجوه مخاطباته» يقول السيوطي: «قال ابن القيِّم تأمَّل خطاب القرآن تجد مَلِكًا له الملكُ كلُّه، وله الحمدُ كله أزمّة الأمور كلُّها بيده، ومصدرها منه، ومردُّها إليه، مستويًا على العرش، لا يخفى عليه خافيةٌ من أقطار مملكته، عالمًا بما في نفوس عبيده، مطلعًا على أسرارهم وعلانيتهم، منفردًا بتدبير المملكة، يسمع ويرى، ويعطي ويمنع، ويثيب ويعاقِب، ويُكرم ويُهين، ويخلقُ ويرزقُ، ويميتُ ويحيي، ويقدِّر ويقضي ويدبِّر.

الأمورُ نازلةٌ من عنده، دقيقها وجليلها، وصاعدةٌ إليه، لا تتحرَّك

---

(١) انظر: بدائع الفوائد (٤/ ٧٨٨).
(٢) البرهان (١/ ٥٣١).
(٣) انظر: البرهان (٤/ ٥).
(٤) بغية الوعاة (١/ ٦٣).
(٥) انظر: الإتقان (١/ ٣٨).

ذَرَّةٌ إلا بإذنه، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه، فتأمل كيف تجدُه يُثني على نفسه، ويمجِّد نفسه، ويحمد نفسه، وينصح عباده، ويدُلُّهم على ما فيه سعادتُهم وفلاحُهم، ويُرغِّبهم فيه، ويحذِّرهم مما فيه هلاكهم...»[١][٢].

لكن أبرز ما نُقِلَ عن الإمام ابن القيِّم في علوم القرآن، سواءً عند السيوطي أو غيره، هو ما كتبه رَحِمَهُ اللَّهُ عن أقسام القرآن، ويعدُّ كتابه من أمهات الكتب في هذا العلم، يقول السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أفرده ابن القيِّم بالتصنيف في مجلدٍ سماه «التبيان»[٣].

ونقل عنه أكثر ما كتبه في هذا النوع من علوم القرآن».

وقد اعتنى العلماء بهذا الكتاب، فمنهم من اختصره، ومنهم من نقل عنه، ومنهم من ناقش قضاياه، ومنهم من تناوله بالدراسة والتحليل[٤]. ويعدُّ هذا الكتاب، من أعظم جهود الإمام ابن القيِّم في التفسير وعلوم القرآن.

❁ ❁ ❁

(١) انظر: الفوائد (ص٣٩).
(٢) الإتقان (٤/ ١٥٠٢).
(٣) المرجع السابق (٥/ ١٩٤٥).
(٤) انظر: مقدمة المحقق لكتاب التبيان (ص٥٩).

ٱلْفَصْلُ ٱلثَّالِثُ

ردُّ ابن القيِّم على المخالفين في الإعجاز

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

- **المبحث الأول: رد الإمام ابن القيِّم على المتكلمين المخالفين في مسائل الإعجاز.**
- **المبحث الثاني: رد ابن القيِّم على القائلين بالصرفة وجهًا للإعجاز.**
- **المبحث الثالث: رد ابن القيِّم على أهل اللغة المخالفين في الإعجاز.**

المَبْحَثُ الأَوَّلُ

رد الإمام ابن القيِّم على المتكلمين المخالفين في مسائل الإعجاز

امتلأت كتب ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ بمناقشة المخالفين، وبيان شبههم، ودفعها بالنقل والعقل، ومقتضى اللغة.

ومن تلك الشبه ما يورده المتكلمون والفلاسفة حول الكلام عن معجزة القرآن، وعن المعجزات بصفةٍ عامةٍ، من حيث وجوه الإعجاز، ومن حيث وجود النبوات قبل ذلك، وكلامهم عن ما جاء به الرسل.

فمن الشبه التي ترد عندهم في معجزة القرآن، كون إعجازه واقعًا من حيث الفصاحة والبلاغة، وحصر الإعجاز والتحدي في ذلك، وتوسع بعضهم فذكر أيضًا وجوهًا متعددةً، فيها قصور بإعجاز القرآن ومنزلة هذه المعجزة، فقطع الإمام ابن القيِّم هذا الرأي، وبيَّن أنَّه لا يفي ببيان أوجه إعجاز القرآن، وبيَّن ذلك على وجه الإجمال، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ عند قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]: «والنبي ﷺ يقرأ هذه الآية وأمثالها على أصناف الخلائق أميِّهم وكتابيهم وعربهم وعجمهم ويقول: لن تستطيعوا ذلك ولن تفعلوه أبدًا فيعدلون معه إلى الحرب والرضى بقتل الأحباب فلو قدروا على الإتيان بسورةٍ واحدةٍ لم يعدلوا عنها إلى اختيار المحاربة، وإيتام الأولاد، وقتل النفوس، والإقرار بالعجز عن معارضته، وتقرير النبوة بهذه الآية له وجوه متعددة هذا «**أحدها**».

و«**ثانيها**»: إقدامه ﷺ على هذا الأمر وإسجاله على الخلائق إسجالًا عامًّا إلى يوم القيامة، أنهم لن يفعلوا ذلك أبدًا فهذا لا يقدم عليه ويخبر به إلا عن علم لا يخالجه شك مستند إلى وحي من الله تعالى، وإلا فعلم البشر وقدرته يضعفان عن ذلك.

و«**ثالثها**»: النظر إلى نفس ما تحدى به، وما اشتمل عليه من الأمور التي تعجز قوى البشر على الإتيان بمثله الذي فصاحته ونظمه وبلاغته فرد من أفراد إعجازه.

وهذا الوجه يكون معجزةً لمن سمعه وتأمله وفهمه، وبالوجهين الأولين يكون معجزة لكل من بلغه خبره ولو لم يفهمه ولم يتأمله، فتأمل هذا الموضع من إعجاز القرآن تعرف فيه قصور كثير من المتكلمين، وتقصيرهم في بيان إعجازه، وأنهم لن يوفوه عشر معشار حقِّه، حتَّى قصر بعضهم الإعجاز على صرف الدواعي عن معارضته مع القدرة عليها، وبعضهم قصر الإعجاز على مجرد فصاحته وبلاغته، وبعضهم على مخالفة أسلوب نظمه لأساليب نظم الكلام وبعضهم على ما اشتمل عليه من الإخبار بالغيوب، إلى غير ذلك من الأقوال القاصرة التي لا تشفي ولا تجدي، وإعجازه فوق ذلك ووراء ذلك كله فإذا ثبتت النبوة بهذه الحجة القاطعة، فقد وجب على الناس تصديق الرسول في خبره وطاعة أمره، وقد أخبر عن الله تعالى وأسمائه، وصفاته وأفعاله، وعن المعاد والجنة والنار...»(١).

هكذا أقرَّ الإمام ابن القيِّم إعجاز القرآن، وبيَّن شموليته في إعجازه، وأبطل مزاعم المتكلمين وبيَّن قصورهم في بيان إعجاز القرآن.

ومن الأمور التي أخطأ المتكلمون فيها في كلامهم عن إعجاز

---

(١) بدائع الفوائد (٤/ ٩١١).

القرآن، هو جعلهم بعض الأوصاف والنعوت التي تتصف بها المعجزة شرطًا من شروط الإعجاز، ومن تلك الشروط التي اعتبروها: «خرق العادة»، وهي ليست شروطًا دقيقةً منضبطةً، إذ يدخل في ذلك الكرامات، ويدخل في ذلك ما يفعله السحرة(١)... فهذا الشرط ليس ضابطًا للإعجاز يقول الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «... الطريق التي سلكوها في إثبات النبوة، لم يثبتوا بها نبوة في الحقيقة، فإنهم بنوها على مجرد خرق العادة، وهو مشترك بين النبي وغيره، وحاروا في الفرق، فلم يأتوا فيه بما يثلج له الصدر، ولا يحصل به برد اليقين، مع أنَّ النبوة التي أثبتوها لا ترجع إلى وصف وجودي، بل هي تعلق الخطاب الأزلي بالنبي، والتعلق عندهم أمرٌ عدمي فعادت النبوة عندهم إلى أمرٍ عدمي وقد صرحوا بأنَّها لا ترجع إلى صفةٍ ثبوتيةٍ قائمةٍ بالنبي، وأيضًا فحقيقة النبوة والرسالة إنباء الله ﷻ لرسوله وأمره بتبليغ كلامه إلى عباده وعندهم أنَّ الله لا يتكلم، ولا يقوم به كلام...»(٢).

ساق الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا القول أثناء حديثه عن إنكار المتكلمون للصفات، ما يؤكد أنَّ ثمَّة علاقةً بين عقيدتهم، وأقوالهم في الإعجاز وهذا أمرٌ مقطوع به ولا شك فيه(٣).

ومن الأخطاء التي قال بها المتكلمون، هو نفيهم أن يكون في القرآن جدل، وزعمهم أنَّ الجدل للخاصة، والقرآن أنزل ليفهمه العامة، فقد ردَّ الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ على ذلك بقوله: «ويظنُّ جهَّال المنطقتين وفروخ اليونان أنَّ الشريعة خطابٌ للجمهور لا احتجاج فيها، وأنَّ الأنبياء

(١) راجع: النبوات (١/ ٥٠٠)، والجواب الصحيح (٦/ ٤٠١).
(٢) الصواعق المرسلة (٣/ ٩٨٧).
(٣) انظر: البداية والنهاية (٨/ ٥٤٧).

دَعَوا الجمهور بطريق الخَطابَة، والحُجج للخواصّ وهم أهل البرهان! يعنون نفوسهم ومن سلك طريقتهم!!

وكلٌّ هذا من جهلهم بالشريعة والقرآن؛ فإن القرآن مملوءٌ من الحجج والأدلة والبراهين في مسائل التوحيد وإثبات الصَّانع والمعاد وإرسال الرُّسل وحدوث العالم، فلا يذكر المتكلِّمون وغيرهم دليلًا صحيحًا على ذلك إلا وهو في القرآن بأحسن عبارةٍ، وأوضح بيانٍ، وأتمّ معنىً، وأبعده عن الإيرادات والأسئلة...»[1].

ومن الأمور العظيمة التي ضلَّ بها الفلاسفة عن الحقِّ، قولهم: إنَّ علوم النبوات ناتجة عن التخيُّل، وفرط الذكاء، وقوَّة التعقل، وهذا إنكارٌ صريحٌ للنبوات، والرسالات، والسبب في هذا الإنكار يعود إلى ما تبعوه من منهجٍ يحول دونهم ودون الإيمان بالنبوات والرسل، يقول الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ علم الأنبياء وما جاؤوا به عن الله، لا يمكن أن يدرك بالعقل ولا يكتسب، وإنما هو وحيٌ أوحاه الله إليهم بواسطة الملك أو كلام يكلم به رسوله منه إليه، بغير واسطة كما كلم موسى، وهذا متفقٌ عليه بين جميع أهل الملل المقرين بالنبوة المصدقين بالرسل، وإنَّما خالفهم في ذلك جهلة الفلاسفة وسفلتهم، الذين يقولون إن الأنبياء يعلمون ما يعلمونه بقوةٍ عقليةٍ، وهم أكمل من غيرهم في قوة الحدس، ويسمونها القوة القدسية، قالوا: ويتميز النبي عن غيره بقوة التخيل والتخييل، فيتخيل الأمور للعقول في الصور المحسوسة، ويخيلها إلى الناس في قوالب تلك الصور ويتميز أيضًا بقوة النفس، فيتصرف بقوتها في مواد العلم وعناصره بقلب بعضها إلى بعض، فهذه عندهم خواص النبوة، فالأنبياء عندهم من جنس غيرهم من البشر ونبواتهم من جنس

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٤٥٤).

صنائع الناس وسياساتهم ورياضاتهم، حتى قال أقرب هؤلاء إلى الإسلام: اعلم أنَّ أصول الصناعات أربعة، صنعة التجارة والحدادة والنساجة والسياسة، وأصعبها صنعة السياسة، وأصعب هذه الصناعة صناعة النبوة، هذا كلامه بعينه في كتابه.

فلما كانت النبوة عندهم في هذه المرتبة، كانت علومها وأعمالها من جنس علوم البشر وأعمالهم، فالعقل مشترك بينهم وبين كافة العقلاء، فلما جاءت الرسل بما لا تدركه عقولهم وليس في قواعدهم ونظرهم ومنطقهم ما يدل عليه، قابلوه بالإنكار...»[(١)].

اتضح أنَّ المتكلمين قصروا في فهم إعجاز القرآن الكريم، والمنهج الحق هو الذي سار عليه سلف الأمة، من إثبات هذه المعجزة بكافة وجوه الإعجاز التي جاء القرآن بها، دون زيادةٍ أو نقصٍ، ودون صرف للمعاني وتأويل لها عن مرادها، ومن هنا كان منطلق قصور المتكلمين في فهمهم لإعجاز القرآن.

❁ ❁ ❁

(١) الصواعق المرسلة (٣/ ٨٨٠).

المَبحَثُ الثَّانِي

رد ابن القيِّم على القائلين بالصرفة وجهًا للإعجاز

القول بالصرفة قولٌ باطلٌ بطلانًا واضحًا، إذ من لوازم هذا القول إنكار فصاحة القرآن، وأنَّ الإعجاز إنَّما هو خارجٌ عن كونه فصيحًا فصاحةً أعجزت العرب الفصحاء عن الإتيان بمثله، وإنَّما هو صَرْفٌ لهمم أولئك العرب، وصَرْفٌ لإرادتهم عن الإتيان بمثله.

يقول الباقلاني رحمه الله: «ومما يُبطل ما ذكروه من القول «بالصرفة» أنَّه لو كانت المعارضة ممكنةً وإنَّما منع منها «الصرفة»، لم يكن الكلام معجزًا، وإنَّما يكون المنع هو المعجز، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره»(١).

ولقد أنكر الإمام ابن القيِّم على من قال بهذا الوجه، يقول رحمه الله بعد أن ذكر بعض أوجه الإعجاز: «... فتأمل هذا الموضع من إعجاز القرآن تعرف فيه قصور كثيرٍ من المتكلمين، وتقصيرهم في بيان إعجازه، وأنَّهم لن يوفوه عشر معشار حقه، حتَّى قصر بعضهم الإعجاز على صرف الدواعي عن معارضته مع القدرة عليها»(٢).

والإمام ابن القيِّم رحمه الله، كثيرًا ما ينبه على أنَّ إعجاز القرآن للعرب إنَّما كان ببلاغته وفصاحته، وأنَّه تجاوز حدود الفصاحة البشريَّة، وهذا سرُّ الإعجاز فلا يمكن أن يقدر أحد على مثل فصاحته وبيانه، ومن خلال

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني (ص٣٠).

(٢) بدائع الفوائد (٤/ ٩١١).

ذلك كان عجز العرب، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «... فتحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا.

هذا وأعداؤه الأدْنَون منه أفصح الخلق، وهم أهل البلاغة والفصاحة واللَّسن والنظم والنثر والخطب وأنواع الكلام، فما منهم من فاه في معارضته ببنت شفة، وكانوا أحرص الناس على تكذيبه وأشدَّهم أذى له بالقول والفعل والتنفير عنه بكل طريق، فما نقل عن أحد منهم سورةً واحدةً عَارَضَه بها؛ إلا مسيلمة الكذاب بمثل قوله: يا ضفدع بنت ضفدعين، نقِّي كم تنِقِّين، لا الشاربَ تمنعين، ولا الماء تكدِّرين، ومثل: والطَّاحنات طَحْنًا، والعاجنات عجنًا، فالخابزات خبزًا، إهَالَةً وسَمْنًا[1]، وأمثال هذه الألفاظ التي هي بألفاظ أهل الجنون والمعتوهين أشبه منها بألفاظ العقلاء»[2].

هذه المحاولات الساذجة من مسيلمة تنفي كون الإعجاز نابعًا من صرف همم العرب عن الإتيان بمثله، وتبيِّن أنَّ العقلاء علموا عجزهم فسكتوا ولم يحاولوا؛ لإدراكهم أنَّ هذا البيان وهذه الفصاحة التي اشتمل القرآن عليها أمرٌ غير مقدورٌ عليه؛ فلهذا انقطعوا ولم يحاولوا، ولا يعني ذلك أنَّهم مصروفون عن المحاولة والمجاوبة لذلك التحدي.

(١) انظر: تفسير الطبري (١/ ١٠).
(٢) هداية الحيارى (ص٢٧٤).

المَبحَثُ الثَّالِثُ

رد ابن القيِّم على أهل اللغة المخالفين في الإعجاز

حرص الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ أثناء بحثه لإعجاز القرآن على فهم القرآن الفهم الصحيح، الموافق لمقتضى كلام العرب ولغتهم، واضعًا نصب عينيه أنَّ لكل أسلوب في كلامهم مزيَّة وخاصيَّة يجب أن ينتبه إليها؛ والقرآن الكريم هو أفصح كلامٍ سمعته الآذان، وكلُّ وضع لغوي جاء فيه، إنَّما جاء في أعلى درجات البيان والفصاحة، فيجب أن يبحث عن السِّر البلاغي لذلك الوضع.

من خلال هذا المنهج أنكر الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ على القائلين بزيادة الحروف في القرآن فقال في ذلك: «لا يليق بأفصح كلامٍ أن يكون فيه حرفٌ زائدٌ لغير معنى»[(١)].

ومن خلال هذا المنهج أيضًا أنكر على القائلين بأنَّ حروف الأدوات يؤدي بعضها عن بعض، بل يرى أنَّ لكل حرفٍ سرًّا، ومعنى أُتِي به لأدائه، ـ يقول رَحِمَهُ اللَّهُ ذلك عند بيانه لاختلاف حروف المعاني السابقة للفعل: «يهدي» في القرآن ـ يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «فعل الهداية: يتعدَّى بنفسه تارة، وبحرف «إلى» تارة، وباللام تارة، **والثلاثة في القرآن**:

فمن المعدَّى بنفسه هذه الآية، وقوله: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢] ومن المعدَّى بـ«إلى» قوله: ﴿مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ

(١) حادي الأرواح (ص٨٢).

صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢] وقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأنعام: ١٦١] ومن المعدَّى باللام قوله في قول أهل الجنة: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

والفروق لهذه المواضع تدق جدًّا عن أفهام العلماء، ولكن نذكر قاعدةً تشير إلى الفرق، وهي أنَّ الفعل المعدَّى بالحروف المتعددة لا بد أن لا يكون له مع كل حرفٍ معنى زائد على معنى الحرف الآخر، وهذا بحسب اختلاف معاني الحروف: فإن ظهر اختلاف الحرفين ظهر الفرق نحو: «رغبت عنه ورغبت فيه، وعدلت إليه وعدلت عنه، وملت إليه وعنه، وسعيت إليه وسعيت به»، وإن تفاوت معنى الأدوات عَسُر الفرق نحو: قصدت إليه وقصدت له، وهديته إلى كذا وهديته لكذا، وظاهرية النحاة يجعلون أحد الحرفين بمعنى الآخر.

وأما فقهاء أهل العربية فلا يرتضون هذه الطريقة، بل يجعلون للفعل معنى مع الحرف، ومعنى مع غيره، فينظرون إلى الحرف وما يستدعي من الأفعال، فيشرِّبون الفعل المتعدى به معناه...»[(١)].

من خلال ذلك يجب أن يلاحظ أنَّ لكل حرفٍ في القرآن معنىً يؤديه.

ومن التنبيهات المهمَّة التي نبَّه عليها ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ألا يحمل معنى آية على الأوجه الإعرابية ويجعل المعنى تبعًا لذلك، وإنَّما الواجب أن يكون الإعراب فرعًا عن المعنى، يقول ذلك رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند إعرابه لقوله تعالى ـ حكاية عن عيسى ـ: ﴿إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥ﴾ [المائدة: ١١٦]،

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٢٥٢).

يقول ابن القيِّم: «فهذا شرط دخل على ماضي اللفظ، وهو ماضي المعنى قطعًا لأنَّ المسيح إمَّا أن يكون هذا الكلام قد صدر منه بعد رفعه إلى السماء، أو يكون حكاية ما يقوله يوم القيامة.

وعلى التقديرين فإنَّما تعلق الشرط وجزاؤه بالماضي، وغلط على الله من قال: إن هذا القول وقع منه في الدنيا قبل رفعه، والتقدير: إن أكن أقول هذا فإنك تعلمه، وهذا تحريفٌ للآية؛ لأنَّ هذا الجواب إنَّما صدر منه بعد سؤال الله له عن ذلك، والله لم يسأله، وهو بين أظهر قومه، ولا اتخذوه وأمَّه إلٰهين إلا بعد رفعه بمئين من السنين، فلا يجوز تحريف كلام الله انتصارًا لقاعدة نحوية، هدم مائة أمثالها أسهل من تحريف معنى الآية...»[1].

يجب أن يراعى في جانب الإعجاز اللغوي، الفهم العربي الخالص للمعنى، لا بمقتضى القواعد المعزولة عن المعنى الذي يفهم من الكلام، فالقواعد اللغوية والاستنباطات البلاغية تابعة لمقصود الكلام، وليس الكلام تابعًا لها.

❁ ❁ ❁

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ٥٢).

الخاتمة

الحمد لله على ما منَّ به من إتمام هذا البحث، والذي تنقلت من خلاله بين آراء ابن القيِّم رحمه الله، وبين مباحثه ومسائله في علم إعجاز القرآن الكريم، وبعد هذه الدراسة أعرض أهم النتائج والتوصيات التي توصلت إليها، وأرى أن أجملها في النقاط التالية:

١ ـ دلائل إعجاز القرآن الكريم كثيرة جدًّا، منها ما هو مأخوذ من القرآن نفسه، ومنها ما هو مأخوذ من القرائن والأحوال المحيطة بتلك المعجزة، من النظر إلى حال من نزلت عليه تلك المعجزة، ومعرفة سجاياه ﷺ قبل بعثته، وبالنظر إلى البيئة التي عاش فيها، والتأمل في ما آل إليه أمره من نصرته وإعلاء دينه، وظهوره على جميع الأديان، كل ذلك يؤكد صدق هذه المعجزة وصدق من جاء بها. وبهذا استدلَّ الإمام ابن القيِّم.

٢ ـ يرى الإمام ابن القيِّم رحمه الله أنَّ التحدي في القرآن وقع بفصاحته وبلاغته، وبما اشتمل عليه من معانٍ وأحكام؛ فالتحدي بالفصاحة والبلاغة للعرب الذين يدركون معانيه، ويشترك غير العرب في التحدي بما اشتمل عليه القرآن من معان وأحكام.

٣ ـ يرى الإمام ابن القيِّم رحمه الله أنَّ من أعظم الأدلة والبراهين على صدق نبوة محمد ﷺ، الاستدلال على نبوته بما ورد في كتب الأمم السابقة.

٤ ـ يرى الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ أن صنيع القرآن في القلوب، وتأثيره في النفوس، من الأدلة على معجزة القرآن؛ إذ يستحيل أن يقع ذلك التأثير، وتلك الطمأنينة من كلام مكذوب غير صحيح.

٥ ـ الإمام ابن القيِّم يرى أن شريعة القرآن آية وعلامة على صدق نبوة محمد ﷺ، لما فيه من موافقة الفطر، وموافقة العقل، ولما اشتملت عليه من محاسن، وما دفعت من مساوئ.

٦ ـ ما ورد في القرآن من أخبار، وما اشتمل عليه من غيوب وما حواه من دقائق وعلوم، من وصف هذا الكون، ومن تفاصيل هذا الخلق... دليل على أن هذا القرآن نزل من عند خالق هذا الخلق، العليم بأسراره وأحواله.

٧ ـ تميَّز الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في بحثه اللغوي لآيات القرآن، فأظهر أسرارًا ومعاني فريدة، ظهر من خلالها عظمة إعجاز القرآن من هذا الوجه، وتبيَّن أنَّ تلك الفصاحة مما لا يقدر البشر عليه.

٨ ـ اهتمَّ الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ بدراسة أساليب القرآن اهتمامًا بالغًا، وبرع في ذلك براعة واضحة، وله تتبع وتحليل دقيق لأساليب القرآن.

٩ ـ يرى الإمام ابن القيِّم شمولية إعجاز القرآن، ويرى أنَّه من التقصير بإعجاز القرآن حصره في وجوه محدودة، وأن إعجازه فوق ما أدركه الناس وأنه لا يقف عند حد.

١٠ ـ اعتنى الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في بحثه لإعجاز القرآن بالجانب التطبيقي أكثر من الجانب النظري، وحرص على تذوق أساليب القرآن وبلاغته، ولم يكثر من القواعد البلاغية أو التنظير لها.

١١ ـ منهج شيخ الإسلام ومنهج الإمام ابن القيِّم في دراسة إعجاز

القرآن منهج واحد، والسمات العامة لدراستهما لإعجاز القرآن مشتركة.

هذه أهم النتائج. **وأما أهم التوصيات:**

١ ـ قضية التحدي قضية مهمَّة في علم إعجاز القرآن، ورد فيها نزاع وخلاف في تحديد المتحدى به، واختلفت الآراء في ذلك، وتحتاج تلك الآراء إلى تتبع ودراسة وتحليل، وتعمق لتحديد جذور ذلك الاختلاف.

٢ ـ كتب الإمام ابن القيِّم مكان خصب للدراسات اللغوية، فله تحقيقات نادرة، وآراء جليلة، تستحق الدراسة والتتبع.

هذا أهم ما توصلت إليه، وإن كان هناك من المسائل الجزئية التي وردت في البحث لها أهمية كبرى، لكن ما ورد فيه إشارة إلى أهم النتائج، والله الموفق أسأله أن يسدد الخطى، وأن يجعل هذا البحث خالصًا لوجهه الكريم، كما أسأله أن يعظم به الأجر والمثوبة، والحمد لله ربِّ العالمين وصلَّى الله على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

الفَهَارِسُ

وتشتمل على:

فهرس المصادر والمراجع.

فهرس الموضوعات.

فِهْرِسُ المَصَادِرِ وَالمَرَاجِع

- ابن القيِّم الداعية المصلح والعالم الموسوعي، صالح أحمد الشامي، الناشر: دار القلم، دمشق، ط: الأولى، ١٤٢٩هـ.
- ابن القيِّم وحسه البلاغي في تفسير القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، الناشر: دار الرائد العربي، ط: الأولى، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- ابن القيِّم وموقفه من التفكير الإسلامي، د. عوض الله جاد حجازي، الناشر: مجمع البحوث الإسلامية ١٣٩٢هـ.
- ابن قيِّم الجوزية، جهوده في الدرس اللغوي، د. طاهر سليمان حمودة، الناشر: دار الجامعات المصرية.
- ابن قيِّم الجوزية حياته، آثاره، موارده، بكر عبد الله أبو زيد، الناشر: دار العاصمة، الرياض، ط: الثانية، ١٤٢٣هـ.
- اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر الهجري، د. فهد بن عبد الرحمٰن الرومي، الناشر: إدارة البحوث العلمية والإفتاء المملكة العربية السعودية، ط: الأولى، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.
- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق: مركز الدراسات القرآنية، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ١٤٢٦هـ.
- إثبات نبوة محمد ﷺ، لابن المزين، تحقيق: أحمد آيت، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.
- اجتماع الجيوش الإسلامية، لابن القيِّم، تحقيق: زائد بن أحمد النشيري، الناشر: دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط: الأولى، ١٤٣١هـ.
- إحياء علوم الدين، للإمام الغزالي، تحقيق: بدوي طبانه، الناشر: كرياطة فوترا.

- **الأدب العربي الحديث**، د. محمد صالح الشنطي، الناشر: دار الأندلس، حائل، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
- **استخراج الجدل من القرآن الكريم**، ابن الحنبلي، تحقيق: محمد صبحي حلاق، الناشر: مؤسسة الريان، بيروت، ط: الأولى، ١٤١٣هـ.
- **الاستذكار**، لابن عبد البر، تحقيق: د. عبد المعطي أمين قلعجي، الناشر: دار قتيبة للطباعة والنشر، بيروت، ط: الأولى، ١٤٣١هـ - ١٩٩٣م.
- **أسرار البلاغة**، لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود شاكر، الناشر: شركة القدس، ط: الأولى، ١٤١٢هـ.
- **أسلوب القرآن بين الهداية والإعجاز**، د. عمر باحاذق، الناشر: دار المأمون للتراث ط: الأولى، ١٤١٤هـ.
- **أسلوب القسم الظاهر في القرآن: بلاغته، أغراضه**، د. سامي عطا حسن، جامعة آل البيت، المفرق، المملكة الأردنية الهاشمية.
- **أسواق العرب في الجاهلية والإسلام**، سعيد الأفغاني، الناشر: دار العروبة، الكويت، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
- **أصول الجدل والمناظرة في الكتاب والسُّنَّة**، د. حمد بن إبراهيم العثمان، الناشر: مكتبة ابن القيِّم، الكويت، ط: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
- **أضواء البيان**، محمد الأمين الشنقيطي، أشرف على التحقيق: د. بكر أبو زيد، الناشر: دار عالم الفوائد ط: الأولى، ١٤٢٦هـ.
- **الإعجاز البلاغي**، د. محمد بن محمد أبو موسى، الناشر: مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
- **الإعجاز البياني للقرآن**، د. عائشة بنت الشاطبي، الناشر: دار المعارف، ط: الثالثة.
- **إعجاز القرآن الكريم عند شيخ الإسلام ابن تيمية**، د. محمد العواجي، الناشر: دار المنهاج، ط: الثانية، ١٤٣١هـ.
- **إعجاز القرآن**، للباقلاني، تحقيق: السيد أحمد صقر، الناشر: دار المعرف، ط: الخامسة.

- **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، لمصطفى صادق الرافعي، الناشر: دار الكتب العلمية، ط: التاسعة، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.
- **الإعجاز القصصي**، د. سعيد عطية، الناشر: دار الآفاق العربية، ط: الأولى، ٢٠٠٦م.
- **إعلام الموقعين**، لابن القيِّم، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: دار ابن الجوزي، ط: الأولى، ١٤٢٣هـ.
- **أعلام النبوة**، أبي الحسن علي بن محمد الماوردي الشافعي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- **الأعلام**، خير الدين بن محمود الزركلي الدمشقي، الناشر: دار العلم للملايين، ط: الخامسة عشر، ٢٠٠٢م.
- **إغاثة اللهفان**، ابن القيِّم، تحقيق: علي بن حسن بن عبد الحميد الأثري، الناشر: دار ابن الجوزي، ط: الأولى، ١٤٣٠هـ.
- **الأغاني**، لأبي فرج الأصفهاني، تحقيق: د. إحسان عباس، د. إبراهيم السعافين، الأستاذ بكر عباس، الناشر: دار صادر، ط: الثالثة، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
- **أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع**، عبد الرحمٰن حسن حبنكه الميداني، الناشر: دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، ط: الثانية، ١٩٩٢م.
- **إمعان في أقسام القرآن**، المعلم عبد الحميد الفراهي، الناشر: دار المصنفين، القاهرة، ١٩٤٩م.
- **إنباه الرواة على أنباه النحاة**، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي، ط: المكتبة، العنصرية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.
- **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، البيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمٰن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الأولى.
- **أوضح المسالك**، لابن هشام، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت، ط: ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
- **البحر المحيط في التفسير**، لأبو حيان محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ.

- **البداية والنهاية**، أبو الفداء إسماعيل ابن كثير، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: دار هجر، ط: الأولى، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.
- **بدائع الفوائد**، لابن القيِّم، تحقيق: سيد عمران عامر صلاح، الناشر: دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.
- **بدائع الفوائد**، لابن القيِّم، تحقيق: علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد، ط: الأولى، ١٤٢٩هـ.
- **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**، للشوكاني، الناشر: دار المعرفة، بيروت.
- **البرهان في علوم القرآن**، الزركشي، تحقيق: محمد متولي منصور، الناشر: مكتبة دار التراث، القاهرة، ط: الأولى، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م.
- **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، لجلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا.
- **البلاغة العربية**، عبد الرحمٰن حسن حبنكة الميداني، الناشر: دار القلم، دمشق، ط: الثالثة، ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م.
- **البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية**، د. محمد أبو موسى، الناشر: مكتبة وهبة، ط: الثانية، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.
- **البلاغة بين التاريخ والفن**، لمصطفى الصاوي الحويني، ط: غ.
- **بيان إعجاز القرآن**، حمد بن محمد الخطابي، تحقيق: محمد خلف الله أحمد، د. محمد زغلول سلام، الناشر: دار المعارف، ط: الرابعة.
- **تاج العروس من جواهر القاموس**، لمحمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق، الزَّبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، ط: دار الهداية.
- **تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم**، المفضل بن محمد بن مسعر التنوخي المعري، تحقيق: الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو، الناشر: دار هجر، القاهرة، ط: الثانية، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.
- **تاريخ جرجان**، لحمزة بن يوسف السهمي الجرجاني، تحقيق بإشراف: محمد عبد المعيد خان، الناشر: عالم الكتب، بيروت، ط: الرابعة، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

- **تأويل مشكل القرآن**، لابن قتيبة، تحقيق: السيد أحمد صقر، الناشر: مكتبة دار التراث، القاهرة، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.
- **التبيان في أيمان القرآن**، ابن القيِّم، تحقيق: عبد الله بن سالم البطاطي، الناشر: دار عالم الفوائد ط: الأولى، ١٤٢٩هـ ـ مكة المكرمة.
- **التبيان في ضوء أساليب القرآن الكريم**، عبد الفتاح لاشين، الناشر: دار الفكر العربي، القاهرة.
- **تحفة المودود بأحكام المولود**، ابن القيِّم، تحقيق: عثمان بن جمعة ضميرية، الناشر: دار عالم الفوائد، ط: الأولى، ١٤٣١هـ.
- **تحقيق مقدمة تفسير ابن النقيب**، زكريا سعيد علي، الناشر: مكتبة الخانجي، ط: الأولى، ١٩٩٥م.
- **تذكرة الحفاظ**، شمس الدين محمد بن أحمد الذهب، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.
- **التربية القرآنية في سورة النور**، (أطروحة ماجستير في جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م)، لأنور أحمد داوود اعمير.
- **التصوير الفني في القرآن**، سيد قطب، الناشر: دار الشروق، القاهرة، ط: السادسة عشر، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.
- **التعريفات**، علي بن محمد الجرجاني، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.
- **تفسير ابن أبي حاتم**، تحقيق: أسعد محمد الطيب، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز، الرياض، ط: الأولى، ١٤١٧هـ.
- **تفسير أبو السعود (إرشاد العقل السليم)**، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، الناشر: مكتبة الرياض الحديثة، ط: غ.
- **التفسير البياني للقرآن الكريم**، د. عائشة بنت الشاطبي، الناشر: دار المعارف، ط: الثامنة.
- **تفسير الراغب الأصفهاني ومقدمته**، للإمام: الراغب الأصفهاني، تحقيق: د. محمد عبد العزيز بسيوني الناشر: كلية الآداب، جامعة طنطا، ط: الأولى، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

- **تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)**، محمد بن جرير الطبري، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: دار هجر، ط: الأولى، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.
- **تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير**، تحقيق: أ. د. حكمت بن بشير بن ياسين، الناشر: دار ابن الجوزي، الدمام، ط: الأولى، ١٤٣١هـ.
- **تفسير المنار**، محمد رشيد رضا، الناشر: مكتبة المنار، ط: الأولى.
- **تفسير جزء عم**، لمحمد بن صالح بن محمد العثيمين، تحقيق: فهد بن ناصر السليمان، الناشر: دار الثريا للنشر والتوزيع، الرياض، ط: الثانية، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.
- **التفسير والمفسرون**، د. مصطفى محمد حسين الذهبي، الناشر: دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.
- **تهذيب التهذيب**، لأحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، الناشر: مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، ط: الأولى، ١٣٢٦هـ.
- **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، ليوسف بن عبد الرحمٰن المزي، تحقيق: د. بشار عواد معروف، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: الأولى، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.
- **تهذيب اللغة**، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، تحقيق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الأولى، ٢٠٠١م.
- **تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان**، للعلامة: عبد الرحمٰن السعدي، المحقق: عبد الرحمٰن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، ط: الأولى، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.
- **تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان**، الشيخ: عبد الرحمٰن السعدي، تحقيق: عبد الرحمٰن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: الرابعة، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.
- **الثقات**، لابن حبان، تحقيق بإشراف: د. محمد عبد المعيد خان، الناشر: دائرة المعارف العثمانية، الهند، ط: الأولى، ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.

- **الجامع الكبير**، للإمام أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق: د. بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط: الأولى، ١٩٩٦م.
- **الجامع لأحكام القرآن**، القرطبي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٧هـ.
- **الجانب الفني في قصص القرآن الكريم**، د. عمر محمد باحاذق، الناشر: دار المأمون، دمشق، ط: الأولى، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.
- **جلاء الأفهام**، لابن القيِّم، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سليمان، الناشر: دار ابن الجوزي، ط: الأولى، ١٤٢٩هـ.
- **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: علي بن حسن، عبد العزيز بن إبراهيم، حمدان بن محمد، الناشر: دار العاصمة، الرياض، ط: الثانية، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٩٩م.
- **الجواهر الحسان**، للثعالبي، تحقيق: علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الجواد، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الأولى، ١٤١٨هـ.
- **جواهر القرآن**، أبو حامد الغزالي، الناشر: مطبعة كردستان، مصر، ١٣٢٩هـ.
- **حجج النبوة (ضمن رسائل الجاحظ)**، للجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، الناشر: دار الجيل، بيروت، ط: الأولى، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.
- **الحدود والتعزيزات عند ابن القيِّم**، تحقيق: بكر أبو زيد، الناشر: دار العاصمة، الرياض، ط: الثانية، ١٤١٥هـ.
- **الحيوان**، لأبي عثمان بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مطبعة ومكتبة مصطفى الحلبي، مصر، ط: الثانية، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٥م.
- **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**، لعبد القادر بن عمر البغدادي، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: الرابعة، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.
- **الخصائص**، لأبي الفتح عثمان بن جني، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: الرابعة.
- **الداء والدواء**، لابن القيِّم، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي، الناشر: دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط: الأولى، ١٤٢٩هـ.

- **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**، لشهاب الدين أحمد بن يوسف السمين الحلبي، تحقيق: أحمد محمد الخراط، الناشر: دار القلم، دمشق.
- **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، لجلال الدين السيوطي، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، القاهرة، ط: الأولى، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.
- **درء تعارض العقل مع النقل**، لابن تيمية، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، الناشر: إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.
- **دراسات بلاغية**، بسيوني عبد الفتاح فيود، الناشر، مؤسسة المختار، القاهرة، ط: الثانية، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٦م.
- **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، لأحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد عبد المعيد خان، الناشر: دائرة المعارف العثمانية، الهند، ط: الثانية، ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م.
- **دلائل الإعجاز**، لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: الخامسة، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م.
- **ديوان المتنبي**، الناشر: دار بيروت، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.
- **ديوان امرئ القيس**، اعتنى به: عبد الرحمٰن المصطاوي، الناشر: دار المعرفة، بيروت، ط: الثانية، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.
- **ديوان حسان بن ثابت**، شرح: عبد علي مهنا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الثانية، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.
- **ديوان ذي الرمة**، تحقيق: عبد الرحمٰن المصطاوي، الناشر: دار المعرفة، ط: الأولى، ١٤٢٧هـ.
- **ديوان طرفة بن العبد**، تحقيق: مهدي محمد ناصر الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، ط: الثالثة، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.
- **ذيل طبقات الحنابلة**، لعبد الرحمٰن بن أحمد بن رجب الحنبلي، تحقيق: د عبد الرحمٰن بن سليمان العثيمين، الناشر: العبيكان، الرياض، ط: الأولى، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٥م.

- **الرحيق المختوم**، صفي الرحمٰن المباركفوري، الناشر: دار الفيحاء، دمشق.
- **الرد على المنطقيين**، لشيخ الإسلام ابن تيمية، الناشر: دار ترجمان السُّنَّة، ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.
- **الرسالة التبوكية**، لابن القيِّم الجوزية، تحقيق: أبو أسامة سليم بن عيد الهلالي السلفي، الناشر: دار ابن حزم، بيروت، ط: الثانية، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
- **روح الدين الإسلامي**، لعفيف طبارة، الناشر: دار العلم للملايين، بيروت، ط: الثامنة والعشرون.
- **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، لشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى، ١٤١٥هـ.
- **روضة المحبين ونزهة المشتاقين**، لابن القيِّم، تحقيق: محمد عزير شمس، الناشر: دار عالم الفوائد، ط: الأولى، ١٤٣١هـ.
- **زاد المسير**، الإمام أبي الفرج جمال الدين عبد الرحمٰن الجوزي القرشي البغدادي، الناشر: المكتب الإسلامي.
- **زيادات حقائق التفسير**، لأبي عبد الرحمٰن السلمي، تحقيق: جير هارد يورينغ الناشر: دار المشرق، بيروت، ط: الأولى، ١٩٩٥م.
- **سر الفصاحة**، لابن سنان الخفاجي، الناشر: دار الكتب العلمية، ط: الأولى، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- **سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها**، لمحمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، ط: الأولى، ١٤١٥هـ.
- **سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة**، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: دار المعارف، الرياض، ط: الأولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- **السلوك لمعرفة دول الملوك**، أحمد بن علي بن عبد القادر العبيدي المقريزي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، الدار: دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

- **السنن الكبرى**، للبيهقي، الناشر: دائرة المعارف النظامية، الهند، ط: الأولى، ١٣٤٤هـ.
- **سير أعلام النبلاء**، للذهبي، الناشر: دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
- **السيرة النبوية**، لابن إسحاق، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، الناشر: دار الكتب العلمية، ط: الأولى، ٢٠٠٤م.
- **السيرة النبوية**، لابن هشام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، الناشر: الكتاب العربي ط: الثالثة، ١٤١٠هـ.
- **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، لعبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد، تحقيق: محمود الأرناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط، الناشر: دار ابن كثير، دمشق، ط: الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- **شرح العقيدة الأصفهانية**، لابن تيمية، تحقيق: محمد بن رياض الأحمد، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت، ط: الأولى، ١٤٢٥هـ.
- **شريعة الإسلام صالحة لكل زمان ومكان**، د. يوسف القرضاوي، الناشر: دار الصحوة للنشر والتوزيع، ط: الثانية، ١٩٩٣م.
- **شريعة القرآن من دلائل إعجازه**، محمد أبو زهرة، الناشر: سلسلة الثقافة الإسلامية ١٣٨١هـ - ١٩٦١م.
- **شفاء العليل**، لابن القيِّم، تحقيق: أحمد بن صالح بن علي السمعاني، الناشر: دار الصميعي، الرياض، ط: الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
- **صحيح البخاري**، الناشر: مكتبة دار السلام، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ.
- **صحيح مسلم**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- **صحيح وضعيف سنن الترمذي**، محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسُّنَّة، الإسكندرية.
- **الصواعق المرسلة**، لابن القيِّم، تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله، الناشر: دار العاصمة، الرياض، ط: الثالثة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
- **طبقات الأطباء والحكماء**، لأبي داود سليمان بن حسان، المعروف بابن جلجل، تحقيق: فؤاد سيد، الناشر: مؤسسة الرسالة: ط: الثانية، ١٤٠٥هـ.

- **طريق الهجرتين وباب السعادتين**، لابن القيِّم، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي، الناشر: دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط: الأولى، ١٤٢٩هـ.
- **عون المعبود لشرح سنن أبي داود**، لابن القيِّم، تحقيق: عبد الرحمٰن محمد عثمان، الناشر: المكتبة السلفية، المدينة المنورة، ط: الثانية، ١٣٨٨هـ.
- **غريب القرآن**، لعبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق: أحمد صقر، الناشر: دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.
- **فتح الباري لشرح صحيح البخاري**، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، محمد فؤاد عبد الباقي، محب الدين الخطيب، الناشر: دار المعرفة، بيروت.
- **فتح القدير**، محمد بن علي الشوكاني، الناشر: مكتبة الرشد، الرياض، ط: الثانية، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.
- **الفروسية**، لابن قيِّم الجوزية، تحقيق: مشهور بن حسن بن محمود بن سلمان، الناشر: دار الأندلس، حائل، ط: الأولى، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.
- **الفهرست**، لابن النديم، تحقيق: إبراهيم رمضان الناشر: دار المعرفة، بيروت، ط: الثانية، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.
- **الفوائد**، لابن القيِّم، تحقيق: محمد عزيز شمس، الناشر: دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط: الأولى، ١٤٢٩هـ.
- **القاموس المحيط**، للفيروز آبادي، الناشر: مؤسسة الرسالة، ط: الثامنة، ١٤٢٦هـ.
- **قضية اللفظ والمعنى وأثرها في تدوين البلاغة العربية**، د. علي محمد حسن العماري، الناشر: مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.
- **الكافية الشافية**، لابن القيِّم، تحقيق: عبد الله بن محمد العمير، الناشر: دار بن خزيمة، الرياض، ط: الأولى، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.
- **الكتاب**، لسيبويه، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: الثالثة، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.
- **الكشاف**، للزمخشري، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض الناشر: مكتبة العبيكان ط: الأولى، ١٤١٨هـ.

- **الكشف والبيان**، للثعلبي، تحقيق: أبي محمد بن عاشور، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الأولى، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م.
- **الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**، أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت.
- **لسان العرب**، لابن منظور، الناشر: دار المعارف بمصر، القاهرة.
- **لغة القرآن**، د. عبد الجليل عبد الرحيم، الناشر: مكتبة الرسالة الحديثة، الأردن، ط: الأولى، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.
- **مباحث في علوم القرآن**، مناع القطان، الناشر: مكتبة المعرف، الرياض، ط: الثالثة، ١٤٢١هـ.
- **مجاز القرآن**، لأبي عبيدة معمر بن المثنى، تحقيق: د. محمد فؤاد سزكين، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة.
- **مجلة الدراسات الإسلامية العدد (٥)**، الناشر: الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.
- **مجلة الدراسات القرآنية العدد (٧)**، الناشر: الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م.
- **مجمع الزوائد**، الهيثمي، تحقيق: عبد الله الدرويس، الناشر: دار الفكر، ١٤١٤هـ.
- **مجموع الفتاوى**، لابن تيمية، تحقيق: عبد الرحمٰن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.
- **محاسن التأويل**، القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط: الأولى، ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م.
- **المحرر الوجيز**، لابن عطية، تحقيق: الرحالة الفارق، عبد الله الأنصاري، السيد عبد العالي السيد إبراهيم، محمد الشافعي الصادق، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط: الثانية، ١٤٢٨هـ.

- **مختصر الصواعق المرسلة**، محمد بن الموصلي، تحقيق: د. الحسن بن عبد الرحمٰن المعلوي، الناشر: مكتبة أضواء السلف، الرياض، ط: الأولى، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.
- **مدارج السالكين**، لابن القيِّم، تحقيق: عبد العزيز ناصر الجليل، الناشر: دار طيبة، الرياض، ط: الثالثة، ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م.
- **المدخل الوجيز إلى دراسة الإعجاز في الكتاب العزيز**، د: محمود أحمد غازي، الناشر: دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط: الأولى، ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م.
- **مدخل لإعجاز القرآن**، محمود شاكر، الناشر: مكتبة المدني، مصر، ط: الأولى، ٢٠٠٢م.
- **مراحل خلق الإنسان في آيات القرآن الكريم**، منى رفعت أدعيس عبد الرزاق، أطروحة ماجستير مقدمة لجامعة النجاح الوطنية، فلسطين، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.
- **المزهر في علوم اللغة**، جلال الدين السيوطي، تحقيق: فؤاد علي منصور، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.
- **المستدرك**، للحاكم، تحقيق: مقبل الوادعي، الناشر: دار الحرمين، ط: الأولى، ١٤١٧هـ.
- **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، الناشر: مؤسسة الرسالة، ط: الأولى، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م.
- **مشاهد القيامة في القرآن**، لسيد قطب، الناشر: دار الشروق، ط: الرابعة عشر، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.
- **المصنف**، لعبد الرزاق بن همام اليماني الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمٰن الأعظمي، الناشر: المجلس العلمي، الهند، ط الثانية، ١٤٠٣هـ.
- **معاني القرآن وإعرابه**، لإبراهيم بن السري الزجاج، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط: الأولى، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.
- **معاني القرآن**، للأخفش، تحقيق: هدى محمود قراعة، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.

- **معاني القرآن**، للفراء، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي، محمد علي النجار، عبد الفتاح إسماعيل الشلبي، الناشر: دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، ط: الأولى.
- **معجزات القرآن**، د. شوقي ضيف، الناشر: دار المعارف، ط: الثانية.
- **المعجزة الخالدة**، حسن ضياء الدين عتر، الناشر: دار البشائر، بيروت، ط: الثالثة، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
- **المعجزة القرآنية الإعجاز العلمي والغيبي**، د. محمد حسن هيتو، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: الثالثة، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- **المعجزة الكبرى**، محمد أبو زهرة، الناشر: دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٣٠هـ.
- **معجم الأدباء**، لياقوت بن عبد الله الحموي، تحقيق: إحسان عباس، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط: الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
- **معجم البلدان**، ياقوت بن عبد الله الحموي، الناشر: دار صادر، بيروت، ط: الثانية، ١٩٩٥م.
- **معجم ألفاظ الصوفية**، د. حسن الشرقاوي، الناشر: مؤسسة مختار، القاهرة، ط: الأولى، ١٩٨٧م.
- **المعجم الكبير**، أبو القاسم الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي الناشر: مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط: الثانية.
- **معجم المصطلحات البلاغية وتطوراتها**، للدكتور أحمد مطلوب، الناشر: المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٣هـ.
- **معجم مقاييس اللغة**، لأحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، الناشر: دار الفكر.
- **المغني في أبواب التوحيد والعدل**، القاضي عبد الجبار، تحقيق: أمين الخولي.
- **مفاتيح الغيب**، الرازي، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ.
- **مفتاح العلوم**، أبو يعقوب يوسف بن محمد بن علي السكاكي، تحقيق: د عبد الحميد هنداوي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

- مفتاح دار السعادة، ومنشور ولاية أهل العلم والإدارة، ابن القيِّم، تحقيق: علي بن حسين الأثري، الناشر: دار ابن القيِّم، ط: الثانية، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
- مفردات القرآن، عبد الحميد بن عبد الكريم الفراهي، تحقيق: محمد أجمل أيوب الإصلاحي، الناشر: دار الغرب الإسلامي، ط: الأولى، ٢٠٠٢م.
- مقاصد الشريعة، للطاهر ابن عاشور، تحقيق: محمد الطاهر الميساوي، الناشر: دار النفائس، الأردن، ط: الثانية، ١٤٢١هـ.
- مقدمة التفسير، لابن تيمية، شرح: الشيخ محمد بن صالح العثيمين، الناشر: مدار الوطن للنشر، الرياض، ط: ١٤٢٦هـ.
- مقدمة وتفسير الراغب الأصفهاني، لأبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، تحقيق: د. محمد عبد العزيز بسيوني، الناشر: كلية الآداب، جامعة طنطا، ط: الأولى، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- من أسرار التعبير القرآني (صفاء الكلمة)، لعبد الفتاح لاشين، الناشر: دار المريخ الرياض، ط: ١٤٠٣هـ.
- مناهج الجدل في القرآن الكريم، د. زاهر عواض الألمعي، الناشر: مطابع الفرزدق.
- مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، الناشر: دار الفكر، ط: غ.
- منع جواز المجاز، للعلامة: محمد الأمين الشنقيطي، تحقيق: أبو حفص سامي بن العربي، الناشر: مكتبة السُّنَّة، ط: الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
- منهج ابن القيِّم في التفسير، لمحمد أحمد السنباطي، الناشر: مجمع البحوث الإسلامية، ط: ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.
- المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري، تحقيق: دكتور محمد محمد أمين، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- الموافقات، للشاطبي، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: دار ابن القيِّم، الرياض، ط: الثالثة، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

- **الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء**، أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني، الناشر: جمعية نشر الكتب العربية بالقاهرة، ١٣٤٣هـ.
- **الموطأ**، للإمام مالك، تحقيق: بشار عواد معروف، محمود خليل، الناشر: مؤسسة الرسالة، ١٤١٢هـ.
- **ميزان الاعتدال في نقد الرجال**، لشمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: علي محمد البجاوي، الناشر: دار المعرفة، بيروت، ط: الأولى، ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٣م.
- **النبأ العظيم**، د. محمد بن عبد الله دراز، الناشر: دار طيبة، الرياض، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م ط: الثانية.
- **النبوات**، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبد العزيز بن صالح الطويان، الناشر: أضواء السلف، الرياض، ط: الأولى، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.
- **نتائج الفكر في النَّحو**، للسُّهَيلي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.
- **نظم الدرر**، البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، ط: غ.
- **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، لشهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر، بيروت، ١٩٩٧م.
- **نقض المنطق**، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: الشيخ سليمان بن عبد الرحمٰن الصنيع، الشيخ محمد بن عبد الرزاق، الناشر: مكتبة السُّنَّة المحمدية، القاهرة، ط: الأولى، ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥١م.
- **النكت في إعجاز القرآن**، علي بن عيسى الرماني، تحقيق: محمد خلف الله أحمد، د. محمد زغلول سلام، الناشر: دار المعارف، ط: الرابعة.
- **هداية الحيارى**، لابن القيِّم، تحقيق: عثمان جمعة ضميرية، الناشر: دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط: الأولى، ١٤٢٩هـ.
- **الوابل الصيب من الكلم الطيب**، لابن قيِّم الجوزية، تحقيق: سليم عبيد الهلالي الأثري، الناشر: مكتبة الفرقان، ط: الثانية، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م.

- الوافي بالوفيات، لخليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، الناشر: دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أحمد بن محمد ابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر، بيروت، ١٩٩٤م.

فِهْرِسُ المَوْضُوعَات

الموضوع	الصفحة
* **المقدمة**	٥
أهمية الموضوع وأسباب اختياره	٩
الدراسات السابقة حول جهود ابن القيم في علوم القرآن	١١
خطة البحث	١٣
منهج البحث	١٩
التمهيد	٢٣
المبحث الأول: نبذة عن إعجاز القرآن الكريم	٢٤
المطلب الأول: تعريف المعجزة لغة واصطلاحًا	٢٤
المطلب الثاني: دلائل صدق المعجزة	٢٥
المطلب الثالث: معجزات الأنبياء السابقين والفرق بينها وبين معجزة القرآن	٢٦
المطلب الرابع: نظرة العرب للقرآن من خلال إعجازه	٣٠
المطلب الخامس: تعريف إعجاز القرآن ونشأته ومراحل تطوره وأشهر المؤلفات فيه	٣١
المبحث الثاني: نبذة عن حياة ابن القيم وجهوده العلمية	٣٨
المطلب الأول: اسمه، وشهرته، ونسبه، ومولده، ووفاته	٣٨
المطلب الثاني: أسرته وحياته الاجتماعية	٤٠
المطلب الثالث: نشأته العلمية ورحلاته وشيوخه وتلاميذه وثناء العلماء عليه	٤٢

الموضوع **الصفحة**

المطلب الرابع: عقيدته ومذهبه الفقهي ٥٤

المطلب الخامس: مؤلفاته ومكانته العلمية ٥٦

الكتب التي تم جردها واستخراج مادة البحث منها ٦٢

الباب الأول

مصادر الإعجاز عند ابن القيم ومنهجه في الاستدلال عليه

الفصل الأول: **مصادره في إعجاز القرآن** ٦٧

المبحث الأول: **مصادر ابن القيم في إعجاز القرآن من النصوص الشرعية** ٦٨

المبحث الثاني: **مصادر ابن القيم في إعجاز القرآن من اللغة العربية** ٨٢

الفصل الثاني: **منهجه في الاستدلال على إعجاز القرآن الكريم** ٩١

المبحث الأول: **نظر ابن القيم في القرائن والأحوال** ٩٢

المبحث الثاني: **نظر ابن القيم في الأحكام والحكم** ٩٦

المبحث الثالث: **تحليل ابن القيم النص لغويًا** ٩٨

المبحث الرابع: **دراسة ابن القيم لأساليب القرآن** ١٠٢

الباب الثاني

أوجه الإعجاز عند ابن القيم

الفصل الأول: **شمولية القرآن وهيمنته** ١٠٧

المبحث الأول: **القرآن آية صدق النبي ﷺ** ١٠٨

المطلب الأول: الاستدلال بحاله ﷺ على صدق ما جاء به ١٠٨

المطلب الثاني: اشتمال القرآن الكريم على أنواع العلوم وأمهات المطالب العالية ١٢٠

المطلب الثالث: بشارة الأنبياء السابقين بنبوته ﷺ ١٢٦

المبحث الثاني: **التحدي بالقرآن** ١٣٣

المبحث الثالث: **تأثير القرآن في النفوس** ١٥٠

الموضوع	الصفحة

المبحث الرابع: جمع القرآن لعلوم الكتب السابقة ١٥٧
الفصل الثاني: أوجه الإعجاز العامة التي تكلم فيها ابن القيم ١٦٣
المبحث الأول: الإعجاز التشريعي عند ابن القيم ١٦٤
المطلب الأول: شريعة القرآن آية على صدق نبوة محمد ﷺ ١٦٤
المطلب الثاني: أسرار الشريعة وسمو مقاصدها ١٧٣
المبحث الثاني: الإعجاز الخبري عند ابن القيم ١٨٧
المبحث الثالث: الإعجاز العلمي والكوني عند ابن القيم ١٩٤
تمهيد ١٩٤
المطلب الأول: أطوار خلق الإنسان في القرآن الكريم ٢٠٠
المطلب الثاني: أسرار الفلك وما خلق الله في الأرض والشواهد عليه من القرآن ٢٠٨
المطلب الثالث: منهج ابن القيم في الإعجاز العلمي ٢١٥
المبحث الرابع: الإعجاز العقلي عند ابن القيم ٢٢٤
المبحث الخامس: الإعجاز اللغوي عند ابن القيم ٢٣٩
الفصل الثالث: الإعجاز البلاغي عند ابن القيم ٢٥٧
المبحث الأول: الإعجاز في المعاني عند ابن القيم ٢٥٨
المطلب الأول: النظر في المفردات ٢٥٨
أولًا: الإفراد والتثنية والجمع ٢٥٨
ثانيًا: حروف الجر ٢٦٢
ثالثًا: الروابط بين الجمل ٢٦٧
رابعًا: التعريف والتنكير ٢٧١
المطلب الثاني: البحث في نظم الجملة ٢٨١
أولًا: التقديم والتأخير ٢٨١

الموضوع | الصفحة

ثانيًا: الاستفهام ٢٩٦
ثالثًا: التعجب ٢٩٨
رابعًا: الحذف ٢٩٩
المطلب الثالث: البحث في الجمل ٣٠١
أولًا: الإيجاز ٣٠١
ثانيًا: الإطناب ٣٠٣
ثالثًا: حسن ترتيب الجمل ٣٠٦
رابعًا: الوحدة الموضوعية في السور القرآنية ٣٠٧
المبحث الثاني: الإعجاز في البيان عند ابن القيم ٣١١
المطلب الأول: التشبيه ٣١١
المطلب الثاني: رأي ابن القيم في المجاز ٣١٥
المبحث الثالث: الإعجاز في البديع عند ابن القيم ٣١٨
المطلب الأول: بلاغة المقابلة والطباق في القرآن الكريم ٣١٨
المطلب الثاني: الاستطراد ٣٢٠
المطلب الثالث: الازدواج ٣٢٢
الفصل الرابع: الإعجاز اللفظي عند ابن القيم ٣٢٧
المبحث الأول: فصاحة الألفاظ وأثرها في الإعجاز عند ابن القيم ٣٢٨
المبحث الثاني: جزالة الألفاظ وعذوبتها وأثرها في الإعجاز عند ابن القيم ٣٣٢
المبحث الثالث: ائتلاف الألفاظ مع المعاني وأثرها في الإعجاز عن ابن القيم ٣٣٥
الفصل الخامس: الإعجاز الأسلوبي ٣٤١
المبحث الأول: الإعجاز في أسلوب الأمثال في القرآن عند ابن القيم ٣٤٢

الموضوع	الصفحة
المطلب الأول: فائدة ضرب الأمثال	٣٤٢
المطلب الثاني: طريقة ابن القيم في دراسة أسرار المثل القرآني	٣٤٨
المطلب الثالث: دقة الألفاظ في المثل القرآني	٣٥٨
المبحث الثاني: الإعجاز في أسلوب القسم في القرآن عند ابن القيم	٣٦٦
المطلب الأول: الغرض من القسم	٣٦٦
المطلب الثاني: التناسب بين المقسم به والمقسم عليه	٣٨١
المطلب الثالث: بلاغة حذف جواب القسم	٣٨٩
المطلب الرابع: القسم بعد الحروف المقطعة	٣٩٣
المبحث الثالث: الإعجاز في قصص القرآن عند ابن القيم	٣٩٦
المطلب الأول: أهداف القصص القرآنية	٣٩٦
المطلب الثاني: أسرار التعبير في القصص القرآنية	٤١٠
المبحث الرابع: الإعجاز في أسلوب الجدل في القرآن عند ابن القيم	٤٢٢
المطلب الأول: اشتمال القرآن الكريم على أحسن الجدل	٤٢٢
المطلب الثاني: أسرار المناظرة في القرآن الكريم	٤٣١
المبحث الخامس: الإعجاز في أسلوب الترغيب والترهيب في القرآن عند ابن القيم	٤٣٩
المطلب الأول: الترغيب في الجنة والترهيب من النار	٤٣٩
المطلب الثاني: الترغيب في الأعمال الصالحة والترهيب من الأعمال السيئة	٤٤٨
الباب الثالث	
ابن القيم بين التأثر والتأثير وموقفه من المخالفين في إعجاز القرآن الكريم	
الفصل الأول: تأثر ابن القيم بمسائل الإعجاز عند العلماء السابقين	٤٦٣
المبحث الأول: تأثر ابن القيم في مسائل الإعجاز بالمفسرين	٤٦٤

الموضوع | الصفحة

المبحث الثاني: تأثر ابن القيم في مسائل الإعجاز بأهل اللغة ٤٧٢
الفصل الثاني: تأثير ابن القيم في مسائل الإعجاز على العلماء بعده ٤٧٩
المبحث الأول: تأثير ابن القيم في المؤلفين التفسير ٤٨٠
المبحث الثاني: تأثير ابن القيم في المؤلفين في علوم اللغة ٤٨٨
المبحث الثالث: تأثير ابن القيم على المؤلفين في علوم القرآن ٤٩٢
الفصل الثالث: رد ابن القيم على المخالفين في الإعجاز ٤٩٥
المبحث الأول: رد الإمام ابن القيم على المتكلمين المخالفين في مسائل الإعجاز ٤٩٦
المبحث الثاني: رد ابن القيِّم على القائلين بالصرفة وجهًا للإعجاز ٥٠١
المبحث الثالث: رد ابن القيِّم على أهل اللغة المخالفين في الإعجاز ٥٠٣
*** الخاتمة** ٥٠٧
*** الفهارس العلمية** ٥١١
فهرس المصادر والمراجع ٥١٣
فهرس الموضوعات ٥٣١